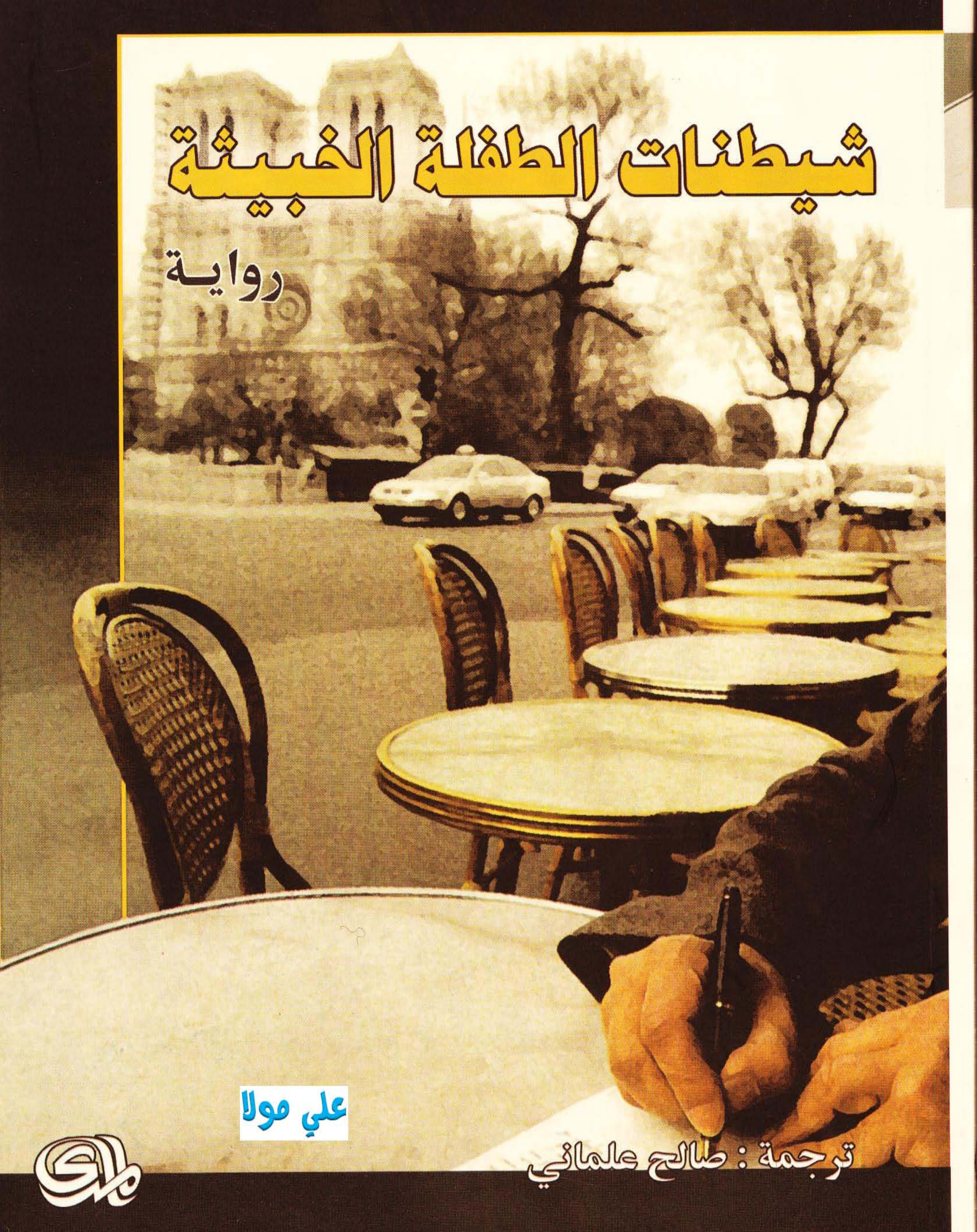
ماريو بارغاس يوسا



شيطنات الطفلة الخبيثة



Author : Mario Vargas Llosa	اسم المؤلف :ماريو بارغاس يوسا
Title : Travesuras de la niña mala	عنوان الكتاب :شيطنات الطفلة الخبيثة
Translator : Saleh Almani	ترجمة :صالح علماني
Al- Mada : P.C.	الناشر :المدى
First Edition : 2007	الطبعة الأولى :٢٠٠٧
Second Edition : 2009	الطبعة الثانية :٢٠٠٩
Copyright © Al- Mada	الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

E-mail:almada112@yahoo.com

ماريو بارغاس يوسا

شيطنات الطفلة الخبيثة

رواية

ترجمة صالح علماني



I. التشيليتان الصغيرتان

كان صيفاً خرافياً. جاء بيريث برادو مع فرقته الموسيقية المؤلفة من اثني عشر معلم عزف لتنشيط حفلات الرقص في كرنفالات نادي تراثاس في ميرافلوريس ونادي لاون تنس دي ليما، وجرى تنظيم بطولة وطنية في رقصة المامبو في ساحة آتشو، وقد كانت نجاحاً عظيماً على الرغم من تهديدات الكردينال خوان غوالبيرتو غيفارا، مطران ليما، بالحرمان الكنسي لكل ثنائي يشارك في الرقص. وتنافست حارتنا «الباريو أليغري» المؤلفة من شوارع دييغو فيري، خوان فانينغ، وكولون، على أولمبيادات في لعبة الفولبيتو، وسباق الدراجات، وألعاب القوى، والسباحة مع حي شارع سان مارتين، وقد فزنا عليهم بالطبع.

في صيف العام 1950 ذاك، حدثت أشياء استثنائية. فقد تودد كوخينوبا لايناس، لأول مرة، إلى فتاة ـ هي سيميناويل ذات الشعر الأحمر ـ، واستجابت له الفتاة أمام مفاجأة منطقة ميرافلوريس بأسرها. نسي كوخينوبا عرجه، وصار يمشي في الشوارع، منذ ذلك الحين، دافعاً صدره إلى الأمام مثل تشارلز أطلس. وقطع تيكو تيرافانتي علاقته بإيلسي وتودد إلى لاوريتا، وغازل فيكتور أوخيدا إيلسي وقطع مع باغي، وتودد خوان باريتو إلى إنغي وقطع مع إيلسي. حدثت إعادة توزع عاطفي واسعة النطاق في الحي جعلتنا نصاب بالذهول؛ فالغراميات تنحل وتنعقد، ولا تكون ثنائيات المحبين لدى الخروج من حفلات أيام السبت، هي نفسها التي دخلت إليها. «يا للتهتك!»، هكذا كانت تستنكر عمتي ألبيرتا التي كنتُ أعيش معها منذ وفاة أبويّ.

أمـواج حمامـات شـاطئ ميرافلـوريس تتكسـر مـرتين هنـاك فـي البعيد، المرة الأولى على مسافة مئتي متر عن الشاطئ، وإلى هناك كنا نذهب نحن الشجعان لنمتطيها على صدورنا نـزولاً، ونتركها تسحبنا حوالي مئة متر، إلى حيث تموت الأمواج؛ ولكنها تموت من أجل أن تعيد بناء نفسها في ارتجاجات رشيقة، وتنطلق من جديد في اندفاع ثانٍ ينزلق بنا على أحزمة الأمواج حتى أحجار الشاطئ الصغيرة.

فـي ذلك الصيف الاستثنائي، تخلى الجميع في احتفالات ميرافلوريس عن رقصات الفالس، والكوريدو، والبلو، والبوليرو، والهواراتشا، لأن رقصة المامبو أطاحت بكل ما عداها. المامبو، زلزالٌ بعثَ الحركة، والقفز، والنط، وإيماءات الوجه، في كل أزواج الأطفال، والمراهقين، والبالغين، في احتفالات الحي. ولا بد أن الشيء نفسه كان يحدث خارج منطقة ميرافلوريس، في ما وراء العالم والحياة، في لينثي، وبرينيا، وتشوريّوس، أو حتى في أحياء منطقة لافكتوريا الأكثر إكزوتيكية، ومركز ليما، في الريماك والبوربينير، تلك الأحياء التي لم نطأها قط نحن أبناء ميرافلوريس، ولا نفكر في أن نطأها أبداً.

ومثلما انتقلنا من الفالس والهواراتشا، من السامبا والبولكا إلى المامبو، تحولنا كذلك من زلاجات القدمين والزحافات إلى الدراجات الهوائية، وحتى الدراجات النارية كما هي حال البعض، مثل تاتو مونخي وتني إسبيخو، بل إن واحداً أو اثنين تحولا إلى السيارة، مثل كبير صبيان الحي، لوتشين، الذي كان يسرق أحياناً شفروليه أبيه المكشوفة، ويأخذنا في جولة على الكورنيش، من تراثاس حتى وهدة أرمينداريث، بسرعة مئة في الساعة.

لكن الحدث الأبرز في ذلك الصيف كان الوصول المفاجئ لشقيقتين آتيتين من تشيلي، موطنهما النائي، إلى ميرافلوريس؛ فكان

حضورهما الملفت وطريقتهما المتميزة في الكلام، بسرعة، وأكل أواخر الكلمات، وإنهاء الجملة بزفرة عالية ترن مثل «بوي»، يضعنا على «لفة ونصف»، نحن جميع أبناء ميرافلوريس الذين تحولنا للتو من ارتداء البنطال القصير إلى البنطال الطويل. ولي أنا أكثر من الآخرين.

كانت الصغرى تبدو هي الكبرى، والعكس بالعكس. وكان اسم الكبرى لِيلِي، وهي أقصر قامة بقليل من أختها لوكي وتكبرها بسنة. فعمر لِيلِي أربع عشرة أو خمس عشرة سنة على أكثر تقدير، وعمر لوكي ثلاث عشرة أو أربع عشرة. ويبدو أن النعت «جذابة» قد اختُرع من أجلهما؛ لكن لوكي التي لا يمكن القول إنها ليست جذابة، لم تكن بمثل جاذبية أختها، ليس فقط لأن شعرها كان أقل شقرة، وأقصر طولاً، وملابسها أكثر تحفظاً من لِيلِي، وإنما لأنها كانت أكثر صمتاً، وعند الرقص، بالرغم من أنها كانت تتلوى وتحرك وجهها أيضاً، وتحني خصرها بجسارة لا تجرؤ عليها أي واحدة من بنات ميرافلوريس، إلا أنها كانت تبدو فتاة رصينة، مكبوحة، وشبه تافهة بالمقارنة مع تلك الدوامة، تلك الشعلة في الريح، تلك النار الكاذبة التي هي لِيلِي عندما توضع الأسطوانات في البيك -آب، وينفجر المامبو ونبدأ الرقص.

كانت لِيلِي ترقص بإيقاع لذيذ وبكثير من الرشاقة، مبتسمة ومترنمة بكلمات الأغنية، رافعة ذراعيها، عارضة ركبتيها، ومحركة خصرها وكتفيها بطريقة تجعل كل جسدها المقولب في التنانير والبلوزات التي ترتديها بكثير من الخبث وكثير من التكورات، يبدو متشنجاً، متوتراً ومشاركاً في الرقص من قمة الشعر حتى القدمين. من يرقص المامبو معها يكون مغبوناً على الدوام، إذ كيف يمكن له أن يجاري، دون ارتباك، التوربين الشيطاني لتلك السيقان والأرجل المتقافزة؟ مستحيل! من يراقصها يظل متخلفاً منذ

البداية ومدركاً تماماً أن عيون جميع الراقصين الآخرين تتركز على مأثرة لِيلِي المامبوية. وكانت عمتي ألبيرتا تقول ساخطة: «يا لهذه الصغيرة! إنها ترقص مثل متبخترة مجنونة، مثل محترفة رومبا في فيلم مكسيكي». ثم ترد بنفسها على نفسها: «حسن، يجب ألا ننسى أنها تشيلية، والفضيلة ليست نقطة القوة في نساء تلك البلاد».

وقعتُ أنا في حب لِيلِي مثل عجل، وهي أشد الطرق رومانسية للوقوع في الحب ـ إنها الطريقة التي يقال عنها أيضاً: الارتعاش بسرعة مئة ـ، وفي ذلك الصيف الذي لا يُنسى، عرضتُ عليها ثلاث مرات أن تكون حبيبتي. المرة الأولى في بلكون سينما ريكاردو بالما، هذه السينما التي كانت تقوم في حديقة ميرافلوريس المركزية، في عرض بعد ظهر يوم الأحد؛ فقالت لي لا، وإنها مازالت صغيرة على أن يكون لها حبيب. والمرة الثانية في حلبة التزلج التي افتُتحت في ذلك الصيف تحديداً عند سفح متنزه سالازار، وقالت لي لا، وإنها بحاجة إلى التفكير في الأمر؛ فمع أنني أروقها قليلاً، إلا أن أبويها طلبا منها عدم الارتباط بحبيب قبل أن تنهي السنة الرابعة المتوسطة، وهي مازالت في السنة الثالثة. والمرة الأخيرة، قبل أيام قليلة من الفضيحة الكبرى، في الكريم ريكا في شارع لاركو، بينما كنا نتناول مثلجات *ميلك شيك* بطعم الفانيلية، وطبعاً، كان الرد مرة أخرى لا، ولماذا سأقول نعم ونحن على ما نحن عليه نبدو كحبيبين. ألا يجعلوننا على الدوام ثنائياً عند مارتا حين نلعب لعبة الحقائق؟ ألا نجلس معاً على شاطئ ميرافلوريس؟ ألا ترقص هي معي أكثر مما ترقص مع أي شخص آخر في الحفلات؟ لماذا إذاً ستقدم لي النعم الرسمية ما دام كل من في ميرافلوريس يعتبروننا حبيبين؟ بمظهرها الذي كهيئة موديل، وعينيها السوداوين الماكرتين، والفم ذي الشفتين الممتلئتين، كانت لِيلِي هي التغنج متحولاً إلى امرأة.

كنت أقول لها: «كل ما فيكِ يعجبني. ولكن أكثر ما يعجبني فيك هي طريقتك في الكلام». كانت ظريفة وأصيلة، بنبرتها وموسيقاها، شديدتي الاختلاف عن البيرويات، وكذلك ببعض التعابير والكلمات والأقوال التي تجعل الحيرة تلفنا نحن أبناء الحي، وكأننا في القمر، محاولين أن نخمن ما الذي تعنيه تلك الكلمات والأقوال، وإذا ما كانت تخفي في طياتها سخرية ما. وكانت لِيلِي تمضي الوقت في قول أشياء مزدوجة المعنى، أو إطلاق الأحاجي، أو رواية نكات غير مهذبة إلى حدٍّ تجعل معه بنات الحي يفغرن أفواههن لتتسع لديك رومي. «هؤلاء التشيليات *رهيبات*»، تُصدر عمتي ألبيرتا حكمها، وهي تخلع نظارتها وتعيد وضعها بمزاج معلمة المدرسة الذي لها، قلقة من أن هاتين الغريبتين ستقوضان أخلاق حي ميرافلوريس.

لم تكن هناك عمارات بعد في ميرافلوريس في أوائل عقد الخمسينيات، كان حي بيوت من طبقة واحدة أو طبقتين على الأكثر، لها حدائق لا يغيب عنها الجيرانيو، وأشجار الليمون، والغار، والجهنمية، والعشب؛ وشرفات تتسلقها أزهار العسل واللبلاب، عليها كراس هزازة، يجلس عليها الجيران بانتظار حلول الليل وهم يثرثرون بالقال والقيل، ويستنشقون أريج الياسمين. وكانت هناك في بعض الحدائق أشجار ثيبو شوكية ذات أزهار حمراء ووردية. وعلى الريكتا، وهي أرصفة نظيفة، توجد شجيرات سوتشي، وجاكاراندا، وأشجار توت. أما لمسة اللون فتضفيها، إلى جانب أزهار الحدائق، العربات الصفراء لباعة مثلجات دونوفريو الذين يرتدون أردية بيضاء وقبعات سوداء، ويجوبون الشوارع نهاراً وليلاً معلنين عن حضورهم ببوق يسبب لي نفيره البطيء مفعول قرن همجي، وذكرى خرافية مما قبل التاريخ. مازال يُسمع تغريد العصافير في حي ميرافلوريس هذا، حيث تقطع الأسر أشجار الصنوبر عندما تصل البنات إلى سن الزواج، لأنهم

إذا لم يفعلوا، فسوف تظل المسكينات عازبات مثل عمتي ألبيرتا.

لم تعطني لِيلِي موافقتها، لكننا في الحقيقة، باستثناء هذا الأمر الشكلي، كنا نبدو في نظر الجميع حبيبين. فقد كنتُ أمسك يدها في عروض بعد الظهر في صالات سينما ريكاردو بالما، وليورو، ومونتي كارلو، وكولينا، ومع أنه لا يمكن القول إننا، في عتمة صالات السينما، كنا ندبر برنامجاً كغيرنا من أزواج المحبين الأقدم عهداً ـ وتدبر برنامج هي الصيغة التي تشمل ابتداء من القبلات البسيطة حتى لحس الألسنة والمداعبات الخبيثة التي لا بد من الاعتراف بها للكاهن في أول يوم جمعة باعتبارها خطايا مميتة ـ، كان ليلي تتركني أقبّلها على خديها، على حافة أذنيها، عند زاوية فمها، وتضم أحياناً شفتيها، لثانية واحدة، إلى شفتي ثم تبعدهما بتكشيرة ميلودرامية: «لا، لا، لا تفعل هذا أيها النحيل». وكان أصدقائي في الحي يسخرون مني: «إنك تتحول إلى عجل أيها النحيل، إنك أزرق، نراك تذوب من شدة العشق أيها النحيل». ولم يكونوا ينادونني باسمي ـ ريكاردو سوموكورثيو ـ، وإنما ينادونني دوماً بلقبي. ولم يكونوا يبالغون أدنى مبالغة في أقوالهم تلك: فقد كنت مغرماً بلِيلِي حتى المئة.

ومن أجلها، تشاجرت في ذلك الصيف مع لوكين، أحد أفضل أصدقائي. ففي أحد تلك اللقاءات التي نجتمع فيها نحن صبيان الحي وبناته عند ناصية تقاطع شارعي كولون ودييغو فيري، في حديقة تشاكالتانا، أراد لوكين أن يتظارف، فقال فجأة إن التشيليتين متصنعتان، لأنهما ليستا شقراوين في الحقيقة وإنما متأكسجنتان، وإن الناس في ميرافلوريس بدؤوا، من وراء ظهري، بتسميتهما الصرصارين. فوجهت لكمة مباشرة إلى ذقنه، فتفاداها، وذهبنا لتسوية الخلاف باللكمات عند ناصية كورنيش ريسيرفا، إلى جانب الوهدة. وظللنا لا نتبادل الكلام طوال أسبوع، إلى أن قام صبيان الحي وبناته بوساطة مصالحتنا في الحفلة التالية.

كان يروق لليلي الذهاب كل مساء إلى زاوية حديقة سالازار الهائجة بأشجار نخيل وفلوريبونديو وجُريس. ومن فوق سورها المبني من آجر أحمر، كنا نتأمل خليج ليما كله مثلما يتأمل البحرَ قبطانُ سفينة من فوق برج القيادة. فإذا كانت السماء صافية ـ وأقسم إن السماء في ذلك الصيف كانت بلا غيوم، وإن الشمس تلألأت فوق ميرافلوريس دون أن تتخلف عنا يوماً واحداً ـ يظهر هناك في البعيد، في أقاصي المحيط، القرص الأحمر، المتوهج، مودعاً بأشعة ولهيب بينما هو يغطس في مياه الهادي. كان وجه ليلي يركز بالحمية نفسها التي تذهب بها للمشاركة في قداس الثانية عشرة في كنيسة الحديقة المركزية، النظر ثابت على تلك الكرة النارية، بانتظار لحظة ابتلاع البحر لآخر شعاع من أجل صياغة الرغبة التي سوف يحققها النجم، أو الرب. وأنا أيضاً كنت أطلب رغبة، مع إيمان مزعزع في أنها ستتحول إلى واقع. وكانت الرغبة هي نفسها بالطبع: أن تقول لي أخيراً نعم، سنكون حبيبين، وسنتدبر برنامجاً، وسيتوطد حبنا، ونتحول إلى خطيبين، ونتزوج وننتهي إلى العيش في باريس، ثريين وسعيدين.

مذ وعيتُ على الدنيا، كنت أحلم بالعيش في باريس. ربما يقع الذنب في ذلك على أبي، بسبب كتب بول فافيل وجول فيرن، وألكسندر دوماس وآخرين كثيرين جعلني أقرؤها قبل أن يقتل نفسه في حادث سير خلّفني يتيماً. تلك الروايات ملأت رأسي بمغامرات وأقنعتني بأن الحياة في فرنسا أكثر غنى، وأكثر بهجة، وأكثر جمالاً، وأكثر كل شيء من أي مكان آخر. ولهذا، فضلاً عن دروس اللغة الإنكليزية في المعهد البيروي ـ الأمريكي، تمكنت من جعل عمتي إلبيرتا تسجلني في الألينس الفرنسي في شارع ويلسون، حيث كنت أذهب ثلاث مرات في الأسبوع لتعلم لغة الفرنسيس. وبالرغم من أنني كنت أحب اللهو مع رفاقي في الحي، إلا أنني كنت محظوظاً، أُحرز نتائج جيدة، ويروقني جداً تعلم اللغات.

عندما كان المصروف يسمح لي، كنت أدعو لِيلي لتناول الشاي ـ لم يكن قد شاع بعد القول تناول *لانش* ـ في محل تينديثيتا بلانكا، بواجهته ذات البياض الثلجي، وموائده، ومظلاته الممتدة فوق الرصيف، وحلوياته التي من مليون صنف ـ حلويات البسكويت، وحلويات العسل، والمحشوة بالقشدة ـ القائم بالضبط عند التقاء جادة لاركو، وجادة أريكيبا، وطريق ريكاردو بالما المظلل بأشجار الفيكو السامقة والوارفة.

الذهاب إلى تينديثيتا بلانكا مع ليلي، لتناول المثلجات وقطعة كيك، كان سعادة يكدرها، على الدوام تقريباً، حضور أختها لوكي التي عليّ أن أتحملها أيضاً في كل خروج لنا. فقد كانت تعزف على كمان دون أدنى ضيق، مفسدة مشروعي وحائلة دون تمكني من التحدث إلى لِيلي على انفراد، ومن أن أقول لها كل الأشياء الجميلة التي أحلم في أن أهمس بها في أذنها. ولكن، حتى عندما يتوجب علينا، بسبب قرب لوكي منا، تجنب بعض الموضوعات في أحاديثنا، كان وجودي معها لا يقدر بثمن، ورؤية كيف يتراقص شعرها الطويل كلما حركت رأسها، ومكر عينيها اللتين بلون العسل القاتم، وسماع طريقتها شديدة الاختلاف في الكلام؛ ولمح في بعض الأحيان، في لحظة سهو، من خلال فتحة بلوزتها المشدودة، بداية ذينك النهدين البارزين المكورين، بحلمتيهما الغضتين، الصلبين والناعمين دون شك، مثل ثمرتين فتيتين.

«لا أعرف ما الذي أفعله هنا معكما، وأنا أعزف على الكمان»، كانت لوكي تعتذر أحياناً. فأقول لها كاذباً: «يا لهذا الخاطر، نحن سعيدان برفقتك، أليس كذلك يا لِيلي». وتضحك ليلي، بشيطان مستهزئ في حدقتيها، وبتلك الصرخة: «أجل، آووووو...»

القيام بنزهة في جادة باردو، تحت أشجار الفيكو التي تغزوها العصافير المغردة، بين البيوت التي على الجانبين، حيث يتراكض على شرفاتها وفي حدائقها أطفال وطفلات تحرسهم مربيات يرتدين زياً

أبيض منشى، كان طقساً في ذلك الصيف. ولأنه من الصعب، بسبب وجود لوكي، التحدث إلى ليلي عما أحب التحدث عنه، فقد كنت أحول الحديث نحو موضوعات تافهة: خطط المستقبل، مثلاً، عندما سأذهب، بعد دراستي المحاماة، إلى باريس في وظيفة دبلوماسية ـ لأن الحياة هناك، في باريس، هي حياة، وفرنسا هي بلاد الثقافة ـ أو ربما أتفرغ للسياسة، كي أساعد قليلاً هذه البيرو البائسة لتكون بلاداً عظيمة ومزدهرة مرة أخرى، وسيكون عليّ في هذه الحالة تأجيل الرحلة إلى أوروبا قليلاً. وهما، ما الذي ترغبان في أن تكوناه وتفعلاه عندما تكبران؟ كانت لدى لوكي، العاقلة، أهداف محددة بدقة: «أريد قبل كل شيء إنهاء المدرسة. وبعد ذلك الحصول على وظيفة جيدة، ربما في متجر أسطوانات، ولا بد أنه سيكون بحراً من المتعة». أما ليلي فتفكر في العمل في وكالة سياحة أو شركة طيران، كمضيفة، إذا ما استطاعت إقناع أبويها، وهكذا تتمكن من السفر مجاناً عبر العالم. أو ربما تصير فنانة سينما، ولكنها لن تسمح أبداً بأن يجعلوها تظهر بالبيكيني. السفر، السفر، التعرف على كل البلدان هو ما كان يروقها. فكنت أقول لها: «حسن، أنت تعرفين بلدين اثنين حتى الآن على الأقل، تشيلي والبيرو، فماذا تريدين أكثر. قارني نفسك بي أنا الذي لم أخرج قط من ميرافلوريس».

الأشياء التي ترويها ليلي عن سانتياغو دي تشيلي كانت تبدو لي مقدمة للجنة الباريسية. يا للحسد الذي كنتُ أسمعها به! فهناك، خلافاً لما هي الحال هنا، لا وجود لفقراء ولا متسولين في الشوارع، والآباء يسمحون للصبيان والبنات بالبقاء في الحفلات حتى الفجر، حيث يرقصون متلاصقين. ولا يمكن هناك، مثلما هي الحال هنا، رؤية الآباء، الأمهات، العمات، يتجسسون على الفتيان وهم يرقصون كي يؤنبوهم إذا ما تجاوزوا الحد. وفي تشيلي يسمحون للصبيان والبنات

بالدخول إلى صالات السينما لمشاهدة أفلام الكبار، وعندما يبلغون الخامسة عشرة، يدخنون دون تخفٍ. الحياة هناك ممتعة أكثر مما هي في ليما، لوجود عدد أكبر من صالات السينما، وخيام السيرك، والمسارح، والاستعراضات، وحفلات تشارك فيها فرق موسيقية. وتأتي دوماً من الولايات المتحدة إلى سنتياغو فرق تزلج على الجليد، وباليه، وفرق موسيقية. وفي أي عمل يمارسه التشيليون، يكسبون ضعفي أو ثلاثة أضعاف ما يكسبه البيرويون هنا.

ولكن، إذا كان الوضع على هذا النحو، لماذا ترك أبوا التشيليتين تلك البلاد العجيبة ليأتيا بهما إلى البيرو؟ فهما لا تبدوان، للعين المجردة، غنيتين وإنما فقيرتان. وهما، للوهلة الأولى، لا تعيشان مثلنا، نحن صبيان وبنات حي أليغري، في بيوت يعمل فيها قهرمان، وطاهيات، وخادمات، وبستانيون، وإنما في شقة، في عمارة ضيقة من ثلاثة طوابق، في شارع إسبيرانثا، عند مطعم أمبرينوس. وفي ميرافلوريس تلك السنوات، خلافاً لما سيحدث بعد بعض الزمن، عندما بدأت تبرز العمارات وتختفي البيوت، لم يكن يعيش في الشقق سوى الفقراء، تلك الفئة البشرية القليلة التي يبدو أن التشيليتين ـ آه، يا للحزن! ـ تنتميان إليها.

لم أرَ قط وجهي أبويهما. فهما لم تأخذاني في أي يوم، مثلما لم تأخذا أحداً من صبيان أو بنات الحي إلى بيتهما. ولم تقيما أي عيد ميلاد، أو أي حفلة، ولم تدعوانا لتناول الشاي واللعب، كما لو أنهما تخجلان من جعلنا نرى تواضع المكان الذي تعيشان فيه. وكونهما فقيرتين وتخجلان من كل ما لا تملكانه، كان يملؤني بالشفقة، ويزيد من حبي للتشيلية، ويبث فيّ نوايا إثارية: «عندما نتزوج أنا وليلي، سنأتي بأسرتها كلها لتعيش معنا».

لكن أصدقائي، وخاصة بنات ميرافلوريس، كانوا يستاؤون لأن

لوكي وليلي لا تفتحان لنا أبواب بيتهما. ويتساءلون: «أتكونان ميتتين من الجوع إلى حدّ عدم القدرة على إقامة حفلة؟»، وكان تيكو تيرافانتي يحاول تفسير الأمر بمزيد من الإساءة: «قد لا تكونان فقيرتين، وإنما بخيلتان».

وسرعان ما بدأ صبيان الحي التحدث بالسوء عن التشيليتين بسبب طريقتهما في التبرج واللبس، والسخرية من قلة الملابس التي لديهما ـ جميعنا كنا نعرف عن ظهر قلب تلك التنانير، والبلوزات، والصنادل التي تولفانها بكل الطرق الممكنة، من أجل المداراة ـ، فكنت أنا أدافع عنهما، مفعماً بالسخط المقدس. فهذه التقولات هي حسد، حسد أخضر، حسد مسموم، لأن التشيليتين في الحفلات لا تتوقفان عن الرقص قط، جميع الصبيان يصطفون في الدور للرقص معهما ـ فترد لاورا: «لأنهما تسمحان بالالتصاق بجسديهما، فمن الذي سيخلف عن الرقص معهما هكذا» ـ أو لأنهما في الاجتماعات في الحي، في اللعب على الشاطئ، أو في حديقة سالازار، كانتا دوماً مركز الاهتمام، وجميع الصبيان يحيطون بهما، أما الأخريات... ـ فتشن تريسيتا هجوماً مضاداً: «لأنهما متعاليتان ومتكلفتان، ولأنكم تتجرؤون معهما على رواية نكات بذيئة لا نسمح نحن لكم بها!» ـ، وأخيراً، لأن التشيليتين رائعتان، حديثتان، بلا محاذير، أما هنّ بالمقابل، فمتصنعات، متخلفات، عتيقات، متعجرفات، متحاملات. فترد إيلسي وهي تمد لنا لسانها: «أجل، وبكل فخر!».

ولكن، على الرغم من أنهن كن يتكلمن بالسوء عنهما، إلا أن بنات حي أليغري واصلن دعوتهما إلى الحفلات، وإلى الخروج معهن إلى حمامات السباحة على شاطئ ميرافلوريس، وإلى قداس الثانية عشرة في أيام الآحاد، وإلى عروض بعد الظهر في السينما، والقيام بالجولات الإجبارية في حديقة سالازار منذ الغروب حتى ظهور أول النجوم التي

ظلت، في ذلك الصيف، تتألق في سماء ليما منذ كانون الثاني حتى آذار، دون أن تخفيها الغيوم، وأنا متأكد من ذلك، ولو يوماً واحداً، مثلما يحدث دائماً في هذه المدينة طوال أربعة أخماس السنة. إنهن يفعلن ذلك لأننا نحن الصبيان نطلبه، ولأن بنات ميرافلوريس، في أعماقهن، يشعرن تجاه التشيليتين بالسحر الذي تمارسه أفعى الكوبرا على العصفور عندما تنوّمه قبل أن تبتلعه، والخاطئة على القديسة، والشيطان على الملاك. إنهن يحسدن الغريبتين الآتيتين من تلك البلاد النائية التي هي تشيلي، على الحرية التي لا يمتلكنها، بالخروج إلى أي مكان والتنزه أو الرقص حتى وقت متأخر دون طلب الإذن من أجل البقاء لحظة أخرى، ودون أن يأتي أبوهما، أمهما، أو أخت كبرى، أو إحدى العمات للتجسس من نوافذ الحفلة لرؤية كيف ترقصان ومع من، أو لأخذهما إلى البيت لأن الساعة صارت الثانية عشرة ليلاً، وهي الساعة التي لا يليق بالفتيات المحترمات أن يواصلن بعدها الرقص أو التحدث إلى الرجال في الخارج ـ فهذا ما تفعله المتكلفات، والخلاسيات، والراغبات في التباهي ـ وإنما أن يكنّ في بيوتهن وفي فرشهن، يحلمن بالملائكة. إنهن يحسدن التشيليتين لأنهما متحررتان، ترقصان باستمتاع شديد دون أن توليا اهتماماً لانكشاف ركبهما، وتهزان أكتافهما، صدريهما، ومؤخرتيهما مثلما لا تفعل أي واحدة من بنات ميرافلوريس، وربما تسمحان للصبيان بتمادٍ لا يتجرأن هن حتى على تخيله. ولكن، إذا كانتا على هذا القدر من الحرية، لماذا لا تريد ليلي ولا لوكي أن يكون لهما حبيب؟ ولماذا تقولان لا لكل واحد منا يطلب ودّهن؟ فليلي لم تقل لي أنا فقط لا؛ وإنما قالتها للالو مولفينو ولوتشو كلاوس، ولوكي قالت لا للويّر، وبيبي كانيبا، والمتباهي خوليو بينبينيدا، أول ميرافلوري أهدى إليه أبواه، حتى قبل أن ينهي المدرسة، سيارة فوكس فاغن، فور بلوغه الخامسة عشرة. لماذا لا تريد التشيليتان، وهما تتمتعان بتلك الحرية، أن يكون لهما حبيب؟

هذا السر وغيره من أمور ليلي ولوكي الغامضة الأخرى توضحت بصورة غير متوقعة في الثلاثين من آذار 1950، اليوم الأخير من ذلك الصيف الذي لا يُنسى، في حفلة ماري روسا ألباريث كالديرون، البدينة الماكرة. وقد شكّلت الحفلة علامة انتهاء مرحلة، وستبقى في ذاكرة جميع الحاضرين إلى الأبد. كان بيت آل ألباريث كالديرون، القائم عند ناصية شارع 28 تموز مع الساحة، هو أجمل البيوت في ميرافلوريس، وربما في البيرو، بحدائقه ذات الأشجار السامقة، وأنواع أزهاره الصفراء، وأزهار الجُريس، وشجيرات الورد، ومسبحه المكسو بالخزف. وكانت حفلات ماري روسا تقام دوماً بمشاركة فرقة موسيقية وسرب من نُدل الخدمة الذين يقدمون الحلويات، واللقيمات، والسندوتشات، والعصائر، وكل أنواع المشروبات غير الكحولية طوال الليل، وهي حفلات كنا نستعد لها نحن المدعوين كما لو أننا سنصعد إلى السماء. كان كل شيء يمضي على أروع حال، إلى أن أحطنا نحن المئة صبي وبنت بماري روسا، وكانت الأضواء قد أُطفئت، وغنينا لها *Happy Birthday* ونفخت هي على كعكة عيد الميلاد وأطفأت شموعها الخمس عشرة، ثم اصطففنا في الدور لنعانقها معانقة التهنئة المعهودة.

وعندما جاء دور لِيلي ولوكي في المعانقة، قامت ماري روسا، وهي بدينة سعيدة تتهدل لفافات شعرها على وردية فستانها الذي ترتديه في عقيصة كبيرة على الظهر، بمعانقتهما، وبعد أن قبّلتهما على الخدين، فتحت عينيها على اتساعهما:

ـ أنتما تشيليتان، أليس كذلك؟ سأعرّفكما على عمتي أدريانا. إنها تشيلية أيضاً، وقد حضرت للتو من سنتياغو. تعاليا، تعاليا.

أمسكت بيديهما وقادتهما إلى داخل البيت وهي تصرخ: «عمتي أدريانا، عمتي أدريانا، لقد جئتك بمفاجأة».

ومن خلال زجاج النافذة المتطاولة، ذلك المستطيل المضاء الذي يؤطر قاعة فسيحة فيها مدفأة حطب مطفأة، وجدران مزينة بمناظر

وصور زيتية، وآرائك، وصوفات، وسجاجيد، وحوالي دزينة من السيدات والسادة يحملون كؤوساً في أيديهم، رأيت ماري روسا تقتحم المكان بعد لحظات ومعها التشيليتان، وتمكنتُ أن أرى، بصورة شاحبة وسريعة، شبح سيدة طويلة جداً، متبرجة جداً، جميلة جداً، بسيجارة يتصاعد منها الدخان في أقصى مبسم طويل، تتقدم لتحية مواطنتيها الفتيتين بابتسامة متنازلة.

ذهبتُ لتناول عصير مانجا، وتدخين سيجارة فايسروي خفية، بين أكواخ استبدال الملابس عند المسبح. وهناك التقيت خوان بارّيتو، صديقي وزميلي في مدرسة شامبان الذي جاء يلوذ بتلك العزلة أيضاً كي يدخن سيجارة. وقد سألني وهو يضع يديه حول فمه:

ـ أيضايقك أن أغازل لِيلِي أيها النحيل؟

كان يعرف أننا لسنا حبيبين، وإن كنا نبدو كذلك؛ ويعرف أيضاً ـ مثلما يعرف الجميع، كما أكد لي ـ أنني طلبت ودّها ثلاث مرات وأنها في المرات الثلاث أجابتني بلاءات. أجبته أنني أتضايق كثيراً، وأن ليلي، بالرغم من قولها لي لا، إلا أن ذلك ليس سوى لعبة تلعبها ـ فالبنات هنّ هكذا في تشيلي ـ، ولكنني أروقها في الواقع، ونحن أشبه بحبيبين، كما أنني كنت قد بدأت، في هذه الليلة بالذات، بطلب ودها للمرة الرابعة والحاسمة، وكانت هي على وشك أن تقول لي نعم عندما ظهرت كعكة عيد الميلاد ذات الخمس عشرة شمعة، وقاطعتنا البدينة المقرفة. ولكن، عندما تنتهي الآن من التحدث مع عمة ماري روسا وتخرج، سأواصل عرض حبي عليها، وسوف توافق، وستصبح منذ هذه الليلة محبوبتي وفق كل القواعد.

ـ في هذه الحال، عليّ أن أحب لوكي ـ قال خوان بارّيتو مستسلماً ـ المسألة هي أن من تعجبني أكثر هي لِيلِي يا صاحبي.

شجعته على مصارحة لوكي بحبه، ووعدته بأن أمهد له الطريق كي تقبل به. هو مع لوكي وأنا مع ليلي سنشكل رباعياً رائعاً.

وبينما أنا وخوان بارّيتو نتبادل الحديث بجوار المسبح، ونرى أزواج الراقصين يرقصون في الحلبة على إيقاع أوركسترا الأخوة أورمينيو ـ ليست بمستوى أوركسترا بيريث برادو، ولكنها جيدة جداً، يا للترومبيتات، ويا للطبول ـ، دخن كل منا سيجارتي فايسروي. لماذا خطر لماري روسا، في تلك اللحظة بالضبط، أن تعرّف عمتها على لوكي وليلي؟ وما الذي يتحدثن عنه طوال الوقت؟ يا للعنة، إنها تُحبط خطتي. لأنني في الحقيقة، عندما أحضروا كعكة الخمس عشرة شمعة، كنت قد بدأت مصارحة ليلي بحبي للمرة الرابعة، وكنت واثقاً هذه المرة من النجاح، بعد أن أقنعتُ فرقة الأوركسترا بأن تعزف *تروقينني*، وهي أغنية البوليرو الأكثر ملاءمة لمغازلة البنات.

تأخرتا أبديةً في العودة. وقد عادتا متغيرتين تماماً: لوكي شاحبة وذاوية العينين، كما لو أنها رأت شبحاً ومازالت تستعيد عافيتها من انطباعات العالم الآخر. وكانت لِيلِي عابسة، بتكشيرة لاذعة، وعيناها تطلقان الشرر، كما لو أن أولئك السيدات والسادة اللطفاء، هناك في الداخل، جعلوهما تمضيان لحظات عصيبة. وعندئذ بالذات دعوتها إلى الرقص، على أنغام أحد ألحان المامبو التي هي اختصاصها ـ *المامبو رقم خمسة* ـ، ولم أستطع أن أصدق ما أراه. لم تكن لِيلِي تقوم بأي حركة صحيحة بقدميها، وكانت تفقد الإيقاع، تسهو، تخطئ، تتعثر، وتهدلت القبعة البحرية مائلة عن رأسها، مانحة إياها مظهراً مضحكاً بعض الشيء. ولكنها لم تحاول تسويتها وإعادتها إلى مكانها. ما الذي تراه قد حدث؟

إنني متأكد من أنه ما إن تنتهي معزوفة *المامبو رقم خمسة* حتى يكون كل من في الحفلة قد عرفوا ما جرى، لأن البدينة المقرفة ستكون قد نشرت الخبر. كم ستستمتع هذه الثرثارة برواية ما حدث، بأدق التفاصيل، وبتلوين القصة والمبالغة فيها، وتجعل العيون تتسع،

تتسع، وتتسع من الفضول والرعب والسعادة! يا للبهجة الخبيثة التي ستشعر بها ـ أمر محرج، مخجل ـ جميع بنات الحي اللواتي ينتابهن الحسد من هاتين التشيليتين القادمتين إلى ميرافلوريس لتثوير عاداتنا نحن الصغار الذين تخرجنا في هذا الصيف من مرحلة المراهقة!

كنتُ آخر من علم بما حدث، بعد أن كانت لوكي وليِلي قد اختفيتا من الحفلة بصورة غامضة، دون أن تودعا ماري روسا أو أي شخص آخر ـ «ماضغتين كابح الخجل»، حكمت عمتي ألبيرتا ـ، عندما انتشرت إشاعة العِرافة في كل أنحاء حلبة الرقص، وعلّقت في الهواء المئة صبي وبنت الذين نسوا الجوقة الموسيقية، وحبيباتهم وأحباءهم، وتدبر البرامج، وراحوا يتهامسون، يرددون، يقلقون، يتحمسون، يفتحون عيوناً تعج بعبارات النميمة: «أتعرف؟ هل علمت؟ هل سمعت؟ ما رأيك! أتلاحظ؟ هل تتصور، هل تتخيل؟». «ليستا تشيليتين! لا، ليستا كذلك! مجرد أكذوبة! ليستا تشيليتين ولا تعرفان شيئاً عن تشيلي! لقد كذبتا! خدعتا! اخترعتا كل شيء! لقد كشفتهما عمة ماري روسا! يا لهما من نصابتين، يا لهما من نصابتين!».

كانتا بيروبتين، لا أكثر ولا أقل. يا للمسكينتين! يا لهما من بائستين! لابد أن العمة أدريانا، القادمة حديثاً من سنتياغو، قد فوجئت أعظم مفاجأة عندما سمعتهما تتكلمان بتلك اللكنة التي خدعتانا بها على أحسن وجه، أما هي فعرفت على الفور أنها لعبة احتيال. أي مشاعر استياء أحست بها التشيليتان عندما اكتشفت عمةُ البدينةِ المقرفة حقيقة المهزلة. لقد بدأت العمة بسؤالهما عن أسرتهما في سنتياغو، عن الحي الذي كانتا تعيشان فيه في سنتياغو، عن المدرسة التي ارتادتاها في سنتياغو، عن أقربائهما وصداقات أسرتهما في سنتياغو، جاعلة لوكي وليلي تبتلعان أشد الكؤوس مرارة في حياتهما القصيرة، وواصلت ملاحقتهما بأسئلتها إلى أن أُخرجتا من

القاعة، متحولتين إلى أنقاض، ومحطمتين روحياً وجسدياً، واستطاعت عندئذ أن تقول أمام الأقرباء والأصدقاء، وأمام ماري روسا المذهولة: «أي تشيليتين وأي ثمانية أرباع! هاتان الصغيرتان لم تطأا سنتياغو قط، وهما تشيليتان بقدر ما أنا تيبيتية!».

في ذلك اليوم الأخير من صيف عام 1950 ـ وكنت أنا قد أكملت للتو أيضاً خمسة عشر عاماً من العمر ـ بدأت بالنسبة إلي الحياة الحقيقية، تلك التي تطلق قلاع الهواء، والسراب والخرافات، بديلاً عن الواقع الفظ.

القصة الكاملة للتشيليتين المزيفتين لم أعرفها بدقة، ولم يعرفها أحد سواهما، لكنني سمعت التكهنات، والأقاويل، والتخيلات، والاعترافات المزعومة التي ظلت، مثل أثر من التقولات، تلاحق التشيليتين بالكذب لوقت طويل، بعد أن لم يعد لهما وجود ـ وهي طريقة للتعبير عن اختفائهما ـ، لأنهما لم تدعيا بعد ذلك قط إلى الحفلات، ولا إلى اللعب، ولا إلى جلسات الشاي، ولا إلى اجتماعات صبية الحي. وكانت ألسنة السوء تقول، بالرغم من أن بنات حي أليغري وميرافلوريس المحترمات لم يعدن إلى اللقاء بهما، ويُدرن وجوههن جانباً إذا ما تصادف والتقين بهما في الشارع، إن الصبيان، الفتيان، الرجال، كانوا يبحثون عنهما، خفية، مثلما يجري البحث عن المتكلفات ـ وما الذي كانته ليلي ولوكي إلا متكلفتان من حي وضيع مثل برينيا أو إلبورفينير، ولكي تخفيا أصولهما تظاهرتا بأنهما أجنبيتان للتسلل بين أناس ميرافلوريس المحترمين؟ ـ، من أجل ترتيب برنامج معهم، وليفعلوا معهم تلك الأشياء التي لا تسمح بفعلها إلا اللعوبات والمتكلفات.

وفي ما بعد، يخيل إليّ أن البنات والصبيان على السواء راحوا ينسون ليلي ولوكي، لأن أشخاصاً آخرين، ومسائل أخرى جاءت لتحل

محل مغامرة صيف طفولتنا الأخير ذاك. أما أنا فلا. أنا لم أنسهما، وخاصة ليلي. وعلى الرغم من أن سنوات كثيرة قد انقضت، وطرأت تبدلات كثيرة على ميرافلوريس، وكذلك على العادات، وانخسفت حواجز وأحكام مسبقة كانت تُعرض في ما مضى بمباهاة، وصارت تتوارى الآن، فقد احتفظتُ بها في ذاكرتي، وأستعيد استحضارها أحياناً، لأسمع الضحكة المشاكسة والنظرة الساخرة في عينيها اللتين بلون العسل القاتم، لأراها تتلوى مثل قصبة على إيقاعات المامبو. وأواصل التفكير في أن ذلك الصيف، بالرغم من أنني قد عشت أصيافاً كثيرة بعده، هو أروع الأصياف كلها.

II. رجل حرب العصابات

يقع مطعم «مكسيكو ليندو» عند تقاطع شارع كانيت مع شارع غيزارد، على بعد خطوة من ساحة سان سولبيس. وفي سنتي الأولى في باريس التي مررت خلالها بضائقات مالية، كنت أذهب في ليالٍ كثيرة لأرابط عند البوابة الخلفية لهذا المطعم، بانتظار ظهور بول حاملاً لي لفافة تحتوي تامال، أو عجة تورتيّا، أو كارنيتا أو إنتشيلادا[1]، أذهب لالتهامها في غرفتي على سطح فندق دي سينا قبل أن تبرد. كان بول قد دخل للعمل في مطعم «مكسيكو ليندو» كعامل مساعد في المطبخ، لكنه رُفّع بعد وقت قصير، بفضل مهاراته المطبخية، إلى معاون شيف. وعندما تخلى عن كل شيء ليتفرغ جسداً وروحاً للثورة، كان قد صار الطباخ الرسمي للمحل.

في تلك البدايات من عقد الستينيات، كانت باريس تعيش حمى الثورة الكوبية، وتعج بشبان آتين من القارات الخمس يحلمون، مثل بول، بأن يكرروا في بلدانهم مأثرة فيدل كاسترو ورجاله الملتحين، ويعدّون أنفسهم لتحقيق ذلك، بجدٍ أو لعب، في تآمرات المقاهي. وفضلاً عن كسب عيشه في «المكسيكو ليندو»، عندما تعرفت عليه، بعد أيام قليلة من وصولي إلى باريس، كان بول يتابع دراسة البيولوجيا في السوربون، ما لبث أن هجرها أيضاً في سبيل الثورة.

توطدت صداقتنا في مقهى صغير في الحي اللاتيني، حيث كنا نلتقي كجماعة من الأمريكيين الجنوبيين الذين أطلق عليهم

---

[1] مأكولات مكسيكية تقليدية.

سيباستيان سالازار بوندي، في كتاب قصص قصيرة، تسمية **أناس باريس المساكين**. وعندما علم بول بضائقتي المالية، عرض عليّ مساعدتي بشأن الطعام، لأن هناك فائضاً منه في «مكسيكو ليندو». وما عليّ إلا أن أمر في حوالي العاشرة ليلاً أمام الباب الخلفي للمطعم، وسوف يقدم لي «وليمة مجانية وساخنة»، وهو ما كان قد قدمه قبلاً لآخرين من مواطنينا المحتاجين.

لا بد أنه كان في حوالي الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من عمره على أبعد تقدير، وكان برميلاً بقدمين ـ بديناً جداً جداً ـ، لطيفاً، ودوداً، ومحباً للحديث. يمضي على الدوام بابتسامة كبيرة على فمه تنفخ خديه. وكان قد درس الطب عدة سنوات في البيرو، وأمضى بعض الوقت في السجن باعتباره أحد منظمي الإضراب الشهير في جامعة سان ماركوس سنة 1952، خلال دكتاتورية الجنرال أوردبا. وقبل مجيئه إلى باريس، أمضى نحو سنتين في مدريد، حيث تزوج بفتاة إسبانية من مدينة بورغوس. وقد أنجبا طفلاً قبل وقت قصير.

كان يعيش في حي ماريه، وهو آنذاك ـ قبل أن يطلق أندريه مارلو، وزير ثقافة الجنرال ديغول حملة تنظيف وتأهيل بيوت القرنين السابع عشر والثامن عشر القديمة المتهالكة والمحاطة بالقذارة ـ حي حرفيين، ونجاري أثاث، وحذائين، وخياطين، ويهود فقراء، وأعداد كبيرة من الطلاب والفنانين غير القادرين على الدفع. وفضلاً عن تلك اللقاءات السريعة عند باب «المكسيكو ليندو»، اعتدنا على اللقاء أيضاً، عند الظهر، في مقهى **الينبوع الصغير** عند مفرق الأوديون أو على رصيف مقهى كلوني، عند تقاطع سان ميشيل وسان جيرمان لتناول فنجان قهوة، ورواية كل منا مغامراته للآخر. مغامراتي كانت تتلخص فقط في مساعيّ المتعددة للحصول على عمل، وهو ما لم يكن بالأمر السهل على الإطلاق، ذلك أن شهادة المحاماة التي أحملها

من جامعة في البيرو، لا تبهر أحداً في باريس، ولا معرفتي الحسنة باللغتين الإنكليزية والفرنسية. أما مغامراته فكانت تقتصر على الإعدادات للثورة التي ستجعل من البيرو ثاني جمهورية اشتراكية في أمريكا اللاتينية. وقد سألني على حين غرة، في أحد الأيام، إذا ما كنتُ راغباً في الحصول على منحة في كوبا لتلقي تدريب عسكري، فقلت لبول إنني على الرغم من تعاطفي الكامل معه، إلا أن السياسة لا تهمني في شي، فضلاً عن أنني أمقتها، وكل أحلامي تتلخص ـ ومعذرة لوسطيتي البرجوازية الصغيرة يا صاحبي ـ في الحصول على عمل ثابت يتيح لي أن أقضي، دون غم ودون أمجاد، بقية أيام حياتي في باريس. وطلبت منه أيضاً ألا يفكر في إطلاعي على أي شيء من نشاطاته التآمرية السرية، لأني لا أريد أن أعيش مغموماً من احتمال أن تفلت مني معلومة يمكن لها أن تلحق الضرر به وبرفاقه.

ـ لا تقلق، فأنا أثق بك يا ريكاردو.

وقد كان يثق بي فعلاً، وكانت ثقته بي كبيرة إلى حدّ لم يستجب معه لطلبي. فكان يخبرني بكل ما يفعله، بما في ذلك أدق التعقيدات الحميمة في إعداداته الثورية. كان بول ينتمي إلى حركة اليسار الثوري (المير)، التي أسسها لويس دي لابوينتي أوثيدا، المنشق عن حزب أبريستا. وكانت الحكومة الكوبية قد قدمت لحركة المير مئة منحة دراسية لشابات وشبان من البيرو، من أجل تلقي تدريب عسكري على حرب العصابات. كانت تلك سنوات المواجهة بين بكين وموسكو، وبدا في ذلك الحين أن كوبا تميل إلى الخط الماوي، مع أن الأمر انتهى بها في ما بعد، لأسباب عملية، إلى التحالف مع السوفييت. وكان الموفدون إلى المنح التدريبية، بسبب الحصار الصارم الذي فرضته الولايات المتحدة على الجزيرة، يضطرون إلى المرور من باريس وهم متوجهون إلى كوبا، وكان بول يعاني الأمرين لتأمين

إيوائهم أثناء مرورهم بباريس.

كنت أقدم له بعض المساعدة في هذه المهام اللوجستية، فأعاونه في حجز غرف في فنادق بائسة ـ «فنادق العرب» حسب قول بول ـ نحشر فيها رجال حرب العصابات المستقبليين اثنين اثنين، وأحياناً ثلاثة ثلاثة، في حجرة ضيقة أو في غرفة الخادمة التي يشغلها أمريكي لاتيني أو فرنسي مستعد لتقديم حبة رمل إلى القضية الثورية العالمية. وفي غرفتي على سطح فندق سينا، في شارع سان سوليبس، آويت في إحدى المرات، خفية عن مدام أوكلير، مدبرة النزل، أحد أولئك الموفدين.

إنهم يؤلفون تشكيلة شديدة التنوع. كثيرون منهم كانوا طلاب آداب، وحقوق، واقتصاد، وعلوم، وتربية في جامعة سان ماركوس، انضموا إلى الشبيبة الشيوعية أو إلى منظمات يسارية أخرى. وإضافة إلى من هم من ليما، كان يظهر بينهم فتيان من الأقاليم، وحتى بعض الفلاحين: هنود من بونو، وكوسكو، وأياكوتشو، مذهولين بالقفزة الهائلة من قراهم وضياعهم الأنديزية ـ حيث جرى تجنيدهم بطريقة لا يمكن فهمها ـ إلى باريس. كانوا ينظرون إلى كل شيء بنوع من الخبل. ومن خلال الكلمات القليلة التي أتبادلها معهم في الطريق من مطار أورلي إلى الفندق، كنت أشعر أحياناً بأنه ليس لديهم فكرة واضحة عن المنحة التي هم موفدون إليها، وغير مدركين تماماً لنوعية التدريب الذي سيتلقونه. ولم يكونوا جميعهم موفدين من البيرو. فبعضهم يوفد من باريس، من بين جمهرة البيرويين متنوعي المشارب ـ طلاب، فنانون، مغامرون، بوهيميون ـ الذين يتسكعون في الحي اللاتيني. وقد كان أكثر هؤلاء أصالة صديقي ألفونسو الروحاني الذي أرسلته إلى فرنسا طائفة لاهوتية صوفية في ليما ليتابع دراسة علم النفس والحكمة الإلهية، فانتزعته بلاغة بول من عالم الروحانيات

وغرسته في عالم الثورة. كان شاباً خلاسياً يميل إلى البياض، خجولاً يكاد لا يفتح فمه، وكان فيه شيء من البساطة والسهو، شيء من روح مبكرة النضج. وفي الأحاديث التي كنت أتبادلها مع بول عند الظهر، في مقهى كلوني أو في الينبوع الصغير، كنت ألمح إلى أن كثيرين من هؤلاء الموفدين الذين ترسلهم حركة المير إلى كوبا، وأحياناً إلى كوريا الشمالية أو الصين الشعبية، ينتهزون الفرصة ليقوموا بقليل من السياحة، وأنهم لن يصعدوا مطلقاً إلى جبال الأنديز أو ينزلوا إلى منطقة الأمازون متنكبين بندقية على الكتف وجعبة على الظهر.

ـ كل شيء محسوب يا عجوزي ـ يجيبني بول، متخذاً موقف المعلم الذي تؤيده قوانين التاريخ ـ. إذا ما تجاوب نصفهم معنا، فإن الثورة ستكون غاية في السهولة.

صحيح أن حركة المير تقوم بالعمل بشيء من السرعة؛ ولكن، كيف يمكن منح النفس رفاهية النوم؟ فالتاريخ، بعد أن سار سنوات طويلة كسلحفاة، تحول فجأة، بفضل كوبا إلى نيزك. لا بد من العمل، التعلم، التعثر، النهوض. الأزمنة لا تسمح بتجنيد شباب حرب العصابات بإجراء امتحانات معرفية لهم، واختبارات جسدية، وفحوص سكيولوجية. المهم الآن هو الاستفادة من هذه المنح المئة قبل أن تقدمها كوبا إلى جماعات أخرى ـ الحزب الشيوعي، جبهة التحرير، التروتسكيين ـ التي دخلت المنافسة لتكون الأولى في إطلاق الثورة البيروية.

معظم الموفدين الذين كنت أذهب لإحضارهم من مطار أورلي وإيصالهم إلى الفنادق الرخيصة والبنسيونات، حيث يبقون محبوسين خلال فترة عبورهم من باريس، كانوا ذكوراً وصغار السن، بعضهم مراهقون. وفي أحد الأيام اكتشفت أن هناك نساء أيضاً بينهم.

ـ جئ بهن وأوصلهن إلى ذلك الفندق في شارع غيه لوساك ـ طلب مني بول ـ. إنهن الرفيقة آنا، والرفيقة آرليت، والرفيقة إوفراسيا. عاملهن بتهذب.

هناك قاعدة كان الموفدون يأتون وقد دُربوا عليها جيداً: عدم التعريف بأسمائهم الحقيقية. حتى في ما بينهم، كانوا يقتصرون على استخدام ألقابهم أو أسمائهم الحربية. وفور ظهور الفتيات الثلاث، راودني إحساس بأنني قد رأيت الرفيقة آرليت في مكان ما من قبل.

كانت الرفيقة آنا متينة البنية وحيوية الحركات، تبدو أكبر سناً بقليل من الاثنتين الأخريين، ومن خلال ما سمعته منها في ذلك الصباح، وفي المرتين أو الثلاث مرات التي رأيتها فيها، لابد أنها كانت قائدة في نقابة المعلمات. أما الرفيقة أوفراسيا، وهي ذات ملامح صينية هشة العظام، فبدت لي في حوالي الخامسة عشرة من عمرها. وقد وصلت شبه ميتة من الإنهاك، لأنها لم تغمض عينيها خلال الرحلة الطويلة وتقيأت مرتين بسبب اضطرابات السفر. أما الرفيقة آرليت فكانت ذات قوام أهيف، لها خصر نحيل، بشرة شاحبة؛ ومع أنها ترتدي، مثل الأخريين، ثياباً بالغة البساطة ـ تنانير وسترات عادية، وبلوزات قطنية رخيصة، وأحذية بلا كعوب وذات مشابك من تلك التي تباع في الأسواق العامة ـ، كان هناك شيء شديد الأنوثة في الطريقة التي تمشي وتتحرك بها، وخاصة طريقتها في زم شفتيها الممتلئتين عندما تسأل عن الشوارع التي تجتازها سيارة الأجرة. وكان يلمع في عينيها القاتمتين، المعبرتين، تلهف لرؤية الجادات المشجرة، والعمارات المتناظرة، وجموع الشباب من الجنسين يحملون حقائب على الأكتاف، وكتباً ودفاتر، ويتجولون في الشوارع والمقاهي في محيط السوربون، بينما نحن نقترب من الفندق الصغير في شارع غيه لوساك. قدموا لهن غرفة بلا حمام ولا نوافذ، فيها سريران اثنان، على الفتيات الثلاث

الاشتراك في النوم عليهما. وعندما ودّعتهن، كررت عليهن تعليمات بول: عدم التحرك من هنا إلى أن يأتي هو، بعد الظهر، لزيارتهن، وليشرح لهن خطة العمل في باريس.

كنت لا أزال عند مدخل الفندق، أقوم بإشعال سيجارة قبل أن أنصرف، عندما لمس أحدهم كتفي:

ـ هذه الغرفة تسبب لي رهاب الأماكن المغلقة ـ ابتسمت لي الرفيقة آرليت ـ. ثم إن إحدانا لا تأتي كل يوم إلى باريس يا رفيق.

عندئذ تعرفت عليها. لقد تغيّرت كثيراً، بالطبع، لاسيما طريقتها في الكلام، ولكن مازالت تتضح منها كلها تلك الشيطنة التي أتذكرها جيداً، فهناك شيء جريء، وعفوي، ومثير، ينعكس في موقفها المتحدي: الصدر والوجه المندفعان قليلاً إلى الأمام، إحدى القدمين متراجعة قليلاً، المؤخرة مرتفعة، ونظرة ساخرة تجعل محدثها لا يعرف إذا ما كانت تتكلم بجد أم أنها تمزح. كانت ضئيلة، صغيرة القدمين واليدين، وشعرها ـ وهو أسود الآن بدل الشقرة السابقة ـ مثبت بشريطة، ويصل حتى كتفيها. وذلك العسل القاتم في حدقتيها.

وبينما أنا أنبهها إلى أن ما سنفعله محظور بصورة قاطعة، وأن الرفيق جان (أي بول) سيؤنبنا على ذلك، أخذتها للقيام بجولة في البانتيون، والسوربون، والأوديون واللوكسمبورغ وأخيراً ـ في تبذير لاقتصادي! ـ إلى الغداء في الأكروبول، وهو مطعم يوناني في شارع المسرح القديم. خلال ساعات تبادل الحديث الثلاث تلك، أخبرتني، خارقة السرية الثورية، أنها درست الآداب والحقوق في الجامعة الكاثوليكية؛ وأنها انضمت منذ عدة سنوات إلى منظمة الشبيبة الشيوعية السرية؛ وأنها انتقلت، مثل رفاق آخرين، إلى حركة اليسار الثوري (المير)، لأنها حركة ثورية حقيقية، بينما تحولت الشبيبة الشيوعية إلى حزب متيبس لا يتناسب مع هذه الأزمنة. كانت تخبرني

بهذه الأمور بطريقة فيها شيء من الميكانيكية، ودون قناعة كبيرة. وأخبرتها أنا بمساعيّ للبحث عن عمل كي أتمكن من البقاء في باريس، وقلت لها إنني أعلق آمالي كلها الآن على مسابقة لوظيفة مترجم من الإسبانية، أعلنت عنها اليونسكو، وسأتقدم لامتحانها في اليوم التالي.

ـ اشبك أصابعك واضرب بها المنضدة ثلاث مرات، كي تنجح في الامتحان ـ قالت لي الرفيقة آرليت، بجدية كبيرة، وهو تنظر إليّ بثبات.

أتتناسب مثل هذه الشعوذات مع العقيدة الماركسية ـ اللينينية العلمية؟، استفززتُها.

ـ كل شيء مقبول من أجل الحصول على ما نرغب فيه ـ أجابتني على الفور، بتصميم كبير. ولكنها سارعت إلى هز كتفيها، وابتسمت ـ: وسوف أرتل من أجلك صلاة مسبحة، كي تنجح في الامتحان، مع أنني غير مؤمنة. هل ستُبلّغ الحزب بأنني أؤمن بالشعوذة؟ لا أظن ذلك. فلك وجه شخص طيب...

أطلقت ضحكة، وبينما هي تضحك، تشكلت في خديها الغمازتان نفساهما اللتان كانتا لها وهي طفلة. رافقتُها في طريق العودة إلى الفندق. وإذا ما هي وافقت، سأطلب من الرفيق جان السماح لي بإخراجها لتتعرف على أماكن أخرى في باريس قبل أن تواصل رحلتها الثورية. «رائع»، أكدت وهي تمد لي يداً نحيلة تأخرت في سحبها من يدي. كانت مقاتلة حرب العصابات جميلة جداً ومتغنجة جداً.

في صباح اليوم التالي تقدمتُ لامتحان المترجمين في اليونسكو مع حوالي عشرين متقدماً آخر. طُلب منا ترجمة ستة نصوص إنكليزية وفرنسية، وكانت نصوصاً بالغة السهولة. ترددتُ في عبارة «art roman»

فترجمتها في البداية «الفن الروماني»، ولكنني بعد ذلك، عند المراجعة، أدركت أن المعنى المقصود هو «فن الرومنس». وعند الظهر، ذهبت مع بول لتناول قطعة سجق مع بطاطا مقلية في **الينبوع الصغير**، ودون تمهيد أو مقدمات، طلبت منه السماح لي بالخروج مع الرفيقة آرليت أثناء وجودها في باريس. راح ينظر إليّ بطريقة مراوغة، وتظاهر بأنه يقدم لي موعظة:

ـ ممنوع منعاً قاطعاً مضاجعة الرفيقات. في كوبا وفي الصين الشعبية، أثناء الثورة، كان يمكن لمضاجعة إحدى المقاتلات أن يكلف الفاعل وضعه إلى جدار الإعدام. لماذا تريد إخراجها؟ هل تعجبك الفتاة؟

ـ أجل، أعتقد أنها تروقني ـ اعترفتُ له بشيء من الخجل ـ. ولكن، إذا كان هذا سيجلب لك المتاعب...

ـ وهل ستتمكن أنت من كبح رغبتك؟ ـ ضحك بول ـ. دعك من الرياء يا ريكاردو! اخرج معها، دون أن أعلم أنا بذلك. ولكن عليك أن تخبرني بكل شيء في ما بعد. وعليك، بصورة خاصة، أن تستخدم واقياً ذكرياً.

في عصر ذلك اليوم بالذات ذهبت بحثاً عن الرفيقة آرليت في فندقها في شارع غيه لوساك، وأخذتها لتناول ***ستيك فريت*** في النزل الصغير، في شارع لِهارب. وبعد ذلك إلى إحدى علب الليل الصغيرة ـ تدعى «إسكال» ـ في شارع مسيو لِبرنس، حيث كانت هناك، في تلك الأيام، فتاة إسبانية، كارمينثيتا، ترتدي السواد الكامل على طريقة جولييت غريكو، تغني بمرافقة جيتار، أو أنها بكلمة أدق، تلقي قصائد قديمة وأغنيات جمهورية من زمن الحرب الأهلية الإسبانية. شربنا بضع كؤوس من الروم والكوكاكولا، وهو الشراب الذي كانت قد بدأت تسميته آنذاك بـ «كوباليبري». كان المحل صغيراً،

مظلماً، دافئاً، يعبق بالدخان. وكانت الأغنيات ملحمية أو كئيبة. ولم يكن هناك كثير من الرواد بعد؛ وقبل أن ننتهي من تناول الشراب، وبعد أن أخبرتها بأنني أجبت بصورة جيدة على أسئلة امتحان اليونسكو بفضل فنون سحرها وصلواتها، أمسكتُ يدها وشبكتُ أصابعها بأصابعي وسألتها إذا ما كانت قد انتبهت إلى أنني متيم بحبها منذ عشر سنوات.

فانفجرت هي في الضحك:

- متيم بحبي دون أن تعرفني؟ أتعني أنك تنتظر منذ عشر سنوات أن تظهر يوماً في حياتك فتاة مثلي؟

- كل منا يعرف الآخر جيداً، ولكنك لا تتذكرين - أجبتها، ببطء شديد، مترصداً ردّ فعلها - لقد كان اسمك آنذاك ليلي، وكنتِ تتظاهرين بأنك تشيلية.

ظننتُ أن المفاجأة ستجعلها تسحب يدها أو تطبقها متشنجة، في حركة عصبية، ولكن لا شيء من ذلك. فقد تركتها بين يدي، دون أن تبدي أدنى تأثر.

- ما الذي تقوله - دمدمت. وانحنت في العتمة، فاقترب وجهها من وجهي حتى أحسست بأنفاسها. تفحصتني عيناها، محاولة أن تخمن من أكون.

- أما زلت تتقنين جيداً لهجة التشيليات المغناة؟ - سألتها وأنا أقبل يدها - لا تقولي لي إنك لا تعرفين ما أتحدث عنه. ألا تتذكرين كذلك أنني عرضت عليك حبي ثلاث مرات، وكنت تصدينني في كل مرة؟

- ريكاردو، ريكارديتو، ريتشارد سوموكورثيو! - صاحت مبتهجة، وقد أحسستُ الآن بضغط يدها - أنت النحيل! ذلك الصغير المرتب الذي يبدو كأنه شارك في العشية في المناولة المقدسة. ها، ها! أهذا أنت. آي، يا له من أمر مضحك! لقد كان لك آنذاك وجه قديس مزيف.

ومع ذلك، عندما سألتها، بعد دقيقة من ذلك، كيف ولماذا خطر لها ولأختها لوكي التظاهر بأنهما تشيليتان عند انتقالهما إلى شارع اسبرانثا في ميرافلوريس، أنكرت بحزم معرفتها بما أتكلم عنه. من أين اخترعت لي مثل هذه الأشياء؟ لا بد أنك تخلط بيني وبين أناس آخرين. فهي لم تُسمى ليلي قط، وليس لها أخت، ولم تسكن يوماً في ذلك الحي الظريف. وسيكون هذا في ما بعد هو موقفها: إنكار قصة التشيليتين، بالرغم من أنها في بعض الأحيان، كما في تلك الليلة في «إسكال»، عندما قالت لي إنها تتعرف فيَّ على الصغير شبه الأبله الذي كنت عليه قبل عشر سنوات، خرج شيء منها ـ حركة، إشارة ـ كشفت عن أنها التشيلية المزيفة في مرحلة مراهقتنا.

ظللنا في «اسكال» حتى الساعة ألف وخمسمائة واستطعتُ أن أقبّلها وأداعبها، ولكن دون أن ألقى تجاوباً منها. لم تكن تبعد شفتيها عندما أبحث عنهما؛ لكنها لا تقوم بأدنى حركة استجابة، وتتركني أقبّلها دون مبالاة منها، ولم تكن تفتح فمها بالطبع لأتمكن من تذوق لعابها. وكان جسدها كذلك يبدو جبلاً من الجليد عندما تداعب يداي خصرها، كتفيها، وتتوقفان عند النهدين الصلبين بحلمتيهما المنتصبتين. ظلت ساكنة، غير ممانعة، مستسلمة لاندفاعاتي تلك مثل استسلام ملكة لتوقير أحد رعاياها، إلى أن أبعدتني أخيراً، بحركة طبيعية، حين لاحظت أن مداعباتي تتخذ وجهة متمادية.

ـ هذا هو إعلاني الرابع لحبي أيتها التشيلية الصغيرة ـ قلت لها ونحن عند باب الفندق في شارع غيه لوساك ـ هل يكون جوابك، أخيراً، نعم!

ـ سنرى ـ ورمت لي قبلة طائرة وهي تبتعد ـ لا تفقد الأمل أيها الطفل الطيب.

الأيام العشرة التي تلت هذا اللقاء، كنا فيها أنا والرفيقة آرليت في ما يشبه شهر عسل. كنا نلتقي كل يوم، وقد أحرقت أنا خلال تلك الأيام كل النقود التي حوّلتها إليّ العمة ألبيرتا. فقد أخذتها إلى اللوفر وإلى جي دي بوم، إلى متحف رودان، وإلى بيتي بلزاك وفيكتور هوغو، والسينماتيك في شارع أولم، وإلى عرض في المسرح القومي الشعبي الذي كان يديره جان فيلار (شاهدنا مسرحية ***مجنون بلاتوف*** لتشيخوف، حيث جسد فيلار نفسه شخصية البطل)، وفي يوم الأحد، ركبنا القطار إلى فرساي؛ وبعد أن زرنا القصر، قمنا بجولة طويلة في الغابة، حيث فاجأنا المطر، ورجعنا مبللين. كان يمكن لأي شخص في تلك الأيام أن يعتبرنا عاشقين، فقد كنا نمضي طوال الوقت متماسكي الأيدي، وكنت أقبّلها وأداعبها متذرعاً بأي ذريعة. وكانت تتركني أفعل ذلك، مبتهجة أحياناً، وغير مبالية في أحيان أخرى، وتنتهي دوماً إلى وضع حد لاندفاعاتي بضيقٍ فقدان الصبر: «هذا يكفي يا ريكارديتو». وفي مرات نادرة، تبادر هي إلى تسوية خصلة من شعري أو بعثرتها بيديها، أو المرور بإصبع مرهف على أنفي أو على فمي كما لو أنها تريد تسويتهما؛ مداعبات تبدو أشبه بمداعبات سيدة عطوف على كلبها.

من تلك المرافقة الحميمة لعشرة أيام توصلتُ إلى يقين مؤكد: السياسة بصورة عامة، والثورة على وجه الخصوص، لا تعنيان للرفيقة آرليت مقدار حبة كمون. من المحتمل أن عضويتها في الشبيبة الشيوعية، وبعد ذلك في حركة المير، وكذلك دراستها في الجامعة الكاثوليكية ليست إلا حكاية صينية لا تصدق. إذ لم تكن تقتصر على عدم التحدث في الموضوعات السياسية أو الجامعية؛ بل إنه لم يكن لديها ما تقوله عندما أحوّل الحديث إلى هذا الميدان. كانت تجهل أدنى الأمور الأولية، وتتدبر الأمر لتغير موضوع الحديث بسرعة

كبيرة. كان واضحاً أنها سعت للحصول على هذه المنحة كمقاتلة حرب عصابات من أجل الخروج من البيرو والسفر في العالم، وهو ما لم يكن بإمكانها تحقيقه قط، لأنها فتاة من أصول شديدة الفقر ـ وهذا ما تكتشفه العين فوراً ــ لكنني لم أتجرأ على سؤالها عن أي شيء من هذا، كي لا أضعها في موقف حرج، وأضطرها إلى أن تروي لي حكاية صينية خيالية أخرى.

في اليوم الثامن من شهر عسلنا العفيف وافقت، بصورة غير منتظرة، على قضاء الليل معي في فندق دي سينا. كان أمراً طلبته منها ـ توسلت إليها ـ دون جدوى خلال الأيام السابقة. وفي هذه المرة، اتخذت هي نفسها المبادرة:

ـ اليوم سأرافقك، إذا كنت ترغب ـ قالت لي، في الليل، بينما نحن نأكل سندوتشات خبز مستطيل مع جبن غُروبير (لم يبق معي ما يكفي من الموارد للذهاب إلى مطعم) في مقهى في شارع تورنون. فتسارع صدري كما لو أنني انتهيت للتو من جري سباق الماراتون.

بعد مفاوضات مزعجة مع حارس فندق دي سينا ـ«الزيارات الليلة ممنوعة في الفندق يا سيدي!» ــ، ظلت الرفيقة آرليت خلالها غير مبالية، استطعنا صعود الطوابق الخمسة دون مصعد إلى غرفتي على السطح. تركتني أقبّلها، أداعبها، أعريها، وهي تحتفظ طوال الوقت بذلك الموقف الغريب غير المبالي، دون أن تسمح لي بتقليص المسافة غير المرئية التي تحافظ عليها أمام قبلاتي، معانقاتي، مداعباتي الحانية، حتى لو غادرني جسدها. هيجتني رؤيتها عارية على السرير الضيق الموضوع في ركن الحجرة، حيث ينحني السقف ويكاد لا يصل إليه ضوء المصباح الوحيد. كانت نحيلة جداً، ذات أعضاء حسنة التناسق، وخصر ضيق جداً بدا لي أنه بإمكاني إحاطته بأصابع يديّ. وتحت بقعة الزغب على العانة، كان الجلد يلمع أكثر صفاء من بقية

الجسد. بشرتها الزيتونية، ذات الإيحاءات الشرقية، كانت ناعمة وباردة. تركتني أقبلها طويلاً من رأسها حتى قدميها، محتفظة بسلبيتها المعهودة، واستمعت كمن يسمع هطول المطر، قصيدة بابلو نيرودا *مواد زفافية* التي ألقيتها في مسمعها، وكلمات الحب التي تلعثمتُ بها، بصورة متقطعة: هذه هي أسعد ليلة في حياتي، لم أشته أحداً بقوة مثلما اشتهيتها، سأحبها دوماً.

ـ فلندخل تحت اللحاف لأن الجو بارد جداً ـ قاطعتني، منزلة إياي إلى الواقع المبتذل ـ. كيف لا تتجمد هنا.

كنت على وشك أن أسألها إذا ما كان علي الاهتمام بنفسي، لكنني لم أفعل، مغتاظاً من موقفها المتملص، كما لو أن لديها قروناً من التجربة في هذه الصراعات وأنا مجرد مبتدئ. مارسنا الحب بمشقة. كانت تسلم نفسها دون أدنى ارتباك، غير أنها كانت ضيقة جداً، ومع كل محاولة جاهدة مني للإيلاج، تنكمش على نفسها مع تكشيرة ألم: «بمزيد من البطء، بمزيد من البطء». وأخيراً أحببتها، وكنت سعيداً بحبي لها. صحيح أنه لم يكن هناك ما يمحنني سعة الوهم مثل وجودي معها هناك، وصحيح أنني في مغامراتي القليلة، والعابرة دوماً، لم أشعر قط بمثل هذا المزيج من الحنان والرغبة اللذين توحي لي بهما؛ ولكنني أشك كذلك في أن تكون هذه هي حال الرفيقة آرليت أيضاً. فطوال الوقت أشعرتني بأنني أفعل ما فعلته دون أي اهتمام منها في العمق.

في صباح اليوم التالي، عندما فتحت عيني، رأيتها تقف عند أقصى السرير، نظيفة وبملابسها، تتأملني بنظرة تعكس قلقاً عميقاً.

ـ هل أنت مغرم بي حقاً؟

هززت رأسي عدة مرات ومددت يدي لأمسك يدها، لكنها لم تمد يدها لأصل إليها.

ـ أترغب في أن أبقى للعيش معك، هنا في باريس؟ ـ سألتني بنبرة من صوتها كان يمكن لها أن تقترح بها الذهاب إلى السينما لمشاهدة أحد أفلام الموجة الجديدة لغودار، أو تروفو، أو لويس ميل الذين كانوا في أوج شهرتهم.

عدت لأهز رأسي مؤكداً بذهول كامل. أيعني هذا أن التشيلية قد أغرمت بي أيضاً؟ غير أنها فاجأتني ببرود:

ـ ليس الحب هو الدافع، لماذا أكذب عليك؛ لكنني لا أريد الذهاب إلى كوبا، ولدي رغبة أقل في العودة إلى البيرو. أريد البقاء في باريس. أنت تستطيع مساعدتي على التحرر من التزامي مع حركة المير. تكلم إلى الرفيق جان في الأمر، وإذا ما حررني سآتي للعيش معك ـ ترددت لحظة، وقدمت امتيازاً وهي تطلق تنهيدة ـ: وقد أنتهي إلى الوقوع في حبك.

في اليوم التاسع تحدثتُ إلى البدين بول، عندما التقيتُه ظهراً، وكان اللقاء هذه المرة في مقهى كلوني، قبالة فطيرتي جبن مع الجانبون وفنجاني قهوة اكسبريس. وقد كان رده حاسماً:

ـ لا يمكنني تحريرها، قيادة المير وحدها هي القادرة على ذلك. ومع هذا، مجرد تقدمك إلي بهذا الطلب سيتسبب لي بمشكلة عويصة. عليها أن تذهب إلى كوبا، وتتبع الدورة التدريبية. وهناك تُظهر أنها لا تتمتع بالشروط الجسدية والنفسية الضرورية للكفاح المسلح. وعندئذ أستطيع أنا أن أقترح على القيادة استبقاءها لمساعدتي هنا. قل لها ذلك، ولكن عليها ألا تتحدث في هذا الأمر مع أحد. فمن سيتخوزق عندئذ هو أنا يا صاحبي.

بألم في روحي ذهبتُ لأنقل إلى الرفيقة آرليت ردّ بول. والأسوأ من ذلك، أنني شجعتها على إتباع نصيحته. كنت أشد منها حزناً لفراقنا. ولكن، لا يمكننا إلحاق الأذى ببول، وعليها هي أيضاً ألا تختلف مع

المير، لأن هذا قد يسبب لها مشاكل في المستقبل. كانت مدة الدورة بضعة شهور قليلة. وعليها، منذ اللحظة الأولى، أن تبدي عجزاً كاملاً عن تحمل حياة حرب العصابات، بل والتظاهر بالإغماء. وفي أثناء ذلك، سأجد أنا عملاً في باريس، وسأستأجر شقة، وسأكون بانتظارها...

ـ أعرف، أعرف، وستبكي، وتشتاق إليّ، وتفكر بي نهاراً وليلاً

ـ قاطعتني، بملامح فقدان الصبر، وبعينين قاسيتين وصوت جليدي ـ. حسن، أرى أنه ليس ثمة مهرب. سنلتقي بعد ثلاثة شهور إذاً يا ريكارديتو.

ـ ولماذا الوداع منذ الآن؟

ـ ألم يخبرك الرفيق جان؟ سأسافر إلى كوبا غداً باكراً، عن طريق براغ. يمكنك البدء بذرف دموع الوداع.

سافرت في اليوم التالي فعلاً، ولم أستطع مرافقتها إلى المطار، لأن بول منعني من ذلك. في لقائنا التالي، أخمد البدين همتي تماماً عندما أخبرني بأنه لا يمكنني الكتابة إلى الرفيقة آرليت، ولا تلقي رسائل منها، لأنه على الموفدين، لأسباب أمنية، قطع كل أنواع الاتصالات خلال التدريب. ولم يكن بول متأكداً من أن الرفيقة آرليت، بعد انتهاء دورتها التدريبية، ستعود للمرور من باريس في طريقها إلى ليما.

ظللتُ أياماً طويلة مستغرقاً في الذهول، أؤنب نفسي نهاراً وليلاً لأني لم أمتلك جرأة القول للرفيقة آرليت أن تبقى معي في باريس، على الرغم من منع بول، بدل أن أحثها على هذه المغامرة التي لا يعلم إلا الله كيف ستنتهي. ظللتُ على هذه الحال حتى صباح أحد الأيام، لدى خروجي من غرفتي على السطح لتناول الفطور في مقهى ماريه في ساحة سان سولبيس، عندما سلمتني مدام أوكلير مغلفاً عليه خاتم

اليونسكو. لقد نجحتُ في الامتحان، ورئيس دائرة المترجمين في اليونسكو يحدد لي موعداً في مكتبه. كان إسبانياً شائب الشعر وأنيقاً، كنيته تشارنيس. وقد كان لطيفاً جداً. ضحك بشهية عندما سألني عن «مخططاتي على المدى البعيد» وأجبته: «أن أموت عجوزاً هرماً في باريس». لم تكن هناك أي وظيفة دائمة شاغرة، إلا أن بإمكانه التعاقد معي كمترجم «مؤقت» خلال اجتماعات الجمعية العمومية، وفي الفترات التي تكون الهيئة فيها مثقلة بالعمل، وهو ما يحدث بكثرة إلى حد ما. منذ هذه اللحظة تأكدتُ من أن حلمي الدائم ـ حسن، منذ وعيت على الدنيا ـ، بالعيش في هذه المدينة طوال ما تبقى من حياتي، قد بدأ يتحول إلى واقع.

شهدت حياتي قفزة قاتلة منذ ذلك اليوم. فقد بدأت أقص شعري مرتين في الشهر، وأرتدي جاكيت وربطة عنق كل صباح. وصرت أركب المترو من سان جيرمان أو أوديون للذهاب إلى محطة سيغور، أقرب محطة مترو إلى اليونسكو، وأبقى هناك منذ التاسعة والنصف حتى الواحدة، ومنذ الثانية والنصف حتى السادسة مساء، في حجرة ضيقة، لأترجم إلى الإسبانية وثائق مملة عموماً عن نقل معبد أبي سنبل من النيل، أو حماية بقايا كتابات مسمارية اكتُشفت في بعض كهوف الصحراء الكبرى، عند مستوى مالي.

من المثير للفضول أنه في الوقت الذي تبدلت فيه حياتي، تبدلت حياة بول أيضاً. كان لا يزال صديقي المفضل، لكننا صرنا نلتقي في أوقات متباعدة أكثر فأكثر، بسبب واجباتي المستجدة كموظف، ولأنه هو بدأ يجوب العالم، لتمثيل حركة المير في مؤتمرات أو لقاءات من أجل السلام، ومن أجل تحرر العالم الثالث، ومن أجل النضال ضد التسلح النووي، وضد الاستعمار والإمبريالية وألف قضية تقدمية أخرى. كان بول يشعر بالتشوش أحياناً، كمن يعيش حلماً، عندما يخبرني ـ

ما إن يعود إلى باريس حتى يتصل بي ونتناول الطعام أو القهوة مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع خلال وجوده في المدينة ـ بأنه رجع للتو من بكين، من القاهرة، من هافانا، من بيونغ يانغ، أو من هانوي، حيث كان عليه أن يتحدث عن الإمكانات المستقبلية للثورة في أميركا اللاتينية أمام ألف وخمسمئة مندوب ينتمون إلى خمسين منظمة ثورية من حوالي ثلاثين بلداً باسم ثورة بيروية لم تبدأ بعد.

لو لم أكن أعرف جيداً هذه النزاهة التي ترشح من كل خلاياه، لظننت في أحيان كثيرة أنه يبالغ، كي يبهرني. كيف يمكن أن يكون ممكناً أن هذا الأميركي الجنوبي في باريس، والذي كان إلى ما قبل بضعة شهور يكسب عيشه كعامل مساعد في مطبخ «المكسيكو ليندو»، أن يتحول الآن إلى شخصية من *jet-set* الثورية، ويقوم برحلات عبر المحيطات، ويتأبط أذرع زعماء الصين، وكوبا، وفيتنام، ومصر، وكوريا الشمالية، وليبيا، واندونيسيا؟ ولكنها الحقيقة. فبول، وبفعل التحولات غير المتوقعة وغرابة تشابك العلاقات، والمصالح، والاضطرابات التي كانت عليها الثورة، تحول إلى شخصية أممية. وقد تأكدتُ من ذلك في تلك الأيام من عام 1962، إذ حدثت ضجة صحفية صغيرة على إثر محاولةٍ لاغتيال القائد الثوري المغربي بن بركة، الملقب «**الدينامو**»، والذي سيُختطف بعد ثلاث سنوات من ذلك، في تشرين الأول 1965، ويختفي إلى الأبد لدى خروجه من مطعم «شي ليب» في سان جيرمان دي بري. فقد جاء بول إلى اليونسكو ظهراً للبحث عني، وذهبنا إلى الكافتريا لتناول سندوتش. كان شاحباً، يحيط ازرقاق بعينيه، وصوته متوتر، فيه عصبية غير معهودة. كان بن بركة يترأس مؤتمراً دولياً للقوى الثورية، وقد كان بول أيضاً ضمن قادته. وكانا يلتقيان بكثرة، ويسافران معاً في الأسابيع الأخيرة. ولا يمكن لمحاولة اغتيال بن بركة إلا أن تكون من

تـدبير الـ CIA، وحركـة المـير تشـعر بـالخطر الآن فـي بـاريس. هـل يمكنني، لبضـعة أيام فقـط، ريثما يتخـذون الاحتياطـات اللازمـة، أن أخبئ له حقيبتين فـي غرفتي؟

ـ ما كنت لأطلب منك مثل هذا الأمر لو كان لدي خيار آخر. إذا ما قلت لي لا، فلن يكون ثمة مشكلة يا ريكاردو.

سأحتفظ بالحقيبتين عندي إذا ما أخبرني بما تحتويانه.

ـ إحداهما تحتوي أوراقاً. إنها ديناميت خالص: خطط، توجيهات، إعدادات للعمليات فـي البيرو. والحقيبة الأخرى تحتوي دولارات.

ـ كم هو المبلغ؟

ـ خمسون ألفاً.

فكرتُ لحظة، وقلت له:

ـ إذا مـا سلمتُ الحقيبتين إلى الـ CIA فسوف يعطونني الخمسين ألفاً؟

وجاراني بول فـي اللعبة:

ـ أظن أنه يمكن لنـا، عنـد انتصـار الثورة، أن نعينـك سفـيراً لـدى اليونسكو.

تبادلنا المزاح قليلاً، وعند الغروب أحضـر الحقيبتين، وحشـرناهما تحت سريري. أمضيت أسبوعاً وشعر رأسي منتصب مـن الخوف. كنت أفكر فـي أنه إذا ما خطر للص أن يسـرق النقـود، فلن تصدق حركة المـير أبـداً مسـألة السـرقة، وسـأتحول إلى هـدف للثـورة. وفـي اليـوم السادس، جاء بول مع ثلاثة أشخاص مجهولين لأخذ الضيفين الثقيلين.

فـي كل مرة كنا نلتقي فيها، كنت أسـأله عـن الرفـيقة آرليـت، ولم يحاول خداعي قط بإعطائي أخباراً مزيفة. كان يتأسـف كثيراً، لكنه لم يكن قادراً على تقصـي أي شـيء عنهـا. فـالكوبيون صـارمون فـي قضايا الأمن، ويتشددون فـي التحفظ المطلق عليها. الشـيء المؤكـد

الوحيد هو أنها لم ترجع إلى باريس بعد، لأن لديه سجلاً بكل الموفدين الذين يرجعون إلى البيرو.

ـ عندما تمر من هنا في طريق عودتها إلى البيرو، ستكون أنت أول من يعرف بالأمر. لقد أوقعت الفتاة بك بقوة، أليس كذلك؟ ولكن، لماذا يا صاحبي، فهي ليست باهرة الجمال.

ـ لستُ أدري السبب يا بول. ولكنها في الحقيقة أوقعت بي بقوة بالفعل.

مع نمط الحياة الجديدة التي صار بول يعيشها، بدأت أوساط البيرويين في باريس التحدث عنه بالسوء. كانوا كتّاباً لا يكتبون، ورسامين لا يرسمون، وموسيقيين لا يعزفون ولا يؤلفون موسيقى، وثوريي مقاهي يفضفضون عن إحباطهم، وحسدهم، وضجرهم بالقول إن بول قد «صار حسياً»، تحول إلى واحد من «بيروقراطيي الثورة». ما الذي يفعله في باريس؟ لماذا لا يكون هناك، مع أولئك الشبان الذين يرسلهم لتلقي التدريب العسكري، ثم يُدخلهم بعد ذلك سراً إلى البيرو، من أجل البدء بحرب عصابات في جبال الأنديز؟ وكنتُ أدافع عنه في مناقشات حامية. فقد كنت أعي أن بول، على الرغم من موقعه الجديد، مازال يعيش في بؤس مطلق. فإلى ما قبل وقت قريب، كانت زوجته تعمل في تنظيف بيوت الآخرين من أجل دعم اقتصاد الأسرة. وقد استغلت حركة المير الآن جواز سفرها الإسباني، وجعلت منها ناقلة بريد، ترسلها بكثرة إلى البيرو، لترافق الموفدين العائدين أو لتنقل نقوداً وتعليمات، في رحلات تملأ بول بالمخاوف. وكنتُ أعرف من جهة أخرى، من خلال أحاديثه معي، أن نمط الحياة هذا الذي فرضته عليه الظروف، وتطالبه قيادته بالاستمرار فيه، يضايقه أكثر فأكثر في كل يوم. كان يتلهف للعودة إلى البيرو، حيث ستبدأ العمليات قريباً جداً. وكان يريد المساعدة في التحضير لها، على

الأرض. لكن قيادة المير لم تسمح له، وكان ذلك يستثير غضبه. «إنها نتيجة معرفتي للغات، يا للعنة»، كان يحتج ضاحكاً وسط استيائه.

وبفضل بول، تعرفت خلال تلك الشهور والسنوات في باريس على قادة المير الرئيسيين، بدءاً من زعيم الحركة ومؤسسها لويس دي لابوينتي أوثيدا، وانتهاء بغييرمو لوباتون. كان زعيم المير محامياً من مدينة تروخييو، مولوداً عام 1926، ومنشقاً عن حزب أبريستا، نحيلاً وبنظارة، له سحنة وشعر فاتحان، يسرّح شعره إلى الوراء دائماً، مثل ممثل أرجنتيني. وفي المرتين أو المرات الثلاث التي التقيته فيها كان يرتدي ملابسه بصورة رسمية، مع ربطة عنق وسترة بنية من الجلد. يتحدث بنعومة، مثل محام ممارس للمهنة، مقدماً تعريفات قانونية، ومستخدماً عبارات دقيقة، ومرافعات حقوقي. وكنت أراه دائماً محاطاً بشخصين أو ثلاثة أشخاص متيني البنية، لابد أنهم حراسه الشخصيون. وبعض الرجال الذين ينظرون إليه بتوقير ولا يعبرون عن آرائهم أمامه أبداً. كان هناك في كل ما يقوله شيء شديد التعقل، شديد التجريد، يصعب عليَّ معه أن أتخيله كرجل حرب عصابات يحمل مسدساً رشاشاً على كتفه، ويتسلق صخور جبال الأنديز وينزلها. ومع ذلك، فقد سُجن عدة مرات، ونُفي إلى المكسيك، وعاش حياة السرية. وكان أقرب إلى أن يعطي الانطباع بأنه ولد ليتألق في المحاكم، في البرلمان، على المنابر، وفي المفاوضات السياسية، أي في كل ما كان هو ورفاقه يزدرونه باعتباره من ألاعيب الديمقراطية البرجوازية.

أما غييرمو لوباتون فكان شيئاً آخر. فبين جموع الثوريين الذين تعرفتُ عليهم بفضل بول في باريس، لم يبدُ لي أحد بمثل ذكائه وثقافته وحزمه. كان لا يزال شاباً فتياً، يكاد لا يتجاوز الثلاثين؛ لكنه ذو ماض غني كرجل ممارسة عملية. فهو من تزعم إضراب

جامعة سان ماركوس الكبير عام 1952 ضد دكتاتورية الجنرال أودريّا (منذ ذلك الحين صار صديقاً لبول)، وعلى إثر ذلك الإضراب جرى اعتقاله وإرساله إلى سجن الفرونتون وتعذيبه. وهكذا تعرقلت دراسته للفلسفة، حيث كان، كما يقال في سان ماركوس، يتنافس مع لي كاريّو، التلميذ المستقبلي لهيدغر، على مكانة ألمع طالب في كلية الآداب. وفي عام 1954 أبعدته الحكومة العسكرية عن البلاد، وبعد ألف عقبة، وصل إلى باريس، حيث عاد إلى متابعة دراسته للفلسفة في جامعة السوربون، في الوقت الذي كان يكسب فيه قوته بعمل يديه. وقد حصل له الحزب الشيوعي بعد ذلك على منحة في ألمانيا الشرقية، في ليبزج، حيث واصل دراسة الفلسفة، ودرس في مدرسة للكوادر الحزبية. وهناك فاجأته الثورة الكوبية. ما حدث في كوبا دفعه إلى إعادة التفكير بصورة شديدة الانتقاد لاستراتيجية الأحزاب الأمريكية اللاتينية والروح الدغمائية للستالينية. وقبل أن أتعرف عليه شخصياً، كنت قد قرأت عملاً له، جرى تداوله في باريس مطبوعاً على ناسخة ستانسل، يتهم فيه تلك الأحزاب بقطع علاقتها بالجماهير نتيجة خضوعها لإملاءات موسكو، وتناسيها أن «الواجب الأول للثوري هو صنع الثورة»، مثلما كتب تشي غيفارا. وفي هذا العمل الذي يمجد فيه مثال فيدل كاسترو ورفاقه كنماذج ثورية، أوردَ اقتباساً من تروتسكي. وبسبب هذا الاقتباس، أُخضع لمحاكمة تأديبية في ليبزج، وطُرد بطريقة مشينة من ألمانيا الشرقية ومن الحزب الشيوعي البيروي. وهكذا جاء إلى باريس، حيث تزوج من فتاة فرنسية، جاكلين، وهي مناضلة ثورية أيضاً. وفي باريس، التقى ببول، صديقه القديم في جامعة سان ماركوس، وانضم إلى حركة المير. كان قد تلقى تدريباً عسكرياً في كوبا، وكان يعدّ الساعات للعودة إلى البيرو والتحول إلى الممارسة العملية. وخلال أيام الغزو على

كوبا في خليج الخنازير، رأيته يتعدد، فهو يشارك في كل مظاهرات التضامن مع كوبا ويتحدث في اثنتين منها، بفرنسية جيدة، وبخطابية مفخمة.

كان شاباً نحيلاً وطويلاً، ذا بشرة أبنوسية فاتحة، وابتسامة تكشف عن أسنانه البديعة. وهو في الوقت الذي يستطيع فيه مواصلة النقاش لساعات، بإمكانات ثقافية كبيرة، كان قادراً على الاستغراق في حوار مؤثر حول الأدب، أو الفن، أو الرياضة، وخاصة كرة القدم ومآثر فريقه المفضل: «أليانثا ليما». وكان في طريقته في الحياة شيء ينقل عدوى حماسته، مثاليته، وكرم نفسه، وإحساس صلب بالعدالة يوجه حياته؛ وهذا شيء لا أظن أني لمحته ـ لاسيما بتلك الطريقة بالغة الأصالة ـ في أي من الثوريين الذين كانوا يمرون من باريس في الستينيات. فقد ارتضى أن يكون مجرد عضو عادي في حركة المير التي لم تكن تضم من يتمتع بمثل مواهبه وكاريزميته، بل ومن له كذلك مثل ميوله الثورية شديدة الوضوح. وفي المرات الثلاث أو الأربع التي تبادلتُ الحديث معه توصلت إلى القناعة، على الرغم من ارتيابيتي، بأنه إذا كان شخص بمثل ذكاء ونشاط لوباتون على رأس الثوريين، فإنه يمكن للبيرو أن تكون كوبا الثانية في أميركا اللاتينية.

بعد ستة شهور تقريباً من مغادرتها، عدت لتلقي أخبار عن الرفيقة آرليت، من خلال بول. بما أن عقد عملي كمترجم «مؤقت» كان يتيح لي فترات فراغ كثيرة، فقد رحت أدرس اللغة الروسية، مفكراً في أنني إذا ما توصلت إلى التمكن من الترجمة عن هذه اللغة أيضاً ـ وهي إحدى اللغات الرسمية الأربع في الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها آنذاك ـ فإن عملي كمترجم سيكون مضموناً أكثر، كما بدأت بمتابعة دورة في الترجمة الفورية. لقد كان عمل المترجمين الفوريين

أشد زخماً وصعوبة من عمل المترجمين الكتابيين؛ ولكن، لهذا السبب بالذات، كان الطلب عليهم أكبر. وفي أحد تلك الأيام، لدى خروجي من درس اللغة الروسية في مدرسة بيرليتز، في جادة كابوسين، وجدتُ البدين بول ينتظرني عند باب المدرسة.

ـ لدي أخبار عن الفتاة أخيراً ـ قال لي، بدلاً من التحية، بوجه متطاول ـ آسف، ولكنها ليست أخباراً طيبة يا صاحبي.

دعوته إلى أحد المقاهي في محيط الأوبرا، لنتناول كأس، من أجل هضم أفضل للخبر السيئ. جلسنا إلى إحدى مناضد الرصيف، في الهواء الطلق. كان غروباً ربيعياً، دافئاً، في سمائه نجوم مبكرة، وكان يبدو كما لو أن باريس بأسرها قد اندلقت إلى الشارع للاستمتاع بالجو الطيب. طلبنا زجاجتي بيرة.

ـ أفترض أنك بعد مرور كل هذا الوقت، لم تعد مغرماً بها ـ بدأ بول بتهيئتي للخبر السيئ.

ـ هذا ما أفترضه ـ أجبته ـ أخبرني بما لديك مرة واحدة وكفاك إزعاجاً يا بول.

لقد أمضى للتو بضعة أيام في هافانا، وكانت الرفيقة آرليت على أفواه جميع شبان المير البيرويين هناك، لأنها حسب إشاعات متداولة، على علاقة غرامية محمومة مع القومندان تشاكون، معاون أوسماني ثينفويغوس، الشقيق الأصغر لكاميلو، بطل الثورة العظيم الذي اختفت آثاره. وقد كان القومندان أوسماني ثينفويغوس رئيس المنظمة المكلفة بتقديم المساعدة لكافة الحركات الثورية والأحزاب الشقيقة، وتنظيم عمليات التمرد الثوري في كل أنحاء العالم. أما القومندان تشاكون، أحد المتبقين على قيد الحياة من رجال السييرا مايسرا، فهو معاونه وذراعه اليمنى.

ـ أتلاحظ الخبر المهول الذي استقبلوني به؟ ـ كان بول يحك

رأسه، ثم أضاف ـ: تلك النحيلة التي بلا غم ولا أمجاد، على علاقة غرامية من أحد القادة التاريخيين! ليس أقل من القومندان تشاكون!

ـ ألا تكون مجرد إشاعة يا بول؟

هز رأسه متأسفاً، وربت على ذراعي مقدماً لي التشجيع.

ـ لقد التقيت بهما أنا نفسي، في اجتماع في كاسا دي لاس أميركاس. إنهما يعيشان معاً. لقد تحولت الرفيقة آرليت، وإن كنت لا تصدق، إلى شخصية متنفذة، تشاطر قادة الثورة الفراش ومنضدة العمل.

ـ هذا أمر مفيد للمير ـ قلتُ أنا.

ـ ولكنه خراء، بالنسبة إليك ـ وواساني بول بتربيتة أخرى ـ. يا للعنة اضطراري إلى نقل مثل هذا الخبر إليك يا صاحبي. ولكن، من الأفضل أن تعرف، أليس كذلك؟ حسن، لن تكون نهاية العالم. ثم إن باريس تغص بنساء رائعات. انظر حولك وحسب.

وبعد عدة محاولات للمزاح دون أدنى قدر من النجاح، سألتُ بول عن الرفيقة آرليت.

ـ باعتبارها رفيقة أحد قادة الثورة، لن ينقصها أي شيء على ما أتوقع ـ قال متهرباً ـ. أهذا هو ما تريد معرفته؟ أم أنك تريد أن تعرف إذا ما صارت أشهى أو أقبح مما كانت عليه لدى مرورها من هنا؟ إنها نفسها كما أعتقد. محروقة بعض الشيء بسبب شمس الكاريبي. أنت تعرف أنها لم تكن تبدو لي شيئاً من العالم الآخر. وباختصار، لا تُظهر هذا الوجه، فليس هناك ما يستحق العناء يا صاحبي.

لقد حاولتُ مرات كثيرة، خلال الأيام، والأسابيع، والشهور التي تلت ذلك اللقاء مع بول، أن أتخيل التشيلية وقد تحوّلت إلى خليلة القومندان تشاكون، ترتدي زي مقاتلة، وتضع مسدساً على خصرها، وقبعة بيريه زرقاء وجزمة عسكرية، ترافق فيدل وراؤول كاسترو في

استعراضات الثورة ومظاهراتها الكبرى، وتمارس العمل التطوعي في نهاية الأسبوع، وتتعرق بغزارة في حقول قصب السكر بينما يداها الصغيرتان، بأصابعهما الحساسة، تجهدان في إمساك منجل المتشيتي؛ وربما أنها، بتلك السهولة التي تتمتع بها في التحول الصوتي التي أعرفها عنها، صارت تتكلم الآن بنبرة الكاريبيين الموسيقية المتباطئة والحسية. الحقيقة أنني لم أتمكن من تخيلها في دورها الجديد: كانت صورتها تنزلق مني كما لو أنها صورة سائلة. أتكون قد وقعت في حب ذلك القومندان؟ أم أنها وسيلة للتهرب من التدريب العسكري على حرب العصابات، والتهرب قبل ذلك، من التزام مع المير في الذهاب، في ما بعد، لخوض الحرب الثورية في البيرو؟ لم يكن التفكير في الرفيقة آرليت يُحسّن من حالتي بأي حال، بل كنت أشعر في كل مرة كما لو أن قرحة تنفتح عند مدخل معدتي. ولكي أتجنب التفكير فيها، وهو ما كنت أتوصل إليه بصورة وسطية فقط، انكببت على دروس اللغة الروسية والترجمة الفورية بضراوة حقيقية، طوال كل الفترات التي لا يقدم لي فيها السيد تشارنيس عقد عمل، بعد أن صرت على تفاهم جيد معه. وكانت العمة ألبيرتا، التي اقترفتُ في إحدى رسائلي ضعف الاعتراف لها بأني مغرم بفتاة تدعى آرليت، تطلب مني على الدوام صورة لها، فأخبرتها بأننا قد قطعنا علاقتنا، وطلبت منها أن تنسى الأمر إلى الأبد.

كانت قد انقضت ستة أو ثمانية شهور على ذلك المساء الذي قدم لي فيه بول الأخبار السيئة عن الرفيقة آرليت، عندما فوجئت بالبدين الذي لم أره منذ وقت طويل، يأتي باكراً في صباح أحد الأيام للبحث عني في الفندق كي نتناول الفطور معاً. ذهبنا إلى «تورنون»، وهو مقهى في الشارع الذي يحمل الاسم نفسه، عند تقاطعه مع شارع فوجيرار.

- بالرغم من أنه يتوجب عليّ عدم إخبارك، فقد جئت لوداعك - أعلن لي -. سأترك باريس. أجل يا صاحبي، إنني ذاهب إلى البيرو. لا أحد يعلم بالأمر هنا، ولهذا عليك أن تتظاهر بعدم معرفة أي شيء أيضاً. زوجتي وجان بول صارا هناك.

أصابني الخبر بالبكم. وفجأة، داهمني خوف مرعب، حاولت أن أخفيه.

- لا تقلق - طمأنني بول بتلك الابتسامة التي تنفخ خديه وتضفي على وجهه مظهر مهرج -. لن يصيبني شيء، وسوف ترى. وعندما تنتصر الثورة، سنرسلك سفيراً إلى اليونسكو. هذا وعد!

استغرقنا للحظات في رشف فنجاني قهوتنا بصمت. ظل الكروسان الخاص بي على المنضدة دون أن يمس، وحاول بول أن يمزح، فقال لي إنه، بالنظر إلى وجود ما يُفقدني الشهية، فسوف يضحي هو بتناول هذا الهلال المقرمش. ثم أضاف:

- لا بد أن الكروسان سيئ جداً حيث أنا ذاهب.

عندئذ لم أعد قادراً على كبح نفسي، وقلت له إنه سيقترف بذهابه حماقة لا تغتفر. فهو لن يساعد الثورة ولا المير، ولا رفاقه. وهو يعرف ذلك جيداً مثلي. فبدانته التي تجعله يلهث إذا ما مشى كوادرا واحدة في سان جيرمان، ستكون في الأنديز عائقاً رهيباً لحرب العصابات؛ ولهذا السبب بالذات، سيكون هو أحد أول من سيقتلهم الجنود فور بدء الانتفاضة المسلحة.

- هل ستقتل نفسك بسبب أقاويل بلهاء لبضعة حاقدين في باريس يتهمونك بالانتهازية؟ فكر بالأمر أيها البدين، لا يمكنك الإقدام على مثل هذه الحماقة.

- ما يقوله بيرويو باريس لا يهمني في شيء يا صاحبي. لست أفعل ذلك بسببهم، إنه أمر خاص بي. إنها قضية مبدأ. واجبي أن أكون هناك.

وتحـول مـرة أخـرى إلى المـزاح والتأكيـد لـي أنـه فـي التـدريب العسكري، على الرغم من وزنه ذي المئة والعشرين كيلوغراماً، اجتاز كل الاختبـارات، وأظهـر فـوق ذلـك دقـة بـاهرة فـي التسـديد والرمايـة. وأنه ناقش قـراره بـالعودة إلى البيرو مـع لـويس دي لابوينتي وقيـادة المير. الجميع كانوا يريدون منه البقـاء فـي أوروبـا، كممثـل للحركـة لـدى المنظمـات والحكومـات الشـقيقة، لكنـه بعنـاده المجـرب بالرصـاص، تمكن من فرض إرادته. وحين رأيت أنه لا يمكنني عمل أي شـيء، وأن صديقي فـي باريس قد اتخذ قراراً أشبه بالانتحـار، سـألته إذا مـا كـان سفره يعني أن الثورة ستندلع عما قريب.

ـ مسألة شهرين، وربما أقل.

كانت لديهم ثلاثة معسكرات موزعة فـي سلسلة الجبال، أحدها فـي إقليم كوسكو، وآخر فـي بيورا وثالث فـي المنطقة الوسطى، على السـفح الشـرقي لسلسـلة الجبـال، عنـد تخـوم غابـات خـونين. وخلافـاً لتنبـؤاتي، أخبرنـي أن الغالبيـة العظمـى مـن الموفـدين للتـدريب قـد عـادوا إلى البيرو، وتسـللوا إلى جبـال الأنـديز. وأن الانشـقاقات كـانـت أقـل مـن عشرة بالمئة. وبحماسة تتحول فـي بعض اللحظات إلى نشـوة، قـال لـي إن عملية إعادة الموفدين إلى البيرو كانت نجاحاً باهراً. كان سعيداً، لأنـه هو نفسه من تولى قيادة العملية. لقد رجعوا واحداً واحداً أو اثنين اثنين، عبر طـرق معقـدة اضـطروا معهـا، مـن أجـل محـو الأثـر، إلى جعـل بعـض الشـبـان يقومـون بالـدوران حـول العـالم قبـل عـودتهم إلى الـبيرو. وفـي البيرو، كان دي لابوينتي، ولوباتون وغيرهما قد نشرا شبكة منظمات مدينية للدعم، وشكلوا أطقماً طبية، وركبوا فـي المعسكرات أجهـزة اتصـالات، وكـذلك مخـابئ سـرية متفرقـة للمـؤن والمتفجـرات. وقـد كانـت الاتصـالات مـع المنظمـات النقابيـة الفلاحيـة، لاسـيما فـي كوسـكو، رائعـة ويُنتظـر أن فلاحـين كـثيرين سينضـمون إلى النضـال

فور بدء التمرد. كان يتكلم بسعادة، مقتنعاً بما يقوله، بكل ثقة، وبحماسة. أما أنا فلم أستطع إخفاء حزني.

ـ أعرف أنك لا تصدق شيئاً مما أقوله، أيها السيد المتشكك ـ دمدم أخيراً.

ـ أقسم إنه ليس هناك ما يروقني أكثر من تصديقك يا بول. وأتمنى أن تكون لدي حماستك.

هز رأسه وهو يتفحصني بابتسامة محبة كأنها البدر.

ـ وأنت؟ ـ سألني ممسكاً بذراعي ـ. ماذا عنك يا صاحبي؟

ـ أنا، لا شيء ـ أجبته ـ. أنا، هنا، مترجم في اليونسكو، في باريس.

تردد لحظة، خائفاً من أن ما سيقوله يمكن أن يزعجني. لا شك أنه كان سؤالاً يأكل لسانه منذ زمن.

ـ أهذا هو ما تريد أن تكونه في الحياة؟ لا شيء سوى هذا؟ جميع من يأتون إلى باريس يتطلعون إلى أن يصيروا رسامين، كتّاباً، موسيقيين، ممثلين، مخرجين مسرحيين، إنهاء الدكتوراه أو صنع الثورة. وأنت لا تريد سوى هذا فقط: العيش في باريس؟ أعترف لك، يا صاحبي، بأنني لم أستطع ابتلاع هذا الأمر قط.

ـ أعرف ذلك. ولكنها الحقيقة الخالصة يا بول. منذ صغري كنت أقول إنني أريد أن أصير دبلوماسياً، لكنني كنت أريد ذلك كي يرسلوني إلى باريس فقط. فهذا هو ما أريده: العيش هنا. أيبدو لك قليلاً؟

أشرت له إلى أشجار حديقة اللكسمبورغ، مثقلة بالخضرة، طافحة خارج سور الحديقة الحديدي، وتبدو مزهوة تحت السماء الغائمة. أليس هذا أفضل ما يمكن أن يحدث للمرء؟ العيش كما في بيت شعر لباييخو، بين «أشجار الكستناء الوارفة في باريس»؟

ـ اعترف بأنك تكتب الشعر خفية ـ ألح بول ـ فهذا هو إدمانك السري. لقد تحدثنا مرات كثيرة حول هذا الأمر مع بيرويين آخرين. والجميع يعتقدون أنك تكتب ولا تجرؤ على الاعتراف بأنك تكتب بسبب روح الانتقاد الذاتي لديك. أو بسبب الخجل. جميع الأمريكيين اللاتينين يأتون إلى باريس لتحقيق أشياء عظيمة. أتريد إقناعي بأنك استثناء عن القاعدة؟

ـ أقسم لك إنني كذلك يا بول. ليس لدي أي طموح آخر سوى البقاء هنا، مثلما أنا الآن.

رافقته ليركب المترو من مفرق الأوديون. وعندما تعانقنا، لم أستطع الحيلولة دون أن تبتل عيناي.

ـ انتبه لنفسك أيها البدين. لا تقم بحماقات جنونية هناك في أعالي الجبال، أرجوك.

ـ أجل، أجل، بالطبع يا ريكاردو ـ عاد لمعانقتي. ورأيت أن عينيه هو أيضاً قد تضمختا.

ظللت هناك، عند مدخل محطة المترو، أراه ينزل الأدراج ببطء، متعرقلاً بجسده الضخم المكور. وأيقنت يقيناً مطلقاً بأنها آخر مرة أراه فيها.

رحيل البدين بول خلفني خاوياً بعض الشيء، لأنه كان أفضل صديق في أزمنة استقراري في باريس القلقة تلك. ولحسن الحظ، أن عقود عملي كمترجم «مؤقت» في اليونسكو، ودروس اللغة الروسية والترجمة الفورية كانت تشغلني جداً، فأصل ليلاً إلى غرفتي على سطح فندق دي سينا وليس لدي قوة للتفكير في الرفيقة آرليت والبدين بول. ابتداء من هذه الفترة، على ما أظن، ودون تصميم مسبق، رحت أنأى بصورة لا واعية عن جماعة بيرويي باريس، ممن كنت ألتقي بهم من قبل بشيء من التواتر. لم أكن أبحث عن الوحدة، لكن

الوحدة لم تكن مشكلة بالنسبة إليّ مذ صرت يتيماً وتولت العمة ألبيرتا مسؤولية رعايتي. وبفضل اليونسكو لم أعد أعاني ضائقات في معيشتي؛ فأجري كمترجم، والحوالات المتفرقة التي ترسلها عمتي كانت تكفيني للعيش ودفع نفقات متعي الباريسية: السينما، ومعارض الفن التشكيلي، والمسرح، والكتب. كنت زبوناً مواظباً في مكتبة **متعة القراءة**، في شارع سان سيفران، وأكشاك الكتب المستعملة على أرصفة السين. وكنت أذهب إلى المسرح القومي الشعبي، وإلى الكوميدي فرانسيز، ومسرح الأوديون، وبين حين وآخر إلى الحفلات الموسيقية في صالة بلييل.

وفي الفترة نفسها عرفتُ بوادر علاقة رومانسية مع كارمينثيتا، الفتاة الإسبانية التي ترتدي السواد من قدميها حتى رأسها، مثل جولييت غريكو، وتغني برفقة جيتار في «إسكال»، البار الصغير في شارع مسيو لي برنس الذي يرتاده إسبان وأمريكيون جنوبيون. كانت إسبانية، ولكنها لم تطأ أرض بلادها قط، لأن أبويها الجمهوريين لا يستطيعان أو لا يريدان العودة إلى هناك مادام فرانكو حياً. هذا الوضع الملتبس كان يعذبها، وكثيراً ما يتبدى في محادثاتها. كانت كارمينثيتا طويلة القامة، نحيلة، شعرها مقصوص *à la garcon*، ولها عينان كئيبتان. لم يكن صوتها عظيماً، ولكنه رخيم، إلا أنها قبل كل شيء، تلقي بصورة رائعة أغنيات مقتبسة من مقطعات شعرية، وقصائد، وأمثال، وأقوال من العصر الذهبي الإسباني، هامسة بها بتوقفات وتفخيمات شديدة التأثير. كانت قد عاشت حوالي سنتين مع ممثل، وقد سببت لها القطيعة أذى كبيراً حتى إنها ـ وقد قالت لي ذلك بتلك الفظاظة التي كانت تصدمني في البدء من زملائي المترجمين الإسبان في اليونسكو ـ «لا تريد الارتباط بأي رجل في الوقت الحالي». ولكنها كانت تقبل أن أدعوها إلى السينما، أو لتناول

العشاء، وفـي إحـدى الليـالي ذهبنـا إلى الأولمبيـا لسـماع ليو فـيريه الـذي كنا نفضله على غيره من المغنين الرائجين آنذاك: شارل أزنـافور وجـورج براسنس. وعندما ودعتها في محطة مترو الأوبرا، بعد الحفلة الغنائيـة، قالت لي، وهي تلامس شفتي: «لقد بدأتَ تروقني أيها البيروي الصغير». وفي كل مرة كنت أخرج فيها مع كارمينثيتا، كان الغم يداهمني بصـورة سـخيفة، ويجتـاحني إحسـاس بـأنني غـير مخلـص لعشـيقة القومندان تشاكون، وهو شخص كنت أتخيله بشارب ضخم، يتبختر وعلـى إليتيـه زوج مـن المسدسـات. لم تتجـاوز علاقـتي بالإسـبانية تلـك الحـدود، لأنـني فـي إحـدى الليـالي اكتشفتها فـي أحـد أركـان مقهـى «إسـكال» مستغرقة فـي مشـهد شـديد الريـاء بـين ذراعـي سـيد يـربط منديلاً حول عنقه، وله سالفان طويلان.

بعد بضعة شـهور مـن رحيـل بـول، بـدأ السـيد تشـارنيس، عنـدما لا يكون هناك عمل لـي فـي اليونسكو، يوصي بي للتعاقد معي أيضاً كمترجم في نـدوات ومـؤتمرات دوليـة فـي بـاريس أو فـي مـدن أوروبيـة أخـرى. وقـد كـان أول عقـد لـي مـع هيئـة الطاقـة الذريـة، فـي فـيينا، والثـاني فـي أثينـا، فـي مـؤتمر دولـي للقطـن. هاتـان الرحلتـان، لأيـام قصيرة، وأجر مرتفع، أتاحتا لي التعرف على أماكن مـا كـان يمكـن لي الذهاب إليها بطريقـة أخـرى. ومـع أن هـذه الأعمـال الجديـدة قلصـت وقتي بعض الشيء، إلا أنـني لم أتخلَ عن دراسة اللغـة الروسـية ولا عـن ممارسة الترجمة الفورية؛ وإنما واصلت فيهما بصورة متقطعة.

وحـدث لـدى عـودتي مـن إحـدى تلـك الـرحلات القصـيرة، وكانـت هـذه المـرة إلى غلاسـكو، إلى نـدوة حـول التعرفـات الجمركيـة فـي أوروبا، أن وجدت في فندق دي سينا رسالة من ابن عم لأبي، الـدكتور أتـاولفو لاميّـل، محـام فـي ليمـا. هـذا العـم مـن الدرجـة الثانيـة الـذي لم تكـن لـي علاقـة بـه تقريبـاً، يخبرنـي فـي رسـالته بـأن العمـة ألبيرتـا قـد

ماتت، بنزلة صدرية، وأنها اختارتني وريثاً وحيداً لها. وأنه لا بد من ذهابي إلى ليما لتسريع إجراءات نقل الإرث. ويعرض علي العم أتاولفو تذكرة الطائرة كسلفة من حساب ذلك الميراث الذي يخبرني عنه بأنه لن يجعلني مليونيراً، لكنه سيكون عوناً جيداً لإقامتي الباريسية. ذهبت إلى مركز بريد فوجيرار لأرسل إليه برقية، قلت له فيها إنني سأدفع قيمة تذكرة السفر وسوف أسافر إلى ليما بأسرع ما يمكن.

موت العمة ألبيرتا حولني إلى ليلٍ لأيام عديدة. لقد كانت امرأة معافاة ولم تكن قد أكملت الستين من عمرها بعد. ومع أنها محافظة وذات أحكام مسبقة إلى أقصى الحدود، إلا أن هذه العمة العانس، والأخت الكبرى لأبي، كانت على الدوام حنونة معي، ولولا كرمها ورعايتها لما عرفتُ ما الذي كان سيحل بي. فعند موت أبويّ، في حادث سيارة غبي، باصطدامهما بشاحنة انطلقت هاربة، بينما هما مسافران إلى تروخيّو، لحضور زفاف ابنة صديقين حميمين ــ كان عمري يومذاك عشر سنوات ــ، حلت هي محلهما. وكنت أعيش في بيتها إلى أن أنهيتُ دراسة المحاماة وجئت إلى باريس، وبالرغم من أن نزواتها التي مضى زمنها كانت تستثير حفيظتي في أحيان كثيرة، إلا أنني كنت أحبها كثيراً. وبغياب العمة ألبيرتا الآن، سأبقى وحيداً مثل نبتة فطر، وستتخسف روابطي بالبيرو عاجلاً أو آجلاً.

في مساء ذلك اليوم بالذات ذهبت إلى مكاتب الآيرفرانس لشراء تذكرة ذهاب وإياب إلى ليما، ثم مررت على اليونسكو لأشرح للسيد تشارنيس أنه علي أن آخذ إجازة اضطرارية. وبينما أنا أجتاز بهو الدخول التقيت سيدة أنيقة تنتعل حذاء ذا كعب إبري، وتتلفع بعباءة سوداء حوافها من الفرو، نظرت إليّ كما لو أن أحدنا يعرف الآخر.

ـ آي، آي، كم صغير هو العالم ـ قالت لي وهي تقترب وتُقرّب مني خدها ــ ما الذي تفعله أنت هنا، أيها الطفل الطيب؟

ـ أعمل هنا مترجماً ـ تمكنت من التلعثم، وقد أذهلتني المفاجأة تماماً، وكنت واعياً جداً لعطر الخزامى الذي تسلل من فتحتي أنفي وأنا أقبّلها. إنها هي، ولكن عليّ بذل جهد كبير للتعرف على الرفيقة آرليت في هذا الوجه المتبرج جيداً، وهاتين الشفتين الحمراوين، وهذين الحاجبين المنتوفين، وهذه الرموش الحريرية والمقوسة التي تظلل عينين خبيثتين جعلهما قلم الزينة الأسود أكثر طولاً وعمقاً، وفي هاتين اليدين بأظفارهما الطويلة التي تبدو كأنها خرجت للتو من المانيكور.

ـ كم تغيرتِ منذ رأيتك آخر مرة ـ قلت لها وأنا أتأملها من أعلى إلى أسفل ـ منذ حوالي ثلاث سنوات، أليس كذلك؟

ـ وهل تغيرتُ إلى الأفضل أم إلى الأسوأ؟ ـ سألتني، متحكمة تماماً بنفسها، ودارت في المكان حول نفسها وهي تضع يديها على خصرها.

ـ إلى الأفضل ـ اعترفتُ، دون أن أستعيد السيطرة على نفسي بعد من المفاجأة ـ الحقيقة أنك باهرة الجمال. أظن أنه لم يعد بإمكاني تسميتك ليلِي التشيلية، ولا الرفيقة آرليت الفدائية في حرب العصابات. بأي اسم يجب أن أناديك الآن؟

ـ إنني أحمل الآن اسم زوجي، مثلما هو شائع في فرنسا: مدام روبير أرنو.

تجرأت على سؤالها إذا ما كان بإمكاننا تناول فنجان قهوة، من أجل تذكر الأزمنة الغابرة.

ـ ليس الآن، زوجي ينتظرني ـ اعتذرت، بنبرة ساخرة ـ إنه دبلوماسي ويعمل هنا، ضمن الوفد الفرنسي. غداً في الحادية عشرة، في «الساحرين». أنت تعرفه، أليس كذلك؟

ظللتُ تلك الليلة مؤرقاً لوقت طويل، أفكر فيها وفي العمة ألبيرتا. وعندما توصلت إلى النوم أخيراً، رأيت كابوساً غير معقول،

تظهر فيه كلتاهما وكل منهما تهاجم الأخرى بشراسة، غير مباليتين بتوسلاتي لحل خلافهما كشخصين متحضرين. وسبب الشجار بينهما هو أن عمتي ألبيرتا تتهم التشيلية بأنها سرقت اسمها الجديد من إحدى شخصيات فلوبير. استيقظت مضطرباً، متعرقاً، وأنا لا أزال في العتمة، وسط مواء هرّ.

عندما وصلت إلى «**الساحرين**»، كانت مدام روبير أرنو هناك، تجلس إلى منضدة على الرصيف تخفيها واجهة زجاجية، تدخن في مبسم من العاج، وتتناول قهوة. بدت أشبه بدمية مانيكان لعرض الملابس، ترتدي كل شيء أصفر، مع حذاء أبيض، وقبعة مزينة برسوم أزهار. لقد كان التبدل هائلاً حقاً.

ـ أمازلتَ مغرماً بي؟ ـ قالت لي كمدخل، كاسرة الجليد.

ـ السيئ هو أنني أظن ذلك ـ أكدتُ وأنا أشعر بسخونة في خديّ

ـ وإذا لم أكن، فسوف أعود لأكون كذلك منذ هذا اليوم بالذات. لقد تحوّلت إلى امرأة باهرة الجمال، فضلاً عن أناقتك. أراكِ ولا أصدق ما أراه، أيتها الطفلة الخبيثة.

ـ ها أنتذا ترى ما الذي ضيعته لأنك جبان ـ ردّت، وعيناها اللتان بلون العسل تلمعان بنجوم شرر ساخرة، بينما هي تطلق نفثة من الدخان نحو وجهي بتعمد كامل ـ لو أنك قلت نعم في تلك المرة التي عرضتُ عليك أن أبقى معك، لكنت الآن امرأتك. ولكنك لم تشأ إغضاب رفيقك، الرفيق جان، وأرسلتني إلى كوبا. لقد أضعتَ فرصة حياتك يا ريكارديتو.

ـ ألا يمكن إصلاح الأمر؟ ألا يمكنني القيام بمراجعة للوعي، وبوجع للقلب، ونية للإصلاح؟

ـ لقد فات الأوان أيها الطفل الطيب. أي مكسب لزوجة دبلوماسي فرنسي في صعلوك مترجم لدى اليونسكو؟

كانت تتحدث دون أن تتوقف عن الابتسام، محركة فمها بغنج أشد رهافة مما أتذكره منها. وبينما أنا أتأمل شفتيها البارزتين والحسيتين، مستسلما لهدهدة موسيقى صوتها، راودتني رغبات هائلة في تقبيلها. وأحسست أن قلبي يتسرع.

ـ حسن، إذا لم يعد بإمكانك أن تكوني زوجتي، تبقى هناك دائماً إمكانية أن نكون عشيقين.

ـ أنا زوجة وفية، إنني الزوجة الكاملة ـ أكدت لي، مبدية الجدية بتصنع. وواصلت دون تمهيد ـ: وماذا جرى للرفيق جان؟ هل رجع إلى البيرو ليصنع الثورة؟

ـ رجع منذ عدة شهور. لم أعد أعرف شيئاً عنه أو عن الآخرين. ولم أقرأ أو أسمع بوجود حرب عصابات هناك. ربما تحولت كل تلك القلاع الثورية إلى دخان في الهواء. ورجع جميع مقاتلي حرب العصابات إلى بيوتهم ونسوا المسألة.

تبادلنا الحديث حوالي ساعتين. وقد أكدت لي بالطبع، أن كل تلك القصة عن غرامياتها مع القومندان تشاكون هي مجرد تقولات من البيرويين في هافانا؛ والحقيقة أن ما كان بينها وبين ذلك القومندان هو مجرد صداقة طيبة. لم تشأ أن تخبرني أي شيء عن تدريبها العسكري. وكالعادة، تجنبت أي تعليق سياسي أو تقديم أية تفاصيل لي عن حياتها في الجزيرة. حبها الوحيد في كوبا هو القائم بأعمال السفارة الفرنسية الذي رُفّع الآن إلى منصب وزير مستشار، زوجها روبير أرنو. وروت لي وهي تكاد تموت من الضحك والغضب المستعاد، عن العقبات البيروقراطية التي كان عليهما تجاوزها كي يتزوجا، لأنه كان من شبه المستحيل في كوبا أن تهجر موفدة في منحة تدريباتها. ولكن القومندان تشاكون، في هذه القضية، كان «محباً» وساعدها في التغلب على البيروقراطية اللعينة.

- أراهن بما تشائين على أنك ضاجعتِ ذلك القومندان اللعين.

- أتشعر بالغيرة؟

قلت لها أجل، كثيراً. وإنها جميلة جداً لا أتورع عن بيع روحي للشيطان، أو عمل أي شيء، مقابل أن أمارس الحب معها، أو أن أقبّلها فقط. وأمسكتُ يدها وقبّلتها.

- اهدأ - قالت لي، ونظرت في ما حولها، بذعر زائف -. أنسيتَ أنني سيدة متزوجة؟ ماذا لو كان أحد هؤلاء يعرف روبير وذهب إليه بالتقولات؟

قلت لها إنها تعرف تماماً أن زواجها من الدبلوماسي هو مجرد إجراء كان عليها أن ترضخ له كي تتمكن من مغادرة كوبا والاستقرار في باريس. وهو ما يبدو لي جيداً، لأنني أنا أيضاً أرى أنه يمكن للمرء، من أجل باريس، أن يقدم على كل التضحيات. ولكن، عندما نكون وحدنا، عليها ألا تمثل عليّ دور الزوجة الوفية والمحبة، لأننا كلانا نعرف جيداً أن ذلك كله مجرد حكاية. ودون أن تبدي أدنى قدر من الغضب، غيرت الموضوع وأخبرتني أن البيروقراطية هنا ملعونة أيضاً، وأنه لا يمكنها الحصول على الجنسية الفرنسية قبل انقضاء سنتين، على الرغم من أنها متزوجة وفق القانون من مواطن فرنسي. وأنهما استأجرا شقة في باسي. وأنها تقوم الآن بترتيبها، وعندما تصبح في حالة لائقة، ستدعوني إليها كي تعرفني على خصمي الذي هو، فضلاً عن لطفه، رجل واسع الثقافة.

- سأذهب غداً إلى ليما - قلتُ لها - كيف سأراكِ ثانية عند عودتي؟

أعطتني رقم هاتفها، وعنوان بيتها، وسألتني إذا ما كنت لا أزال أعيش في تلك الغرفة الضيقة التي يصاب المرء فيها بالبرد، على سطح فندق دي سينا.

ـ لا أتحمل التخلي عنها لأن أفضل تجربة في حياتي عشتها هناك. لهذا، أرى في هذه الحجرة التافهة قصراً.

ـ هل التجربة التي تعنيها هي التي أتصورها؟ ـ سألتني وهي تقرب وجهها الذي يختلط فيه الفضول والغنج بالخبث دوماً.

ـ إنها هي نفسها.

ـ إنني مدينة لك بقبلة مقابل هذا الذي قلته. ذكّرني عندما نلتقي في المرة القادمة.

ولكنها بعد لحظة من ذلك، ولدى الوداع، تجاهلت حذرها الزوجي، وبدلاً من خدها قدمت لي شفتيها. كانتا ممتلئتين وحسيتين، وخلال الثواني التي أبقتهما ملتصقتين بشفتي أحسستُ بهما تتحركان ببطء، في مداعبة إضافية، مترعتين بالتحريض. وعندما انتهيتُ من اجتياز السان جيرمان باتجاه فندقي، التفتُ لأراها؛ وكانت لا تزال هناك، عند زاوية «الساحرين»، هيئة واضحة وذهبية، بحذاء أبيض، تنظر إليّ وأنا أبتعد. لوحت لها مودعاً بيدي ولوحت هي بيدها التي تحمل القبعة ذات الزهور. كانت رؤيتي لها كافية لأن أكتشف أنني، خلال هذه السنوات، لم أنسها لحظة واحدة، وأنني ظللت مغرماً بها مثلما كنت في اليوم الأول.

عندما وصلت إلى ليما، في آذار 1965، قبل قليل من بلوغي الثلاثين من العمر، كانت صور لويس دي لابوينتي، وغييرمو لاباتون، والبدين بول، وغيرهم من قادة المير، تظهر في كل الصحف وفي التلفزيون ـ صار هناك تلفزيون الآن في البيرو ـ، والجميع يتكلمون عنهم. لقد كان لتمرد المير مظهر رومانسي إلى أقصى الحدود. فالصور أرسلها قادة المير أنفسهم إلى وسائل الاتصال معلنين أن حركة اليسار الثوري، ونظراً إلى ظروف الاستغلال الجائرة التي يتعرض لها ضحاياها من فلاحين وعمال، وخضوع حكومة بيلاوندي تيري للإمبريالية،

قررت الانتقال إلى العمل. وكان قادة الميريكشفون عن وجوههم ويظهرون بشعور طويلة ولحى نامية، يحملون في أيديهم البنادق، ويرتدون زيّ ميدان من كنزات سوداء عالية الياقات، وسراويل خاكية وجزمات. لاحظت أن بول مازال بديناً مثلما كان من قبل. وفي الصورة التي شاعت مطبوعة في الصفحات الأولى من الصحف، كان هو الوحيد، بين أربعة آخرين، من يبتسم.

ـ هؤلاء المجانين لن يستمروا شهراً واحداً ـ تنبأ الدكتور أتاولفو في مكتبه في مركز ليما، في شارع بوثا، صباح اليوم الذي ذهبت لرؤيته ـ: يريدون تحويل البيرو إلى كوبا ثانية! لو أن عمتك المسكينة رأت وجوه قطاع الطرق التي لرجال حرب عصاباتنا الجدد لأغمي عليها.

لم يكن عمي يأخذ على محمل الجد الإعلان عن العمليات المسلحة، ويبدو أن هذا الشعور كان شائعاً على نطاق واسع. فالناس يرون أنها مبادرة جنونية غير معقولة، لن تلبث أن تنتهي. وخلال الأسابيع التي قضيتها في البيرو كنت مثقلاً بإحساس ضاغط، أشعر أنني يتيم في بلادي. عشت في شقة عمتي ألبيرتا، في شارع كولون، في ميرافلوريس، التي مازالت تعبق برائحتها، حيث كل شيء يذكرني بها، مثلما يذكرني بسنواتي الجامعية ومراهقتي دون أبوين. وقد تأثرت حين وجدت في خزانة الكوميدينو جميع الرسائل التي بعثتها إليها من باريس، مرتبة حسب تواريخ إرسالها. رأيت بعض أصدقائي القدماء من سكان حي أليغريا في ميرافلوريس، وذهبت مع ستة منهم في أحد أيام السبت لتناول الطعام في ***التشيفا كوو وها***، إلى جانب الطريق السريع، لاستذكار الأزمنة القديمة. وباستثناء الذكريات، لم تكن لدينا أشياء كثيرة مشتركة، ذلك أن حيواتهم كشبان مهنيين ورجال أعمال ـ كان اثنان منهم يعملان في شركات أبويهما ـ لم يكن لها أي علاقة بالعمل الذي أمارسه أنا في فرنسا.

ثلاثة منهم تزوجوا، وبدأ واحد من هؤلاء بالتكاثر(بتفريخ الأبناء)، أما الثلاثة الآخرون فلهم حبيباتهم، وعما قريب سيتحولن إلى خطيبات. وفي المزاح الذي تبادلناه ـ وهي طريقة لملء فراغ المحادثة ـ تظاهروا جميعهم بالحسد تجاهي لأني أعيش في مدينة الملذات، وأضاجع أولئك الفرنسيات المشهورات بأنهن ضاريات في الفراش. كم ستكون مفاجأتهم لو أنني اعترفت لهم بأن الفتاة الوحيد التي نمت معها، خلال سنواتي في باريس، كانت بيروية، وهي ليست إلا ليلي، تشيلية طفولتنا المزيفة. من ذا الذي يفكر في بؤر حرب العصابات التي تعلن الصحف عنها؟ إنهم مثل العم اتاولفو، لا يولون الخبر أهمية. هؤلاء الكاستروِيون المبعوثون من كوبا لن يستمروا طويلاً. من يستطيع أن يصدق أنه يمكن لثورة شيوعية أن تنتصر في البيرو؟ إذا ما عجزت حكومة بيلاوندي عن وقفهم، فسوف يأتي العسكريون مرة أخرى لفرض النظام، وهو ما لا يروقهم كثيراً أيضاً. وهذا ما كان يخشاه كذلك الدكتور أتاولفو لاميّل:

ـ الشيء الوحيد الذي سيحرزه هؤلاء الحمقى بلعبهم لعبة حرب العصابات، هو أنهم سيقدمون على طبق للعسكريين الذريعة للقيام بانقلاب عسكري. من الذي يخطر له القيام بثورة ضد حكومة مدنية وديمقراطية، وهي حكومة يتهمها الجميع، فوق ذلك، بدءاً من صحيفتي ***لابرنسا والكوميرثيو***، بأنها حكومة شيوعية **لأنها** تريد إجراء إصلاح زراعي. البيرو هي الفوضى يا بن الأخ، وقد أحسنتَ صنعاً بالذهاب للعيش في بلاد المنهجية الديكارتية.

العم أتاولفو أربعيني ممطوط وذو شارب كثيف، يرتدي دوماً بدلة مع صدار وربطة عنق ميشي، متزوج من العمة دولوريس، سيدة طيبة القلب وشاحبة، مصابة بالشلل منذ قرابة عشر سنوات، يقوم هو على رعايتها بتفانٍ. وكانا يعيشان في بيت صغير ولطيف، مع كتب

وأسطوانات، في شارع أوليفار دي سان إيسيدرو، حيث دعواني لتناول الغداء والعشاء. كانت العمة دولوريس تتحمل مرضها دون مرارة، وتشغل نفسها بالعزف على البيانو ومشاهدة المسلسلات التلفزيونية. وقد أجهشت في البكاء عندما تذكرنا العمة ألبيرتا. لم يكن لهما أبناء؛ وكان هو، فضلاً عن مكتبه للمحاماة، يعطي دروساً في القانون التجاري في الجامعة الكاثوليكية. كانت لديه مكتبة جيدة، ويهتم كثيراً بالسياسة المحلية، دون أن يخفي تعاطفه مع الاتجاه الإصلاحي الديمقراطي الذي يجسده، في عينيه، بيلاوندي تيري. لقد تصرف معي على أحسن وجه، فسرّع ما أمكنه إجراءات نقل الميراث، ورفض أن يتقاضى سنتاً واحداً مقابل خدماته: «لا ينقصني إلا هذا، أنا كنت أحب ألبيرتا وأبويك كثيراً يا بن الأخ». كانت أياماً مزعجة، صاحبها مثول لعين أمام كتبة بالعدل وقضاة، وأخذ وثائق والمجيء بوثائق في متاهة قصر العدل، تخلفني مؤرقاً في الليل ومتلهفاً للعودة إلى باريس. وفي فجوات الفراغ، كنت أعيد قراءة *التربية العاطفية* لفلوبير، لأن مدام أرنو في الرواية لم يعد لها، في نظري، اسم الطفلة الخبيثة فقط، وإنما وجهها كذلك. وبعد حسم الضرائب من الميراث، ودفع المستحقات المعلقة التي خلّفتها العمة ألبيرتا، أخبرني العم أتاولفو أنه صار لديّ، بعد بيع البيت وبيع الأثاث في مزاد، حوالي ستين ألف دولار، وربما أكثر قليلاً. إنه مبلغ بديع، لم أحلم بامتلاكه قط. وبفضل العمة ألبيرتا صار بإمكاني شراء شقة صغيرة في باريس.

فور عودتي إلى فرنسا، وما إن صعدت إلى غرفتي على سطح فندق دي سينا، وحتى قبل أن أفتح حقائبي، كان أول ما فعلته هو الاتصال تلفونياً بمدام روبير أرنو.

حددت لي موعداً في اليوم التالي، وقالت إنه يمكننا، إذا شئتُ، أن نتناول الطعام معاً. التقيت بها عند مخرج الأليانس فرنسيز، في

شارع راسباي، حيث كانت تتابع دورة مستعجلة باللغة الفرنسية، وذهبنا إلى مطعم كوبول، في شارع مونبارناس لتناول وجبة **عجل بالكاري**. كانت ترتدي ملابس بسيطة، بنطالاً وصندلاً وسترة خفيفة. وتضع قرطين ملونين يشكلان مجموعة زينة متوافقة مع عقدها وسوارها، وحقيبة تتدلى من كتفها، وكلما هزت رأسها يتماوج شعرها بسعادة. قبّلت خديها ويديها وحيتني هي بالقول «ظننت إنك ستأتي محروقاً أكثر بشمس صيف ليما يا ريكارديتو». الحقيقة أنها تحولت إلى امرأة أكثر أناقة: تؤلف بين الألوان بذوق جيد وتتبرج بظرف شديد. كنت أراقبها، وأنا لا أزال مذهولاً بتحولها. «لا أريد أن تحدثني عن شيء في البيرو»، نبهتني بصورة قاطعة لم أسألها معها عن السبب. بل إنني اكتفيت بإخبارها عن ميراثي. أتساعدينني في البحث عن شقة أنتقل إليها؟

صفقت بحماسة:

ـ تروقني الفكرة أيها الطفل الطيب. وسأساعدك في ترتيب الأثاث والديكور. لدي خبرة اكتسبتها من بيتي. إنه بديع، وسوف تراه.

بعد أسبوع من البحث والمساعي، في الأمسيات، بعد دروسها الفرنسية، اقتادتنا إلى أن نجوب وكالات بيع، وشققاً في الحي اللاتيني، ومونبارناس، والقطاع الرابع عشر، وجدنا شقة من غرفتين، وحمام ومطبخ، في شارع جوزيف غرانييه، في عمارة ***آرت ديكو*** تعود إلى سنوات الثلاثينيات، واجهتها مزينة بأشكال هندسية ـ معينات، مثلثات، دوائر ـ، مجاورة لإيكول ميليتير، في القطاع السابع، وقريبة جداً من اليونسكو. كانت الشقة في حالة جيدة، ومع أنها تطل على فناء داخلي، ولا بد حالياً من صعود الطوابق الأربعة على الأقدام ـ فالمصعد في طور التركيب ـ، إلا أنها كانت مترعة بالضوء، إذ فيها،

فضلاً عن النوافذ الواسعة، كوة كبيرة مقعرة في السقف، تكشف الشقة لسماء باريس. وكان ثمنها يقارب السبعين ألف دولار، لكنني لم أواجه صعوبة في جعل السوسييتي جنرال، المصرف الذي فيه حسابي، يمنحني قرضاً بما ينقصني من السعر. خلال تلك الأسابيع من البحث عن الشقة، ثم جعلها بعد ذلك صالحة للسكن، بتنظيفها، وطلائها، وفرشها ببضع قطع أثاث اشتريتها من لاساماريتين ومن سوق البراغيث، كنت أرى مدام أرنو كل يوم، من الاثنين حتى الجمعة ـ كانت تقضي يومي السبت والأحد مع زوجها، في الريف ـ، منذ خروجها من دروسها حتى الرابعة أو الخامسة مساء. وكانت تستمتع بمساعدتي في مشاويري، وتمارس فرنسيتها مع سماسرة عقارات وبوابي بنايات، وتبدي مزاجاً طيباً إلى حد يبدو معه ـ وقد قلتُ لها ذلك ـ أن تلك الشقة التي تضفي عليها الحياة هي المكان الذي سنتقاسمه معاً.

ـ هذا هو ما ترغب فيه أنت، أليس كذلك أيها الطفل الطيب؟

كنا في مقهى في شارع تورفيل، على مقربة من ليزانفاليد، وكنت أقبّل يديها وأبحث عن فمها، مجنوناً بالحب والرغبة. فهززت رأسي بالإيجاب عدة مرات. ووعدتني قائلة:

ـ يوم تنتقل إلى الشقة، سندشنها.

وقد وفت بوعدها. كانت تلك هي المرة الثانية التي نمارس فيها الحب، وفعلنا ذلك هذه المرة في وضح ضوء النهار الذي يتدفق من كوة السقف الواسعة، حيث كانت بعض الحمائم الفضولية تنظر إلينا ونحن عاريين ومتعانقين على الفرشة التي بلا ملاءات، والمتحررة للتو من البلاستيك الذي أحضرتها ملفوفة به شاحنة محلات لاساماريتين. كانت الجدران تعبق برائحة الطلاء الطازج. وكان جسدها لا يزال نحيلاً جداً وحسن التقاطيع مثلما هو في ذاكرتي،

بخصرها النحيل الذي يبدو أنه يمكن لأصابع يدي أن تحيطا به، وعانتها ذات الشعر الخفيف والمتفرق، والأكثر بياضاً من البطن المشدود أو الفخذين، حيث تصبح البشرة أكثر سمرة تخالطها لمعة تميل إلى الخضرة الشاحبة. وكانت تعبق كلها بأريج لطيف، يزداد حدة في دفء عشيّ إبطيها منزوعي الشعر، ووراء أذنيها، وفي عضوها الصغير والرطب. وفي تكورات أسفل بطنها، يكشف الجلد عن أوردة دقيقة زرقاء، فيستثير شجوني تخيل الدم يتدفق ببطء فيها. وكما في المرة السابقة، تركتني أداعبها بسلبية كاملة واستمعت صامتة، متصنعة اهتماماً مبالغاً به في الإصغاء ـ أو كما لو أنها لا تسمع شيئاً وتفكر في شيء آخر ـ إلى الكلمات الزخمة، المندفعة، التي أهمسُ بها في أذنها، أو في فمها بينما أنا أسعى للمباعدة ما بين شفتيها.

ـ اجعلني أنتهي، أولاً ـ همست لي بنبرة خافتة تخفي كونها آمرة ـ بفمك. وبعد ذلك سيكون إدخالك أسهل. لا تنتهي بسرعة. أرغب في الشعور بالارتواء.

كانت تتكلم ببرود شديد لا تبدو معه فتاة تمارس الحب، وإنما طبيب يصوغ وصفاً تقنياً وغير شخصي للمتعة. لم يهمني ذلك في شيء، فقد كنت سعيداً بالكامل، مثلما لم أكن منذ زمن بعيد، وربما لم أكنه قط. «لن أتمكن أبداً من مكافأتك على هذه السعادة أيتها الطفلة الخبيثة». ظللت لبرهة طويلة وشفتاي تضغطان على ثنايا عضوها، شاعراً أن زغب عانتها يدغدغ أنفي، لاحساً بنهم... برقة، بظرها الصغير، إلى أن أحسست بها تتحرك، تتهيج، وتنتهي برعشة في أسفل بطنها وساقيها.

ـ ادخل الآن ـ همست، بالصوت الآمر نفسه.

ولم يكن الأمر سهلاً في هذه المرة أيضاً. لقد كانت ضيقة،

وكانت تتقبض، تقاومني، تئن، إلى أن تمكنتُ أخيراً من الإدخال. أحسستُ بعضوي ينكسر في ذلك الحشو الذي يخنقه. لكنه كان ألماً رائعاً، دواراً أغرق فيه، رعشة. وعلى الفور تقريباً قذفت.

ـ إنك تنتهي بسرعة ـ أنبتني السيدة أرنو، وهي تشد شعري ـ. عليك أن تتعلم التأخر إذا كنت تريدني أن أستمتع.

ـ سأتعلم كل ما تريدينه، أيتها الفدائية، أما الآن فاصمتي وقبّليني.

في ذلك اليوم بالذات، وعندما استيقظتُ، دعتني لتناول العشاء، كي تعرفني على زوجها. تناولنا كأساً في شقتهم الجميلة في باسي، ذات الديكور المصمم بأشد طريقة برجوازية يمكن تصورها، بستائر من القطيفة، وسجاجيد وثيرة، وآثار من هذا العصر، ومناضد صغيرة عليها تحف خزفية، وعلى الجدران بعض أعمال الحفر لغافارني ودومييه لمشاهد لاذعة. ثم ذهبنا بعد ذلك لتناول العشاء في مطعم مجاور اختصاصه، حسب الدبلوماسي، هو «الديك بالنبيذ». وينصح في التحلية كعكة تاتين.

كان المسيو روبير أرنو قصيراً، أصلع، له شارب ذبابي يتحرك عندما يتكلم، ويضع نظارة سميكة الزجاج، ولا بد أن له ضعف عمر امرأته. كان يعاملها باحترام كبير، يقرّب لها الكرسي أو يرجعه، ويساعدها في خلع المعطف المطري وارتدائه. وظل طوال تلك الليلة متيقظاً، يسكب لها النبيذ كلما فرغ كأسها، ويمد لها طبق الخبز عندما ينقصها الخبز. لم يكن لطيفاً جداً، بل أقرب لأن يكون مغتراً بنفسه وصارماً، لكنه يبدو واسع الثقافة؛ وبالفعل، كان يتحدث عن كوبا وأميركا اللاتينية بثقة كبيرة. ويتكلم إسبانية متقنة، مع أثر يكشف عن سنوات خدمته في منطقة الكاريبي. الحقيقة أنه لم يكن ضمن الوفد الفرنسي في اليونسكو، وإنما هو موفد من

الخارجية الفرنسية كمعاون ومدير لمكتب المدير العام، رينيه ماهو، زميل جان بول سارتر وريمون آرون في دار المعلمين، وكان يقال عنه إنه عبقري رصين. لقد رأيته بضع مرات، وكان يحرسه دوماً هذا الأصلع الأحول الذي تبين لي الآن أنه زوج مدام أرنو. وعندما أخبرته أنني أعمل مترجماً «مؤقتاً» في قسم اللغة الإسبانية، عرض أن يوصي عليّ «تشارنيس، إنه شخص رائع». وسألني عما أفكر فيه بشأن ما يجري في البيرو، قلتُ له إنني منذ زمن لم أتلق أخباراً من ليما.

- حسن، حرب العصابات تلك التي تدور في الجبال - قال وهو يهز كتفيه، كما لو أنه لا يولي الأمر كبير أهمية ـ. تلك الهجمات المسلحة على المزارع، والإغارات على مراكز الشرطة. يا للعبث! وفي البيرو تحديداً، أحد البلدان الأمريكية اللاتينية القليلة التي تحاول بناء ديمقراطية.

هكذا إذن، لقد وقعت أولى عمليات حرب عصابات حركة المير.

ـ عليكِ أن تتركي هذا السيد بأسرع وقت وتتزوجيني ـ قلتُ للتشيلية عندما التقيت بها في المرة التالية ـ. أتريدينني أن أصدق أنك مغرمة بعجوز يبدو كأنه جدك، فضلاً عن أنه قبيح؟

- كلمة نميمة أخرى ضد زوجي، ولن تراني إلى الأبد - هددتني، ثم قامت بواحدة من تلك التحولات المفاجئة الصاعقة التي هي اختصاصها، إذ قالت ضاحكة ـ: أيبدو حقاً عجوزاً جداً بجانبي؟

انتهى شهر عسلي الثاني هذا مع مدام أرنو بعد وقت قصير من ذلك العشاء لأنني لم أكد انتقل من حي إيكول ميليتير حتى جدد السيد تشارنيس عقد عملي. وعندئذ، بسبب مواعيد دوامي، لم أعد أستطيع اللقاء بها إلا للحظات قصيرة، في ظهيرة بعض الأيام، مستغلاً استراحة الساعة ونصف الساعة تلك، من الواحدة حتى الثانية والنصف؛ حيث أعمد، بدل الصعود إلى مطعم اليونسكو، إلى الخروج

لتناول سندوتش معها في أي بار. أو في بعض الأمسيات، حيث تتخلص هي، لا أدري بأية ذريعة، من المسيو أرنو، لتذهب معي إلى إحدى صالات السينما. وكنا نشاهد الفيلم وأيدينا متماسكة، وأنا أقبلها في الظلام. «*Tu m'embêtes.*» [إنك تزعجني]، كانت تمارس فرنسيتها. «*Je veux voir le film, grosse bête.*» [أريد مشاهدة الفيلم، أيها الحيوان الكبير]. لقد حققت تقدماً كبيراً في لغة مونتيني؛ كانت تندفع للتكلم بها دون أدنى خجل، فتبدو أخطاؤها النحوية واللفظية مسلية، ملاحة أخرى تضاف إلى شخصيتها. لم نعد إلى ممارسة الحب إلا بعد انقضاء أسابيع عديدة، بعد رحلة قامت بها إلى سويسرا، بمفردها، ورجعت منها إلى باريس قبل بضع ساعات من موعد عودتها المقرر لتقضي بعض الوقت معي، في شقتي في شارع جوزيف غرانيه.

كل شيء في حياة السيدة أرنو كان لا يزال غامضاً جداً، مثلما كان الأمر في حياة لِيلِي التشيلية، وحياة الفدائية آرليت. وإذا كان صحيحاً ما تقوله لي، فإنها تمارس الآن حياة اجتماعية زخمة، حياة حفلات استقبال، ومآدب عشاء، وحفلات كوكتيل، حيث تتأبط ذراع *tout Paris* [باريس كلها]، فيوم أمس، على سبيل المثال، تعرفت على موريس كوف دي مورفيل، وزير العلاقات الخارجية في حكومة الجنرال ديغول، وفي الأسبوع الفائت رأت جان كوكتو نفسه، في عرض خاص لفيلم ***الموت في مدريد***، وهو فيلم وثائقي لفريدريك روسيف، متأبطاً ذراع عشيقه، الممثل جان ماربيه الذي لا بأس من الإشارة إلى أنه وسيم جداً. وغداً ستذهب إلى حفلة شاي تقيمها صديقاتها على شرف فرح ديبا، زوجة شاه إيران التي تقوم بزيارة خاصة إلى باريس. أهي مجرد هذيان عظمة وتطلعات سنوب، أم أن زوجها قد أدخلها فعلاً في عالم الأضواء والابتذال الضيق الذي يبهرها؟ ومن جهة أخرى، كانت تقوم، أو تقول لي إنها تقوم، برحلات

متكررة إلى سويسرا، وألمانيا، وبلجيكا، لمدة يومين أو ثلاثة أيام في كل مرة، لأسباب لم تكن واضحة قط: معارض فنيه، سهرات، حفلات، كونشيرتات موسيقية. ولأن تفسيراتها تلك كانت تبدو لي وهمية بصورة واضحة، فقد اخترت ألا أتمادى في الأسئلة حول رحلاتها تلك، متظاهراً بأنني أصدق دون تردد المبررات التي تقدمها إليّ أحياناً لرحلاتها تلك، السريعة كوميض البرق.

في مساء أحد أيام أواسط العام 1965، في اليونسكو، دنا مني أحد زملاء المكتب، وهو جمهوري إسباني قديم، يعكف منذ سنوات على كتابة «رواية نهائية وحاسمة حول الحرب الأهلية الإسبانية تصحح مغالطات هيمنغواي»، وسيكون عنوانها *لمن لا تقرع الأجراس*، وقدم لي نسخة من *الليموند* كان يتصفحها: مقاتلو حرب العصابات من كتيبة توباك آمارو التابعة لحركة المير، يقودها لوباتون وتعمل في منطقتي كونثيبثيون وساتيبو، في مقاطعة خونين، قد سطت على بارود أحد المناجم، ونسفت جسراً على نهر مورانيوك، واحتلت مزرعة روناتويّو ووزعت المؤن على الفلاحين. وبعد أسبوعين من ذلك، نصبت كميناً لمفرزة من شرطة الحرس الأهلي على سفح جبل ياهوارينا. تسعة من الحراس، بينهم الماجور الذي يقود الدورية، قتلوا في المعركة. وفي ليما، جرت هجمات بالقنابل في فندق كرييّون والنادي الوطني. وقد فرضت حكومة بيلاوندي حالة الطوارئ في سلسلة الجبال الوسطى كلها. أحسست بقلبي ينقبض. وظللت في ذلك اليوم والأيام التي تلته أهجس بوجه بول البدين المطبوع في ذهني.

كان العم أتاولفو يكتب لي بين فترة وأخرى ـ لقد حلّ محل العمة ألبيرتا كمراسل وحيد لي في البيرو ـ رسائل مترعة بالتعليقات حول الوضع السياسي. ومن خلاله علمت أنه على الرغم من أن مقاتلي حرب العصابات يعملون بصورة متباعدة زمنياً في العاصمة، إلا أن العمليات

العسكرية في وسط وجنوب جبال الأنديز أثارت التشنجات في البلاد. فجريدتا *الكوميرثيو ولابرنسا*، ومناصرو حزب أبريستا والأودريون، تحالفوا الآن ضد الحكومة، وصاروا يتهمون الرئيس بيلاوندي تيري بالضعف في مواجهة المتمردين الكاستروويين، بل اتهموه بالتواطؤ سراً مع التمرد. أما الحكومة، فأوكلت إلى الجيش مهمة قمع المتمردين. «الوضع يسوء يا بن الأخ، وأخشى أن يقع انقلاب عسكري في أي لحظة. فهناك قعقعة سيوف في الأجواء. ومتى لا يكون هناك فصح في كانون الأول في بلادنا البيرو!» وفي رسائله الحانية، كانت زوجته العمة دولوريس تضيف دوماً خاطرة ما بخط يدها.

وبصورة غير متوقعة تماماً، انتهى بي الأمر إلى علاقة توافق مع المسيو روبير أرنو. فقد جاء في أحد الأيام إلى مكاتب قسم اللغة الإسبانية في اليونسكو واقترح عليّ أن نصعد إلى الكافتيريا، في موعد الغداء، لتناول لقمة معاً. ليس لأي سبب خاص؛ لمجرد تبادل الحديث قليلاً، وتدخين سيجارة جيتان بفلتر، وهو الصنف الذي ندخنه كلانا. ومنذ ذلك الحين، صار يأتي أحياناً، عندما تسمح له التزاماته بذلك، ونذهب معاً لتناول قهوة وسندوتش بينما نحن نعلق على الأحداث السياسية الفرنسية والأمريكية اللاتينية، والحياة الثقافية الباريسية التي كان يتابعها كذلك بدقة. كان رجل قراءات وأفكار، يشكو من أنه على الرغم من أن العمل إلى جانب رينيه ماهيو ممتع ومهم، إلا أن المزعج فيه هو أنه لا يُبقي له وقتاً للقراءة إلا في نهاية الأسبوع، وعدم الذهاب إلى المسرح والحفلات الموسيقية إلا نادراً.

وبفضله اضطررت إلى استئجار بدلة سموكينغ وارتداء ملابس الإتيكيت، لأول مرة - وآخر مرة دون شك - في حياتي، لحضور حفلة باليه، يليها عشاء وحفل راقص، لمصلحة اليونسكو، في دار الأوبرا في باريس. لم أكن قد دخلت من قبل قط إلى هذا المكان الفخم،

المزين برسوم جدارية لشاغال في قبة السقف. بدا لي كل شيء جميلاً وأنيقاً. لكن من بدت لي أكثر جمالاً وأناقة هي التشيلية السابقة، الفدائية السابقة، بفستان خفيف من نسيج شفاف أبيض ومطبع بأزهار، يكشف عن كتفيها، وتسريحة عالية، وحلي تملأ جيدها وأذنيها ويديها، خلّفتني فاغر الفم من الإعجاب. وطوال الليل ظل المسنون من معارف مسيو أرنو يتقدمون منها، يقبّلون يدها ويرمقونها ببريق جشع في عيونهم، سمعت أحد أولئك الزنابير المتهيجين يقول: «*Quelle beauté exotique!*» لتلك الجميلة الإكزوتيكية!. وأخيراً استطعتُ طلبها للرقص. وبينما أنا أشدها إليّ، همستُ في أذنها بأنني لم أتخيل مجرد تخيل أن تكون يوماً جميلة مثلما هي الآن. وأنني أتمزق من الداخل وأنا أفكر في أنها عندما تعود إلى بيتها في باسي، بعد حفلة الرقص، سيكون زوجها وليس أنا من سيعريها ويحبها. تركتني الـ *beauté exotique* أتغزل بها وهي تبتسم ابتسامة متنازلة، وأجهزت عليّ أخيراً بتعليق قاسٍ: «يا للمغازلات المتكلفة التي تقولها لي يا ريكارديتو». كنت استنشق العبق الذي يفوح منها كلها، وأحس برغبة عارمة في تقبيلها تُفقدني القدرة على التنفس.

من أين تأتي بالنقود للحصول على هذه الملابس والمجوهرات؟ فعلى الرغم من أني غير خبير بالأشياء الباذخة، إلا أنني كنت أدرك أن الظهور بمثل تلك الملابس الحصرية، واستبدال الثياب بتلك الطريقة ـ في كل مرة أراها كانت تظهر بفستان جديد وتدشن أحذية بديعة ـ، يحتاج إلى موارد أكبر مما يمكن أن يحصل عليه موظف في اليونسكو، حتى وإن كان الذراع اليمنى للمدير العام. حاولت أن أستدرجها في الكلام، بسؤالها إذا ما كانت، فضلاً عن خيانتها المسيو روبير أرنو معي بين حين وآخر، لا تخونه كذلك مع مليونير تستطيع بفضله ارتداء موديلات أكبر بيوتات الأزياء، والتزين بحلي

ومجوهرات ألف ليلة وليلة.

- لو لم يكن لي عشاق سواك، لكنتُ أعيش حياة شحاذة أيها الصعلوك(الشويعر) - ردت عليّ، ولم تكن تمزح.

لكنها قدمت لي على الفور تفسيراً يبدو لا غبار عليه، مع أنني كنت مقتنعاً من زيفه. فالمجوهرات والملابس التي ترتديها ليست مبتاعة وإنما هي مستعارة من كبار مصممي الأزياء في جادة مونتيني وباعة المجوهرات في ساحة الفاندوم، يقدمونها لها، على سبيل الدعاية، لتظهر بها بين السيدات *الشيك* اللواتي يرتدن عالم المجتمع الراقي. أي أنها كانت قادرة، بفضل علاقاتها الاجتماعية، أن تلبس وتتزين مثل أشد نساء باريس أناقة. أم تراني أظن أنها قادرة، براتب دبلوماسي فرنسي، على المنافسة في البذخ مع كبار سيدات مدينة النور.

بعد بضعة أسابيع من ذلك الحفل الراقص في دار الأوبرا، تلقيت مكالمة من الطفلة الخبيثة في مكتب اليونسكو.

– روبير سيرافق رئيسه إلى فرصوفيا في نهاية هذا الأسبوع – أخبرتني –. إنك كمن كسب اليانصيب أيها الطفل الطيب! يمكنني أن أكرس يومي السبت والأحد لك وحدك. فلنر البرنامج الذي ستُعده لي.

أمضيتُ ساعات في تخيل ما الذي يمكن أن يفاجئها ويمتعها، وفي تصور الأماكن المثيرة للفضول التي لا تعرفها في باريس، وفي دراسة العروض التي تُقدم هذا السبت، وأية مطاعم، وبارات أو حانات موسيقى يمكن أن تشد اهتمامها بأصالتها أو طبيعتها السرية والمتفردة. وأخيراً، بعد استعراض ألف احتمال واستبعادها جميعاً، انتهيت إلى أن أختار، لصباح يوم السبت، إذا كان الطقس جيداً، القيام بنزهة إلى مقبرة أسنيير للكلاب، القائمة في جزيرة صغيرة وارفة الأشجار وسط النهر، وعشاء في مطعم «شي آلار»، في شارع

سان أندريه ديزآرت، وإلى المنضدة نفسها التي كنت قد رأيت إليها في إحدى الليالي بابلو نيرودا يتناول العشاء بملعقتين، واحدة في كل يد. ولكي أرفع من سمعة المحل في نظرها، سأقول للسيدة أرنو إنه كان المطعم المفضل للشاعر، وسأخترع لها المينو الذي اعتاد أن يطلبه دوماً. فكرة قضاء ليلة كاملة معها، وممارسة الحب، وتذوق شفتاي ارتعاشات «عضوها ذي الأهداب الليلية» (وهذا بيت من قصيدة *مادة زفافية* لنيرودا، كنت قد رتلتها في مسمعها أول ليلة أمضيناها معاً، في غرفتي على سطح أوتيل دي سينا)، والإحساس بأنها تنام بين ذراعي والاستيقاظ صباح يوم الأحد وجسدها الصغير الدافئ يتكور ملتصقاً بجسدي، أبقتني خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة المتبقية حتى يوم السبت في حالة لا تكاد السعادة، والأحلام، والمخاوف من طارئ يحبط الخطة، تسمح لي بالتركيز على عملي. وكان على مراجع ترجماتي أن يصحح الصفحة مرتين.

كان يوم السبت بديعاً. وفي الدوفين الجديدة التي اشتريتها قبل شهر، أخذت مدام أرنو عند الضحى إلى مقبرة أسنيير للكلاب التي لم تكن تعرفها. بقينا أكثر من ساعة نتجول بين القبور ـ وفضلاً عن الكلاب، كانت تُدفن هناك قطط، وأرانب، وببغاوات ـ ونقرأ الكتابات المتأسية، الشاعرية، الحالمة، السخيفة التي ودع بها الناس حيواناتهم المحبوبة. كانت تبدو سعيدة حقاً. تبتسم، ويدها منسية في يدي، وعيناها اللتان بلون عسل قاتم تتألقان بشمس الربيع، وشعرها يتحرك متموجاً مع النسيم الذي يهب مع مسار النهر. كانت ترتدي بلوزة خفيفة، شفافة، تتيح رؤية ضفاف نهديها، وسترة مفتوحة ترفرف متطايرة مع حركاتها، وحذاء ذا كعب عال بلون القرميد. ظلت مستغرقة لبرهة في تأمل تمثال الكلب المجهول عند المدخل، وأبدت أسفها لأن حياتها «شديدة التعقيد»، ولولا ذلك لأحبت أن تتبنى جرواً.

فسجلتُ ملاحظة ذهنية: هذا سيكون هديتي لها في عيد ميلادها، إذا ما توصلتُ إلى تقصي يوم ميلادها ومعرفته.

شددت خصرها، وجذبتها نحوي، وقلت لها إذا ما قررت هجر المسيو أرنو والزواج مني فإنني سألتزم بجعلها تعيش حياة عادية وتربي ما يحلو لها من الكلاب. وبدلاً من الردّ عليّ، سألتني ساخرة:

ـ فكرة أنك ستقضي الليل معي تجعلك أسعد رجل في العالم، أيها الميرافلوري؟ إنني أسألك كي تقول لي واحدة من تلك المغازلات المتكلفة التي يحلو لك أن تقولها لي.

ـ ليس هناك ما يسعدني أكثر من هذا ـ قلت لها وأنا أضغط شفتي على شفتيها ـ منذ سنوات وأنا أحلم بهذا أيتها الفدائية.

ـ كم مرة ستحبني؟ ـ واصلت هي، بالنبرة الساخرة نفسها.

ـ كل ما أستطيعه أيتها الطفلة الخبيثة. عشر مرات، إذا ما أتاح لي الجسد ذلك.

سأسمح لك بمرتين فقط ـ نبهتني وهي تعض أذني ـ واحدة عندما ننام، وأخرى عند الاستيقاظ. ولكن، دون استيقاظ مبكر. إني أحتاج إلى ثماني ساعات من النوم كحد أدنى، كي لا تظهر لي تجاعيد أبداً.

لم تكن لعوبة قط مثلما كانت في ذلك الصباح. ولا أظنها ستكون كذلك في ما بعد أيضاً. لا أتذكرها بمثل هذه التلقائية، والاستسلام للغريزة، دون تصنع، دون أن تبتدع دوراً، بينما هي تستنشق دفء النهار وتسمح أن يجتاحها الضوء الذي تتخله قمم أشجار الصفصاف. كانت تبدو صبية أكثر مما هي عليه، أقرب لأن تكون مراهقة، وليس امرأة يقارب عمرها الثلاثين. تناولنا سندوتش جامبون مع مخلل خيار وكأس نبيذ في أحد بارات أسنيير، على ضفة النهر، ثم ذهبنا بعد ذلك إلى صالة السينماتيك في شارع أولم لمشاهدة فيلم

أطفال الجنة لمرسيل كارنيه، وكنت أنا قد شاهدته بينما لم تشاهده هي من قبل. ولدى خروجنا، تحدثت عن مدى الفتوة التي يبدو عليها جان لوي بارو وماريا كاساريس، وأنه لم تعد تُصنع أفلام كهذا، واعترفت لي بأن النهاية جعلت عينيها تدمعان. اقترحتُ عليها أن نذهب إلى شقتي لنستريح إلى أن يحين موعد العشاء، ولكنها لم تشأ ذلك، لأن ذهابنا إلى البيت الآن سيوحي لي بأفكار خبيثة. ومن الأفضل لنا انتهاز هذا الأصيل اللطيف للمشي قليلاً. أمضينا بعض الوقت في الدخول والخروج من غاليريات شارع دي سينا، وجلسنا بعد ذلك لتناول شراب مرطب في أحد مقاهي الرصيف في شارع بوشي. أخبرتها بأنني رأيت هناك، ذات صباح، أندريه بريتون يشتري سمكاً طازجاً. كانت الشوارع والمقاهي مزدحمة، وتبدو على الباريسيين ملامح الانشراح واللطف التي يظهرونها في الأيام ذات الطقس الجيد، هذا الشيء النادر. منذ وقت بعيد لم أشعر بمثل هذه السعادة، والتفاؤل، والأمل. عندئذ أخرج لي الشيطان ذيله، ولمحتُ عنوان *الليموند* التي يقرؤها جاري على المنضدة القريبة: «الجيش يدمر المقر العام لرجال حرب العصابات في البيرو». ويقول العنوان الفرعي: «مقتل لويس دي لابوينتي وعدد من قادة المير». هرعتُ لشراء الصحيفة من الكشك الذي على الناصية. كان الخبر بتوقيع مراسل الجريدة في أميركا الجنوبية، مارسيل نيدرغانغ، وكان هناك تعليق في إطار كتبه كلود جوليان يوضح ما هي حركة المير البيروية، ويقدم معلومات عن لويس دي لابوينتي والوضع السياسي في البيرو. ففي شهر آب 1965، حاصرت قوات خاصة من الجيش البيرويّ جبل ميسا بيلادا، إلى الشرق من مدينة كيبّابامبا، في وادي كونفينثيون الكوسكونيّ، وسيطرت على معسكر *Illarec ch'aska* (نجمة الصبح)، وقتلت عدداً كبيراً من رجال حرب العصابات. وقد تمكن لويس دي لابوينتي، وبول إسكوبار

وحفنة من أتباعهما، من الفرار، غير أن رجال كوماندوس الجيش تمكنوا، بعد مطاردة طويلة، من محاصرتهم وقتلهم. ويؤكد الخبر أن طائرات عسكرية قصفت ميسا بيلادا مستخدمة النابالم. ولم تُسلم جثث القتلى إلى ذويهم، كما أنها لم تُعرض على الصحافة. وقد دُفنت، حسب البيان الرسمي، في مكان مجهول، كي لا تتحول قبورهم إلى موقع حج ثوري. وعرض الجيش على الصحفيين أسلحة، وألبسة، وكمية كبيرة من الوثائق، وكذلك خرائط وأجهزة اتصال كانت لدى رجال حرب العصابات في ميسا بيلادا. وهكذا تكون قد تمت تصفية طابور باتشاكوتيك، إحدى بؤر تمرد الثورة البيرويّة. ويأمل الجيش كذلك أن يقضي قريباً على طابور توباك أمارو، المحاصر أيضاً، وهو بقيادة غييرمو لوباتون.

- لا أرى سبباً لأن تبدي هذا الوجه، وأنت تعرف أن ذلك سيحدث عاجلاً أو آجلاً - فوجئت مدام أرنو، وأضافت قائلة: - أنتَ نفسك قلت لي مرات عديدة إنه لا يمكن للأمر أن ينتهي إلا على هذا النحو.

- كنتُ أقول ذلك كتميمة، كيلا يحدث.

لقد قلتُ ذلك، وفكرتُ فيه، وخشيته بالطبع، ولكن معرفة أنه قد حدث هو شيء آخر؛ معرفة أن بول، الصديق الطيب، ورفيق أزمنتي الأولى في باريس، هو الآن جثة تتعفن في مكان مقفر من جبال الأنديز الشرقية، وربما بعد أن جرى إعدامه، وتعذيبه بكل تأكيد، إذا ما كان الجنود قد قبضوا عليه حياً. حاولتُ أن أجعل من أحشائي قلباً، واقترحت على التشيلية أن نتجاهل الموضوع، وألا نسمح لهذا الخبر أن يفسد هبة الآلهة بجعلها لي طوال نهاية الأسبوع. وقد توصلت هي إلى ذلك دون صعوبة؛ فالبيرو بالنسبة إليها، كما بدا لي، هي شيء استبعدته، بكل تعمد، من ذاكرتها، باعتباره كتلة ذكريات سيئة (فقر، عنصرية، تمييز، إهمال، إحباطات متنوعة؟)، وربما

اتخذت منذ زمن بعيد قرار قطع علاقتها بمسقط رأسها إلى الأبد. أما أنا بالمقابل، وعلى الرغم من جهودي المبذولة لتجاهل خبر ***الليموند*** اللعين، وتركيز اهتمامي على الطفلة الخبيثة، لم أستطع نسيان الأمر. وطوال وقت العشاء في «شي آلار» ظل شبح صديقي يُفقدني الشهية وحسن المزاج.

ـ يبدو لي أنكَ لست في وضع مناسب ***للبهجة*** ـ قالت لي مشفقة، عند تناول التحلية ـ أترغب في أن نترك الأمر إلى يوم آخر يا ريكارديتو؟

اعترضت بأن لا، وقبّلت يديها وأقسمت لها إن قضاء ليلة معها، بالرغم من الخبر الفظيع، هو أروع حدث في حياتي على الإطلاق. ولكننا عندما وصلنا إلى بيتي في جوزيف غرانيه وأخرجت هي من حقيبتها اليدوية دمية طفل مدلل، وفرشاة أسنانها، وملابس داخلية نظيفة لليوم التالي. وعندما استلقينا على السرير ـ كنتُ قد اشتريت أزهاراً للصالة ولغرفة النوم ـ وبدأت بمداعبتها، أدركتُ بخجل ومهانة أنني لستُ في وضع يمكنني من ممارسة الحب.

ـ هذا ما يسميه الفرنسيون *fiasco* ـ قالت ضاحكة ـ أتدري أنها المرة الأولى التي يحدث لي هذا مع رجل؟

ـ وكم من الرجال عرفتِ؟ دعيني أخمن. عشرة؟ عشرون؟

ـ إنني سيئة جداً في الحساب ـ قالت غاضبة. ثم انتقمت لنفسها بإصدار أمر: ـ من الأفضل أن تنهيني بفمك. فأنا غير مضطرة إلى التزام الحداد. بالكاد تعرفت على صديقك بول، ولا تنسَ أنه السبب في اضطراري الذهاب إلى كوبا.

ودون قول المزيد، وبالتلقائية نفسها التي تشعل بها سيجارة، فتحت ساقيها واستلقت على ظهرها، واضعة أحد ذراعيها على عينيها، بذلك الجمود التام، وبتركيز عميق ـ متجاهلة وجودي ووجود العالم

المحيط ـ اعتادت الاستغراق فيه بانتظار متعتها. كانت تتأخر طويلاً، على الدوام، في التهيج والانتهاء، ولكنها في هذه الليلة تأخرت أكثر من المعتاد، وكان عليّ أن أتوقف بلساني، مرتين أو ثلاث مرات، لأقبّلها وأرتشفها للحظات. وفي كل مرة كانت يدها توبخني، تشد شعري تقرص ظهري. وأخيراً، أحسست بها تتحرك، وسمعت الهمهمة الخافتة التي يبدو أنها تصعد إلى فمها انطلاقاً من البطن، شعرتُ بتقلص أعضائها، وتنهيدة رضاها الطويلة. تمتمت: «شكراً، ريكارديتو». وعلى الفور تقريباً، استغرقت في النوم. أما أنا فظللت مؤرقاً لوقت طويل، بضيق يضغط على حنجرتي. رأيت حلماً صعباً، تخللته كوابيس لم أكد أتذكر شيئاً منها في اليوم التالي.

استيقظت حوالي التاسعة صباحاً. لم تكن هناك شمس. ومن خلال كوة السقف كانت تظهر سماء غائمة، لها لون كرش حمار، إنها السماء الأزلية الباريسية. وكانت هي لا تزال نائمة، مولية إليّ ظهرها. بدت أكثر شباباً وهشاشة بجسد الطفلة الذي لها، الساكن الآن، يكاد لا يتحرك إلا في تنفس خفيف ومتباعد. لا يمكن لأحد، يراها في هذا الوضع، أن يتخيل الحياة الشاقة التي لا بد أنها عرفتها منذ ولادتها. حاولتُ أن أتخيل الطفولة التي عاشتها، بكونها فقيرة في جحيم الفقراء ذاك المسمى البيرو، ومراهقتها التي ربما تكون أقسى من الطفولة، وآلاف المصاعب، والمكايد، والتضحيات، والتنازلات التي كان عليها تقديمها في البيرو، في كوبا، كي تخرج قُدماً وتصل إلى ما وصلت إليه. ومدى ما حولها إليه من قسوة وبرودة، اضطرارها للدفاع عن نفسها بالأظفار والأسنان ضد سوء الحظ، وكل الأَسِّرة التي كان عليها المرور بها كي لا تُسحق في ميدان المعركة هذا الذي هو الحياة كما أقنعتها التجارب. أحسستُ بحنان جارف نحوها. وكنت واثقاً من أنني سأحبها دائماً لسعادتي، ولتعاستي

أيضاً. هيجتني رؤيتي لها وإحساسي بها تتنفس. بدأت بتقبيل ظهرها، ببطء شديد، مؤخرتها الناهضة، العنق والكتفين، وجعلتها تميل، لأقبّل النهدين والفم. كانت تتظاهر بالنوم، ولكنها كانت قد استيقظت، فقد استوت على ظهرها كي تتلقاني. أحسست بها رطبة، واستطعت لأول مرة الدخول فيها دون صعوبة، دون أن أشعر بأني أمارس الحب مع عذراء. إنني أحبها، أحبها، ولا أستطيع العيش دونها. توسلت إليها أن تهجر المسيو أرنو وأن تأتي معي، سأسكب الكثير من المال، وسأهيم حباً بها، وسأغطي نفقات كل نزواتها، وسـ...

ـ ها قد استعدت قدرتك ـ وانفجرت ضاحكة ـ بل إنك تأخرت أكثر من المرات السابقة. ظننتُ أنك أصبت بالعجز، بعد الـ *fiasco* ليلاً.

عرضتُ عليها أن أعدّ لها الفطور، لكنها فضلت أن نخرج لتناوله خارجاً، كانت تتوحم على كروسان مقرمش. استحممنا معاً، سمحت لي بأن أفركها بالصابون وألفها بالمنشفة، ثم رؤيتها ـ بينما أنا جالس على السرير ـ وهي ترتدي ثيابها، وتسرح شعرها وتتزين. وقمت أنا نفسي بإنعالها الموكاسين، مقبّلاً قبل ذلك أصابع قدميها واحداً فواحداً. خرجنا يداً بيد إلى مقهى في جادة بوردونيه، حيث كانت أهلة الكروسان مقرمشة كما لو أنها خرجت من الفرن للتو.

ـ لو أنك في تلك المرة استبقيتني في باريس، ولم ترسلني إلى كوبا، كم من الوقت كنا سنبقى معاً يا ريكارديتو؟

ـ مدى الحياة. كنت سأجعلك سعيدة بحيث لا تتركينني أبداً.

توقفت عن التكلم مزاحاً ونظرت إليّ، بجد وبشيء من الازدراء:

ـ يا لكَ من ساذج وحالم ـ تهجت الكلمات وهي تتحداني بعينيها ـ أنت لا تعرفني. أنا لن أبقى إلى الأبد إلا مع رجل واسع الثراء والنفوذ. وأنت لن تكون كذلك أبداً، لسوء الحظ.

ـ وماذا إذا لم يكن المال هو السعادة، أيتها الطفلة الخبيثة؟

ـ السعادة، لا أعرف ولست أهتم بأن أعرف ما هي، يا ريكارديتو. ما أنا متأكدة منه هو أنها ليست ذلك الشيء الرومانسي والمتكلف الذي تظنه أنت. المال يمنح الطمأنينة، يحميك، يتيح لك الاستمتاع بالحياة بعمق دون القلق من الغد. إنه السعادة الوحيدة التي يمكن لمسها.

ظلت تنظر إليّ بتلك الملامح الباردة التي تزداد حدّة، بصورة غريبة، في بعض الأحيان، فتبدو كأنها تجمّد الحياة في ما حولها.

ـ أنتَ شخص طيب، غير أن فيك عيباً مريعاً: افتقارك إلى الطموح. أنت سعيد بما توصلت إليه، أليس كذلك؟ لكن ما توصلت إليه ليس شيئاً أيها الطفل الطيب. ولهذا لا يمكنني أن أكون امرأتك. فأنا لا أستطيع أن أقنع مطلقاً بما هو لديّ. أريد المزيد دائماً.

لم أدر بما أجيبها، لأنها ـ وإن كان ذلك يؤلمني ـ محقة في ما قالته. فالسعادة بالنسبة إليّ هي في وجودها معي والعيش في باريس. أيعني هذا أنك إنسان وسطي لا خلاص له يا ريكارديتو؟ أجل، هذا محتمل. وقبل أن نرجع إلى الشقة، نهضت مدام روبير أرنو لتتصل بالهاتف. وعادت بوجه مضطرب.

ـ متأسفة، ولكن عليّ أن انصرف أيها الطفل الطيب. لقد تعقدت أموري.

لم تقدم لي مزيداً من التفسير، ولم توافق كذلك على أن أرافقها حتى بيتها أو المكان الذي ستذهب إليه. صعدنا إلى شقتي لتأخذ حقيبتها اليدوية، ورافقتها لتركب سيارة أجرة، بجوار محطة مترو المدرسة العسكرية.

ـ لقد كانت نهاية أسبوع لطيفة بالرغم من كل شيء ـ قالت مودعة وهي تلامس شفتي، وأضافت: تشاو، *mon amour*.

حين رجعتُ إلى بيتي، مذهولاً من ذهابها المفاجئ، اكتشفتُ أنها

قد نسيت فرشاة أسنانها في غرفة الحمام. إنها فرشاة أسنان بديعة، مطبوع على علبتها توقيع الصانع: ***غيرلان***. هل نسيتها؟ ربما لا. ربما هو نسيان متعمد، لتترك لي ذكرى من هذه الليلة الحزينة، وهذا الاستيقاظ السعيد.

لم أستطع خلال ذلك الأسبوع اللقاء بها أو التحدث إليها، وفي الأسبوع التالي، ودون أن أتمكن كذلك من توديعها - هاتفها لا يجيب طوال الوقت -، سافرتُ إلى فيينا للعمل خمسة عشر يوماً في هيئة الطاقة الذرية. تفتنني هذه المدينة الباروكية، الأنيقة والمزدهرة، ولكن عمل مترجم «مؤقت» في هذه الفترات التي تعقد فيها المنظمات الدولية مؤتمرات، وجمعيات عامة، ومؤتمرات سنوية - وهي أوقات يحتاجون فيها إلى مترجمين ومترجمين فوريين إضافيين - يكون العمل مكثفاً لا يتيح لي وقتاً لزيارة المتاحف، أو حضور حفلات موسيقية وعروض أوبرا، باستثناء ظهيرة أحد الأيام، انتهزتها لأقوم بزيارة سريعة إلى ألبرتينا. وفي الليل، أكون ميتاً من التعب، ولا أكاد أجد وقتاً إلا للدخول إلى أحد تلك المقاهي القديمة، مثل المقهى المركزي، أو لاندتمان، أو هويلكا، أو فراينهابير التي تبدو مصممة بديكور ***العصر الجميل***، لأتناول فيها وجبة **فينيل شنتزيل**، النسخة النمساوية من شرحات الستيك مع العجين التي كانت تعدّها عمتي ألبيرتا، وكأساً من البيرة ذات الرغوة. وأصل إلى فراشي وأنا أترنح من الإرهاق. اتصلتُ عدة مرات بالطفلة الخبيثة، ولكن أحداً لم يرد على الهاتف أو أنه كان يرن مشغولاً. لم أتجرأ على الاتصال بروبير أرنو في اليونسكو كي لا أوقظ شكوكه. ومع انتهاء الخمسة عشر يوماً، اتصل بي السيد تشارنيس هاتفياً، وعرض عليّ عقد عمل لعشرة أيام أخرى في روما، في سيمينار يليه مؤتمر لمنظمة الفاو، وهكذا سافرت إلى إيطاليا دون المرور بباريس. ولم أتمكن من التحدث معها

أيضاً من روما. وفور عودتي إلى فرنسا، اتصلت بها، لم يحالفني النجاح في التحدث معها بالطبع. ما الذي يحدث؟ بدأت أفكر، مغموماً، بوقوع حادث ما، مرض، مأساة منزلية.

كنت عصبياً جداً بسبب استحالة اتصالي بمدام أرنو، مما اضطرني إلى أن أقرأ مرتين رسالة العم أتاولفو التي وجدتها بانتظاري في باريس. لم أكن قادراً على التركيز، وإبعاد التشيلية من رأسي. وكان العم أتاولفو يقدم لي في رسالته شروحاً مطولة حول الوضع السياسي في البيرو. فطابور توباك أمارو التابع لمنظمة المير، بقيادة لوباتون، لم يُقبض عليه بعد، مع أن بلاغات الجيش تقدم تقارير عن اشتباكات مستمرة، تقع فيها على الدوام إصابات في صفوف رجال حرب العصابات. وحسب ما تقوله الصحافة، فإن لوباتون وجماعته قد توغلوا في الأدغال، وحصلوا على حلفاء لهم من قبائل الأمازون، وخاصة قبيلة أشانينكا المنتشرة في المنطقة المحاطة بأنهار إيني، وبيريني، وساتيبو، وآناباتي. وهناك إشاعات عن أن أهالي بعض قرى الأشانينكا، المبهورين بشخصية لوباتون، طابقوا بينه وبين بطل أسطوري، العادل المنتظر إتومي بافا الذي سيرجع يوماً، كما تقول الأسطورة، كي يعيد سلطة هذا الشعب. وكان الطيران الحربي قد قصف قرى في الأدغال، لشكوكه بأنها تخفي مقاتلي المير.

بعد محاولات جديدة غير مثمرة للتحدث مع مدام أرنو، قررتُ الذهاب إلى اليونسكو بحثاً عن زوجها، متذرعاً برغبتي في دعوتهما على العشاء. مررت أولاً لتحية السيد تشارنيس وزملائي في قسم اللغة الإسبانية. ثم صعدت بعد ذلك إلى الطابق السادس، قدس الأقداس، حيث توجد مكاتب كبار المديرين. من الباب لمحت وجه مسيو روبير أرنو المحطم وشاربه الذبابي. قام باختلاجة غريبة حين رآني، ولاحظتُ أنه أشد تجهماً من أي وقت آخر، كما لو أن حضوري يزعجه. أيكون

مريضاً؟ بدا كمن هرم عشر سنوات خلال الأسابيع القليلة التي لم أره فيها. مدّ لي يداً مترددة دون أن ينطق بكلمة، وانتظر مني أن أبدأ الكلام، مصوباً إليّ نظرة ثاقبة بعينيه اللتين كعيني حيوان قارض.

ـ كنت أعمل خارج باريس، في فيينا وروما، خلال هذا الشهر الأخير. وأرغب في دعوتكما إلى العشاء، عندما يكون لديكما وقت فراغ في إحدى الليالي القادمة.

واصل النظر إليّ، دون أن يجيب. كان شاحباً جداً الآن، وبدا على فمه تعبير غم وتقطيب، كما لو أنه يتكلف مشقة في الكلام. ارتعشت يداي. هل سيقول لي إن زوجته قد ماتت؟

ـ أنت لم تعرف إذن ـ دمدم بجفاء ـ. أم أنك تمثل مسرحية؟

أصبتُ بالارتباك، ولم أعد أعرف كيف أردّ عليه.

ـ اليونسكو كلها تعرف ـ أضاف متهكماً بصوت خافت ـ. إنني أضحوكة المنظمة. لقد هجرتني زوجتي، حتى إنني لا أعرف مع من ذهبت. فكرتُ أنها فعلت ذلك معك يا سيد سوموكورثيو.

انقطع صوته قبل أن ينتهي من نطق كنيتي. كانت ذقنه ترتعش، وبدا لي أن أسنانه تصطك. تلعثمتُ بأنني آسف، وأنني لم أكن أعرف شيئاً، وكررت ببلاهة أنني كنت أعمل خارج باريس في هذا الشهر، في فيينا وروما. ثم غادرت مودعاً دون أن يرد مسيو أرنو على تحية وداعي.

المفاجأة والاستياء كانا عظيمين، حتى إنني أحسست بالغثيان وأنا في المصعد، ثم تقيأت في حمام الممر. مع من تراها ذهبت؟ أما زالت تعيش في باريس مع عشيقها؟ ورافقني طوال الأيام التالية التفكير في أن نهاية الأسبوع تلك كانت هدية وداعها لي. كي يظل لدي شيء خاص يجعلني أشتاق إليها. الفضلة التي تُلقى إلى الكلب يا ريكارديتو. أيام مشؤومة تلت ذلك اللقاء القصير مع ميسيو أرنو. ولأول

مرة فـي حياتي، عانيت السهاد. كنت أقضـي الليـالي متعرقـاً، وغـائم الـذهن، أشـد على فرشـاة الأسـنان ماركـة غـيرلان الـتي احتفظتُ بهـا كتميمـة فـي الكوميـدينو المجـاور لسـريري، أجتر سـخطي وغيرتـي. وفي اليوم التالي أكون منهاراً، جسدي تنتابه القشعريرة، وليس لدي حماسة لعمل أي شيء، ولا حتى الأكل. وصف لي الطبيب المنومات، لكنها كانت تسبب لي الإغماء أكثر مما تساعدني على النوم. كنت أستيقظ مضطرباً وأنا أرى تهويمات، كما لو أنني أستيقظ من سكرة ضارية. وأظل طوال الوقت ألعن نفسي لغبائي في ذلك اليوم الذي أرسلتها فيه إلى كوبا، مقدماً صداقتي لبول على الحب الذي أكنه لها. فلو أنني استبقيتها، لكنا واصلنا معاً، ولما كانت الحياة هذا الأرق، هذا الفراغ، وهذه المرارة.

ساعدني السيد تشارنيس على الخروج من الذوبان العاطفي البطيء الذي كنتُ فيه، بتقديمه لي عقداً لمدة شهر. أحسست برغبة في شكره جاثياً. وبفضل روتين العمل في اليونسكو رحتُ أخرج شيئاً فشيئاً من الأزمة التي خلّفني فيها اختفاء التشيلية السابقة، الفدائية السابقة، مدام أرنو السابقة. ما هو اسمها الآن؟ أي شخصية، أي اسم، أي قصة اتخذت لنفسها في هذه المرحلة من حياتها؟ لابد أن يكون عشيقها الجديد شخصاً مهماً جداً، أهم بكثير من هذا مستشار مدير اليونسكو الذي صار متواضعاً جداً بالنسبة لتطلعاتها، والذي خلّفته متحولاً إلى خرقة. لقد حذرتني بوضوح في ذلك الصباح الأخير: « أنا لن أبقى إلى الأبد إلا مع رجل واسع الثراء والنفوذ». كنتُ موقناً من أنني لن أراها هذه المرة أبداً. عليكَ أن تقهر نفسك وتنسى البيروية ذات الألف وجه، وتُقنع نفسكَ بأنها لم تكن إلا حلماً خبيثاً أيها الطفل الطيب.

ولكن، بعد أيام من عودتي للانغماس في العمل في اليونسكو،

حضر المسيو أرنو إلى الحجيرة التي تشكل مكتبي، بينما كنت أترجم تقريراً عن التعليم ثنائي اللغة في بلاد أفريقيا جنوبي الصحراء.

ـ يؤسفني أنني كنت فظاً معك في لقائنا الأخير ـ قال لي متضايقاً ـ لقد كنتُ في حالة معنوية سيئة في ذلك الحين.

عرض عليّ أن نتناول العشاء معاً. ومع أنني كنت أعرف أن ذلك العشاء سيكون كارثياً لحالتي المعنوية، إلا أن فضولي لسماع كلام عنها، ومعرفة ما جرى، كان أقوى، وقبلت الدعوة.

ذهبنا إلى «شيزو»، وهو مطعم في الدائرة السابعة، غير بعيد عن بيتي. كان العشاء الأكثر توتراً ومشقة حضرته على الإطلاق. ولكنه كان رائعاً أيضاً، لأنني اكتشفت فيه أشياء كثيرة عن مدام أرنو السابقة، وعرفتُ كذلك المدى البعيد الذي بلغته في سعيها إلى ذلك الأمان الذي تطابقه مع الثراء.

طلبنا ويسكي مع الثلج وبيرييه كمقبلات، وبعد ذلك نبيذاً أحمر، ومأكولات لم نكد نتذوقها. كانت لدى «شي زو» وجبة ثابتة مؤلفة من أطباق شهية تأتي في قدور صغيرة وعميقة، وراحت مائدتنا تمتلئ بالصلصات، الحلزونات، السلطات، الأسماك، اللحوم، لا يلبث النُدل المتفاجئون أن يبدؤوا برفعها دون أن تمس تقريباً، كي يفسحوا المكان لتشكيلة كبيرة ومتنوعة من التحلية، أحدها غارق في شوكولاته تفور، دون أن يدركوا سبب ازدرائنا كل هذه اللذائذ.

سألني روبير أرنو منذ متى أعرفها. فكذبتُ عليه بأني لا أعرفها إلا منذ 1960 أو 1961، في باريس، عند مرورها من المدينة في طريقها إلى كوبا كإحدى موفدات حركة المير لتتلقى دورة تدريب على حرب العصابات.

ـ هذا يعني أنك لا تعرف شيئاً عن ماضيها، عن أسرتها ـ هز السيد أرنو رأسه، كما لو أنه يكلم نفسه ـ لقد كنت أعرف طوال

الوقت أنها تكذب عليّ. أعني بشأن أسرتها وطفولتها. لكنني أعذرها. كانت تبدو لي أكاذيب بيضاء، من أجل إخفاء طفولة وشباب تخجل منهما. لأنها لابد أن تكون من طبقة اجتماعية شديدة التواضع. أليس هذا صحيحاً؟

ـ لم تكن تحب التحدث في هذا الأمر. فهي لم تخبرني أي شيء عن أسرتها. ولكن، لا شك في أنها من طبقة شديدة التواضع، أجل.

ـ يحزنني ذلك، لقد كنتُ أدرك كل ذلك الجبل الثقيل من الأفكار المسبقة في المجتمع البيرويّ: الألقاب الكبيرة، العنصرية. الادعاء أنها كانت في السوفيانوم، أفضل مدرسة تديرها الراهبات في ليما، حيث يربون فتيات المجتمع الراقي. وأن أباها كان يملك مزارع قطن. وأنها قطعت علاقتها بأسرتها بسبب أفكار مثالية، كي تصير ثورية. لم تكن الثورة تهمها أبداً، وأنا واثق من ذلك! لم أسمعها تبدي رأياً سياسياً واحداً منذ عرفتها. وكانت مستعدة لعمل أي شيء من أجل الخروج من كوبا. بما في ذلك الزواج مني. وعندما خرجنا، عرضتُ عليها القيام برحلة إلى البيرو، لأتعرف على أسرتها. وطبعاً، روت لي خرافات أخرى. إنهم سيزجون بها في السجن فور أن تطأ قدماها أرض البيرو، لأنها كانت مع المير، وفي كوبا. وكنت أتسامح مع اختلاقاتها هذه. كنت أدرك أنها تتولد من إحساسها بعدم الطمأنينة. فقد انتقلت إليها عدوى تلك الأفكار الاجتماعية والعرقية المسبقة، المتجذرة بقوة في بلدان أميركا الجنوبية. ولهذا اختلقت لي تلك السيرة عن حياتها كطفلة أرستقراطية لم تكنها قط.

كنتُ أشعر في بعض اللحظات أن المسيو أرنو ينسى وجودي. حتى إن نظره كان يضيع في نقطة في الفراغ، ويُخفض صوته كثيراً إلى حدّ تتحول معه كلماته إلى همهمة غير مسموعة. وفي أحيان أخرى، يعود إلى ذاته، فينظر إليّ بارتياب وكراهية ويحثني على إخباره إذا ما

كنتُ أعرف بأن لها عشيقاً. فأنا مواطنها، وصديقها، ألم تبح لي بشيء قط؟

ـ لم تخبرني بأي كلمة. ولم أرتب قط بأن لها عشيقاً. كنت أظن أنكما متحابان، وتعيشان بسعادة.

ـ وهذا ما كنت أظنه أنا أيضاً ـ دمدم وهو يخفض رأسه. ثم طلب زجاجة أخرى من النبيذ. وأضاف بنظرة مؤرقة وصوت فظ ـ: لم تكن بحاجة لعمل ما فعلته. لقد كان عملاً قبيحاً، قذراً، ومن عدم الوفاء أن تتصرف معي على هذا النحو. لقد منحتها اسمي، وكنت أموت لأُسعدها. عرّضت منصبي للخطر كي أخرجها من كوبا. وقد كانت تلك محنة حقيقية. لا يمكن لعدم الوفاء أن يصل إلى هذه الحدود. كل تلك الحسابات، وكل ذلك النفاق.. إنها حالة غير إنسانية.

سكت فجأة. حرك شفتيه دون أن يصدر صوتاً، وراح شاربه المربع يتقلص ويتمدد. كان قد أمسك كأسه الفارغة وشدّ عليها كما لو أنه يريد تفتيتها. وكانت عيناه محتقنتين ورطبتين.

لم أدر ماذا يمكنني أن أقول له، فأي جملة عزاء تخرج مني ستبدو زائفة ومضحكة. وفجأة، أدركتُ أن سبب كل ذلك اليأس ليس الهجر فقط. كان هناك شيء آخر يريد إخباري به، لكنه يتكبد مشقة في قوله.

ـ مدخرات حياتي كلها ـ همس المسيو أرنو وهو يرمقني بنظرة اتهام، كما لو أنني المذنب في مأساته ـ. أتلاحظ؟ إنني رجل متقدم في السن، لستُ في وضع يمكنني من إعادة ترتيب حياتي كلها. أتفهمني؟ لم تخدعني فقط مع من لا أدري من يكون، لابد أنه وغد خططت معه للمكيدة. بل أقدمت فوق هذا على سحب كل النقود التي كانت في حساب مشترك في سويسرا. لقد قدمتُ لها هذا الدليل على ثقتي بها، أترى؟ حساب مشترك. مقدراً أنني قد أصاب بحادث، أو

أموت فجأة. كي لا تستولي ضرائب نقل التركة على كل ما ادخرتهُ طوال حياة من العمل والتضحية. أترى مدى عدم الوفاء، مدى الخسة؟ ذهبت إلى سويسرا لتودع مبلغاً، ولكنها استولت على كل شيء، كل شيء، وتركتني مفلساً. *Chapeau, un coup de maître!* [تهاني، إنها ضربة معلم]. كانت تعرف أنني لا أستطيع تقديم شكوى ضدها دون أن أشي بنفسي، دون أن أدمر سمعتي ومنصبي. كانت تعرف أنني سأكون المتضرر الأول إذا ما تقدمت بشكوى ضدها، بسبب امتلاكي حسابات سرية للتهرب من الضرائب. أترى كم كان تخطيطها جيداً؟ أتظن أن هناك مثل هذا القدر من القسوة تجاه شخص لم يمنحها سوى الحب، الإخلاص؟

كان يذهب ويجيء حول الموضوع نفسه، مع توقفات نشرب خلالها النبيذ، صامتين، كل منا مستغرق في أفكاره. أيكون من الخبث سؤاله عما يؤلمه أكثر: هجرها له أم سرقة حسابه السري في سويسرا؟ كنت أشعر بالأسى عليه، بتأنيب الضمير، لكنني لا أدري كيف أشجعه. كنت أقتصر على التدخل، بين حين وآخر، بعبارات قصيرة، ودية. الحقيقة أنه لم يكن راغباً في تبادل الحديث معي. لقد دعاني لأنه بحاجة إلى من يسمعه، إلى أن يقول بصوت عال، أمام شاهد، أموراً تحرق قلبه منذ اختفاء امرأته.

ـ أعذرني، لقد كنتُ بحاجة إلى الفضفضة عن نفسي ـ قال لي في النهاية، بعد أن انصرف جميع الزبائن، وظللنا وحدنا تحت مراقبة نظرات نُدل **الشيزو** نافدي الصبر ـ أشكر لك صبرك. وآمل أن يحسِّن هذا البوح من حالتي.

قلت له إنه سيُخلف هذا كله وراءه وينساه بعد بعض الوقت، وإنه ليس هناك شر يستمر مئة عام. وبينما أنا أتكلم، أحسست أنني منافق تماماً، ومذنب كما لو أنني من خطط لهروب مدام أرنو السابقة

وسرقة الحساب السري.

- إذا ما التقيتَ بها يوماً، أرجوك أن تخبرها. لم تكن بحاجة إلى عمل ما أقدمت عليه. أنا نفسي كنت سأعطيها كل شيء. أكانت تريد نقودي؟ كنت سأعطيها إياها. ولكن ليس هكذا، ليس بهذه الطريقة.

تصافحنا مودعين عند باب المطعم، تحت بريق أنوار برج إيفل. وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي أرى فيها المسيو روبير أرنو المخدوع.

طابور توباك آمارو، التابع لحركة المير، بقيادة غييرمو لوباتون، استطاع الاستمرار حوالي خمسة أشهر إضافية بعد تدمير مقر قيادته في ميسا بيلادا. ومثلما كان قد جرى للويس دي لابوينتي، وبول إسكوبار ومقاتلي المير الذين قُتلوا في وادي لاكونبينشيون. ولم يقدم الجيش هنا أيضاً تفاصيل محددة عن الطريقة التي قضى بها على عناصر هذه الوحدة من رجال حرب العصابات. فعلى امتداد النصف الثاني من العام 1965، وبمساعدة أبناء قبيلة أشانينكا في غران باخونال، ظل لوباتون ورفاقه يفلتون من حملات مطاردة القوات الخاصة في الجيش التي كانت تتحرك بطائرات هيلكوبتر وعلى الأرض، وتمشط بوحشية دساكر السكان الأصليين الذين يوفرون لهم الملاذ والأغذية. وأخيراً، في يوم السابع من كانون الثاني 1966، وقع الطابور المنهار، والمؤلف من اثني عشر رجلاً أنهكهم البعوض، على مقربة من نهر سوتزيكي. هل ماتوا في المعركة أم أُلقي القبض عليهم أحياء وأُعدموا؟ لم يُعثر على قبورهم قط. وحسب إشاعات غير مؤكدة، جرى حمل لوباتون ومساعده في طائرة هيلكوبتر وألقي بهما في الأدغال كي تتولى الحيوانات إخفاء آثار جثتيهما. زوجة لوباتون الفرنسية، جاكلين، حاولت على امتداد عدة سنوات، من خلال حملات في البيرو والخارج، جعل الحكومة تكشف عن مكان

قبور المنتفضين في حرب العصابات قصيرة الأجل تلك، دون أن تتوصل إلى مرادها. أكان هناك أحياء؟ أيعيشون حياة سرية في تلك البيرو المضطربة والمنقسمة في أواخر عهد الرئيس بيلاوندي تيري؟ وقد كنت، وأنا أستعيد توازني من آثار اختفاء الطفلة الخبيثة، أتابع تلك الأحداث البعيدة من خلال رسائل العم أتاولفو. وكنت ألحظ أنه يزداد تشاؤماً حول إمكانية عدم انهيار الديمقراطية في البيرو. فقد كان يؤكد لي: «العسكريون أنفسهم الذين ألحقوا الهزيمة برجال حرب العصابات، يتهيؤون الآن لهزيمة دولة القانون والقيام بانقلاب عسكري آخر».

وذات يوم طيب، وبصورة غير متوقعة، التقيت وجها لوجه، في ألمانيا، مع أحد الناجين من ميسا بيلادا: ولم يكن إلا ألفونسو الروحاني، ذلك الفتى الذي أرسلته جماعة تيوصوفية من ليما، وانتزعه بول البدين من عالم الأرواح وما وراء القبر ليجعل منه رجل حرب عصابات. كنتُ يومذاك في فرانكفورت، أعمل في مؤتمر دولي حول الاتصالات، وفي إحدى الاستراحات، هربت إلى أحد المتاجر للقيام ببعض المشتريات. وإلى جوار الصندوق، أمسك أحدهم ذراعي. عرفته فوراً. كان قد اكتسب بعض السمنة خلال السنوات الأربع التي لم أره فيها، وترك شعره يطول كثيراً ـ التقليعة الجديدة في أوروبا ـ، أما وجهه الأبيض، ذو الملامح المتحفظة، والحزينة بعض الشيء، فكان هو نفسه. إنه في ألمانيا منذ بضعة شهور. وقد حصل على وضع اللاجئ السياسي، ويعيش مع فتاة من فرانكفورت كان قد تعرف إليها في باريس، في أزمنة بول. ذهبنا لتناول قهوة في كافتريا المتجر نفسه التي تغص بسيدات معهن أطفال ممتلئون، ويقوم أتراك على خدمتهن.

لقد نجا ألفونسو الروحاني بأعجوبة من هجوم مغاوير الجيش

الذين دمروا ميسا بيلادا. كان قد أُرسل إلى كييّابامبا قبل أيام قليلة موفداً من لويس دي لابوينتي؛ فالاتصالات لم تكن تعمل بصورة جيدة مع قواعد الإسناد المدينية، ولم تكن لديهم في المعسكر أخبار عن جماعة مؤلفة من خمسة شبان تلقوا التدريب وكان وصولهم مقرراً منذ أسابيع.

ـ كانت قاعدة الإسناد في مدينة كوسكو مخترقة ـ أوضح لي، متكلماً بالهدوء نفسه الذي أتذكره منه ـ. اعتقلوا العديد منهم، وخلال التعذيب، تكلم أحدهم. وهكذا وصلوا إلى ميسا بيلادا. لم نكن قد بدأنا العمليات في الحقيقة. لقد استبق لوباتون وماكسيمو فيلاندو الخطط، هناك في خونين. وبعد ذلك الكمين في ياهوارينا، حيث قتلوا عدداً كبيراً من رجال الشرطة، أرسلوا الجيش في أثرنا. ولم نكن نحن، في كوسكو، قد بدأنا التحرك بعد. ففكرة دي لابوينتي كانت ضد البقاء في المعسكر، وإنما التنقل من مكان إلى آخر. «فبؤرة حرب العصابات هي التحرك الدائم»، وفق تعاليم تشي غيفارا. ولكنهم لم يتيحوا لنا الوقت، ووجدنا أنفسنا محاصرين ضمن المنطقة الأمنية.

كان الروحاني يتكلم بابتعاد مثير للفضول حول ما يقوله، كما لو أن ذلك قد جرى منذ قرون. لم يكن يدري أي توافق في الظروف هو الذي حال دون أن تطال المداهمات قواعد إسناد المير في مدينتي كييّابامبا وكوسكو. ظل مختبئاً في بيت أسرة من كوسكو، كان يعرفها منذ زمن بعيد، من خلال طائفته التيوصوفية. لقد عاملوه على أحسن وجه، بالرغم من الخوف الذي كان يسيطر عليهم. وبعد حوالي شهرين من ذلك، أخرجوه من المدينة، متخفياً في شاحنة بضائع، وأوصلوه إلى بونا. ومن هناك استطاع الانتقال بسهولة إلى بوليفيا، حيث توصل، بعد مساع طويلة، إلى نيل موافقة ألمانيا الغربية

على قبوله كلاجئ سياسي.

- أخبرني عن البدين بول، وكيف كان هناك في أعالي الجبال، في ميسا بيلادا.

لقد تأقلم جيداً، كما يبدو، مع تلك الحياة ومع ارتفاع 3800 متر. معنوياته لم تتردَ قط، مع أن بدانته أحياناً، في مسيرات استطلاع المنطقة المحيطة بالمعسكر، كانت تلعب معه مزحات ثقيلة. خاصة عندما كان لابد من تسلق جبال أو نزول وهاد تحت مطر طوفاني. وفي إحدى المرات سقط على سفح كان بركة من الوحل، وتدحرج عشرين، ثلاثين متراً. ظن رفاقه أنه قد هشم رأسه، لكنه نهض بأقصى ما يمكن من الانتعاش، يغطيه الوحل من قدميه حتى رأسه.

- لقد نحل كثيراً - أضاف ألفونسو -. وفي صباح اليوم الذي ودعته فيه، في معسكر «نجمة الفجر»، كان نحيلاً مثلك تقريباً. وكنا في بعض الأحيان نتحدث عنك، فيقول: «ما الذي يفعله يا ترى سفيرنا في باريس؟ أتراه تشجع وطبع أشعاره التي يكتبها سراً؟» لم يفقد حسّ الفكاهة قط. وكان يكسب دائماً مسابقات رواية النكات التي كنا نقيمها ليلاً لمقاومة الضجر. زوجته وابنه يعيشان الآن في كوبا.

كنت راغباً في البقاء لوقت أطول من ألفونسو الروحاني، غير أنه كان عليّ أن أعود إلى المؤتمر. تبادلنا الوداع عناقاً، وأعطيته رقم هاتفي كي يتصل بي إذا ما مرّ يوماً بباريس.

قبل قليل أو بعد قليل من هذه المحادثة، تحققت نبوءات عمي أتاولفو المتشائمة. ففي الثالث من شهر تشرين الأول 1968، قام العسكريون بقيادة الجنرال خوان فيلاسكو ألفارادو بانقلاب قضى على الديمقراطية التي يترأسها بيلاوندي تيري، فأُرسل هذا إلى المنفى، وبدأت دكتاتورية عسكرية جديدة في البيرو، ستستمر اثنتي عشرة سنة.

III. رسام الخيول في *سوينغينغ لندن*

في النصف الثاني من عقد الستينيات، حلّت لندن محل باريس كمدينة الصرعات الجديدة التي تنطلق من أوروبا، وتنتشر في أنحاء العالم. فقد حلت الموسيقى محل الكتب والأفكار لتصبح محط اجتذاب الشباب، وخاصة مع انطلاق فريق البيتلز، وكذلك كليف ريتشارد، وفريق الشادوز، والرولينغ ستونز، ومايك جاغر وغيرهم من الفرق الموسيقية والمغنين الإنكليز، والهيبيين والثورة البسيكولوجية لِـ *the flower Children*. ومثلما شاعت الهجرة إلى باريس لصنع الثورة من قبل، هاجر أمريكيون لاتينيون كثيرون إلى لندن للانضمام إلى شراذم القنب، وموسيقى البوب وحياة الاختلاط. وحل كاثبي ستريت محل السان جيرمان كسُرَّة للعالم. وفي لندن ولد الميني جوب، والشعور الطويلة، والملابس والزينات الغريبة الشاذة التي كرستها الأعمال الموسيقية الاستعراضية، مثل «*هير*» و«*المسيح سوبر ستار*»، وانتشار المخدرات، بدءاً من الماريجوانا وانتهاء بعقار الهلوسة، والانبهار بالروحانية، والهندوسية، والبوذية، وممارسة الحب الحر، وخروج الشاذين جنسياً من الخزانة، وحملات الغاي المتباهي، والرفض الجماعي *للمؤسسة* البرجوازية، ليس باسم الثورة الاشتراكية التي لم يكن الهيبيون يعيرونها اهتماماً، وإنما باسم نزعة سلمية تصبو إلى متعة وفوضوية مروضة بحب الطبيعة والحيوانات، ورفض الأخلاق التقليدية. ولم تعد مناظرات *التبادلية*، والرواية الجديدة، والمغنون المرهفون مثل ليو فيريه أو جورج براسنس، ولا صالات سينما الفن الباريسية، هي مرجعيات الشباب المتمردين، وإنما ساحة الطرف الأغر

والحدائق التي تجوبها التظاهرات، وراء فانيسيا ريدغريف وطارق علي، ضد حرب فيتنام، وسط جوقات حاشدة لمغنين معبودين عظام وممسوسين بعشبة كولومبية، والبوب وصالات الديسكو كرمز للثقافة الجديدة لملايين الشباب، من الجنسين، الذين تجتذبهم لندن. وقد كانت تلك السنوات أيضاً، في إنكلترا، سنوات تألق مسرحي، فعروض مسرحية *مارا ساد* لبيتر فايس التي أخرجها عام 1964 بيتر بروك المعروف برؤيته الإخراجية الثورية لشكسبير، كانت حدثاً في أوروبا كلها. ولم أعد قط إلى مشاهدة شيء على خشبة مسرح ينحفر في ذاكرتي بمثل تلك القوة.

وفي واحدة من تلك المصادفات الغريبة التي يحوكها القدر، كان عليّ، في السنوات الأخيرة من الستينيات، أن أقضي فترات كثيرة في إنكلترا، وأن أعيش في قلب ***السوينغينغ لندن*** بالذات: في إيرلز كورت، منطقة شديدة الحيوية وكوزموبوليتية في كينزينغتون، كانت تعرف، بسبب تدفق النيوزلنديين والاستراليين عليها، باسم وادي الكنغر (Kangaroo Valley). مغامرة أيار 1968، عندما ملأ شباب باريس الحي اللاتيني بالمتاريس، وأعلنوا وجوب أن نكون واقعيين ونختار المستحيل، تلك المغامرة بالتحديد فاجأتني وأنا في لندن، حيث بقيت محتجزاً حوالي أسبوعين، بسبب الإضرابات التي شلت محطات قطارات فرنسا ومطاراتها، ولم أستطع تقصي إذا ما لحق أي أذى بشقتي الصغيرة في إيكول ميليتير.

ولدى عودتي إلى باريس اكتشفتُ أن البيت سليم لم يُصب بأذى، ذلك أن ثورة أيار 68 لم تتجاوز في الواقع نطاق الحي اللاتيني وسان جيرمان دو بري. وخلافا لما تنبأ به كثيرون، لم يكن لأيام الانتشاء تلك أية أهمية سياسية، باستثناء التسريع في سقوط ديغول، وافتتاح مرحلة من خمس سنوات هي عهد بومبيدو القصير، والكشف عن أن

هناك يساراً أكثر حداثة من الحزب الشيوعي الفرنسي (*«الستاليني الوغد»*، حسب تسمية كوهن بينديت، أحد قادة الـ 68). صارت العادات أكثر تحرراً، ولكن، من وجهة النظر الثقافية، مع اختفاء سلالة كاملة من المشاهير ـ مورياك، كامو، سارتر، آرون، ميرلو بونتي، مارلو ـ، حدث في تلك السنوات تراجع ثقافي رصين، فبدلاً من المبدعين، تحول *أساتذة الفكر* ليكونوا هم النقاد. البنيويون أولاً، على طريقة ميشيل فوكو ورولان بارت، ثم التدميريون، من نوع جيل ديلوز وجاك ديريدا، الخطابيون المتعجرفون وغير المفهومين، والمعزولين في قبالاتهم الخاصة، والبعيدين عن الجمهور الواسع الذي راحت حياته الثقافية، نتيجة هذا التطور، تصبح أكثر فأكثر تفاهة.

كانت تلك سنوات عمل كثير بالنسبة إلي، وإن يكن عملاً بائس النتائج، كما كان يمكن للطفلة الخبيثة أن تقول. فقد تحولت من مترجم إلى مترجم فوري. وكما في المرة الأولى، ملأتُ فراغ اختفائها بإغراق نفسي بالواجبات. عدت إلى دراسة اللغة الروسية ودروس الترجمة الفورية التي انهمكت فيها بعناد، بعد ساعات العمل التي أقضيها في اليونسكو. وأمضيت صيفين في الاتحاد السوفييتي، لمدة شهرين في كل مرة. المرة الأولى في موسكو، والثانية في لينينغراد، حيث تابعت دورات مكثفة في اللغة الروسية، مخصصة للمترجمين الفوريين، في حرم جامعي قاحل، نشعر ونحن فيه كما لو أننا في مدرسة داخلية للرهبان الجيزويت.

بعد حوالي سنتين من عشائي الأخير مع روبرت أرنو، أقمت علاقة عاطفية فاترة جداً مع سيسيل، وهي موظفة في اليونسكو، جذابة ولطيفة، ولكنها عفيفة، نباتية، وكاثوليكية متزمتة، ولم يكن التكامل معها تاماً إلا عند ممارستنا الحب، أما في كل ما عدا ذلك فكنا نجسد النقيضين. في إحدى اللحظات، فكرنا في إمكانية

قيامنا برحلة معاً، ولكننا ارتعبنا كلانا ـ خاصة أنا ـ من تصور المساكنة ونحن على هذا القدر من الاختلاف، ولأنه لا وجود بيننا، في العمق، أي ظل لحب حقيقي. ذوت علاقتنا بفعل الضجر، وفي أحد الأيام توقفنا عن اللقاء والاتصال.

تكلفت جهداً في الحصول على عقود عملي الأولى كمترجم فوري، بالرغم من اجتيازي كل الاختبارات وحصولي على الشهادات اللازمة. لكن هذا الوسط كان مغلقاً أكثر من وسط المترجمين التحريريين؛ فالهيئات النقابية، وهي مافيات حقيقية، لا تقبل الأعضاء الجدد إلا بالتنقيط. ولم أتمكن من التوصل إلى ذلك إلا بعد أن أضفت الروسية إلى الإنكليزية والفرنسية، ضمن اللغات التي أترجمها إلى الإسبانية. وقد أتاحت لي عقود عملي كمترجم فوري السفر كثيراً عبر أوروبا، وبكثرة إلى لندن، خاصة إلى مؤتمرات وندوات اقتصادية. وفي يوم طيب من عام 1970، في قنصلية البيرو، في شارع سلون، حيث ذهبت لتجديد جواز سفري، التقيت بأحد أصدقاء الطفولة وزميلي في مدرسة شامبان في ميرافلوريس، وكان آتياً للأمر نفسه: خوان بارّيتو.

كان متحولاً إلى هيبي، ولكن ليس من النوع المهلهل، وإنما الأنيق. شعره الحريري الذي يخالطه الشيب ينسدل حتى كتفيه، ويتباهى بلحية صغيرة متفرقة الشعر، تشكل حول فمه ما يشبه خرزة بئر مشذبة بعناية. أنا أتذكره بديناً بعض الشيء وقصيراً، لكنه الآن يتجاوزني طولاً ببضعة سنتمترات، ويبدو نحيلاً مثل عارضات الأزياء. كان يرتدي بنطالاً من المخمل بلون الكرز، وينتعل صندلاً لا يبدو أنه من الجلد وإنما من الرقاق، وقميصاً شرقياً من الحرير المطبع برسوم دمى صغيرة، ومنديل شعلة حمراء بين نصفي صداره المفتوح والمنفوخ الذي ذكرني بسترات بعض الرعاة التركمان في فيلم وثائقي حول

بلاد ما بين النهرين، رأيته في قصر شايّو، ضمن سلسلة أفلام ***تعرف على العالم*** التي كنت أتابعها كل شهر.

ذهبنا لتناول فنجان قهوة، في محيط القنصلية، وكانت المحادثة ممتعة إلى حد أني دعوته لتناول الغداء في إحدى حانات كينسينغتون جاردن. ظللنا معاً لأكثر من ساعتين، هو يتكلم وأنا أستمع، متدخلاً في عبارات قصيرة.

كانت قصته روايةً تُروى. أنا أتذكر أن خوان، في السنوات المدرسية الأخيرة، بدأ المشاركة في محطة إذاعة الشمس كمعلق ومذيع مباريات كرة قدم، وكان زملاؤه المريميون يتنبؤون له بمستقبل رياضي عظيم. «لكن ذلك كان لعب أطفال في الواقع ـ قال لي ـ فهواي الحقيقي كان الرسم على الدوام». دخل أكاديمية الفنون الجميلة في ليما، وتوصل إلى المشاركة في معرض جماعي في معهد الفن الحديث في أوكونيا. وأرسله أبوه بعد ذلك ليتابع دورة في التصميم والتلوين في «كلية سان مارتن للفنون» في لندن. وما إن وصل إلى إنكلترا حتى قرر أن هذه المدينة ستكون مدينته («بدت كما لو أنها تنتظرني يا أخي»)، وأنه لن يغادرها إلى الأبد. وعندما أخبر أباه بأنه لن يعود إلى البيرو، قطع عنه الأب المؤونة. عندئذ بدأ حياة بؤس، كفنان شوارع، يرسم سائحين في ساحة ليسيستر أو عند بوابات هارودز، ويرسم بالطباشير، على الأرصفة، مبنى البرلمان أو بيغ بن أو برج لندن، ثم يدور بعد ذلك بقبعته على المتفرجين. نام في الـ YMCA وفي نُزل ***سرير وفطور*** *bed and breakfast* بائسة، وككثيرة من المتشردين كان يلوذ في ليالي الشتاء بملاجئ دينية للنفايات البشرية، وينتظم في صفوف طويلة في الكنائس والمؤسسات الخيرية، حيث يوزعون مرتين في اليوم طبقاً من الحساء الساخن. ليال كثيرة أمضاها في العراء، أو في الحدائق، أو ملتفاً بقطع كرتون في أفنية المتاجر.

«بلغتُ حد الشعور باليأس، ولكنني لم أجد نفسي مرة واحدة طوال ذلك الوقت في حالة مزرية تضطرني إلى الطلب من أبي أن يرسل لي تذكرة العودة إلى البيرو».

وعلى الرغم من حالة العسر التي كان يعانيها، فقد تدبر أمره مع هيبيين آخرين متشردين ليصل إلى كاتمندو، حيث اكتشف أن العيش دون مال في روحانية النيبال أصعب بكثير منه في مادية أوروبا. وكان تضامن رفاقه في الترحال حاسماً في عدم موته من الجوع والمرض، ذلك أنه أصيب في الهند بحمى مالطية، أوصلته إلى حافة الانتقال إلى العالم الآخر. الفتاة والشابان الذين رافقوه في الرحلة تناوبوا عند فراشه، بينما هو يتعافى في مستشفى قذر في مدراس، حيث كانت الفئران تتجول بين المرضى الممددين على الأرض فوق حصائر.

ـ كنت قد اعتدت تماماً على حياة التشرد تلك، وعلى أن بيتي هو الشارع، عندما تبدل حظي فجأة.

كان يرسم رسوماً بالفحم، مقابل جنيهين استرلينيين لكل رسم، عند بوابات متحف فيكتوريا & ألبرت، في شارع برمبتون، عندما طلبت منه، بصورة غير متوقعة، سيدة تضع قبعة للحماية من الشمس وقفازات شفافة، أن يرسم الكلبة التي معها، وهي كلبة من فصيلة كنغ شارل ذات بقع بيضاء وبنية بلون القهوة، ممشطة، ومغسولة ومُسَرَّحة كما لو أنها ليدي. وكان اسم الكلبة إستر. الرسم المزدوج الذي رسمه لها خوان «مواجهة وجانبياً» فتن السيدة. وعندما أرادت أن تدفع له، اكتشفت أنها لا تحمل سنتاً واحداً، إما لأن محفظتها قد سُرقت أو لأنها نسيتها في بيتها عند الخروج. فقال لها خوان: «ليس مهماً. لقد تشرفت برسم موديل بمثل هذا التميز». فانصرفت السيدة التي اضطربت وهي تلهج بعبارات الشكر. ولكنها

بعد بضع خطوات، رجعت وقدمت إلى خوان بطاقة. «إذا ما تصادف مرورك يوماً قرب هذا العنوان، اقرع الباب لتسلم على صديقتك الجديدة»، قالت ذلك وهي تشير إلى الكلبة.

السيدة ستيوبارد، ممرضة متقاعدة، أرملة وبلا أبناء، تحولت إلى الجنية الحامية التي أخرجت، بعصاها السحرية، خوان بارّيتو من شوارع لندن. وشيئاً فشيئاً، راحت تنظفه («إحدى نتائج كونك متشرداً هي انقطاعك التام عن الاستحمام، وعجزك عن شم نتانتك»)، صار يتغذى، ويلبس، وأُلقي به أخيراً إلى الوسط الأكثر إنكليزية بين الإنكليز: عالم أصحاب الإسطبلات، والفرسان، ومدربي وهواة الخيول في نيوماركت، حيث تولد، وتكبر، وتموت وتُدفن أشهر خيول السباق في بريطانيا العظمى، وربما في العالم.

كانت مسز ستيوبارد تعيش وحيدة، مع كلبتها الصغيرة إستر، في بيت من الآجر الأحمر، وحديقة صغيرة تعنى هي نفسها بها وتُبقيها بديعة، في قطاع هادئ ومزدهر من منطقة سانت جونز وود. ورثته عن زوجها، طبيب الأطفال الذي أمضى حياته كلها في أجنحة وعيادات مستشفى تشارينغ كروس، يعنى بأطفال الآخرين دون أن يتمكن من أن يكون له ابنه الخاص. قرع خوان بارّيتو باب الأرملة في ظهيرة يوم اشتد عليه الجوع، والوحدة، والغم أكثر من غيره من الأيام. وتعرفت هي عليه في الحال.

ـ لقد جئتُ لأسأل عن حال صديقتي إستر. ولتقدمي لي قطعة خبز، إذا لم يكن الطلب كبيراً.

ـ تفضل أيها الفنان ـ ابتسمت له ـ هل يضايقك أن تمسح قليلاً هذا الصندل المقرف الذي تنتعله؟ وانتهز الفرصة أيضاً لتغسل قدميك عند صنبور الحديقة.

وحسب قول خوان بارّيتو «كانت مسز ستيوبارد ملاكاً نازلاً من

السماء. ورأيتُ أنها وضعت رسمي الفحمي في إطار على منضدة في الصالة. وكان ظاهراً بصورة جيدة.» جعلت خوان يغسل يديه أيضاً بالماء والصابون («منذ اللحظة الأولى اتخذت هيئة الأم الآمرة، ومازالت تعاملني على ذلك النحو») وأعدت له سندوتشي بندورة وجبن وفلفل، وفنجان شاي. ظلا يتبادلان الحديث لوقت طويل، وطلبت هي من خوان أن يروي لها قصة حياته من ألفها إلى يائها. كانت متأهبة ونهمة لمعرفة كل شيء عن العالم، وراحت تصر على خوان أن يصف لها بالتفصيل كيف هم الهيبيون، ومن أين يأتون، وأي حياة يعيشون.

«حتى لو لم تصدق، فإن من افتتن بالعجوز هو أنا. كنتُ أذهب لزيارتها، لا لتقدم لي الطعام وحسب، بل لأنني كنت أستمتع في التحدث معها. لقد كان لها جسد ستينية، لكن روحها روح ابنة خمس عشرة. ولتمت يا صاحبي، فقد حولتها إلى هيبية.»

كان خوان يقتحم البيت في سانت جونز وود مرة كل الأسبوع، فيغسل فرو إستر ويسرحها، ويساعد مسز ستيوبارد في تشذيب الحديقة وريها، ويرافقها أحياناً للقيام بالمشتريات من متجر ساينسبوري القريب. فكان المتبرجزون المقيميون في سانت جونز وود يتأملون الثنائي غير المتجانس باستغراب. كان خوان يساعدها في الطهو ـ علمها وصفات بيروية، مثل البطاطا المحشوة، والدجاج بالفلفل الأحمر، والثيفيتشي ـ، ويغسل لها الأطباق، وبعد ذلك يتبادلان أحاديث ما بعد المائدة، ويُسمعها خوان أغنيات لفريق البتيلز والرولنغ ستونز، ويروي لها ألف مغامرة ومغامرة من مغامرات وطرائف الشبان والشابات الهيبيين الذين تعرّف عليهم في تجواله في لندن، وفي الهند والنيبال. لم تكن شروحات خوان تشبع فضول مسز ستيوبارد عن كيف يمكن للقنب أن يزيد من حدة الصفاء والحساسية، وخاصة في تلقي الموسيقى. وأخيراً، تغلبت على أحكامها المسبقة ـ لقد كانت

ميثودية ممارسة ـ، وأعطت خوان نقوداً كي تجرّب الماريجوانا. «وأقسم لك إنها كانت قلقة إلى حد لا تتورع معه عن تجريب كبسولة من عقار الهلوسة لو أنني شجعتها.» جلسة الماريجوانا جرت بخلفية من موسيقى *الغواصة الصفراء*، فيلم فريق البيتلز الذي ذهبت مسز ستيوبارد متأبطة ذراع خوان لمشاهدته، في عرض افتتاحي، في إحدى دور السينما في ميدان البيكاديلي. كان صديقي خائفاً من أن تصيب «الرحلة» حاميته وصديقته بسوء؛ وبالفعل، انتهى بها الأمر إلى الشكوى من وجع في الرأس، والنوم وساقاها مرفوعتان على سجادة الصالة، بعد ساعتين من هياج استثنائي، تحدثت خلاله مثل ببغاء، مطلقة قهقهات وقائمة بحركات باليه أمام عيون خوان وإستر المذهولين.

تحولت العلاقة إلى ما هو أكثر من الصداقة، إلى رفاقية متواطئة وأخوية، بالرغم من فارق السن واللغة والمنشأ. «كنت أشعر وأنا معها كما لو أنها أمي، أختي، رفيقي وملاكي الحارس».

وكما لو أن شهادات خوان عن دونية الثقافة الهيبية لم تكن كافية، فقد عرضت عليه مسز ستيوبارد في أحد الأيام أن يدعو اثنين أو ثلاثة من أصدقائه لتناول الشاي. خامرته كل أنواع الشكوك. كان يخشى من تلك المحاولة في خلط الماء بالزيت، لكنه رتب أخيراً ذلك اللقاء. اختار ثلاثة من بين أفضل أصدقائه الهيبيين مظهراً، وحذرهم من أنهم إذا ما ضايقوا مسز ستيوبارد، أو سرقوا شيئاً من بيتها، فسوف يتخلى عن ميوله السلمية، ويخنقهم. الفتاتان والشاب الذين اختارهم ـ رينيه، وجودي، وأسبيرن ـ كانوا يبيعون البخور وحقائب محبوكة وفق نماذج أفغانية مزعومة، في شوارع إيرلز كورت. وقد تصرفوا بصورة لائقة إلى هذا الحد أو ذاك، والتهموا كعكة الفريز المنفوخة بالكريما، والحلويات التي أعدتها لهم مسز

ستيوبارد. ولكنهم عندما أشعلوا عود بخور مبينين لصاحبة البيت أنها الطريقة الروحانية لتنقية الجو، وأن كارما كل واحد من الحاضرين تتبدى بصورة أفضل، تبين أن لدى مسز ستيوبارد حساسية من الأبخرة المطهرة. فقد باغتتها نوبة صاخبة ومتواصلة من العطاس، صبغت بالحمرة عينيها وأنفها، وجعلت إستر تنطلق في النباح. بعد هذا الحادث، تواصلت الجلسة بصورة مقبولة إلى أن أوضحت رينيه، وجودي، وأسبيرن لمسز ستيوبارد أنهم يشكلون ثلاثياً غرامياً، وأن ممارسة الحب بين ثلاثة هو تقديس للثالوث المقدس ـ الرب الأب، والرب الابن، والروح القدس ـ وهي طريقة أشد رسوخاً في تطبيق شعار «اصنعوا الحب وليس الحرب» الذي أيده في المظاهرة الأخيرة في ساحة الطرف الأغر، ضد حرب فيتنام، الفيلسوف والرياضي برتراند راسل نفسه. رأت مسز ستيوبارد في ذلك الحب ثلاثي الأطراف، بالمقارنة مع الأخلاق الدينية الميثودية التي تربت عليها، شيئاً لم تتخيله من قبل قط، ولو في أشد الكوابيس وعورة. «تراخى فك المرأة المسكينة وظلت طوال المساء تنظر بذهول سحري إلى الثلاثي الذي أخذتُه إليها. وقد اعترفت لي، في ما بعد، بمزاج مكتئب، بأن تربيتها على الطريقة التي تربت عليها إنكليزيات جيلها، حرمها من أشياء كثيرة مثيرة للفضول في الحياة. وأخبرتني أنها لم ترَ زوجها عارياً قط، لأنهما منذ اليوم الأول حتى الأخير كانا يمارسان الحب في الظلام».

ومن زيارتها مرة كل أسبوع، انتقل خوان إلى مرتين، وإلى ثلاث، ثم انتقل أخيراً إلى العيش مع مسز ستيوبارد التي رتبت له غرفة صغيرة كانت لزوجها المتوفى، إذ عاشا السنوات الأخيرة في غرفتين منفصلتين. وخلافاً لما كان خوان يخشاه، كان تعايشهما معاً رائعاً. فصاحبة البيت لم تحاول بأي حال التدخل في حياة خوان، أو سؤاله

لماذا ينام في بعض الليالي خارج البيت، أو يأتي للنوم عندما يبدأ الجيران في سان جونز وود بالخروج إلى أعمالهم. أعطته مفتاح البيت. وكان خوان يضحك وهو يقول: «كان قلقها الوحيد هو جعلي أستحم مرتين كل أسبوع. لأن ثلاث سنوات من حياة التشرد الهيبية، وإن كنتَ لا تصدق ذلك، خلصتني من عادة الاستحمام. وفي بيت مسز ستيوبارد، رحتُ أستعيد شيئاً فشيئاً اكتشاف العادة الميرافلورية المنحرفة بالاستحمام اليومي».

وفضلاً عن مساعدتها في الحديقة، وفي المطبخ، وفي إخراج إستر في نزهة، وإخراج كوب القمامة إلى الشارع، كان خوان يتبادل مع مسز ستيوبارد أحاديث أسرية مطولة، وكل منهما يحمل فنجان شاي بين يديه، وطبق بسكويت الزنجبيل أمامهما. يروي لها أشياء عن البيرو، وتروي له هي عن إنكلترا أخرى تبدو، بالنظر إلى ***السوينغنغ لندن***، كما لو أنها تعود إلى عصور ما قبل التاريخ: أطفال وطفلات يظلون حتى سن السادسة عشرة في مدارس داخلية صارمة. وحيث الحياة تتوقف، باستثناء الأحياء سيئة السمعة مثل سوهو، وسانت بانكراس، والإست إند، في الساعة التاسعة ليلاً. والتسلية الوحيدة التي كانت مسز ستيوبارد وزوجها يسمحان لنفسيهما بها هي الذهاب بين حين وآخر إلى حفلة موسيقية أو عرض أوبرا في الكوفنت جاردن. وفي الإجازات الصيفية يقضيان أسبوعاً في بريستول، في بيت بعض الأقارب، وأسبوعاً آخر في بحيرات اسكوتلندا التي تفتن زوجها. ولم تكن مسز ستيوبارد قد خرجت قط خارج بريطانيا العظمى. لكنها كانت تهتم بشؤون العالم: تقرأ ***التايم*** باهتمام، بدءاً من صفحة الوفيات، وتستمع من المذياع إلى أخبار الـ BBC في الساعة الواحدة، وفي الثامنة ليلاً. ولم يخطر لها في أي يوم شراء جهاز تلفاز، ونادراً ما تذهب إلى السينما. غير أن لديها فونوغرافاً، حيث تستمع إلى

سيمفونيات موزارت وبتهوفن وبنيامين برايتن.

وذات يوم طيب، جاء لتناول الشاي معها ابن أخيها شارل، وهو الوحيد المتبقي من أقربائها المقربين. كان مدرب خيول في نيوماركت، وشخصية حقيقية على حد قول عمته. ولابد أنه كذلك، بالنظر إلى الجكوار الحمراء التي أوقفها عند باب البيت. إنه شاب ومرح، له شعر أشقر مجعد، وخدان متوردان، وقد فوجئ لأنه لا توجد في البيت زجاجة *good Scotch* مما اضطره إلى الاكتفاء بكأس نبيذ مسكي حلو، أخرجته مسز ستيوبارد لتكريمه بعد الشاي وحلويات الخيار المعهودة، وكعكة الجبن والليمون. أبدى مودّة كبيرة تجاه خوان، بالرغم من أنه وجد صعوبة في أن يحدد الموقع الذي تشغله في العالم تلك البلاد الغريبة التي جاء منها هيبي البيت ـ كان يخلط بين البيرو والمكسيك ـ، وهو ما انتقد نفسه عليه بروح رياضية: «سأشتري خريطة للعالم ومرجعاً جغرافياً كي لا أعود إلى الخطأ الذي ارتكبته اليوم». بقي حتى الغروب، يروي نوادر عن الأحصنة الأصيلة التي يدربها في نيوماركت من أجل سباقات الخيول. واعترف لهما بأنه صار مربياً لأنه لم يستطع أن يكون جوكي، بسبب بنيته المربوعة. «كي يكون المرء جوكياً لابد له من تضحيات رهيبة، لكنها في الوقت نفسه أجمل مهنة في العالم. كسبُ سباق الديربي، والفوز في أسكوت Ascot، تصوروا! إن ذلك أفضل من الفوز بالجائزة الكبرى في اليانصيب».

وقبل أن يغادر، وقف يتأمل بإعجاب رسم الكريون الذي رسمه خوان بارّيتو للكلبة إستر. وأصدر حكمه: «إنه عمل فني». وكان خوان باريتو يردّ على تلك الإساءة بالقول: «كنتُ أضحك منه في أعماقي، وأعتبره فلاحاً جلفاً».

بعد وقت قصير من ذلك، تلقى صديقي بضعة سطور غيّرت مسار

حياته نهائياً، بعد التغيير الذي أحدثه لقاؤه في الشارع مع مسز ستيوبارد وإستر. هل «الفنان» مستعد لرسم صورة ***بريمروس***، الفرس النجمة في إسطبلات مستر باتريك شيك، التي يتولى هو تدريبها، وصاحبها السعيد بما تحققه له في ميادين سباق الخيل، يرغب في تخليدها في لوحة زيتية؟ وهو يعرض عليه مئتي جنيه إسترليني إذا أعجبته اللوحة؛ أما إذا لم تعجبه، فيمكن لخوان أن يحتفظ باللوحة ويتلقى خمسين باونداً مقابل جهده. «مازالت عيناي تزيغان من الدوار الذي أصابني وأنا أقرأ رسالة شارل تلك.»، قال خوان ذلك وهو يحرك عينيه باستثارة مستعادة.

بفضل الفرس ***بريمروس***، وبفضل شارل ومستر شيك، لم يعد خوان بارّيتو هيبياً مُعسِراً، وتحول إلى هيبي صالونات، راحت موهبته في تخليد الأمهر، والأفراس، ومربي الخيول وسماسرتها («كائنات كنتُ أجهلها تماماً») تفتح أمامه شيئاً فشيئاً أبواب بيوت أصحاب ومربي الخيول في نيوماركت. لقد نالت لوحة بريمروس الزيتية إعجاب المستر شيك، وقدم إلى خوان بارّيتو المذهول مبلغ المئتي جنيه التي وعد بها. فكان أول ما فعله خوان هو شراء مظلة مزينة بأزهار وقبعة تتناسب معها لمسز ستيوبارد.

كانت قد انقضت أربع سنوات منذ ذلك الحين. ولم يكن خوان قد توصل إلى تصديق كامل للتحول الخيالي في حظه. كان قد رسم على الأقل مئة لوحة زيتية للخيول، وما لا يحصى من الرسوم المائية، والاسكتشات، والرسوم التخطيطية بقلم الرصاص والفحم، وكانت لديه توصيات كثيرة، يتوجب معها على مالكي إسطبلات نيوماركت أن ينتظروا أسابيع ليلبي طلباتهم. لقد اشترى بيتاً ريفياً في منتصف الطريق بين كامبردج ونيوماركت، وبيتاً صغيراً، ***موطئ قدم*** (*pied-à-terre*) في إيرلز كورت، من أجل الأوقات التي يقضيها في لندن. وفي

كل مـرة يحضـر فـيها إلى المدينـة، يـذهب لزيـارة حوريتـه العرابـة، وليُخرج إستر فـي نزهة. وعندما ماتت الكلبة، قام هو ومسـز ستيوبارد بدفنها فـي حديقة البيت.

رأيت خوان بـارّيتو عـدة مـرات خـلال تلـك السـنة، كلمـا كنـت أذهب إلى لندن، وأنزلته بضعة أيام فـي شقتي فـي بـاريس خـلال إجازة منحهـا لنفسـه كـي يشـاهد فـي القصـر الكـبير معرضـاً مكرسـاً لـ «عصـر رمبرانـت». كانـت صـرعة الهيبـيين نـادرة فـي فرنسـا، فكـان النـاس يلتفتـون فـي الشـارع لرؤيـة خـوان بسـبب ثيابـه الغريبـة. كـان شخصـاً رائعـاً. وكلمـا ذهبـت للعمـل فـي لنـدن، كنـت أخـبره مسـبقاً؛ فـيتدبر أمـره للمجـيء مـن نيوماركـت ودعـوتي علـى الأقـل إلى ليلـة موسيقى بوب وتهتك لندني. وبفضله أقدمت على عمل أشياء لم أفعلها قـط مـن قبـل: قضـاء ليـالٍ دون نـوم فـي صـالات الديسـكوتيك أو فـي حفلات هيبية، حيث رائحة الحشيش تعبق فـي الجو، وتقدم قطع حلوى محضـرة بالحشيش، تطلق المستجد الـذي هـو أنـا فـي رحـلات مـا فـوق حسية، ممتعة أحياناً وكابوسية فـي أحيان أخرى.

ما سبب لي أكبر مفاجأة ـ ومتعة أيضاً، لم لا ـ هـو السـهولة الـتي كانـت تجـري بهـا فـي تلـك الحفـلات مداعبـة أي فتـاة وممارسـة الحـب معهـا. عندئـذ فقـط اكتشـفت إلى أي حـد قـد اتسـعت الأُطـر الأخلاقيـة التي تربيتُ عليها لدى العمة ألبيرتـا، ومازالـت تحكـم حيـاتي، إلى هـذا الحد أو ذاك، فـي باريس. لقد كانت للفرنسيات، فـي المخيلـة العالميـة، سمعـة أنهـن متحـررات، بـلا أحكـام مسـبقة، ولا يضـعن كـثيراً مـن العوائق عند الذهاب إلى الفراش مع رجل؛ لكن من أوصل هـذه الحريـة إلى حـدود قصـوى غـير مسـبوقة هـم فتيـان وفتيـات ثـورة الهيبـيين الإنكليزيـة، إذ كـانوا، فـي دائـرة معـارف خـوان بـارّيتو علـى الأقـل، يـذهبون إلى الفـراش مـع الرجـل المجهـول، أو المـرأة المجهولـة، الـذي

رقصوا معه أو معها للتو، ويرجعون بعد قليل، وكأن شيئاً لم يكن، ليواصلوا الحفلة ويكرروا الطبق.

- حياتك التي عشتها في باريس هي حياة موظف في اليونسكو يا ريكاردو - كان خوان يسخر مني -، حياة ميرافلوريّ بوريتاني؛ أؤكد لك أن الحرية نفسها موجودة هنا، في أماكن كثيرة من باريس.

من المؤكد أن ما يقوله صحيح. فحياتي الباريسية - وحياتي عموماً - كانت بالغة القناعة، حتى في الفترات التي أقضيها دون عقد عمل، عندما كنت أنهمك، بدلاً من البحث عن علاقة عابرة، في إتقان اللغة الروسية بمساعدة أستاذ خاص، لأنني على الرغم من قدرتي على ترجمتها فورياً، لم أكن أشعر أنني متمكن من لغة تولستوي ودوستوفسكي كتمكني من الإنكليزية والفرنسية. وكنت قد أحببت اللغة الروسية، وصرت أقرأ بها أكثر من أي لغة أخرى. عطلات نهاية الأسبوع المتفرقة تلك التي كنت أقضيها في إنكلترا، مشاركاً في ليالي موسيقى البوب والحشيش والجنس في *سوينغينغ لندن*، شكلت منعطفاً في ما كان من قبل (وسيبقى كذلك في ما بعد) حياة شديدة التقشف. لكنني في نهايات الأسبوع اللندنية تلك التي كنت أهديها لنفسي بعد انتهاء عقد عمل، انتهيت بفضل رسام الخيول إلى ممارسة أشياء لم أكن أتعرف إلى نفسي فيها: الرقص بشعر مشعث ودون حذاء، تدخين الحشيش أو مضغ بذور البوتي، وإنهاء تلك الليالي الهائجة، على الدوام تقريباً، بممارسة الحب؛ وغالباً في أماكن مستترة، تحت المناضد، في حمامات ضيقة، في خزائن، في حدائق؛ مع فتاة، تكون فتية جداً أحياناً، لا نكاد نتبادل معاً كلمة واحدة، ولا أعود إلى تذكر اسمها بعد تلك المرة.

لقد ألح خوان كثيراً، منذ لقائنا الأول، على أن أنزل في *موطئ*

قدمه في إيرلز كورت، في كل مرة أذهب فيها إلى لندن. فهو يكاد لا يأتي إلى تلك الشقة، لأنه يقضي معظم وقته في نيوماركت ناقلاً الخيول من الواقع إلى قماش اللوحات. وسوف أقدم له جميلاً بتهوية الشقة بين حين وآخر. وإذا ما توافق وجودنا معاً في لندن، فلن تكون ثمة مشكلة، لأنه يستطيع النوم في بيت مسز ستيوبارد ـ فمازال يحتفظ بغرفته هناك ـ ويمكن في أقصى الحالات وضع سرير قابل للطي في حجرة النوم الوحيدة في ***موطئ قدمه***. وقد ألح كثيراً، مما دفعني في النهاية إلى القبول. ولأنه لم يسمح لي بأن أدفع سنتاً واحداً مقابل الإيجار، فقد حاولتُ أن أعوض عن ذلك بأن أحمل إليه كل مرة، من باريس، زجاجة نبيذ بوردو جيدة، أو بعض أجبان ***كاممبير*** أو ***بري***، وبعض معلبات ***باتيه دو فوا*** التي تجعل عينيه تلمعان. لقد صار خوان الآن هيبياً لا يتقيد بحمية ولا يؤمن بالنباتية.

أعجبتني إيرلز كورت كثيراً، وأحببت تشكيلة أناسها. كان الحي يتنفس شباباً، وموسيقى، وحيوات دون كوابح ولا حسابات، وجرعات كبيرة من السذاجة، ومشيئة العيش يوماً بيوم، خارج الأخلاق والقيم المتعارف عليها، بحثاً عن متعة لا تعبأ بالأساطير البرجوازية القديمة عن السعادة ـ المال، السلطة، الأسرة، المنصب، النجاح الاجتماعي ـ ويجدونها في أشكال بسيطة ومستكينة من الحياة: الموسيقى، الفراديس الاصطناعية، الاختلاط، وعدم مبالاة مطلقة ببقية المشكلات التي تهز المجتمع. وبمذهبهم في اللذة، الهادئ والمسالم، لم يكن الهيبيون يلحقون الأذى بأحد؛ كما أنهم لم يمارسوا التبشير الرسولي، فهم لا يريدون إقناع أو تجنيد أولئك الناس الذين قطعوا علاقتهم بهم كي يعيشوا حياتهم البديلة. كانوا يريدون من الآخرين أن يتركوهم بسلام، مستغرقين في أنانيتهم البسيطة وحلمهم النفساني الهذياني.

كنت أعرف أنه لا يمكن لي على الإطلاق أن أكون واحداً منهم، لأنني على الرغم من اعتقادي بأني شخص متحرر إلى حد كبير من الأحكام المسبقة، إلا أنه لا يمكن لي الشعور بطبيعية ترك شعري ينمو حتى كتفي، أو أن أرتدي عباءات، وعقوداً وبلوزات براقة، أو أن أمارس الاختلاط الجنسي الجماعي. لكنني كنت أشعر بتعاطف كبير، وحتى بحسد سوداوي تجاه أولئك الشبان والشابات المستسلمين، دون أدنى هواجس، للمثالية الغائمة التي توجه مسارهم، دون أن يتخيلوا المخاطر التي عليهم مواجهتها من أجل ذلك.

في تلك السنوات، وإن لم يستمر ذلك لوقت طويل بعدها، كان موظفو المصارف، وشركات التأمين، وشركات التمويل في *السِتي* لا يزالون يرتدون البنطلونات المقلمة والسترات السوداء، وقبعات البومبين ويحملون تحت أذرعهم المظلات السوداء. أما في شوارع البيوت ذات الطابقين أو الثلاثة طوابق، والتي لها حدائق أمام المدخل وفي الجزء الخلفي، في إيرلز كورت، فكان الناس يُشَاهدون مرتدين ملابس كما لو أنهم ذاهبون إلى حفلات تنكرية، بما في ذلك الأسمال، ويمضون حفاة في أحيان كثيرة، إنما بحس جمالي مرهف، بحثاً عما يشد الأنظار، عما هو إكزوتيكي، مختلف، مع تفاصيل لاذعة وساخرة. وقد أذهلتني جارتي مارينا، وهي كولومبية جاءت إلى لندن لدراسة الرقص. كان لديها جرذ هَمَستر يهرب منها دوماً إلى **موطئ قدم** خوان ويسبب نوبات ذعر رهيبة، إذ اعتاد تسلق السرير والتكور على نفسه بين ملاءات الفراش. ومع أن مارينا كانت تعيش في ضيق مادي شديد، ولابد أنها تملك القليل جداً من الملابس، إلا أنها نادراً ما كانت ترتدي الملابس نفسها مرتين: فهي تظهر في أحد الأيام بأفرهول مهرج فضفاض، وعمامة على رأسها، وفي اليوم التالي بتنورة قصيرة لا تخفي عملياً أي سر من جسدها المعروض لتخيلات العابرين.

فـي أحـد الأيـام التقيـت بهـا فـي محطـة إيرلـز كـورت وهـي تقـف علـى سـاقين خشـبيتين طـويلتين، وقـد لونـت وجههـا بـألوان «يونيـون جـاك»، الراية البريطانية، مرسومة من إحدى أذنيها إلى الأخرى.

هيبيـون كـثيرون، وربمـا معظمهـم، كـانوا يتحـدرون مـن الطبقـة الوسطى أو الراقيـة، وكـان تمـردهم عائليـاً، موجهـاً ضـد حيـاة آبـائهم المنظمـة بانضـباط، وضـد مـا كـانوا يسـمونه ريـاء العـادات المتزمتـة والمظاهـر الاجتماعية التي تخفـي وراءها الأنانية، وروح الانعـزال وانعـدام المخيلـة. كانـت لطيفـة ميـولهم السـلمية، وحـبهم للطبيعـة، ونبـاتيتهم، وبحثهم الدؤوب عن حياة روحية تضفـي السمو على رفضهم لعـالم مـادي تفرضه الأحكـام الطبقيـة والاجتماعيـة والجنسيـة المسبقة، ولا يريـدون معرفـة أي شـيء عنـه. لكـن ذلـك كلـه كـان فوضـوياً، عفويـاً، بـلا مركـز ولا قيـادة، وحتـى بـلا أفكـار، لأن الهيبـيين ـ علـى الأقـل مـن عـرفتهم وراقبـتهم عـن قـرب ـ، بـالرغم مـن أنهـم كـانوا يقولـون إنهـم يتطـابقون مـع شـعراء «البيـت» ـ قـام آلـن جينسـبيرغ بإلقـاء قصـائده فـي سـاحة الطـرف الأغـر، وقـد غنـى فـيها ورقـص رقصـات هندوسـية، وحضرها آلاف الشباب ـ، إلا أنهـم فـي الحقيقـة كـانوا يقـرؤون قليلاً جـداً أو لا يقـرؤون شـيئاً علـى الإطـلاق. ولم تكـن فلسـفتهم تسـتند إلى الفكـر والعقل، وإنما إلى المشاعـر: إلى الـ *feeling*.

بينما كنت فـي صباح أحد الأيام فـي مـوطئ قـدم خوان منهمكـاً فـي مهمة غير مشوقة: كـيِّ بعض القمصان والسراويل التي غسلتها للتـو فـي مغسل إيرلز كـورت، طُرق البـاب. فتحته ووجـدت نفسـي أمـام سـتة شـبان حليقـي الـرؤوس تمامـاً، ينتعلـون جزمـات رجـال كومانـدوس، وبنطلونـات قصيرة، وسـترات جلديـة عسـكرية، ويعلق بعضـهم صـلباناً وميـداليات حربيـة علـى صـدورهم. سـألوني عـن حانـة سـواغ أنـد تيلـز، القائمـة عنـد الناصيـة التاليـة. كـان هـؤلاء هـم أول الـ *skin heads* (ذوو

الرؤوس الحليقة) الذين رأيتهم. منذ ذلك الحين، صارت هذه العصابات تظهر بين حين وآخر في الحي، وكانت تأتي مسلحة أحياناً بالهراوى، فيكون على الهيبيين المسالمين الذين فرشوا بطانياتهم على الأرصفة، ليبيعوا ترهاتهم المشغولة يدوياً، أن يهربوا مسرعين، بعضهم حاملين أطفالهم بين أذرعهم؛ لأن ***ذوي الرؤوس الحليقة*** يكنون لهم عداء شديداً. لم يكن عداء لطريقتهم في الحياة فقط، وإنما هو عداء طبقي أيضاً، لأن هؤلاء القتلة الذين يلعبون لعبة الـ SS، يتحدرون من القطاعات العمالية والهامشية، ويجسدون نمطهم الخاص بالتمرد. وقد تحولوا إلى القوى الصدامية لحزب صغير، «الجبهة الوطنية»، عنصري، يطالب بطرد الزنوج من إنكلترا. وكان معبوده هو إنوك بوويل، نائب برلماني محافظ، تنبأ في خطاب أحدث ضجة كبيرة، نبوءة كارثية بأن «أنهاراً من الدم ستسيل في بريطانيا العظمى» ما لم توقف الهجرة. ولّد ظهور ذوي الرؤوس الحليقة شيئاً من التوتر، وقعت بعض أحداث العنف في الحي، لكنها ظلت معزولة. أما في ما يتعلق بي، فكانت كل تلك الرحلات القصيرة والإقامة في إيرلز كورت لطيفة جداً. حتى إن العم أتاولفو لاحظ ذلك. كنا نتبادل الرسائل بكثرة معقولة؛ أخبره أنا فيها باكتشافاتي اللندنية، ويرسل لي هو تذمره من الكوارث الاقتصادية التي بدأت تتسبب بها دكتاتورية الجنرال فيلاسكو ألفارادو في البيرو. وقد قال لي في إحدى الرسائل: «أرى أنك تقضي أوقاتاً ممتعة في لندن، وأن هذه المدينة تُسعدك».

امتلأ الحي بمقاهٍ صغيرة ومطاعم نباتية، وبيوتٍ يقدمون فيها كل أنواع الشاي الهندي، يقوم على الخدمة فيها شبان وشابات هيبيون، يحضرون هم أنفسهم أنواع المشروبات المعطرة تلك على مرأى من الزبائن. وكان ازدراء الهيبيين للعالم الصناعي يدفعهم إلى بعث المشغولات الحرفية بكل أشكالها، وأسطرة العمل اليدوي. كانوا

يحوكون حقائب، ويصنعون صنادل، وأقراطاً، وعقوداً، وعباءات، وعمامات، ومعلقات. كنت أحب الذهاب للجلوس هناك والقراءة، مثلما كنت أفعل في مقاهي باريس ـ لكن الفرق كان كبيراً جداً بين المكانين ـ، وخاصة إلى كراج فيه أربع طاولات صغيرة، تقوم على الخدمة فيه آنيت، فتاة فرنسية ذات شعر طويل مثبت في جدائل، وقدمين جميلتين جداً، وقد اعتدنا على تبادل أحاديث مطولة حول الاختلافات بين يوغا الأساناس ويوغا البرانايامـا اللتين كانت هي تعرف عنهما كل شيء كما يبدو، بينما لا أعرف أنا أي شيء.

كان ***موطئ قدم*** خوان ضيقاً، بهيجاً ومضيافاً. يقع في الطابق الأول من بيت ذي طابقين مقسم ومعاد التقسيم إلى شقق صغيرة؛ ويتألف من غرفة نوم واحدة، وحمام صغير ومطبخ مدمج. كانت الغرفة واسعة، لها نافذتان كبيرتان توفران تهوية جيدة، وإطلالة بديعة على فيلبيك جاردنز، شارع صغير له شكل هلال، وعلى حديقة البيت الداخلية التي حولها انعدام العناية إلى غابة صغيرة متشابكة. في إحدى الفترات، كانت هناك في الحديقة خيمة سيو يعيش فيها زوجان هيبيان مع طفلين يحبوان. وكانت المرأة تأتي إلى ***موطئ القدم*** لتسخن زجاجات حليب ابنيها، وتعلمني طريقة للتنفس بحبس الهواء وجعله يمر في الجسد كله، لأن هذا، على حد قولها لي بجدية كبيرة، يبخر كل الميول الحربية في الغريزة الإنسانية.

إضافة إلى السرير، كانت الغرفة تضم منضدة كبيرة ممتلئة بأشياء غريبة اشتراها خوان من شارع بورتوبيلو، وعلى الجدران عدد كبير من اللوحات، بعضها صور من البيرو ـ ماتشو بيتشو التي لا بد منها في مكان بارز ـ وصور لخوان مع أناس متنوعين في أماكن مختلفة. وكومة من الصناديق التي يحتفظ فيها بكتب ومجلات. وكانت هناك بعض الكتب أيضاً على رف، لكن ما يتوفر بكثرة

فـي المكـان هـو الأسـطوانات: لديه مجموعة رائعة من الـروك أنـد رول وموسيقى البوب، إنكليزية وأمريكية، حول جهاز مذياع وبيك آب من نوعية فاخرة.

فـي أحد الأيام، وبينما أنا أتفحص، للمرة الثالثة أو الرابعـة، صـور خـوان ـ أكثرهـا تسـلية هـي صـورة مـأخوذة فـي جنـة الخيـول فـي نيوماركـت، ويظهـر فـيها صـديقي ممتطيـاً حصـاناً أصـيلاً متشـامخ الهيئة، يكلـل رأسـه قـوس مـن أزهـار الأفتئة، ويمسـك زمامـه جـوكي وسـيد أنيـق، لا شـك أنـه المالـك، وكلاهمـا يضـحك مـن الفـارس المسكين الذي يبدو غير مستقر على متن ذلك الحصان المجنح ـ، لفتت إحـدى الصـور انتبـاهي. إنهـا مـأخوذة فـي حفلـة، الأشـخاص المبتسـمون الـذين ينظـرون إلى الكـاميرا، ثلاثـة أو أربعـة أزواج، يرتـدون ملابـس أنيقة، ويحملون كؤوساً بأيديهم. ماذا؟ إنه مجرد تشـابه. أمعنتُ النظـر من جديد، واستبعدت الفكرة. كان عليّ أن أرجع إلى باريس فـي ذلـك اليـوم بالـذات. وخـلال الشـهرين اللـذين لم أرجـع فـيهما إلى لنـدن، ظـل ذلـك الشـك يراودنـي حتـى تحـول إلى فكـرة ثابتـة. أيمكـن للتشـيلية السابقة، الفدائية السـابقة، المدام آرليـت السـابقة، أن تكـون الآن فـي نيوماركت؟ لم أكرر السـؤال كثيراً وأنـا أمسـك بـين أصـابعي فرشـاة الأسنان ماركة غيرلان التي تركتها هي فـي شـقتي عنـدما رأيتهـا آخـر مـرة، وأحملـها معـي دومـاً كتميمـة. أمـر بعيـد الاحتمـال، مصـادفة مستبعدة، كـل ذلـك مسـتبعد. لـكنني لم أتمكـن مـن انتـزاع الشـك ـ الوهم ـ من رأسي. وبدأت أعدّ الأيام بانتظـار عقـد عمـل جديـد يعيـدني إلى ***موطئ القدم*** فـي إيرلز كورت.

ـ أتعرفهـا؟ ـ فـوجئ خـوان عنـدما اسـتطعت أخـيراً أن أشـير إلى الصورة وأسـأله عنها، ثم أضـاف ـ: إنهـا مسـز رتشـاردسـون، زوجـة هـذا الشخص شديد التأنق الذي تراه هنا فـي الصورة، نصف سـاه. وهـي مـن

أصل مكسيكي على ما أعتقد. تتكلم إنكليزية ظريفة، ستموت من الضحك إذا ما سمعتها. أأنت متأكد من أنك تعرفها؟

ـ لا، ليست الشخص الذي ظننته.

ولكنني كنت متأكداً تماماً من أنها هي. فذاك الذي قاله عن تكلمها «إنكليزية ظريفة» وعن أصلها «المكسيكي» أقنعني بحقيقتها. لابد أنها هي. وبالرغم من أنني قلت مرات كثيرة، خلال السنوات الأربع المنصرمة منذ اختفائها من باريس، إن اختفاءها على ذلك النحو هو أفضل بكثير، لأن تلك البيروية المغامرة تسببت بما يكفي من الخلل في حياتي، غير أنني ما إن أيقنت من أنها عادت للظهور في تجسيد جديد لشخصيتها المتحولة، على مسافة لا تزيد خمسين ميلاً عن لندن، حتى أحسست بالقلق، بتلهف لا يقاوم للذهاب إلى نيوماركت ورؤيتها من جديد. أمضيت ليالي طويلة ـ كان خوان ينام في بيت مسز ستيوبارد ـ مستيقظاً تماماً، في حالة من الجزع تجعل قلبي يخفق كما لو أنه مصاب بالتسرع. أيكون ممكناً أنها وصلت إلى هناك؟ أية مغامرة، أية تعقيدات، أية مخاوف ألقت بها في أرض ذلك المجتمع الأشد حصرية في العالم بأسره؟ لم أتجرأ على توجيه مزيد من الأسئلة إلى خوان بارّيتو عن مسز رتشاردسون. كنت أخشى أن يؤدي التحقق من شخصية مواطنتنا إلى الزج بها في ورطة ألف شيطان. فإذا كانت تدعي أنها مكسيكية في نيوماركت، فلابد أن يكون هناك شيء غامض في الأمر. توصلتُ إلى تصور استراتيجية ملتوية. سأحاول بطريقة غير مباشرة، ودون أن أذكر أي شيء عن سيدة الصورة، جعل خوان يأخذني لزيارة جنة عدن الخيول. تلك الليلة الطويلة من الاختلاجات والأرق، وحتى انتصاب عنيف كذلك، توصلتُ في إحدى اللحظات إلى الإحساس بنوبة غيرة من صديقي. تصورت أن رسام الخيول لا يقوم في نيوماركت برسم

اللوحات وحسب، وإنما يسلي في أوقات فراغه زوجات مالكي الإسطبلات الضجرات، وربما كانت مسز رتشاردسون بين غزواته.

لماذا لا توجد لدى خوان رفيقة ثابتة، مثل غيره من الهيبيين الكثيرين؟ في الحفلات التي يأخذني إليها، ينتهي على الدوام تقريباً إلى التواري مع فتاة، وأحياناً مع اثنتين. ولكنني فوجئت في إحدى الليالي، حين رأيته يداعب ويقبّل، باندفاع شديد، فم فتى أحمر الشعر، نحيل مثل قصبة، ويعتصره بين ذراعيه باحتدام غرامي.

ـ آمل ألا يكون قد صدمك ما رأيته ـ قال لي فيما بعد، بشيء من الغيظ.

فقلت له إنه لم يعد هناك في العالم ما يصدمني وقد بلغتُ الخامسة والثلاثين، وأقل ما يمكن أن يصدمني هو ممارسة الكائنات البشرية الحب السوي والمقلوب.

ـ إنني أفعل ذلك بالطريقتين، وأنا سعيد أيها العجوز ـ اعترف لي وهو يتمطى ـ أظن أن الفتيات يرقنني أكثر من الفتيان، ولكنني لن أقع على أي حال في حب هؤلاء أو أولئك. سر السعادة، أو الطمأنينة على الأقل، هو في معرفة فصل الجنس عن الحب. واستبعاد الحب الرومنسي من حياتك، إن استطعت؛ لأنه يسبب المعاناة. هكذا يعيش المرء بطمأنينة أكبر، ويستمتع أكثر، أؤكد لك.

إنها فلسفة يمكن للطفلة الخبيثة أن توافق عليها بكل نقاطها وفواصلها، لأنها تمارسها دون ريب منذ الأزل. أظن أنها كانت المرة الأولى التي نتحدث فيها ـ أو التي يتحدث فيها هو، بعبارة أدق ـ عن الشؤون الحميمة. كان يعيش حياة حرية واختلاط، لكنه حافظ في الوقت نفسه على تلك النزعة التي لدى البيروين في تجنب البوح في الشأن الجنسي، والتطرق إلى الموضوع على الدوام بصورة مستترة وغير مباشرة. كانت أحاديثنا تدور أساساً حول البيرو البعيدة، والتي تصلنا

منها أخبار أكثر كارثية في كل مرة، عن عمليات تأميم كبرى للمزارع والشركات تنفذها دكتاتورية الجنرال فيلاسكو العسكرية التي ستعيدنا، حسب رسائل العم أتاولفو متزايدة اليأس، إلى العصر الحجري. وقد اعترف لي خوان أيضاً، في ذلك اليوم، بأنه على الرغم من بحثه في لندن عن كل الفرص الممكنة لتهدئة شهواته («لقد رأيتُ ذلك»، قلت له مازحاً)، إلا أنه يتصرف في نيوماركت كراهب عفيف، بالرغم من توفر الفرص للاستمتاع. لكنه لا يرغب في أن يفقد، من أجل مغامرة في الفراش، مورد رزقه الذي وفر له الأمان ودخلاً لم يحلم بمثله قط. «فأنا أيضاً في الخامسة والثلاثين من عمري، وهذه السن هنا في إيرلز كورت، مثلما لاحظتَ بالتأكيد، هي سن الشيخوخة». كان قوله صحيحاً. فالشباب الجسدي والذهني لسكان هذا الحي اللندني كان يُشعرني أحياناً بأنني ما قبل تاريخيّ.

تكلفت وقتاً طويلاً وسلسلة متشابكة من التلميحات الحساسة والأسئلة التافهة ظاهرياً، من أجل دفع خوان بارّيتو كي يأخذني للتعرف على نيوماركت، الموقع المشهور في سوفولك، والذي يجسد منذ منتصف القرن الثامن عشر الشغف الألبيوني[1] بالخيول الأصيلة. كنت أوجه إليه الكثير من الأسئلة. كيف هم أناس ذلك المكان، البيوت التي يعيشون فيها، الطقوس والتقاليد التي تحيط بهم، العلاقات بين مالكي الخيول والفرسان والمدربين. وما هي حقيقة مزادات التاترسلرز حيث تُدفع مبالغ خيالية مقابل الخيول النجوم، وكيف يمكن المزايدة على الحصان مجزءاً، كما لو أنه يمكن تفكيكه. وكل ما كان يخبرني به. أحتفي بأسئلتي بما يشبه التصفيق ـ «يا له من أمر مشوق يا رجل»ـ، وأبدي ملامح

---

[1] البيوني: نسبة إلى البيون Albion، وهي التسمية التي أطلقها الإغريق على إنكلترا.

الحماسة: «كم ستكون محظوظاً لو أتيح لك التعرف على هذا العالم من الداخل يا أخي».

وأخيراً أعطت جهودي النتيجة. كان هناك مزاد خيول نهاية الموسم، وبعد ذلك سيقيم مربي خيول إيطالي متزوج من إنكليزية، السنيور أريوستي، مأدبة عشاء في بيته دعا إليها خوان. فسأله صديقي إذا ما كان بإمكانه المجيء بمرافق معه، وقال له ذاك على الرحب والسعة. السبعة عشر يوماً التي كان عليّ انتظارها لحلول ذلك الموعد أتذكرها كغمامة تتخللها نوبات تعرق مفاجئة وهيجانات مراهق، أتخيل خلالها أنني سوف أرى البيروية، وليال من الأرق لا أفعل فيها شيئاً سوى تأنيب نفسي: إنني أبله ذو سوابق بمواصلتي التدله في حب امرأة مجنونة، مغامرة، امرأة لا وازع لديها ولا يمكن لأي رجل، وأنا أقل من أي رجل آخر، إقامة علاقة مستقرة معها، دون أن ينتهي به الأمر إلى الحضيض. لكن هذه المناجيات المازوشية كانت تتخللها وتتفوق عليها مناجيات أخرى من السعادة والوهم: أتكون قد تبدلت كثيراً؟ أمازالت تحتفظ بتلك الجرأة التي تجتذبني، أم أن العيش في عالم مربي الخيول الإنكليز التراتبي قد روضها وعطلها؟ يوم ركبنا القطار إلى نيوماركت ـ كان علينا استبدال الخط في كامبردج ـ داهمتني فكرة أن ذلك كله ليس سوى هذيان خيالي، وأن المدعوة مسز رتشاردسون ليست أكثر ولا أقل من سيدة عادية من أصل مكسيكي. «وماذا لو أنك لم تكن طوال هذا الوقت سوى مثل من يستمني يا ريكارديتو».

بيت خوان بارّيتو الريفي، على بعد حوالي ميلين من نيوماركت، المشيد من الخشب، والمؤلف من طابق واحد محاط بالصفصاف والأرطنسية، بدا لي مشغل فنان أكثر مما هو منزل سكني. كان البيت مترعاً بعلب الألوان، وحمالات اللوحات، وأقمشة مشدودة على

إطارات، ودفاتر اسكتشات وتخطيطات رسوم، وكتب فن، وكانت هناك أيضاً أسطوانات كثيرة مبعثرة على الأرض، حول جهاز فخم للاستماع إليها. وكان لدى خوان سيارة ميني مينور، لا يذهب بها مطلقاً إلى لندن، وقد أخذني بعد ظهر ذلك اليوم في سيارته الصغيرة للقيام بجولة على كل أنحاء نيوماركت، وهي مدينة غامضة ومبعثرة، ليس لها مركز عملياً. أخذني للتعرف إلى الجوكي كلوب الفاخر، ومتحف هورس ريسنغ. لم تكن المدينة الحقيقية هي حفنة البيوت المحيطة بنيوماركت هاي ستريت، حيث توجد كنيسة، وبعض المتاجر، ومحل أو اثنان لغسل الملابس بقطع نقدية، ومطعمان، وإنما البيوت الجميلة المبعثرة في الحقل المنبسط، وتظهر حولها الإسطبلات، ومراتع الخيول، ومضامير التدريب التي كان خوان يريني إياها، ويذكر أسماء أصحابها وصاحباتها، ويروي لي نوادر عنهم. وكنت أكاد لا أسمعه. فكل اهتمامي كان مركزاً على الناس العابرين، على أمل أن تظهر بينهم فجأة الهيئة الأنثوية التي أبحث عنها.

لم تظهر، سواء في هذه الجولة أو في المطعم الهندي الصغير الذي أخذني إليه خوان في تلك الليلة لتناول وجبة ***كاري تاندوري***، ولم تظهر كذلك في اليوم التالي، في المزاد الطويل، اللانهائي، على أفراس، وأمهار، وأحصنة سباق وتلقيح، في مزاد تاتيرسلز الذي أقيم في خيمة كبيرة من قماش سميك. أصابني ضجر شديد. وفوجئت بأعداد العرب الموجودين هناك، بعضهم بالجلاليب، يزايدون في كل مزاد ويدفعون في بعض الأحيان مبالغ فلكية، لم يخطر لي قط أنها قد تدفع مقابل رباعي قوائم. وبين كل الأشخاص الكثيرين الذين قدمهم لي خوان خلال المزاد، وفي الاستراحات التي كان الحاضرون يتناولون خلالها الشمبانيا ويأكلون الجزر والخيار وسمك الرنكة في كؤوس وأطباق من الكرتون، لم يتلفظ أي منهم بالاسم الذي أنتظره:

مستر دافيد رتشاردسون.

ولكنني ما إن دخلت، تلك الليلة، إلى منزل السنيور أريوستي الفخم، حتى أحسست فجأة بجفاف في حنجرتي، وبألم في أظفار يدي وقدمي. لقد كانت هناك، على بعد أقل من عشرة أمتار، جالسة على ذراع أريكة، وفي يدها كأس طويلة. كانت تنظر إليّ كما لو أنها لم ترني في حياتها قط. وقبل أن أتمكن من التوجه إليها بالكلام، أو تقريب وجهي منها لأقبل خدها، مدّت لي يداً مشمئزة وحيّتني بالإنكليزية كما لو كنت الغريب الكامل: « *How do you do?*». ودون أن تمنحني وقتاً للرد عليها، أدارت لي ظهرها وانغمست مجدداً في الحديث مع من يحيطون بها. وبعد قليل سمعتها تروي لهم، بأقصى ما يمكن من الطلاقة، وبإنكليزية تقريبية لكنها معبرة جداً، كيف أن أباها كان يأخذها كل أسبوع، وهي طفلة في مدينة مكسيكو، إلى حفلة موسيقية أو أوبرا. وهكذا ترسخ لديها الشغف المبكر بالموسيقى الكلاسيكية.

لم تكن قد تغيرت كثيراً في هذه السنوات الأربع. فلها على الدوام قوامها الممشوق، حسن التقاطيع، والخصر النحيل، والساقان الرفيعتان المسكوبتان، وكعبان شديدا النعومة ومكوران كما الدمى. وتبدو أشد ثقة بنفسها وأكثر انطلاقاً مما كانت عليه من قبل. تحرك رأسها مع نهاية كل جملة بفتور مدروس. لقد صيرت لون شعرها أشقر بعض الشيء، وأطول مما كان عليه في باريس، مع تجعدات لا أتذكرها فيه؛ وصار مكياجها أكثر بساطة وطبيعية من المكياج المثقل الذي اعتادت عليه مدام أرنو. وكانت ترتدي تنورة قصيرة، حسب الموضة الدارجة، تكشف عن ركبتيها، وبلوزة مفتوحة تُظهر كتفيها الناعمين الحريريين الجميلين، وتُبرز عنقها كأنه سداة زهرة مزهوة ومحاطة بسلسلة فضية يتدلى منها حجر ثمين، ربما هو

ياقوت أزرق، يتأرجح مع تحركها بخبث على فتحة الصدر، حيث يطل نهداها المنتصبان. لمحتُ خاتم زواجها في بنصر يدها اليسرى، على الطريقة البروتستانتية. أتكون قد تحولت إلى الديانة الأنجليكانية أيضاً؟

السيد رتشاردسون الذي قدمه إلي في الصالة المجاورة، رجل ستيني يطفح بالحيوية، ويرتدي قميصاً أصفر كهرمانياً، ومنديلاً من اللون نفسه ينسدل على بدلته الزرقاء بالغة الأناقة. كان مخموراً، منتشياً، يروي نوادر حول مغامراته في اليابان تبهج كثيراً كورال المدعوين المحيطين به، في الوقت نفسه الذي يملأ لهم الكؤوس من زجاجة دوم بيرينيون تظهر وتختفي من يده كما في فنون السحر. أوضح لي خوان أنه رجل واسع الثراء، وأنه يقضي شطراً من السنة في أعمال تجارية في آسيا، لكن شمال حياته هو الشغف الأرستقراطي بامتياز: الخيول.

حوالي مئة شخص كانوا يملؤون الحجرات والبهو الذي تمتد أمامه حديقة فسيحة، فيها مسبح مكسو بالخزف ومضاء، يتوافق إلى هذا الحد أو ذاك مع ما كان خوان بارّيتو قد أخبرني به: عالم شديد الإنكليزية، انضم إليه بعض مربي الخيول الأجانب، مثل صاحب البيت السنيور أريوستي، أو مواطنتي الشهية المتنكرة كمكسيكية، مسز رتشاردسون. الجميع يتنقلون شبه مخمورين، ويبدو أنهم جميعهم يعرفون بعضهم بعضاً معرفة جيدة، ويتواصلون بلغة مشفرة موضوعها المعهود هو الخيول. وفي لحظة تمكنت فيها من الجلوس مع الجماعة المحيطة بمسز رتشاردسون، فهمتُ أن عدداً من هؤلاء، ومنهم الطفلة الخبيثة وزوجها، كانوا قد ذهبوا مدعوين إلى دبي منذ وقت قريب، بالطائرة الخاصة لأحد الشيوخ العرب، من أجل افتتاح ميدان لسباق الخيول. وقد عاملوهم هناك بحفاوة بالغة. وكانوا

يقولون إن ما يشاع عن أن المسلمين لا يشربون الكحول، يمكن أن يكون صحيحاً بالنسبة للمسلمين الفقراء، أما الآخرون، مربو الخيول في دبي مثلاً، فيشربون ويكرمون ضيوفهم بأفخر أنواع الشمبانيا والنبيذ الفرنسيين.

وبالرغم من جهودي، لم أتمكن خلال تلك الليلة الطويلة من تبادل كلمة واحدة مع مسز رتشاردسون. فكلما اقتربتُ منها، متوسلاً طريقة ما، كانت تبتعد، بحجة الذهاب لمصافحة أحدهم، أو الذهاب إلى الأطعمة المعروضة أو البار، أو تأخذ بالتهامس مع إحدى الصديقات. ولم أستطع كذلك أن أتبادل النظرات معها، مع أنه لم يكن لدي أدنى شك في أنها كانت مدركة تماماً أنني ألاحقها بنظري طوال الوقت، إلا أنها لم تولني وجهها قط، بل كانت تتدبر الأمر دائما لتدير لي ظهرها أو جانبها. وكان صحيحاً ما قاله لي خوان. فإنكليزيتها بدائية وغير مفهومة أحياناً، محشوة بالأخطاء، ولكنها تتكلمها بكثير من البرودة والقناعة وبنبرة أمريكية لاتينية شديدة اللطف، تبدو معها ظريفة فضلاً عن أنها معبرة. ومن أجل ملء الفجوات، ترفق كلماتها بإيماءات متواصلة وتقطيبات وحركات هي استعراض تغنج متقن.

تكشف شارل، ابن أخي مسز ستيوبارد، عن شاب فاتن. وقد روى لي أنه، بسبب خوان، بدأ بقراءة كتب رحالة إنكليزيين إلى البيرو، وأنه يخطط للذهاب لقضاء إجازة في كوسكو، والقيام برحلة إلى ماتشو بيتشو، .وهو يريد إقناع خوان بمرافقته. وإذا كنتُ أرغب في الانضمام إلى المغامرة، فـ *welcome*.

وفي حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل، عندما بدأ الناس بوداع السنيور أريوستي، وفي اندفاع مفاجئ حثتني عليه كؤوس الشمبانيا العديدة التي شربتها، ابتعدتُ عن زوجين كانا يسألانني عن

تجربتي كمترجم فوري، وتفاديت صديقي خوان بارّيتو الذي كان يحاول للمرة الرابعة أو الخامسة جرجرتي إلى قاعة مجاورة لأشاهد بتقدير الصورة الكاملة التي رسمها للحصان *بيليكوسو*، أحد نجوم إسطبل صاحب البيت. اجتزت الصالة باتجاه الجماعة حيث كانت مسز رتشاردسون. أمسكتها من ذراعها بقوة وأجبرتها، مبتسماً، على الابتعاد عمن يحيطون بها. نظرت إليَّ باستياء اعوج معه فمها، وسمعتها تتفوه بأول كلمات بذيئة منذ عرفتها:

ـ أفلتني، *fucking beast* ـ دمدمت من بين أسنانها ـ أفلتني، سوف تتسبب لي بورطة.

ـ إذا لم تتصلي بي هاتفياً، فسوف أخبر مستر رتشاردسون بأنك متزوجة في فرنسا، وأن الشرطة السويسرية تلاحقك لإفراغك حساب مسيو أرنو السري.

ووضعتُ في يدها قصاصة ورق صغيرة عليها رقم هاتف *موطئ قدم* خوان في إيرلز كورت. وبعد برهة ذهول وصمت ـ تحول وجهها خلالها إلى تكشيرة ـ، أطلقت قهقهة، وفتحت عينيها على اتساعهما:

ـ *Oh, my God! You are learning*، أيها الطفل الطيب ـ هتفت، متجاوزة المفاجأة، بنبرة رضا محترفة.

ثم استدارت وعادت إلى الجماعة التي انتزعتها من بينها.

كنت واثقاً أشد الثقة من أنها لن تتصل بي. فأنا شاهد غير مريح على ماض تريد هي محوه بأي ثمن؛ وإلا لما كانت تصرفت مثلما تصرفت طوال الليل، متهربة من نظراتي. ومع ذلك، اتصلت بي في إيرلز كورت بعد يومين من ذلك، في وقت مبكر جداً. ولم نكد نتبادل الكلام، لأنها كما اعتادت أن تفعل من قبل، اكتفت بإصدار الأوامر لي:

ـ سأنتظرك غداً، الساعة الثالثة، في فندق راسل. أتعرفه؟ إنه في ميدان راسل، قريباً من المتحف البريطاني. أريد دقة مواعيد

إنكليزية، من فضلك.

كنتُ هناك قبل نصف ساعة من الموعد. كانت يداي تتعرقان، وأتنفس بصعوبة. بدا لي المكان كأفضل موقع يمكن اختياره. الفندق القديم على طراز *العصر الجميل*، بواجهته وممراته الطويلة من طراز بومبير الشرقي، يبدو شبه خاوٍ، لا سيما البار ذي السقف المرتفع جداً والجدران المغطاة بالخشب، والموائد في أماكن متباعدة جداً، بعضها متوارٍ بين حواجز وسجاجيد سميكة تخمد وقع الخطى والأحاديث. ووراء منضدة الكونتوار، كان هناك نادل يتصفح جريدة *إيفننغ ستاندرد*.

جاءت متأخرة بضع دقائق، وكانت ترتدي فستاناً من جلد الغزال خبازي اللون، وحذاء ومحفظة أسودين من جلد التمساح، وعقد لؤلؤ بلفة واحدة، وفي معصمها سوار سوليتير يتلألأ. وكانت تحمل على ذراعها معطفاً مطرياً رمادياً ومظلة من القماش واللون نفسيهما. كم تقدمت الرفيقة آرليت! ودون أن تحييني، أو تبتسم، أو تمد لي يدها، جلست على المقعد المقابل لي، قاطعت ساقيها وبدأت بتأنيبي:

ـ لقد أقدمتَ في تلك الليلة على حماقة لن أغفرها لك. ما كان عليك أن تتوجه إلي بالكلام، وما كان عليك أن تمسك ذراعي، وما كان عليك أن تكلمني كما لو أنك تعرفني. كان يمكن لك أن تورطني في مأزق، ألم تلاحظ أنه عليك أن تداري؟ أين هو عقلك يا ريكارديتو؟

إنها هي، دون تغيير. لم نلتق منذ أربع سنوات، ولم يخطر لها أن تسألني كيف حالي، وما الذي فعلته خلال هذا الوقت كله، أو أن توجه إليّ على الأقل ابتسامة أو كلمة لطيفة لهذا اللقاء. توجهت إلى ما يخصها، دون أن تهتم بأي شيء آخر.

ـ تبدين جميلة جداً ـ قلت لها، متكلماً بشيء من الصعوبة، بسبب

الانفعال ـ بل أجمل مما كنتِ عليه قبل أربع سنوات، عندما كان اسمك مدام أرنو. إنني أغفر لك شتائمك في تلك الليلة، وجنونك الآن، للجمال الذي أنت عليه. وفوق هذا، إذا كنت راغبة في أن تعرفي، فإنني أقول أجل، مازلتُ متيماً بحبك. على الرغم من كل شيء. إنني مجنون بك. أكثر من أي وقت مضى. أتتذكرين فرشاة الأسنان التي تركتها كذكرى في آخر لقاء لنا؟ إنها هذه. وأنا أحملها منذ ذلك الحين أينما ذهبت، في جيبي. لقد تحولتُ إلى مؤمن بالتمائم بسببك. شكراً لكونك بهذا الجمال أيتها التشيلية الصغيرة.

لم تضحك، إنما لمع في عينيها اللتين بلون العسل القاتم وميض سخرية الأزمنة الغابرة. تناولت فرشاة الأسنان، تفحصتها وأعادتها إليّ مدمدمة: «لا أدري عمَ تتكلم». كانت تسمح لي، دون أي انزعاج، أن أتأملها، بينما هي تتفحصني، تدرسني. كانت عيناي تجوبانها من أسفل إلى أعلى، ومن أعلى إلى أسفل، متوقفتين عند ركبتيها، عند عنقها، عند أذنيها شبه المغطاتين بخصل من شعرها الذي صار الآن أشقر، عند يديها المعتنى بهما، عند أظفارها الطويلة المطلية بلون طبيعي، وعند أنفها الذي يبدو أكثر رهافة. تركتني أمسك يديها وأقبّلهما، ولكن بعدم مبالاتها النموذجية، ودون أن تبدي أدنى إيماءة تبادلية.

ـ أكان تهديدك جدياً في الليلة الماضية؟ ـ سألتني أخيراً.

ـ جدياً جداً ـ قلت لها وأنا أقبّل كل واحدة من يديها إصبعاً فإصبعاً، مفصلاً فمفصلاً، ظاهراً وباطناً ـ لقد تحولتُ مع مرور السنين وصرت مثلكِ. كل شيء مسموح لبلوغ أحدنا مراده. إنها كلماتك أيتها الطفلة الخبيثة. والشيء الوحيد الذي أريده في هذا العالم، كما تعرفين جيداً، هو أنت.

سحبت إحدى يديها من بين يدي ومرت بها على رأسي، مشعثة شعري، بما يشبه المداعبة المشفقة، في حركة قامت بها في مرات

أخرى سابقة:

ـ لا، أنت غير قادر على مثل هذه الأعمال ـ قالت بصوت منخفض، كما لو أنها تأسف لهذا النقص في شخصيتي ـ. ولكن، بلى، لا بد أنك مازلت مغرماً بي.

طلبت شاياً مع بسكويت لكلينا، وأوضحت لي أن زوجها رجل غيور، والأسوأ من ذلك أنه مصاب بغيرة استعادية. يتشمم ماضيها مثل ذئب كاسر. ولهذا هي مضطرة إلى أن تكون حذرة جداً. فلو أنه ارتاب تلك الليلة في أنها تعرفني، لأثار لها فضيحة مدوية. ألا أكون قد تهورتُ وأخبرتُ خوان بارّيتو بمن تكون؟

ـ ما كان بإمكاني إخباره حتى لو أردت ذلك ـ طمأنتُها ـ لأنه لم تكن لدي بعد أدنى فكرة عمن تكونين.

انتهت إلى الضحك. تركتني أمسك رأسها بكلتا يدي، وألصقتُ شفتيّ بشفتيها. وتحت شفتي اللتين تقبّلانها بنهم، بحنان، بكل الحب الذي أكنه لها، ظلت شفتاها جامدتين.

ـ اشتقتُ إليكِ ـ همستُ في مسمعها وأنا أعض حافة أذنها برفق ـ إنكِ أجمل من أي وقت آخر أيتها البيروية الصغيرة. أحبك، أشتهيك بكل روحي، بكل جسدي. لم أفعل شيئاً طوال هذه السنوات الأربع سوى التفكير فيك، سوى حبك واشتهائك. ولعنك أيضاً. كل يوم، كل ليلة، وطوال الأيام كلها.

بعد قليل أبعدتني بيديها.

ـ لابد أنكَ الشخص الأخير في العالم الذي مازال يقول هذه الكلمات للنساء ـ كانت تبتسم بمرح وهي تنظر إليّ كما إلى حيوان نادر ـ. وأية عبارات مزوقة كنت تقولها عني يا ريكارديتو!

ـ ليس أسوأ ما في الأمر أنني قلتها، الأسوأ أنني أشعر بها. أجل، أشعر أنها حقيقية. إنكِ تحولينني إلى شخصية مسلسل تلفزيوني. وأنا

لم أقل هذه الكلمات لأحد سواكِ.

ـ يجب ألا يرانا هكذا أحد، مطلقاً ـ قالت فجأة مبدلة نبرة صوتها. فقد صارت جدية جداً الآن ـ آخر ما أرغب فيه هو نوبة غيرة من زوجي الثقيل. أما الآن، فعلي أن أذهب يا ريكارديتو.

ـ وهل سيكون عليّ أن أنتظر أربع سنوات أخرى كي أراكِ من جديد؟

ـ يوم الجمعة ـ قالت محددة على الفور، مرفقة قولها بضحكة ماكرة، ومرت بيدها مرة أخرى على شعري. وأضافت بعد وقفة صمت متأملة ـ: هنا بالذات. سأحجز غرفة باسمك. لا تقلق أيها الصعلوك، سأدفع أنا. أحضر معك حقيبة، من أجل المداراة.

قلت لها لا بأس، ولكنني سأدفع أنا إيجار الغرفة. ولست أفكر في استبدال مهنتي من مترجم إلى متعيش على حساب النساء.

أطلقت قهقهة، وكانت ضحكتها تلقائية حقاً هذه المرة:

ـ طبعاً! ـ هتفت ـ. إنك سيد ميرافلوري، والسادة لا يقبلون نقوداً من النساء.

وللمرة الثالثة مرت بيدها على شعري، فأمسكتُ بها في هذه المرة، وقبّلتها.

ـ أكنت تظن أنك ستنام معي في تلك الشقة البائسة التي أعارك إياها المخنث خوان باريّتو في إيرلز كورت؟ أنت لم تلاحظ بعد أنني الآن *at the top*.

بعد دقيقة من ذلك غادرت، وكانت قد أوصتني بعدم الخروج من فندق راسيل قبل انقضاء ربع ساعة، لأن كل شيء ممكن مع دافيد رتشاردسون، بما في ذلك أن يرسل لمراقبتها، كلما جاءت إلى لندن، أحد أولئك التحريين المتخصصين في الخيانات الزوجية.

انتظرتُ الخمس عشرة دقيقة التي طلبتها، وبدل أن أركب المترو

بعد ذلك، قمت بجولة طويلة تحت السماء الملبدة وبوادر رذاذ مطري. ذهبتُ حتى ميدان الطرف الأغر، واجتزت سانت جيمس بارك، وغرين بارك، وأنا أشم العشب المبلل، وأرى قطرات الماء تنزلق عن أوراق أشجار السنديان الضخمة. نزلتُ على امتداد شارع برومبتون بكامله تقريباً، وبعد ساعة ونصف من المشي، وصلت إلى قوس فيلبيك جاردنز، منهوكاً وسعيداً. منحتني المسيرة الطويلة إحساساً بالسكينة، وأتاحت لي التفكير، دون جلبة الأفكار والأحاسيس المختلطة التي عشت فيها منذ زيارتي لنيوماركت. كيف يمكن لرؤيتها، بعد كل هذا الوقت، أن تقلب كيانك على هذا النحو يا ريكارديتو؟ لأن كل ما قلتُهُ لها كان صحيحاً: مازلتُ مجنوناً بها. كان يكفيني أن أراها لأعترف ـ حتى وأنا اعلم أن أي علاقة مع الطفلة الخبيثة محكومة بالفشل ـ بأن الشيء الوحيد الذي أرغب فيه حقاً في الحياة بكل تلك اللهفة التي يسعى بها آخرون إلى الثروة، والمجد، والنجاح، والسلطة، هو امتلاكها هي، بكل أكاذيبها، وخداعها، وأنانيتها، واختفاءاتها. إن ما أقوله متكلف، دون شك، ولكن الحقيقة هي أنه لن يكون لدي، حتى يوم الجمعة، أي شيء آخر سوى لعن البطء الذي تنقضي به الساعات المتبقية للقاء الجديد بها.

عندما وصلتُ يوم الجمعة إلى فندق راسِل، حاملاً حقيبة في يدي، أكد لي موظف الاستقبال، وهو هندي، أن الغرفة محجوزة باسمي لهذا اليوم. وأن الأجر قد دُفع. وأضاف أن «سكرتيرتي» قد نبهتهم إلى أنني أجيء من باريس بكثرة، فإذا كان الأمر كذلك، فسوف يجد الفندق طريقة لتقديم سعر خاص، باعتباري زبوناً ثابتاً، «باستثناء الموسم العالي». كانت الغرفة تطل على ميدان راسِل، ومع أنها لم تكن ضيقة، إلا أنها بدت كذلك بسبب ازدحامها بأشياء كثيرة: مناضد صغيرة، مصابيح إنارة، حيوانات صغيرة، صور

لوحات، ولوحة قماشية كبيرة عليها رسم محاربين منغوليين بعيون زائغة، ولحى ملوية وسيوف عريضة معقوفة، يبدون كما لو أنهم سينقضون على الفراش بنوايا خبيثة جداً.

وصلت الطفلة الخبيثة بعد نصف ساعة من مجيئي، متشحة بمعطف جلدي مفرض، وقبعة تتناسب معه، وجزمة تصل حتى ركبتيها. وإضافة إلى حقيبتها اليدوية، كانت تحمل حافظة ممتلئة بدفاتر وكتب دورة دراسية حول الفن الحديث، أوضحت لي في ما بعد، أنها تتبعها ثلاثة أيام في الأسبوع في معهد كريستي. وقبل أن تنظر إليّ ألقت نظرة على الغرفة وقامت بإيماءة خفيفة تشير إلى الرضا. وعندما تنازلت أخيراً في النظر إليّ، كنت قد احتضنتها بذراعي وبدأت بتجريدها من ملابسها.

ـ كن حذراً ـ أصدرت لي تعليماتها ـ إياك أن تجعد ثيابي.

عريتها بكل ما في العالم من حذر، متفحصاً الملابس التي ترتديها، كما لو أنها أشياء ثمينة وفريدة، مقبّلاً بورع كل سنتمتر من الجلد ينكشف تحت نظري، مستنشقاً نعومة الأريج ذي العطر الخفيف الذي ينبعث من جسدها. لديها الآن ندبة تكاد تكون غير مرئية بالقرب من أصل الفخذ، لقد أُجريت لها عملية الزائدة الدودية إذن. وكانت عانتها أكثر تشذيباً من السابق. أحسست بالرغبة، بالعاطفة، بالرقة، بينما أنا أقبّل أسفل بطنها، إبطيها المعطرين، عظام عمودها الفقري الصغيرة البارزة في ظهرها، وإليتيها الناهضتين، وناعمتي الملمس كالمخمل. قبّلت نهديها الصغيرين، طويلاً، ومجنوناً بالسعادة.

ـ أنت لم تنس ما يروقني أيها الطفل الطيب ـ همست في أذني أخيراً.

ودون أن تنتظر جوابي، استلقت على ظهرها، مباعدة ما بين

ساقيها لتفسح مكاناً لرأسي، بينما هي تغطي، في الوقت نفسه، عينيها بذراعها اليمنى. أحسست أنها راحت تنأى أكثر، وبصورة أفضل، عني وعن فندق راسِل، وعن لندن، وتركّز تماماً، بزخم لم أره قط في أي امرأة أخرى، على متعتها تلك، المتوحدة، الشخصية، الأنانية، التي تعلمت شفتاي تقديمها إليها. وبينما أنا ألحس، أرشف، أقبّل، أعضض عضوها الصغير، أحسستُ بها تبتل وترتعش. تأخرت كثيراً في الانتهاء. ولكن، كم كان لذيذاً ومهيجاً الإحساس بها تخرخر، تهتز، غائصة في دوار الشهوة، إلى أن هزت شهقة طويلة، أخيراً، جسدها الصغير من القدمين حتى الرأس. «تعال، تعال، هيا»، همست مختنقة. دخلتُ فيها بسهولة وعصرتها بقوة أخرجتها من الخمود الذي خلّفتها فيه النشوة. أنّت متلوية ومحاولة التملص من جسدي، متذمرة: «إنك تسحقني».

وبفمي الملتصق بفمها توسلتُ إليها:

- قولي لي، ولو مرة واحدة في حياتك، إنك تحبينني أيتها الطفلة الخبيثة. حتى لو لم يكن ذلك صحيحاً، قوليها لي. أريد أن أعرف كيف هو وقعها، ولو مرة واحدة.

بعد ذلك، وبينما نحن نتحدث، بعد الانتهاء من ممارسة الحب، على الفراش الأصفر، يتهددنا المقاتلون المغول القساة، وأنا أداعب نهديها، خصرها، وأقبل الندبة التي تكاد تكون غير ظاهرة، وألعب ببطنها الناعم، ملصقاً أذني بسرتها ومصغياً إلى همهمات جسدها العميقة، سألتها لماذا لم تُرضني بقول كذبة صغيرة في أذني. ألم تقل ذلك مرات كثيرة، لكثيرين؟

- هذا هو السبب - ردّت علي في الحال، دون رحمة -. أنا لم أقل لأحد قط «أحبك»، «أريدك» بإحساس حقيقي صادق. لم أقل هذه الكلمات إلا كذباً. لأنني لم أحب أحداً قط يا ريكارديتو. لقد كنت

أكذب عليهم دوماً. أظن أن الرجل الوحيد الذي لم أكذب عليه قط في الفراش هو أنت.

ـ يا للروعة، صدور هذا لكلام عنك يعني أنه تصريح كامل بالحب.

أتراها توصلت أخيراً إلى ما سعت إليه طويلاً، وقد تزوجت الآن من رجل ثري ومتنفذ؟

حجب ظلُ غشاوة عينيها، وتكدر صوتها:

ـ نعم ولا. فمع أنني أجد الأمان الآن وأستطيع شراء ما أريد، إلا أنني مضطرة إلى العيش في نيوماركت، وإلى قضاء الحياة وأنا أتحدث عن الخيول.

قالت ذلك بمرارة يبدو أنها تخرج من أعماق روحها. وفجأة، صارحتني بصورة غير متوقعة، كما لو أنها لم تعد قادرة على الاحتفاظ بكل ذلك في دخيلتها. إنها تكره الخيول بكل قواها، وكذلك كل صداقاتها وعلاقاتها في نيوماركت، من مالكي الخيول، والمدربين، والفرسان، والموظفين، والسائسين، والكلاب، والقطط وكل الأشخاص الذين لهم علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالخيول، تلك المسوخ اللعينة التي هي، فوق ذلك، موضوع الحديث والاهتمام الوحيد لأولئك الناس الفظيعين الذين يحيطون بها. ليس فقط في ميادين السباق ومضمار التدريب والإسطبلات، وإنما كذلك في مآدب العشاء، وحفلات الاستقبال، وحفلات الزفاف، وأعياد الميلاد، وفي اللقاءات العابرة مع أناس نيوماركت، لا يدور الحديث إلا عن أمراض، أو حوادث، أو سباقات، ومآثر أو نكبات رباعيات الأرجل الرهيبة تلك. لقد ملأت هذه الحياة أيامها بالمرارة، بل ولياليها أيضاً، لأنها صارت ترى في الآونة الأخيرة كوابيس تتخللها خيول نيوماركت. ومع أنها لم تقل لي ذلك، إلا أنه كان من السهل ملاحظة أن زوجها لم

ينجُ أيضاً من كرهها الشديد للخيول ونيوماركت. وقد أشفق مستر دافيد رتشاردسون على كآبة امرأته وغمها، فسمح لها منذ بضعة شهور بالمجيء إلى لندن ـ المدينة التي يمقتها أهالي نيوماركت ونادرا ما يأتون إليها ـ لمتابعة دورات دراسية في تاريخ الفن في معهد كريستي وسوثيباي، ولتلقي دروساً في تنسيق الزهور في ***آوت أوف ذي بلوم***، في كيمدن، بل والتردد على جلسات يوغا وتأمل روحاني في أحد مراكز «أشرام» في تشيلسيا، تلهيها قليلاً عن الضيق النفسي الذي تسببه لها الخيول.

ـ ما هذا، ما هذا أيتها الطفلة الخبيثة ـ قلتُ ساخراً، وقد فتنني سماع ما تقوله لي ـ. هل اكتشفتِ أخيراً أن المال لا يعني السعادة دائماً؟ ألدي أمل إذن في أن تصرفي المستر رتشاردسون في يوم ما، وتقبلي الزواج مني؟ باريس أكثر متعة، كما تعلمين، من جحيم سوفولك الخيولي.

ولكنها لم تكن راغبة في المزاح. فاستياؤها من نيوماركت كان أشد مما بدا لي في ذلك اليوم، لقد كان صدمة حقيقية. وأظن أن الطفلة الخبيثة لم تكن تفوت أمسية واحدة، من الأماسي الكثيرة التي التقينا فيها ومارسنا الحب خلال السنتين التاليتين، في مختلف حجرات فندق راسيل ــ توصلتُ إلى الشعور بأنني صرت أعرف الحجرات كلها عن ظهر قلب ـ، دون أن تخمد غضبها بإطلاق الشتائم على الخيول وعلى أناس نيوماركت الذين ترى أن حياتهم رتيبة، وأكثر بلاهة في العالم. لماذا إذن، إذا كانت تعيسة بحياتها التي تعيشها، لا تضع حداً لها؟ ما الذي تنتظره لتنفصل عن دافيد رتشاردسون، وهو رجل لم يكن زواجها منه، بكل تأكيد، بدافع الحب؟

ـ لم أتجرأ على طلب الطلاق منه ـ اعترفت لي في إحدى تلك

الأمسيات ـ لست أدري ما الذي سيحدث لي إذا ما أقدمت على ذلك.

ـ لن يحدث لك أي شيء. أنت متزوجة وفق القانون، أليس كذلك؟ وهنا يستريح المتزوجون من بعضهم بعضاً دون مشاكل.

ـ لست أدري ـ قالت لي، متوغلة في البوح أكثر من المعهود ـ. لقد تزوجنا في جبل طارق، وأنا غير متأكدة مما إذا كانت لزواجي الصلاحية نفسها هنا. ولست أعرف كذلك كيف أتقصى حقيقة وضعي، دون أن يعلم دافيد بذلك. أنت لا تعرف كيف هم الأثرياء أيها الطفل الطيب. ولا تعرف دافيد بصورة خاصة. فلكي يتزوج مني، حاك مع محاميّه مؤامرة طلاق من زوجته الأولى خلّفتها في ما هو أقل بقليل من الإلقاء في الشارع. لا أريد أن يحدث لي الشيء نفسه. لديه أفضل المحامين، وأفضل العلاقات. أما أنا فلست، في إنكلترا، إلا أقل من الجميع، إنني مجرد *chit* بائسة.

لم أستطع أن أتقصى قط كيف تعرّفت عليه، ومتى وبأي طريقة بدأ هذا الرومانس مع دافيد رتشاردسون وقذف بها من باريس إلى نيوماركت. لاشك في أنها أجرت حسابات خاطئة، معتقدة أنها بمثل هذه الغزوة، ستنال أيضاً تلك الحرية غير المحدودة التي تربطها بالثراء. لم تكن غير سعيدة وحسب؛ بل يبدو للعين المجردة أنها كانت أكثر تعاسة مما كانت عليه كزوجة للموظف الفرنسي الذي هجرته. وعندما حدثتني هي نفسها، في واحدة أخرى من تلك الأمسيات، عن روبير أرنو وطلبت مني أن أخبرها بكل تفاصيل المحادثة التي جرت بيننا في الليلة التي دعاني فيها لتناول العشاء في مطعم شيزو، استجبتُ لطلبها، دون أن أخفي شيئاً، بل إنني أخبرتها كذلك كيف أن عيني زوجها السابق اغرورقتا بالدمع عندما أشار إلى أنها هربت بكل مدخرات حسابهما المشترك في مصرف سويسري.

ـ الشيء الوحيد الذي آلمه، كفرنسي جيد، هو المال ـ علقت،

دون أن تبدي أدنى تأثر، ثم أضافت ـ مدخراته! إنها أربع ريالات مضحكة، لم تكفني سنة واحدة في الحياة. لقد استخدمني لإخراج النقود من فرنسا خفية. ليس نقوده فقط، وإنما نقود أصدقائه كذلك. كان يمكن له أن يزج بي في السجن لو اكتشفوا أمري. فضلاً عن أنه كان بخيلاً، وبأسوأ ما يمكن أن يكونه البخل في الحياة.

ـ بما أنك تتمتعين بهذا البرود وهذا الفساد الأخلاقي، لماذا لا تقتلين دافيد رتشاردسون أيتها الطفلة الخبيثة. وهكذا تتجنبين مخاطر الطلاق وترثين ثروته.

ـ لأني لا أعرف كيف يمكنني عمل ذلك دون أن يزوجوا بي في السجن ـ ردّت عليّ، دون أن تبتسم ـ أتتجرأ أنت على عمل ذلك؟ سأقدم لك عشرة بالمئة من الميراث. إنه مبلغ كبير، كبير جداً.

كنا نلعب، ولكنني لم أستطع، وأنا أسمعها تقول لي تلك الكلمات الرهيبة بطلاقة كاملة، أن أتجنب الإحساس بقشعريرة. لم تعد تلك الصبية الضعيفة التي استطاعت، بعد تجاوز آلاف النوائب، أن تخرج قدماً بفضل جرأةٍ وتصميم غير عاديين؛ إنها الآن امرأة كاملة، مقتنعة أن الحياة غابةٌ الفوز فيها للأسوأ، مستعدة لعمل كل شيء كي لا تُهزم، وكي تواصل ارتقاء سلم المواقع. بما في ذلك إرسال زوجها إلى العالم الآخر كي ترثه، إذا ما أمكن لها عمل ذلك مع ضمانة مؤكدة بنجاتها من العقاب؟ «طبعاً»، كانت تقول لي بتلك النظرة الساخرة والقاسية، «هل أخيفك أيها الطفل الطيب؟».

لم تكن تستمتع إلا عندما كان دافيد رتشاردسون يأخذها معه في رحلات أعماله إلى آسيا. وقد أخبرتني، بشيء من الغموض، أن زوجها كان *broker*، وسيطاً في صفقات بضائع متنوعة، تصدرها إندونيسيا، وكوريا، وتايوان، وتايلاند، واليابان إلى أوروبا، ولهذا يقوم برحلات كثيرة إلى هناك للقاء الممونين. لم يكن يأخذها معه

دائمـاً؛ وعنـدما يفعـل، تشـعر بتحـرر عظـيم. فقـد كانـت سـيؤل، بـانكوك، طوكيـو، هـي التعـويض الـذي يمكّنهـا مـن تحمّـل نيوماركت. فبينما هو يشارك في عشاءات واجتماعات العمل، تقوم هي بجولات سياحية، وزيارات إلى المعابد والمتاحف، وتشتري الملابس أو الزينات لبيتها. فلديها على سبيل المثال مجموعة رائعة من الكيمونوات اليابانية، وتشكيلة كبيرة من دمى مسرح باليني المتحركة. هل ستسمح لي يوماً، عندما يكون زوجها مسافراً، أن أذهب إلى نيوماركت وألقي نظرة على بيتها؟ لا، مطلقاً. يجب ألا أظهر هناك أبداً، حتى ولو عاد خوان بارّيتو لدعوتي. اللهم إلا إذا قررتُ أخذ اقتراحها بالقتل على محمل الجد، طبعاً.

هاتان السنتان اللتان قضيت خلالهما فترات طويلة في ***سوينغنغ لندن***، أقضي الليل في ***موطئ قدم*** خوان بارّيتو في إيرلز كورت، والتقي الطفلة الخبيثة مرة أو مرتين كل أسبوع، كانت أسعد سنوات حياتي حتى ذلك الحين. كنت أكسب نقوداً أقل من عملي كمترجم فوري، لأني من أجل البقاء في لندن، تخليت عن عقود عمل كثيرة في باريس ومدن أوروبية أخرى، بما في ذلك موسكو، حيث تزايدت المؤتمرات والندوات الدولية في أواخر الستينيات وبداية السبعينيات؛ وقبلت بالمقابل أعمالاً سيئة الأجر، جاذبيتها الوحيدة أنها توصلني إلى إنكلترا. لكنني ما كنت مستعداً، مقابل أي شيء في الدنيا، لأن استبدل سعادة الوصول إلى فندق راسِل، حيث توصلتُ إلى معرفة جميع عمال وعاملات الخدمة بأسمائهم، وحيث كنت أنتظر، بتأهب، مجيء مسز رتشاردسون. في كل يوم كانت تفاجئني بثوب جديد، أو ملابس داخلية جديدة، أو عطر، أو حذاء جديد. وفي إحدى تلك الأمسيات، واستجابة لطلبي، أحضرت في حقيبتها عدداً من كيمونوات مجموعتها، وقدمت لي عرضاً بها، حيث راحت تمشي

وتتحرك في الغرفة، بقدمين متقاربتين جداً، وابتسامة فتاة جيشا. لقد لمحت على الدوام في جسدها الضئيل وفي بريق بشرتها ذي الخضرة الخفيفة، ملمحاً شرقياً، موروثاً من سلف لها ليست لديها معرفة به. وقد بدا لي الأمر، في ذلك المساء، أشد جلاء من أي وقت آخر.

كنا نمارس الحب، ونتبادل الحديث عاريين، بينما أنا أداعب شعرها وجسدها. وفي بعض الأحيان، إذا ما سمح الوقت بذلك، نقوم بنزهة في إحدى الحدائق قبل أن تعود إلى نيوماركت. وإذا كان المطر يهطل، ندخل إلى إحدى دور السينما، ونشاهد الفيلم المتوافر. وكنا نذهب في أحيان أخرى لتناول الشاي مع البسكويت الذي يروقها في فورتنوم أند مازون. وقد ذهبنا في إحدى المرات لتناول أنواع الشاي المشهورة والفاخرة في فندق ريتز، لكننا لم نرجع إلى هناك ثانية، لأنها لمحت على إحدى الموائد، لدى خروجنا، زوجين من نيوماركت. ورأيتُ وجهها يكتسي بالشحوب. في هاتيك السنتين توصلتُ إلى القناعة بزيف الاعتقاد، في حالتي على الأقل، بأن الحب يفتر أو يتلاشى من كثرة الاستخدام. فقد كان حبي ينمو يوماً بعد يوم. كنت أدرس بكل دقة غاليريات العرض، والمتاحف، وصالات سينما الفن، والمعارض، والدروب التي يُوصى بأن تجوبها المجموعات السياحية ـ أقدم حانات البوب في المدينة، أسواق العاديات، مواقع أحداث روايات ديكينز ـ، لكي أقترح عليها الجولات التي يمكن لها أن تسعدها، وفي كل مرة كنت أفاجئها أيضاً بهدية صغيرة من باريس، إذا لم تفتنها بثمنها، فإنها تفتنها بأصالتها. وقد تسعدها الهدية أحياناً، فتقول لي: «إنك تستحق قبلة»، وتضم شفتيها إلى شفتي لثانية. وبالتصاقها، تبقيان ساكنتين، تتركان التقبيل لي، دون استجابة منهما.

تراها توصلت إلى أن تحبني قليلاً في هاتيك السنتين؟ لم تقل لي ذلك قط، بكل تأكيد، لأن ذلك سيكون دليل ضعف ما كانت

لتسامح نفسها أو تسامحني عليه. ولكنني أعتقد أنها توصلت إلى الاعتياد على ولائي، والإحساس بأنها متملّقة بالحب الذي أسكبه عليها بملء يدي بأكثر مما تتجرأ على الاعتراف به لنفسها. كان يروقها أن تنال ملذتها بفمي، وبعد ذلك، فور بلوغها النشوة، أن أدخل فيها و«أرويها»، وأن أقول لها بكل الأشكال الممكنة، وبألف طريقة، إنني أحبها. «أي عبارات متكلفة ستقولها لي اليوم؟»، هكذا كانت تحيتها لي في بعض الأحيان.

- إن أكثر ما فيكِ إثارة، بعد هذا البظر القزم، هي تفاحة آدم، عندما تعلو؛ ولكنها تكون أكثر إثارة عندما تنزل متراقصة في نحرك.

فإذا ما تمكنت من إضحاكها، أشعر بالامتلاء فخراً، مثلما كنت أشعر في طفولتي، بعد تلك الأعمال الطيبة التي يوصينا رهبان مدرسة شامبان في ميرافلوريس بعملها كل يوم، من أجل بهجة يومنا. في إحدى الأمسيات وقع حدث مثير للفضول، وكانت له ذيوله. كنتُ أعمل يومذاك في مؤتمر نظمته بريتش بتروليوم، في قاعة محاضرات في أوكسبردج، بعيداً بعض الشيء عن لندن، وتبين لي أنه من المستحيل الخروج للقائها ـ مع أنني كنت قد طلبت إذناً للتغيب عن العمل مساء - ذلك أن الزميل الذي كان مقرراً أن يحل محلي أصيب بمرض. اتصلتُ بها هاتفياً في فندق راسِل، وقدمت إليها كل أنواع الاعتذارات. لم تجب بكلمة واحدة، وقطعت المكالمة. عدت للاتصال، لكنها كانت قد غادرت الغرفة.

يوم الجمعة التالي - كنا نلتقي، عموماً، يومي الأربعاء والجمعة، وهما يوما دروسها المزعومة في كريستيز - جعلتني أنتظر أكثر من ساعتين، دون أن تتصل لتفسر تأخرها. وأخيراً، ظهرت بوجه مقطب، بعد أن اعتقدتُ أنها لن تأتي.

ـ ألم يكن بمقدوركِ أن تتصلي ـ قلتُ محتجاً ـ. لقد استبقيتني بأعصاب...

لم أستطع أن أكمل كلامي، لأن صفعة وجهتها بكل قوتها أطبقت فمي.

ـ أنت لا يمكنك أن تتخلف عن موعد معي وتتركني مهجورة أيها الصعلوك ـ كانت ترتعش من الغضب، وكان صوتها فظاً ـ أنت، إذا كنت على موعد معي...

لم أتركها تكمل الجملة، لأنني انقضضت عليها وطرحتها بكل ثقل جسدي على الفراش. دافعت عن نفسها قليلاً في البداية، ولكنها ما لبثت أن توقفت عن المقاومة. وعلى الفور تقريباً، شعرتُ أنها تقبلني وتعانقني أيضاً، وتساعدني على تعريتها. لم تفعل من قبل قط شيئاً كهذا. أحسست لأول مرة بجسدها يتشابك بجسدي، تلفني بساقيها، وشفتيها تضغطان على شفتي، ولسانها يتصارع مع لساني. كانت يداها تغوصان في ظهري، في رقبتي. توسلتُ إليها أن تسامحني، وأن ذلك لن يتكرر، وشكرتها لما تبعثه فيَّ من السعادة، ولأنها أثبتت لي، أول مرة، أنها تحبني أيضاً. عندئذ أحسستُ بها تنتحب ورأيتُ عينيها مخضلتين.

ـ لا تبكِ يا حبي، يا قلبي، بسبب هذه الحماقة ـ حنوت عليها راشفاً دموعها ـ. لن يتكرر ذلك مرة أخرى. أحبك، أحبك.

في ما بعد، عندما ارتدينا ثيابنا، ظلت هي صامتة، بملامح غاضبة، نادمة على ضعفها. حاولتُ أن أحسن مزاجها بالمزاح:

ـ هل تخليتِ عن حبي بهذه السرعة؟

نظرت إليّ بغضب، لبعض الوقت، وعندما تكلمت كانت لصوتها رنة قاسية:

ـ لا تخطيء لا ريكارديتو. لا تظن أنني أقدمت على ما فعلته لأني

أموت من أجلك. فليس هناك رجل يسترعي اهتمامي، وأنت لست استثناء. ولكن لدي غروري، ولا أسمح لأحد بأن يتخلف ويتركني وحيدة في غرفة فندق.

قلت لها إنها متألمة لأني اكتشفت بأن لديها شيئاً من المشاعر تجاهي، على الرغم من كل تمردها، ونزواتها، وشتائمها. وكانت هذه هي الخطيئة الخطرة الثانية التي أقترفها مع الطفلة الخبيثة منذ ذلك اليوم الذي شجعتها فيه على الذهاب إلى كوبا لإتباع دورة تدريبية على حرب العصابات، بدل استبقائها في باريس. نظرت إليّ بجدية بالغة، دون أن تقول شيئاً لبعض الوقت، وأخيراً دمدمت ممتلئة بالكبرياء والازدراء:

ـ أهذا ما تظنه؟ سترى أن الأمر ليس كذلك أيها الصعلوك.

خرجت من الغرفة دون أن تودعني. وفكرتُ في أنه تعكر مزاج عابر، ولكنني لم أعرف أي شيء عنها طوال الأسبوع التالي. أمضيت يومي الأربعاء والجمعة في انتظارها دون طائل، يرافقني في وحدتي المحاربون المغول. وفي يوم الأربعاء التالي، لدى وصولي إلى فندق راسِل، سلمني الحاجب الهندي رسالة صغيرة. تبلغني فيها، باقتضاب شديد، بأنها مسافرة إلى اليابان مع «دافيد». حتى إنها لا تخبرني كم ستبقى هناك، ولا أنها ستتصل بي عند عودتها إلى إنكلترا. ملأتني نذر الشؤم، ولعنت غلطتي. ولمعرفتي بها، أدركتُ أنه يمكن لهاتين الجملتين أن تعنيا فراقاً طويلاً، وربما نهائياً.

في تينك السنتين توطدت صداقتي بخوان بارّيتو. فقد أمضيت أياماً طويلة في موطئ قدمه في إيرلز كورت، مخفياً عنه، بالطبع، أمر لقاءاتي بالطفلة الخبيثة. في هذه الفترة، 1972 أو 1973، دخلت الحركة الهيبية في تفكك سريع، وتحولت إلى تقليعة برجوازية. وتبين أن ثورة الملذات النفسية الحسية أقل عمقاً وجدية مما ظنه رعاتها.

وكان أكثر ما أنتجته إبداعاً هو الموسيقى التي سرعان ما دُمجت بالمؤسسة *establishment* وصارت تشكل جزءاً من الثقافة الرسمية، وحولت المتمردين الهامشيين السابقين وممثليهم وشركات إنتاج الأسطوانات إلى مليونيرين وملتيمليونيرين، بدءاً بفريق البيتلز وانتهاء بالرولينغ ستونز. وبدلاً من تحرير الأرواح بـ «الاتساع غير المحدود للذهن البشري»، حسب تأكيد المرشد الروحي للمخدرات، أستاذ هارفرد القديم، الدكتور تيموثي ليري، جاءت المخدرات، وحياة الاختلاط دون كابح، بعدد كبير من المشاكل وبعض النكبات الشخصية والأسرية. لم يعش أحد تلك التحولات في الظروف بصورة أكثر تغلغلاً فيها من صديقي خوان بارّيتو.

لقد كان سليماً معافى طوال الوقت. وفجأة، بدأ يشكو من إصابات بالأنفلونزا والرشح تنقض عليه بكثرة، ترافقها آلام عصبية شديدة. نصحه طبيبه، في كامبردج، بقضاء إجازة في مناخ أكثر دفئاً من المناخ الإنكليزي. أمضى عشرة أيام في جزيرة إيبيثا ورجع إلى لندن وهو يعطس ويبتسم، مترعاً بنوادر لاذعة عن الليالي الحمراء في إيبيثا، «أمر لم أستطع تصوره قط في بلد مشهور بورعه الديني كما هي إسبانيا».

كانت هذه هي الفترة التي سافرت بها مسز رتشاردسون إلى طوكيو، برفقة زوجها. توقفت عن لقاء خوان حوالي شهر. كنت أعمل خلاله في جنيف وبروكسل، ولم يرد في أي مرة على اتصالاتي الهاتفية إلى بيته في لندن أو في نيوماركت. ولم أتلق خلال تلك الأسابيع الأربعة أيضاً أي خبر من الطفلة الخبيثة. وعندما رجعتُ إلى لندن، قالت لي جارتي في إيرلز كورت، الكولومبية مارينا، إن خوان قد أُدخل منذ عدة أيام إلى مستشفى ويستمنستر. وإنهم وضعوه هناك في جناح الأمراض المعدية، وأخضعوه لكل أنواع الفحوصات.

كان قد نحل كثيراً. ووجدته وقد طالت لحيته كثيراً، مدثراً تحت كومة من البطانيات، ومغموماً لأن «هؤلاء الأطباء الخرقاء لم يتوصلوا إلى تشخيص مرضي». لقد قالوا له أولاً إن لديه مرضاً جلدياً تناسلياً، بلغ حالة معقدة، ثم قالوا إن الإحتمال الأكبر أن يكون مصاباً بنوع من الورم اللحمي. أما الآن فلا يقولون له إلا شبهات مبهمة. لقد تألقت عيناه عندما رآني أظهر إلى جوار سريره:

ـ أشعر أنني وحيد أكثر من كلب، يا أخي ـ اعترف لي ـ. أنت لا تعرف مدى سعادتي برؤيتك. فمع أنني أعرف مليون غريب، إلا أنني اكتشفت أنك أنت صديقي الوحيد. صديق على الطريقة البيروية في الصداقة، أعني الصداقة التي تصل حتى النخاع. الحقيقة أن الصداقات هنا سطحية جداً. فليس لدى الإنكليز متسع من الوقت للصداقة.

كانت مسز ستيوبارد قد تركت منذ بضعة شهور بيتها في سانت جونز وود. فقد تردت صحتها، واعتكفت في ملجأ للمسنين في سوفولك. جاءت لزيارة خوان مرة واحدة، ولكن المجيء كان مشقة لها، ولم ترجع ثانية. «تعاني المسكينة آلاماً في الظهر، وقد كان وصولها إلى هنا عملاً بطولياً.» لقد تحول خوان إلى شخص آخر؛ فقد أفقده المرض التفاؤل والأمان، وملأه بالمخاوف:

ـ إنني أموت، وهم لا يعرفون السبب ـ قال لي، بصوت أجش، عندما ذهبت لزيارته في المرة التالية ـ. لا أظن أنهم يخفون السبب عني كي لا يخيفوني، فالأطباء الإنكليز يخبرونك بالحقيقة دوماً، حتى لو كانت مرعبة. كل ما في الأمر أنهم لا يعرفون ما الذي يحدث لي.

الفحوصات لا تعطي نتيجة محددة بدقة، وقد بدأ الأطباء يتحدثون فجأة عن فيروس غامض، وغير محدد تماماً، يهاجم الجهاز المناعي، مما جعل من خوان عرضة لكل أنواع الالتهابات المعدية. وقد

بلغ حالة قصوى من الضعف؛ عيناه غائرتان، وبشرته مزرقة، وعظامه بارزة. كان يمر بيده على وجهه، كما لو أنه يريد التأكد من أنه مازال موجوداً. وكنت أرافقه طوال الوقت المسموح به للزيارة. وأراه يُستنفد ويذوي أكثر فأكثر كل يوم؛ ويزداد غرقاً، في الوقت نفسه، في اليأس. وفي أحد الأيام طلب مني أن آتيه بكاهن كاثوليكي، لأنه يريد الاعتراف. لم يكن تحقيق طلبه سهلاً. فكاهن برمبتون أوراتوري الذي تحدثت إليه، قال لي إنه من المستحيل عليه الانتقال إلى المستشفيات. لكنه أعطاني رقم هاتف دير رهبان دومينيكانيين يقدمون مثل هذه الخدمات. وكان عليّ أن أذهب بنفسي إلى هناك لبحث الأمر. وقد جاء لرؤية خوان كاهن أيرلندي، أحمر الوجه ولطيف، تبادل معه صديقي حديثاً مطولاً. وقد رجع الكاهن الدمينيكاني لزيارته مرتين أو ثلاث مرات أخرى. وكانت تلك الأحاديث تهدئه لبضعة أيام. ومنها خرج قراره الذي اتخذه فجأة: الكتابة إلى أسرته التي انقطعت علاقته بها منذ نحو عشر سنوات.

كان ضعيفاً بحيث لا يمكنه الكتابة، فأملى عليّ رسالة مطولة، مؤثرة، يلخص فيها لأبويه سيرة حياته كرسام في نيوماركت، مع تفاصيل ساخرة. وقال لهما، على الرغم من أنه أحس مرات كثيرة بالرغبة في الكتابة إليهما، والتصالح معهما، إلا أن حكة غبية من حب الذات كانت تمنعه، وهو نادم على ذلك. لأنه يحبهما ويشتاق إليهما كثيراً. ثم أضاف في ملاحظة أخيرة شيئاً، كان متأكداً من أنه سيسعدهما: فبعد أن ابتعد لسنوات طويلة عن الكنيسة، أتاح له الرب أن يعود إلى الديانة التي تربى عليها، وهو ما يمنح الطمأنينة لحياته الآن. ولكنه لم يقل لهما كلمة واحدة عن مرضه.

ودون أن أخبر خوان، طلبتُ موعداً مع رئيس قسم الأمراض المعدية

في مستشفى ويستمنستر. كان الدكتور روتكوف رجلاً متقدماً في السن، وعلى شيء من الجفاء، له لحية يتخللها الشيب وأنف درني. وقبل أن يجيب على أسئلتي أراد أن يعرف درجة قرابتي للمريض.

ـ إننا صديقان يا دكتور. ليس له أسرة في إنكلترا. وأريد أن أكتب إلى أبويه، هناك في البيرو، لأخبرهما بحقيقة حالة خوان.

ـ لا يمكنني إخبارك بشيء مهم، اللهم إلا أن حالته خطرة ـ واجهني دون مواربة ـ. يمكن له أن يموت في أي لحظة. فجسده خالٍ من المقاومة، ويمكن لأي رشح أن يقضي عليه.

لقد كان مرضاً جديداً، اكتشفت منه حالات عديدة في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة. يهاجم بضراوة خاصة مجتمعات الشاذين جنسياً، ومدمني الهيروين وكل أنواع المخدرات التي يجري تعاطيها عن طريق الوريد، كما أنه يصيب المثليين. وباستثناء أن الحيوانات المنوية والدم هما الوسيلتان الرئيسيتان لنقل «التناذر» ـ لم يكن هناك من يتحدث عن الإيدز بعد ـ، لا يعرف إلا الشيء القليل عن منشأ الداء وطبيعته. إنه يدمر الجهاز المناعي ويعرض المريض للإصابة بكافة الأمراض. وأحد الأعراض الثابتة هي تلك التقرحات في الساقين والبطن التي تشكل عذاباً ممضاً لصديقي. قلت للدكتور روتكوف، وقد أذهلني ما سمعته، ما الذي ينصحني بعمله. هل أخبر خوان بحقيقة حالته؟ هز كتفيه وزم فمه بما يشبه التكشيرة. هذا أمر يعود إليّ. ربما يجب إخباره، وربما لا. مع أنه يفضل إخباره، إذا ما كان على صديقي أن يتخذ بعض الاجراءات المتعلقة بوفاته.

ظللت متأثراً بحديثي مع الدكتور روتكوف، حتى إنني لم أتجرأ على العودة إلى غرفة خوان، لثقتي من أنه سيكتشف كل شيء من ملامح وجهي. كنت حزيناً جداً لأجله. ما الذي كنت مستعداً لتقديمه مقابل رؤية مسز رتشاردسون في ذلك المساء، والإحساس بها إلى

جانبي، ولو لساعتين فقط. لقد أخبرني خوان بارّيتو بحقيقة عظيمة: فمع أنني، أنا أيضاً، أعرف مئات الأشخاص هنا في أوروبا، إلا أن صديقي الوحيد «على الطريقة البيروية» سيموت في أي لحظة. والمرأة التي أحبها، في الجهة القصوى الأخرى من العالم، مع زوجها، وهي ـ بإخلاص لعادتها ـ لم تُبدِ منذ أكثر من شهر ما يشير إلى أنها على قيد الحياة. إنها تنجز تهديدها بالإثبات للصعلوك المتمادي أنها ليست مغرمة به مطلقاً، وأنه يمكنها التخلي عنه كتخليها عن تفاهة لا نفع فيها. كانت الشكوك تثقل عليّ، منذ أيام، بأنها ستعمد مرة أخرى إلى الاختفاء دون أن تخلّف أثراً. أمن أجل هذا حلمتَ كثيراً منذ طفولتك بالهرب من البيرو والعيش في أوربا، يا ريكاردو سوموكورثيو؟ أحسست في تلك الأيام اللندنية بأنني وحيد وحزين مثل كلب متشرد.

دون أن أقول شيئاً لخوان، كتبت رسالة إلى أبويه، شرحت لهما فيها أنه في حالة حرجة جداً، ضحية مرض مجهول، وأن الدكتور روتكوف نبهني إلى أنه يمكن للنهاية أن تأتي في أي لحظة. وقلتُ لهما، بالرغم من أنني أقيم في باريس، إلا أني سأبقى في لندن طوال الوقت اللازم لمرافقة خوان. وقدمت إليهما رقم هاتف موطئ القدم في إيرلز كورت، وطلبت منهما تزويدي بالتعليمات.

اتصلا بي فور استلامهما رسالتي، وقد وصلتهما في الوقت نفسه الذي وصلت فيه رسالة خوان التي أملاها عليّ لهما. كان أبوه مدمراً من هول الخبر، ولكنه سعيد في الوقت نفسه لاستعادة الابن الضال. وقال إنهما يتدبران أمورهما للمجيء إلى لندن. وطلب مني أن أحجز لهما في فندق متواضع، لأنهما لا يملكان الكثير من المال. فطمأنته؛ يمكنهما الإقامة في موطئ قدم خوان، حيث يمكنهما طهو طعامهما أيضاً، وبهذا تكون إقامتهما في لندن أقل كلفة. واتفقنا على أن أتولى تهيئة خوان نفسياً لمجيئهما الوشيك.

بعد أسبوعين من ذلك، استقر المهندس كليماكو بارّيتو وزوجته إوفرسيا في بيت خوان في إيرلز كورت، وانتقلت أنا إلى نزل **سرير وفطور** في بايزوتر. كان لمجيء الأبوين تأثير إيجابي هائل على خوان. فقد استعاد الأمل، وحسن المزاج، وبدا كما لو أنه يسترد عافيته. بل صار جسده يحتفظ ببعض الأغذية التي تأتيه بها المرضة صباحاً ومساء، بينما كان كل ما يدخل في فمه، من قبل، يسبب له الغثيان. كان السيدان بارّيتو شابين إلى حد ما ـ هو أمضى حياته في العمل في مزارع شركة بارامونغا، إلى أن أممتها حكومة الجنرال فيلاسكو واستولت عليها من أصحابها، فاستقال منها عندئذ، وحصل على وظيفة أستاذ رياضيات في الجامعات الجديدة التي راحت تنبثق كالفطر في ليما ـ، أو أنهما يحافظان جيداً على مظهرهما، فهما يكادان لا يبدوان في الخمسين. كان الزوج طويل القامة، له هيئة رياضية، كمن أمضى حياته في الريف، أما هي فامرأة ضئيلة ونشطة، طريقتها في الكلام، بنبرة رقيقة، وكثرة صيغ التصغير في كلامها، وموسيقى حيي القديم في ميرافلوريس، استثارت فيَّ الحنين. وبينما أنا أسمعها، كنت أشعر بالزمن الطويل جداً الذي انقضى منذ خروجي من البيرو لأعيش المغامرة الأوروبية. لكنني تأكدت أيضاً، بعد معاشرتهما، من أنه سيكون من المستحيل عليّ أن أعود إلى البيرو، لأتكلم وأفكر مثلما يتكلم ويفكر أبوا خوان. فتعليقاتهما عما يرياه في إيلز كورت، على سبيل المثال، كشفت لي بصورة بيانية كم تغيرتُ خلال كل تلك السنوات. ولم يكن كشفاً يبعث على الحماسة. فقد تخليتُ، دون شك، عن كوني بيروياً بمعانٍ كثيرة. ما الذي كنته آنذاك؟ لم أتوصل كذلك إلى أن أكون أوروبياً، لا فرنسياً، ولا إنكليزياً بأي حال. ما أنت إذن يا ريكارديتو؟ ربما أنني ما كانت تقوله لي مسز رتشاردسون في نوبات غضبها:

صعلوك، لا شيء سوى مترجم فوري، كائن يكون عندما لا يكون فقط، مثلما كان يروق لزميلي سالمون توليدانو أن يعرّفنا، فالمترجم شبه إنسان لا وجود له إلا عندما يتخلى عن كينونته ليُنقل من خلاله، بصورة أفضل، ما يفكر فيه ويقوله آخرون.

بوجود أبوي خوان بارّيتو في لندن، استطعت أن أعود إلى باريس، إلى العمل. قبلت العقود التي كانت تعرض عليّ، حتى لو كانت ليوم واحد أو يومين، إذ أن دخلي قد انحدر بصورة رأسية بسبب الوقت الذي أمضيته في إنكلترا لمرافقة خوان.

ومع أن مسز رتشاردسون كانت قد حظرت عليّ الاتصال بها، إلا أنني بدأت أتصل ببيتها في نيوماركت كي أستعلم متى سيرجع الزوجان من رحلتهما في اليابان. من كانت ترد على مكالماتي، وهي خادمة فيليبينية، لم تكن تعرف متى سيرجعان. وكنت أتظاهر في كل مرة بأنني شخص مختلف، لكنني شعرت بأن الفيليبينية تتعرف عليّ، وتغلق الهاتف في وجهي قائلة: «*They are not yet back*».

حتى جاء يومٌ، بعد أن يئست من لقائها، ردّت فيه على اتصالي الهاتفي مسز رتشاردسون نفسها. وقد تعرفت عليّ فوراً، إذ ظلت صامتة طويلاً. فسألتها: «أيمكنني التكلم؟». فأجابتني بصوت قاطع، مفعم بغضب مكبوح: «لا. هل أنت في باريس؟ سأتصل بك في اليونسكو أو في بيتك، عندما أستطيع». وقطعت الاتصال، بخبطةِ تأكيدٍ على استيائها. اتصلت بي في ذلك اليوم بالذات، ليلاً، في بيتي في إيكول ميليتير.

ـ لأني تخلفت عن موعدكِ مرة واحدة، ضربتِني وأثرتِ لي تلك الفضيحة ـ قلتُ شاكياً، بنبرة متحببة ـ ما الذي تريدينني أن أفعله لك بتركي دون أخبار عنك منذ ثلاثة شهور؟

ـ لا تعد للاتصال بنيوماركت أبداً في حياتك ـ قالت لي مؤنبة،

باستياء يتبدى في تأفف كلماتها ـ. هذا الذي أقوله ليس مزاحاً. إنني في مشكلة جدية مع زوجي. يجب ألا نلتقي وألا نتحدث لبعض الوقت. أرجوك. أتوسل إليك. إذا كنت تحبني حقاً، فافعل هذا من أجلي. سنلتقي عندما ينقضي كل شيء، أعدك. ولكن لا تتصل بي بعد اليوم أبداً. إنني في ورطة وعليّ توخي الحذر.

ـ انتظري، انتظري، لا تقطعي الاتصال. أخبريني على الأقل كيف هي حال خوان بارّيتو.

ـ لقد مات. وحمل أبواه الرفات معهما إلى ليما. جاءا إلى نيوماركت ليعرضا بيته للبيع. أمر آخر يا ريكاردو. تجنب المجيء إلى لندن لبعض الوقت، إذا كان هذا لا يضايقك. لأنك إذا جئت، قد تتسبب لي بمشكلة عويصة دون أن تدري. لا يمكنني قول المزيد الآن.

قطعت الاتصال دون أن تقول وداعاً. ظللت خاوياً ومعكراً. أحسست بغضب شديد، وإحباط عظيم، وازدراء كبير لنفسي، حتى إنني اتخذت ـ مرة أخرى ـ قرار انتزاع مسز رتشاردسون من ذاكرتي، ولأقول ذلك بواحدة من هذه العبارات المتكلفة التي تُضحكها، انتزاعها من قلبي. فمن البلاهة مواصلة حب شخصية عديمة الحساسية إلى هذا الحد، تبدو وقد ملّت مني، تلعب بي كما لو أنني كركوز، ولم تبدِ لي أي احترام قط. هذه المرة ستتحرر من البيروية الصغيرة يا ريكاردو سوموكورثيو!

بعد عدة أسابيع من ذلك، تلقيت بضعة سطور، من ليما، من أبوي خوان بارّيتو. يشكرانني لأني قدمت لهما المساعدة، ويعتذران لأنهما لم يكتبا إلي ولم يتصلا بي، مثلما طلبت منهما. لكن موت خوان، المفاجئ جداً، سبب لهما البلبة، الجنون، دون أن يصيبا في أي تصرف. فإجراءات إعادة الرفات إلى الوطن كانت فظيعة، ولولا مساعدة العاملين في سفارة البيرو، لما تمكنا أبداً من نقله ودفنه في البيرو،

مثلما كانت رغبته. وقد تمكنا، على الأقل، أن يحققا تلك الرغبة لابنهما المعبود الذي لن يجدا العزاء لفقدانه قط. وعلى كل حال، ووسط آلامهما، وجدا العزاء في معرفة أن خوان قد مات كقديس، متصالحاً مع الرب والدين، وفي حالة ملائكية حقيقية. فهذا ما قاله لهما الكاهن الدمينيكاني الذي أشرف على تقديم العون الروحي الأخير له.

أحزنني موت خوان بارّيتو كثيراً. فقد عدت ثانية لأكون بلا صديق حميم آخر، كان قد حلّ بطريقة ما محل بول البدين. فمنذ أن اختفى هذا في حرب العصابات، لم أجد في أوروبا شخصاً أقدره كثيراً وأشعر أنني قريب منه مثل الهيبي البيروي الذي توصل إلى أن يكون رسام خيول في نيوماركت. ولن تكون لندن، ولا إنكلترا، هما نفسيهما دونه. وهذا سبب آخر لعدم الذهاب إلى هناك، لوقت طويل.

حاولت أن أضع قراري موضع التطبيق بالوصفة المعهودة: شغل نفسي بالعمل. وقبول كل العقود التي تُعرض عليّ، وقضاء أسابيع وشهور في السفر من مدينة أوروبية إلى أخرى، للعمل كمترجم فوري في ندوات ومؤتمرات حول كل الموضوعات التي يمكن تصورها. كنت قد اكتسبت مهارات مترجم فوري جيد، وهي تتلخص في معرفة معادل للكلمات دون حاجة إلى فهم مضمونها (ففهم معانيها، حسب رأي سالمون توليدانو، هو أمر غير مناسب)، وواصلت تحسين اتقاني للروسية، وهي لغة رحت أحبها، إلى أن اكتسبت فيها ثقة وطلاقة تعادل ثقتي وطلاقتي بالفرنسية والإنكليزية.

وبالرغم من أنني كنت قد حصلت، منذ سنوات، على تصريح الإقامة في فرنسا، إلا أنني بدأت بمتابعة إجراءات الجنسية الفرنسية؛ لأن حصولي على جواز سفر فرنسي سيفتح أمامي إمكانات كبيرة

في العمل. فجواز السفر البيروي يثير بعض الشكوك والشبهات في بعض المنظمات لدى تعاقدها مع مترجم فوري، ذلك أنهم كانوا يجدون صعوبة في تحديد موقع البيرو في العالم، ويتفحصون الوضع القانوني لهذا البلد في التوافق بين الأمم. أضف إلى ذلك أنه منذ السبعينيات، بدأت تتنامى موجة من الرفض والعداء تجاه المهاجرين القادمين من البلدان الفقيرة.

وفي يوم أحد من شهر أيار، بينما كنت أحلق ذقني وأستعد لانتهاز اليوم الربيعي للقيام بنزهة على ضفاف السين حتى الحي اللاتيني، حيث كنت أفكر في الغداء بتناول ***الكسكس*** في أحد المطاعم العربية في شارع سان سيفرين، رنّ جرس الهاتف. ودون أن تقول لي «مرحباً» أو «صباح الخير»، صرخت بي الطفلة الخبيثة:

ـ أأنت من أخبر دافيد بأنني كنت متزوجة من روبير أرنو في فرنسا؟

كنت على وشك أن أغلق الهاتف. فقد كانت قد انقضت أربعة أو خمسة شهور على محادثتنا الأخيرة. لكنني واريت غضبي.

ـ كان عليّ أن أفعل ذلك، لكنه لم يخطر ببالي أيتها السيدة ذات الزوجين. لا يمكنك تصور مدى أسفي لأني لم أخبره. فلو أنني فعلت، لكنتِ سجينة الآن، أليس كذلك؟

ـ أجبني ولا تتظاهر بالحماقة ـ ألح صوتها وهو يطلق الشرر ـ. لست مستعدة للمزاح الآن. هل كنت أنت؟ لقد هددتني يوماً بأن تخبره، لا تظنني نسيت ذلك.

ـ لا، لم أكن أنا. ما الذي جرى لك؟ في أي ورطة وقعت الآن، أيتها المتوحشة الصغيرة؟

صمتت قليلاً، أحسست بها تتنفس جزعة. وعندما عادت للكلام، بدت منكسرة، باكية.

- إننا في قضية طلاق، وكانت الأمور تسير على ما يرام. ولكن فجأة، لستُ أدري كيف، ظهرت في هذه الأيام مسألة زواجي من روبير. ولدى دافيد أفضل المحامين. أما محاميّ فهو شخص نكرة، وهو يقول الآن إنه إذا ما ثبت أنني متزوجة في فرنسا، فإن زواجي من دافيد في جبل طارق يعتبر باطلاً، بصورة آلية؛ وقد أجد نفسي في ورطة كبيرة. ولن يعطيني دافيد سنتاً واحداً. وإذا ما اتفق مع روبير، فيمكن لهما أن يرفعا ضدي دعوى اقتراف جريمة، ومطالبتي بعطل وضرر ولا أدري أية أشياء أخرى. بل يمكن أن يزجا بي في السجن. ثم أُطرد من البلاد. ألم تكن أنت من أخبره؟ أكيد؟ حسن، يسعدني ذلك، فأنت لا تبدو لي ممن يقدمون على مثل هذه الأفعال.

توقفت عن الكلام مرة أخرى، وتنهدت، كما لو أنها تكبح بكاء. وبينما هي تقول لي كل ما قالته، كانت تبدو صريحة ومخلصة. وقد تكلمت دون ذرة واحدة من الإشفاق على الذات.

ـ إنني متأسف جداً ـ قلتُ لها ـ. الحقيقة أن مكالمتك الأخيرة سببت لي ألماً قررت معه عدم العودة لرؤيتك، أو التحدث إليك، أو البحث عنك، أو تذكر وجودك مطلقاً وإلى الأبد.

- ألم تعد مغرماً بي؟ - قالت ضاحكة.

- بلى، مازلت مغرماً بك، كما يبدو. وهذا من سوء طالعي. فما أخبرتني به يشطر روحي. لا أريد أن يصيبك مكروه، أريدك أن تواصلي ممارسة كل خبث العالم معي. أيمكنني مساعدتك بطريقة ما؟ سأفعل كل ما تطلبينه مني. لأنني مازلت أحبك من كل روحي أيتها الطفلة الخبيثة.

عاودت الضحك، وهتفت قائلة:

- لقد ظلت لي عباراتك المتكلفة على الأقل. سأتصل بك لتحمل لي برتقالاً في السجن.

IV. ترجمان شاتو ميغيري

كان سالمون توليدانو يتباهى بأنه يتكلم اثنتي عشرة لغة، ويستطيع ترجمتها جميعها بالاتجاهين. إنه رجل قصير القامة وهزيل، شبه ضائع في بدلات فضفاضة جداً حتى ليمكن القول إنه يتعمد شراءها واسعة عليه؛ وله عينا سلحفاة تتأرجحان بين اليقظة والنوم. شعره منفوش، ولا يحلق ذقنه إلا كل يومين أو ثلاثة أيام، بحيث يمضي على الدوام بظلال رمادية تغطي وجهه بالوساخة. وما كان يمكن لأحد يراه على تلك الحال، كشيء تافه، مجرد سيد نكرة تماماً، أن يتصور السهولة التي يتمتع بها في تعلم اللغات، وكفاءته الخرافية في ترجمتها فورياً. كانت المنظمات الدولية تتنافس عليه، وكذلك الشركات المتعددة الجنسيات والحكومات، لكنه لم يقبل العمل قط في وظيفة ثابتة، لأنه يشعر بحرية أكبر ويكسب أكثر كـ *free lance*. لم يكن فقط أفضل مترجم فوري عرفته طوال السنوات التي كنت أكسب فيها لقمة عيشي من العمل في «مهنة الأشباح» ـ هكذا كان يسميها ـ؛ وإنما كذلك الأكثر أصالة.

الجميع يقدرونه ويحسدونه، لكن قلة قليلة من زملائنا كانوا يحبونه. فهم يتضايقون من ثرثرته، وافتقاره إلى الكياسة، وولدنته، وجشعه إلى احتكار الحديث. كان يتكلم بأسلوب فخم، وأحياناً بعامية مبتذلة؛ لأنه على الرغم من معرفته عموميات اللغات، إلا أنه يجهل تلونات الكلام، ونبراته واستخداماته المحلية، مما يجعله يبدو في أحيان كثيرة أخرق أو فظاً. إنما يمكن له أن يكون مسلياً في رواية الطرائف، والذكريات العائلية، ومغامراته في العالم. لقد

كانت تفتنني شخصيته كنابغة صبياني؛ ولأني كنت أقضي ساعات في الاستماع إليه، فقد توصل إلى شعور بالتقدير نحوي. وفي كل مرة يتصادف وجودنا معاً في كابينة الترجمة في ندوة أو مؤتمر، كنت أدرك أن سالمون توليدانو سيظل ملتصقاً بي مثل رخوية.

ولد في أسرة من السفارديم في أزمير، تتكلم اللادينو[1] ولهذا كان يعتبر نفسه «إسبانياً أكثر منه تركياً، وإن يكن ذلك لخمسة قرون خلت». ولا بد أن أباه كان تاجراً ومصرفياً مزدهراً جداً، لأنه أرسل سالمون ليدرس في مدارس خاصة في سويسرا وإنكلترا، وإكمال دراسته الجامعية في بوسطن وبرلين. وقبل أن ينال شهاداته الجامعية، كان يتكلم التركية، والعربية، والإنكليزية، والفرنسية، والإسبانية، والبرتغالية، والإيطالية، والألمانية، وبعد تخرجه متخصصاً باللغات اللاتينية والجرمانية، وعاش سنوات في طوكيو وتايوان، حيث تعلم اليابانية، والمندرين باللهجة التايوانية. كان يتحدث معي دائماً بإسبانية ممضوغة وذات تعبيرات قديمة بعض الشيء، فهو يطلق على «المترجمين الفوريين» تسمية «Trujimán». ولهذا أطلقنا عليه لقب الترجمان. وكان في بعض الأحيان ينتقل، دون أن ينتبه، من التكلم بالإسبانية إلى الفرنسية أو الإنكليزية أو إلى لغة أكثر غرابة، فيكون عليّ عندئذ أن أقاطعه وأطلب منه أن يبقى ضمن حدود عالمي (بالمقارنة مع عالمه) اللغوي الصغير. وعندما تعرفت عليه، كان يتعلم الروسية، وقد توصل خلال سنة من الجهد إلى التمكن من قراءتها والتكلم بها بطلاقة أكثر مني أنا الذي كنت قد أمضيت خمس سنوات في تقصي أسرار الأبجدية السيريلية[2].

---

[1] لادينو ladino: لغة الرومانس أو القشتالية القديمة التي ظل يتكلمها يهود الأندلس (السفارديم) بعد طردهم من إسبانيا.

[2] السيريلية: نسبة إلى القديس سيريلو Cirilo الملقب بالفيلسوف، واضع الأبجدية الروسية.

ومع أنه يترجم عادة إلى الإنكليزية، إلا أنه، عند الحاجة، كان يترجم فورياً كذلك إلى الفرنسية، والإسبانية ولغات أخرى. وكانت تذهلني على الدوام الطلاقة في التعبير بلغتي، دون أن يكون قد عاش قط في بلد ناطق بالإسبانية. لم يكن رجلاً كثير القراءات، ولا واسع الاهتمام بالثقافة، اللهم إلا بنحو اللغات ومعاجمها، وبتسليات مهجورة وغير مألوفة، مثل جمع الطوابع البريدية ودمى الجنود المصنوعة من الرصاص، وهما موضوعان لا تقل براعته فيهما عن براعته في اللغات. وأكثر ما فيه استثنائية سماعه يتكلم اليابانية، لأنه عندئذ، ودون أن ينتبه، يتخذ أوضاع الشرقيين، وانحناءاتهم، وحركاتهم وإيماءاتهم، مثل حرباء حقيقية. وبفضله اكتشفتُ أن الاستعداد الفطري لتعلم اللغات لا يقل غموضاً عن قابلية بعض الأشخاص لتعلم الرياضيات أو الموسيقى، وأنه لا علاقة لذلك بالذكاء أو المعرفة. إنه شيء جانبي.. موهبة يمتلكها البعض ولا يمتلكها آخرون. وقد كان سالمون توليدانو يمتلكها متطورة إلى حد يبدو لنا، نحن زملاءه، مسخاً مريعاً بالرغم من كل مزاجه المسالم البسيط. لأنه عندما يتعلق الأمر بشيء غير اللغات، يكون سذاجةً عزلاء، وأشبه برجل ـ طفل.

وبالرغم من أن المصادفة جمعتنا من قبل لأسباب لها علاقة بالعمل، إلا أن صداقتي له ولدت حقاً في الفترة التي فقدت فيها الاتصال، مرة أخرى في حياتي، بالطفلة الخبيثة. فانفصالها عن دافيد ريتشاردسون تحول إلى كارثة عندما استطاع هذا أن يثبت، أمام المحكمة التي تنظر في دعوى الطلاق، أن مسز ريتشاردسون متزوجة برجلين، ذلك أنها متزوجة قانونياً أيضاً في فرنسا من موظف في وزارة الخارجية الفرنسية، لم تُطلق منه قط. وحين رأت الطفلة الخبيثة أن معركتها خاسرة، اختارت الهروب من إنكلترا، ومن خيول نيوماركت البغيضة، إلى وجهة مجهولة. ولكنها مرت بباريس ـ أو هذا

على الأقل ما أرادت لي أن أظنه ـ، وبمطار شارل ديغول المدشن حديثاً، في آذار 1974، واتصلت بي هاتفياً لتودعني. أخبرتني أن أمورها ساءت جداً، وأن زوجها السابق خرج رابحاً بكل المعاني، وأنها سئمت المحاكم والمحامين الذين بخروا ما لديها من نقود قليلة، وأنها ستذهب إلى حيث لا يمكن لأحد أن يُفقدها صبرها.

ـ إذا شئتِ البقاء في باريس، فبيتي بيتك ـ قلت لها بجدية كاملة ـ وإذا كنت ترغبين في الزواج مرة أخرى، فسوف نتزوج. لأنني لا أهتم بكونك متزوجة برجلين أو ثلاثة رجال.

ـ أتريدني أن أبقى في باريس كي يشكوني مسيو أرنو للشرطة أو ما هو أسوأ من ذلك؟ لست مجنونة. أشكرك على أي حال يا ريكارديتو. لابد أن نلتقي يوماً، بعد أن تمر العاصفة.

كنت أعرف أنها لن تخبرني، لكنني سألتها مع ذلك أين ستستقر، وما الذي تفكر في عمله الآن بحياتها.

ـ سأخبرك عندما نلتقي في المرة القادمة. لك قبلة مني، ولا تُركّب لي قروناً كثيرة مع الفرنسيات.

وقد كنت متأكداً في هذه المرة أيضاً من أنني لن أعود لمعرفة شيء عنها إلى الأبد. وكما في المرات السابقة، عقدتُ النية الحاسمة، بسنوات عمري الثماني والثلاثين، على الوقوع في حب شيء أقل تهرباً وتقيداً، حب فتاة عادية، يمكنني الارتباط معها بعلاقة دون مفاجآت، وربما الزواج منها وإنجاب أبناء. لكن الأمور لم تسر على هذا النحو، لأن الأمور في هذه الحياة قلما تحدث مثلما يخطط لها الصعاليك.

سرعان ما دخلتُ في روتين عمل لم يكن يضايقني، على الرغم من أنه يسبب لي الضجر أحياناً. فالترجمة الفورية كانت تبدو لي مهنة تافهة، ولكنها كذلك المهنة التي تطرح أقل قدر من المشاكل الأخلاقية على من يمارسها. وتتيح لي أن أسافر، وأكسب جيداً،

وأعطي لنفسي وقت الفراغ الذي أشاءه.

اتصالي الوحيد مع البيرو ـ ذلك أنني نادراً ما ألتقي ببيرويين في باريس ـ لا يزال رسائل العم أتاولفو، وهي أكثر يأساً في كل مرة. وقد كانت امرأته، العمة دولوريس، تضيف لي دائماً بخط يدها إحدى الذكريات، وأرسل إليها أنا بين حين وآخر نوتات موسيقية، لأن العزف على البيانو هو تسليتها الكبرى في حياتها كمقعدة. السنوات الثماني من دكتاتورية الجنرال فيلاسكو العسكرية، وما رافقها من تأميمات، وإصلاح زراعي، ومجتمع صناعي، وتحكم واقتصاد موجه، قدمت، كما يقول العم أتاولفو، حلولاً خاطئة لمشكلة الظلم الاجتماعي والفروقات الكبيرة، واستغلال الأكثرية من قبل أقلية تنعم بالامتيازات، ولم ينفع كل ذلك إلا في زيادة سخط هؤلاء وأولئك وفقرهم، وهروب الاستثمارات، وتقويض الادخار وزيادة التشنج والعنف. ومع أن التوجهات الشعبوية كُبحت بعض الشيء في المرحلة الثانية من الدكتاتورية التي قادها في سنواتها الأربع الأخيرة الجنرال فرانثيسكو موراليس بيرموديث، إلا أن الصحف ومحطات التلفزة والإذاعة ظلت تابعة للدولة، وظلت الحياة السياسية معطلة، ولم تكن هناك أدنى إشارة إلى إحتمال استعادة الديمقراطية. المرارة التي تقطر من رسائل العم أتاولفو كانت تحزنني عليه وعلى البيرويين من أبناء جيله الذين رأوا، مع بلوغهم الشيخوخة، أن حلمهم القديم بتقدم البيرو كان يتراجع، بدل أن يتحقق. كان المجتمع البيروي يغرق أكثر فأكثر في الفقر، والجهل، والقسوة. لقد أحسنتُ صنعاً بالعيش في أوروبا، بالرغم من أن حياتي متوحدة بعض الشيء، ومن كونها حياة ترجمان مجهول.

فقدت اهتمامي كذلك بالأوضاع السياسية الفرنسية التي كنت أتابعها بشغف من قبل. ففي سنوات السبعينيات، خلال حكومتي

بومبيدو وجيسكار ديستان، صرت أكاد لا أقرأ الأخبار اليومية. وأحصر بحثي في الصحف والأسبوعيات عن الصفحات الثقافية وحدها تقريباً. كنت أذهب بصورة دائماً إلى المعارض والحفلات الموسيقية، ولكنني لا أذهب بكثرة إلى المسرح الذي انحدر كثيراً بالمقارنة مع ما كان عليه في العقد السابق؛ إلا أنني كنت أذهب، بالمقابل، مرتين كل أسبوع إلى السينما. لحسن الحظ أن باريس كانت لا تزال فردوساً لمحبي السينما. أما في ما يتعلق بالأدب، فتوقفتُ عن المتابعة، لأن الرواية والدراسة، مثلما هي حال المسرح، انحدرت انحداراً راسياً في فرنسا. ولم أستطع قط أن أقرأ بحماسة أوثان المثقفين في تلك السنوات. فقد كانت كتب بارت، لاكان، ديريدا، ديلوز وغيرهم، المتلئة بالهذر، تسقط من يدي؛ والوحيد الذي كنت أقرأه هو ميشيل فوكو. لقد أثر فيّ كثيراً كتابه عن تاريخ الجنون، وكذلك دراسته عن نظام الحبس (*المراقبة والمعاقبة*)، بالرغم من أنني لم أقتنع بنظريته القائلة بأن تاريخ الغرب الأوروبي هو تاريخ القمع المؤسساتي متعدد الوجوه ــ السجن، المستشفى، الجنس، العدالة، القوانين ــ الذي تمارسه سلطة تستعمر كل فضاءات الحرية كي تصفي الاختلاف والمعارضة. والحقيقة أنني طوال كل تلك السنوات كنت أقرأ، بصورة خاصة، للموتى؛ ولاسيما الكتّاب الروس.

وعلى الرغم من أنني كنت مشغولاً على الدوام بالعمل وبأشياء أخرى، إلا أنني عندما حاولت، في السبعينيات، أن أكون موضوعياً، للمرة الأولى، في تفحص حياتي، بدأت هذه الحياة تبدو لي عقيمة، وبدا لي أن مستقبلي هو مستقبل عازب لا خلاص له، وغريب أبدي لن يندمج أبداً بصورة حقيقية في فرنسا حبه. وكنت أتذكر على الدوام عبارة قيامية لسالمون توليدانو، واجهنا بها في أحد الأيام في قاعة المترجمين الفوريين في اليونسكو على هذا النحو: «إذا ما أحسسنا

فجأة بأننا نموت، وسألنا أنفسنا: ما هو الأثر الذي خلّفناه من مرورنا في هذه الأرض؟ فسوف يكون الجواب النزيه: لا شيء، نحن لم نفعل أي شيء، اللهم إلا التكلم عن آخرين. وأي معنى تجدون غير هذا لمن يترجمون ملايين الكلمات دون أن يتذكروا واحدة منها، لأنه لا وجود بينها لكلمة جديرة بأن نتذكرها)؟». لم يكن مستغرباً كون الترجمان غير محبوب بين أهل المهنة.

في أحد الأيام قلت له إنني أكرهه، لأن تلك العبارة التي تعود إلى ذاكرتي بين حين وآخر، أقنعتني بعدم جدوى حياتي تماماً.

ـ نحن التراجمة لسنا سوى أناس بلا فائدة يا عزيزي ـ قال لي مواسياً ـ ولكننا لا نُلحق الضرر بأحد في عملنا. أما في جميع المهن الأخرى، فيمكن إلحاق أضرار كبيرة بالجنس البشري. فكر في المحامين والأطباء مثلاً، ولن نتكلم عن المهندسين أو السياسيين.

كنا نتناول بيرة في أحد المقاهي في جادة سيفرين، بعد جولة عمل في اليونسكو التي كانت تعقد مؤتمرها السنوي. وقد انتهى بي الأمر، في واحدة من اندفاعاتٍ بوحي، إلى إخباره، دون تفاصيل أو أسماء، بأنني وقعت منذ سنوات طويلة في حب امرأة كانت تظهر وتختفي من حياتي مثل نار كاذبة، فتؤججها بالسعادة لفترات قصيرة، ثم تخلّفها بعد ذلك جافة وقاحلة، وملقحة ضد أي نوع آخر من الحماسة أو الحب.

ـ الوقوع في الحب خطأ ـ أصدر سالمون توليدانو حكمه، وكأنه صدى لصديقي المتوفى خوان باريّتو الذي كان يتفق مع هذه الفلسفة، وإن يكن دون تكلفات زميلي اللفظية ـ المرأة يجب إمساكها من شعرها، جرجرتها، وإلى الفراش. جعلها ترى كل نجوم القبة السماوية بسرعة البرق. هذه هي النظرية الصحيحة. أنا غير قادر، للأسف، على ممارستها بسبب جسدي الواهن. في أحد الأيام حاولت ممارسة هذه

الرجولة مع أنثى حامية، فهشمت وجهي بصفعة. لهذا، وعلى الرغم من نظريتي، صرت أعامل الأخريات، وخاصة العاهرات، كما لو أنهن ملكات.

ـ لا أصدق أنك لم تقع في الحب قط أيها الترجمان.

اعترف لي بأنه أحب مرة واحدة في حياته، عندما كان طالباً جامعياً في برلين. فقد أحب فتاة بولونية، شديدة الكاثوليكية إلى حد أنها كلما مارسا الحب، كانت تشعر بتأنيب الضمير مرفقاً بالبكاء. عرض عليها الترجمان الزواج. فوافقت الفتاة. وقد حققا انتصاراً بالحصول على موافقة الأسرتين. وتوصلا إلى ذلك بعد مفاوضات معقدة، تقرر على إثرها إقامة حفلة زفاف مزدوجة، حسب الطقوس اليهودية مرة وحسب الطقوس الكاثوليكية مرة أخرى. وفي ذروة الإعدادات للزواج، هربت العروس فجأة مع ضابط أمريكي يؤدي خدمته العسكرية في برلين. أما الترجمان الذي أصابه الغيظ بالجنون، فقام بتطهر غريب: أحرق مجموعة طوابعه البريدية البديعة. وصمم على عدم الحب مرة أخرى. وأن يكون الحب في نظره، في المستقبل، مجرد بضاعة. وقد حافظ على التزامه. فمنذ تلك الواقعة، صار يتردد على المواخير وحسب. وبدلاً من الطوابع البريدية، صار يجمع دمى جنود من الرصاص.

بعد بضعة أيام، واعتقاداً منه بأنه يقدم لي جميلاً، ورطني في خروج في نهاية الأسبوع مع مومسين روسيتين، ستجعلانني أتعرف على « تضوّعات وكدمات الحب السلافي». ذهبنا للعشاء في مطعم **السماورالكبير**، في الباتنيون، وبعد ذلك إلى إحدى علب الليل، وكانت ضيقة، ومظلمة، مفعمة بالدخان إلى حدّ الاختناق، بالقرب من ساحة كليشي، حيث وجدنا الآنستين. شربنا الكثير من الفودكا، بحيث فقدت ذكرياتي الصفاء منذ دخولنا إلى الكهف

المسمى **القوزاق** ولم يبق واضحاً في ذهني من الروسيتين سوى أن الحظ، أو الترجمان بكلمة أدق، قدم لي ناتاشا، أكثر الأربعينيتين بدانة وتبرجاً. كانت رفيقتي محشورة في فستان وردي لامع، مع أذيال من الشف، وعندما تضحك وتومئ بيديها يهتز ثدياها مثل بالونين حربيين. وتبدو كهاربة من لوحة لبوتيرو. وإلى أن انخسفت ذكرياتي في أبخرة كحولية، كان صديقي يتكلم مثل ببغاء، بروسية تتخللها كلمات تحتفي بها المومسان بقهقهات صاخبة.

استيقظتُ في صباح اليوم التالي وأنا أشعر بألم في رأسي، وبعظام مطحونة. كنت قد نمت على الأرض، إلى جوار السرير الذي تشخر عليه ناتاشا المزعومة، بكامل ملابسها وحذائها. بدت في النهار أكثر سمنة مما كانت عليه في الليل. وقد ظلت نائمة باستسلام حتى الظهيرة. وعندما استيقظت، نظرت مذهولة إلى الحجرة، وإلى السرير الذي تشغله، وإليّ وأنا أوجه إليها تحية المساء. وبدأت على الفور بمطالبتي بثلاثة آلاف فرنك، أي ما يعادل نحو سبعمئة دولار في ذلك الحين، وهو ما تتقاضاه عن ليلة كاملة. لم أكن أملك ذلك المبلغ، واستمرت في جدل مزعج، استطعتُ في نهايته إقناعها بأن تأخذ نصف ذلك المبلغ نقداً، إضافة إلى تمثال من الخزف يزين الصالة. ذهبت وهي تتلفظ ببذاءات، ودخلت أنا لوقت طويل تحت الدوش، مقسماً على عدم توريط نفسي ثانية في مثل تلك المغامرات الترجمانية.

عندما أخبرت سالمون توليدانو بعجزي الليلي، قال لي إنه هو وصديقته، بالمقابل، مارسا الحب حتى موعد الفطور، في عرض قُدرة يستحق إيراده في صفحات كتاب جينيس. ولم يتجرأ بعد ذلك على أن يعرض علي الخروج ليلاً مع سيدات إكزوتيكيات.

ما اجتذبني وشغل ساعات طويلة من وقتي في تلك السنوات الأخيرة من عقد السبعينيات كانت قصص تشيخوف بصورة خاصة،

والأدب الروسي بصورة عامة. لم أكن قد فكرت قط في القيام بترجمات أدبية، لأنني أعرف أن أجورها سيئة بكل اللغات، ومن المؤكد أنها أسوأ بالإسبانية منها في اللغات الأخرى. ولكنني في العام 1976 أو 1977 تعرفت في اليونسكو، من خلال صديق مشترك، على ناشر إسباني هو ماريو موتشنيك، وربطت بيننا صداقة. وعندما علم أنني أعرف الروسية، وأنني مولع بالقراءة، شجعني على إعداد انطولوجيا صغيرة من قصص تشيخوف بعد أن حدثته عن روعتها، مؤكداً له أن جودته ككاتب قصة قصيرة لا تقل عن جودته كمسرحي، وإن يكن تقويمه كقصاص ضعيفاً بسبب رداءة ترجمات قصصه المتداولة. لقد كان موتشنيك حالة مثيرة للاهتمام. فقد ولد في الأرجنتين، درس العلوم وبدأ حياة مهنية كباحث وأكاديمي، ما لبث أن هجرها ليعكف على النشر، ولعه السري. كان ناشراً صاحب رسالة، يحب الكتب ولا ينشر إلا أدباً عالي الجودة، مما يضمن له، كما يقول، كل إخفاقات العالم من الناحية الاقتصادية؛ لكنه يوفر له أعظم المتع الشخصية. كان يتحدث عن الكتب التي ينشرها بحماسة معدية إلى حدّ أنني انتهيت، بعد قليل من التفكير، إلى قبول عرضه بترجمة مختارات قصصية لتشيخوف، وطلبتُ منه أن يمنحني وقتاً غير محدود لإنجازها. فقال: «لك ما تشاء، وفوق هذا، بالرغم من أنك ستكسب مبلغاً بائساً، إلا أنك ستستمتع مثل خنزير».

تأخرت زمناً لانهائياً، ولكنني أمضيته، بالفعل، مستمتعاً جداً بقراءة تشيخوف كاملاً، واختيار أجمل قصصه، ونقلها إلى الإسبانية. كان عملاً أكثر رهافة وحساسية من ترجمة الخطابات والمداخلات التي كنت معتاداً عليها في عملي. وكمترجم أدبي، أحسست بأنني أقل شبحية مما أنا عليه كمترجم فوري. كان عليّ أن أتخذ قرارات، وأن أستكشف اللغة الإسبانية بحثاً عن تلونات وإيقاعات تتوافق مع دقة

الدلالة وظلال المعاني ـ فن الإيحاء والتلميح البديع في نثر تشيخوف ـ وكذلك جزالة الفخامة الخطابية في اللغة الأدبية الروسية. متعة حقيقية كنت أكرس لها أيام السبت والأحد كاملة. أرسلت المختارات الموعودة إلى ماريو موتشنيك بعد سنتين تقريباً من الاتفاق معه. وقد جعلني أقضي لحظة طيبة أوشكت معها على عدم قبول الشيك الذي أرسله إليّ. إذ قال لي «ربما يكفيك لشراء طبعة جميلة لأعمال أحد الكتاب، تشيخوف مثلاً».

وعندما وصلتني بعد بعض الوقت نسخ من المختارات، قدمتُ نسخة منها، مع إهداء، إلى سالمون توليدانو. كنا نتناول شراباً معاً بين حين وآخر، كما كنت أرافقه في بعض الأحيان للتجوال في المتاجر التي تبيع جنوداً من الرصاص، أو طوابع بريدية للهواة، أو عاديات، حيث كان يتفحصها بدقة، مع أنه نادراً ما كان يشتري شيئاً. شكرني على الكتاب، لكنه نبهني بحماسة إلى التحفظ في سلوك هذا «الطريق الخطر».

ـ لقمة عيشك ستكون في خطر ـ حذرني ـ فالمترجم الأدبي هو متطلع إلى أن يكون كاتباً، هذا يعني أنه رجل قلم محبط على الدوام تقريباً. شخص لا يذعن أبداً للاختفاء في مهنته، مثلما نفعل نحن المترجمين الفوريين. لا تتخلى عن وضعك كسيد نكرة لا وجود له، يا عزيزي؛ اللهم إلا إذا كنت تريد أن تنتهي إلى متشرد.

وخلافاً لما كنت أظنه عن أن الأشخاص متعددي اللغات هم ذوو آذان موسيقية جيدة، لم يكن سالمون توليدانو يعير أدنى اهتمام للموسيقى. حتى إنني لم أكتشف وجود جراموفون في شقته في نيبلي. لقد كان سمعه المرهف محصوراً باللغات. أخبرني أن أفراد أسرته في أزمير كانوا يتكلمون التركية والإسبانية دون تمييز ـ حسن، ليس الإسبانية وإنما اللادينو التي انفصل عنها تماماً خلال

صيف أمضاه في سلمنكا - وأن قابلية تعلم اللغات ورثها عن أبيه الذي توصل إلى إتقان نصف دزينة من اللغات، وهو ما أفاده كثيراً في أعماله التجارية. وكان يحلم منذ طفولته بالسفر، والتعرف على مدن، و هذا هو دافعه الكبير لتعلم اللغات، وبفضله تحول إلى ما هو عليه الآن: مواطن عالمي. وهذا الميل إلى الترحال نفسه جعل منه هاوي جمع الطوابع المبكر الذي كان عليه حتى صدمة خطوبته في برلين. فجمع الطوابع كان طريقة أخرى لارتياد البلدان، وتعلم الجغرافيا والتاريخ.

كان اللعب بدمى جنود الرصاص يمنعه من السفر، لكنه يسليه كثيراً. وكانت شقته ممتلئة بها، من ممر المدخل حتى غرفة النوم، بما في ذلك المطبخ والحمام. وقد تخصص في معارك نابليون. فكانت تلك المعارك لديه مجهزة ومرتبة جيداً، مع المدافع الصغيرة، والخيول، والرايات، بحيث يمكن لمن يذرع شقته أن يتابع تاريخ نابليون العسكري، منذ الإمبراطورية الأولى حتى واترلو. وكان أبطال تلك المعارك يحيطون بسريره من الجهات الأربع. وإضافة إلى جنود الرصاص، كان بيت سالمون توليداندو ممتلئاً بمعاجم وكتب نحو بكل اللغات التي يمكن تصورها. وكان في البيت شيء شاذ وغريب، هو جهاز التلفاز القابع على رف قبالة المرحاض. وقد قال لي مفسراً: «التلفاز بالنسبة إلي ملين ممتاز».

لماذا توصلت إلى كل ذلك التآلف مع سالمون توليدانو، بينما كان جميع زملائنا يتجنبونه كشخص ثقيل لا يطاق؟ ربما لأن وحدته شبيهة بوحدتي، وإن كنا مختلفين في أشياء كثيرة أخرى. فكلانا يقول إنه لن يستطيع العودة للعيش في بلاده، فأنا في البيرو، وهو في تركيا، سنجد نفسينا غريبين أكثر مما نحن عليه في فرنسا، حيث نجد نفسينا، مع ذلك، غريبين أيضاً. وكلانا كنا مدركين أننا لن نندمج أبداً في البلد الذي اخترنا العيش فيه، بل ومنحنا جواز سفر (كلانا

كنا قد حصلنا على الجنسية الفرنسية).

ـ ليس الذنب ذنب فرنسا يا عزيزي في بقائنا هنا غريبين. إنه ذنبنا. إنه استعداد فطري، قدر. مثل مهنتنا كمترجمين فوريين، فهي طريقة لأن يظل المرء على الدوام أجنبياً، يكون ولا يكون، يكون ولكنه لا يكون.

لا شك في أنه كان على حق وهو يقول لي هذه الأمور الكئيبة. فتلك الأحاديث مع الترجمان كانت تخلفني على الدوام محبطاً إلى حد ما، وتسبب لي الأرق أحياناً. فأن أكون شبحاً ليس أمراً يبقيني غير مبالٍ ورابط الجأش؛ أما هو فلم يكن ذلك يقلقه كثيراً.

لهذا، عندما أخبرني سالمون توليدانو بانفعال، في العام 1979، أنه وافق على عرض للسفر إلى طوكيو، والعمل هناك لسنة كمترجم لدى ميتسوبيشي حصراً، أحسستُ بشيء من الراحة. لقد كان شخصاً طيباً، نموذجاً مثيراً للاهتمام، لكن شيئاً فيه كان يحزنني ويقلقني، لأنه يكشف لي بعض الدروب السرية لقدري.

ذهبت لوداعه في مطار شارل ديغول، وبينما أنا أشد على يده عند منضدة كونتوار الخطوط الجوية اليابانية، أحسست أنه يترك بين أصابعي شيئاً معدنياً صغيراً. إنه دمية جندي خيالة من حرس الإمبراطور. وقد أوضح لي: «لدي نسخة مكررة منه. سيجلب لك الحظ يا عزيزي». وضعته في الكوميدينو، إلى جانب تميمتي: فرشاة الأسنان البديعة تلك، ماركة جيرلان.

بعد شهور من ذلك، انتهت أخيراً الدكتاتورية العسكرية في البيرو، وفي العام 1980، عاد البيرويين إلى انتخاب الرئيس الأسبق فرناندو بيلاوندي تيري، كما لو أنهم يعوضون عنه، باعتباره الرئيس الذي أطاح به الانقلاب العسكري عام 1968. عندئذ قرر العم أتاولفو السعيد أن يحتفل بالحدث ملقياً بالبيت من النافذة. فهو يريد القيام

برحلة إلى أوروبا، الأرض التي لم تطأها قدماه من قبل قط. حاول جعل زوجته العمة دولوريس ترافقه، لكنها تعللت بأن شللها سيحول دون استمتاعها بالرحلة وسيجعل منها عائقاً له. وهكذا جاء العم أتاولفو وحيداً. وقد وصل في الوقت المناسب كي نحتفل معاً بإكمالي 45 سنة.

أنزلته في شقتي في إيكول ميليتير، متنازلاً له عن غرفة النوم، وصرت أنام على صوفا الصالة. كان قد هرم كثيراً منذ المرة الأخيرة التي رأيته فيها شخصياً، قبل خمس عشرة سنة. كانت سنوات عمره التي تزيد على السبعين تُثقل عليه. وكان قد فقد شعره كله تقريباً، يمشي مجرجراً قدميه، ويصيبه الإنهاك بسهولة. وكان يتناول أقراصاً للضغط، ولا بد أن طقم الأسنان الاصطناعية كان يضايقه، لأنه كان يحرك فمه طوال الوقت كما لو أنه يريد تثبيتها بصورة أفضل على لثتيه. لكنه بدا مفتوناً بالتعرف أخيراً على باريس، وهي رغبة قديمة لديه. كان ينظر إلى الشوارع، إلى أرصفة السين وإلى الأحجار القديمة مبتسماً برضا، ومكرراً بين أسنانه: «كل شيء أجمل مما يبدو عليه في الصور». رافقت العم أتاولفو إلى نوتردام، واللوفر، وميدان الأنفاليد، والبانتيون، والصليب المقدس، وإلى الغاليريات والمتاحف. لقد كانت هذه المدينة، حقاً، هي الأجمل في العالم، وقضائي هنا سنوات طويلة أنساني ذلك. كنت أعيش محاطاً بأشياء كثيرة جميلة دون أن أراها تقريباً. وهكذا استمتعت لبضعة أيام، مثله، وأنا أقوم بجولة سياحية في مدينتي المتبناة. تبادلنا أحاديث مطولة ونحن نجلس على أرصفة المقاهي، نرشف كأساً من النبيذ لفتح الشهية. كان سعيداً بانتهاء النظام العسكري في البيرو وعودة الديمقراطية، لكنه لا يبني أوهاماً كبيرة على المدى القريب. فالمجتمع البيروي، على حد قوله، يمور بالتوترات، والأحقاد، والأحكام المسبقة، والضغائن التي ازدادت حدتها خلال اثنتي عشرة سنة من

الحكم العسكري. «لا نستطيع التعرف على البلاد يا بن الأخ. هناك في الأجواء تهديد نابض، الإحساس بأن شيئاً بالغ الخطورة قد ينفجر في أي لحظة». وقد كانت كلماته نبوءة في هذه المرة أيضاً. فبعد قليل من عودته إلى البيرو، بعد رحلته إلى فرنسا وجولة صغيرة قام بها في حافلة إلى قشتالة والأندلس، أرسل لي العم أتاولفو بعض قصاصات صحف ليما وفيها صور مروعة: بعض الماويين المجهولين أعدموا، على أعمدة النور في وسط العاصمة، عدداً من الكلاب التعيسة، وعلقوا عليها لافتات باسم تينغ هسياو بنغ الذي يتهمونه بخيانة ماو، وبأنه أوقف الثورة الثقافية في الصين الشعبية. هكذا بدأ التمرد المسلح الذي قامت به منظمة الدرب المضيء، والذي سيستمر طوال عقد الثمانينيات، وسيؤدي إلى حمام دم لا سابق له في تاريخ البيرو: أكثر من ستين ألف قتيل ومختفٍ.

بعد شهرين من سفره، كتب إليّ سالمون توليدانو رسالة مطولة. كان سعيداً بإقامته في طوكيو، بالرغم من أن جماعة ميتسوبيشي يجعلونه يعمل كثيراً إلى حدّ أنه ينهار ليلاً في فراشه مستنفداً. ولكنه حسّن يابانيته بمتابعة آخر تطورات هذه اللغة، وتعرف على أناس لطفاء، ولا يشعر بأي حنين إلى باريس الماطرة. وهو يخرج مع محامية من الشركة، مطلقة وجميلة، وساقاها غير معوجتين مثل معظم اليابانيات، وإنما مسكوبتان جيداً، ولها نظرة مباشرة وعميقة «تحفر الروح». «ولا تخف يا عزيزي، فمازلتُ وفياً لعهدي، ولن أقع في حب هذه الإيزابل[1] النيبونية. ولكنني أنوي، مع استبعاد الوقوع في الحب،

[1] الإشارة إلى إيزابل Jezabel، الوارد ذكرها في سفر الملوك، وهي ابنة أثبعل، أغوت زوجها آخاب، وشاركته في قتل أنبياء الرب وعبيده، فحكم الرب عليها بأن تأكل الكلاب لحمها.

أن أفعل مع ميتسوكو كل ما عدا ذلك.» وتحت توقيعه أضاف ملاحظة مقتضبة: «لك تحيات الطفلة الخبيثة». عندما وصلتُ إلى هذه الجملة، أفلتت رسالة الترجمان من يدي، وكان عليّ أن أجلس ضحية دوار.

أهي في اليابان إذن؟ وأية شياطين أتاحت التقاء سالمون والبيروية الخبيثة في طوكيو المزدحمة؟ استبعدتُ فكرة أن تكون هي نفسها المحامية ذات النظرة الغائمة التي تعلق بها زميلي كما يبدو، ومع أنه ليس هناك ما هو مستحيل مع التشيلية السابقة، الفدائية السابقة، مدام أرنو السابقة، ومسز ريتشاردسون السابقة، حتى احتمال أن تكون متخفية كمحامية يابانية. وعبارته تلك عن «الطفلة الخبيثة» تكشف عن وجود درجة معينة من الألفة بين سالمون وبينها؛ فلابد أن التشيلية قد أخبرته بشيء عن علاقتنا الطويلة والمتقطعة. أتراهما مارسا الحب معاً؟ اكتشفتُ في الأيام التالية أن تلك الملاحظة اللعينة قد قلبت حياتي، وأعادت الحب ـ الوله المرضي والغبي الذي استنفد مني سنوات طويلة، وحال دون أن أعيش حياة طبيعية. مع ذلك، وعلى الرغم من شكوكي، من غيرتي، من تساؤلاتي المغمومة، فإن معرفة أن الطفلة الخبيثة موجودة هناك، حية، في مكان محدد، وإن كان شديد البعد عن باريس، ملأت رأسي بالتخيلات. مرة أخرى. بدا كما لو أنني أخرج من الليمبو الذي عشت فيه هذه السنوات الأربع الأخيرة، منذ أن اتصلت بي من مطار شارل ديغول (حسن، لقد قالت لي إنها تتصل من هناك) لتخبرني بأنها هاربة من إنكلترا.

أمازلتَ مغرماً إذن بمواطنتك المتهرية يا ريكاردو سوموكوثيو؟ دون أدنى شك. منذ ملاحظة الترجمان تلك، صار يظهر لي طوال الوقت، نهاراً وليلاً، وجهها الأسمر، ملامحها المتغطرسة، عيناها اللتان بلون العسل القاتم، وصار جسدي كله يتقد بالرغبة في

امتلاكها بين ذراعي.

لم تكن رسالة سالمون توليدانو تحمل عنوان المرسل، ولم يكلف الترجمان نفسه بإعطائي عنوانه أو رقم هاتفه. قمت بالتقصي في مكتب ميتسوبيشي الباريسي، ونصحوني بأن أكتب إلى إدارة الموارد البشرية في الشركة، في طوكيو، وأعطوني عنوانها. وكان هذا ما فعلته. تضمنت رسالتي الكثير من المداورة، فقد تحدثت إليه أولاً عن عملي: قلتُ له إن دمية جندي الحرس الإمبراطوري قد جلبت لي حسن الطالع، لأنني حصلت في الأسابيع الأخيرة على عقود عمل رائعة، وهنأته على غزوته الغرامية الجديدة. وأخيراً، دخلت في الموضوع. فقد فاجأني بصورة مبهجة أن أعرف أنه تعرف على صديقتي القديمة تلك. أتعيش هي في طوكيو؟ فقد أضعتُ آثارها منذ سنوات. أيمكنه أن يرسل إلي عنوانها؟ رقم هاتفها؟ فأنا راغب في إعادة الاتصال بمواطنتي بعد كل هذا الوقت.

أرسلتُ الرسالة دون أن أمني النفس بآمال كبيرة في وصولها إلى يديه. لكنها وصلت، وتاه الردّ عليها في دروب أوروبا. فقد حطت رسالة الترجمان الجوابية في باريس بينما أنا في فيينا، أعمل في هيئة الطاقة الذرية، فأرسلتها بوابة البناء في إكول ميليتير، عملاً بتعليماتي لها في حالة وصول رسالة من طوكيو، أن ترسلها إليّ في فيينا. وعندما وصلت الرسالة إلى النمسا كنت قد رجعت إلى باريس. وأخيراً، ما كان يمكن أن يتأخر أسبوعاً في الأحوال العادية، تأخر قرابة ثلاثة أسابيع.

وعندما صار ردّ سالمون توليدانو أخيراً بين يدي، كانت أسناني تصطك، وأنا أرتجف من قدميّ إلى قمة رأسي، كمن أصابته حمى الغب المتقطعة. كانت رسالة من عدة صفحات. قرأتها ببطء، متهجياً إياها، كي لا أفقد حرفاً واحداً مما تقوله. منذ السطور الأولى يستغرق

في دفاع مؤثر عن ميتسوكو، محاميته اليابانية، فيعترف لي، بشيء من الخجل، بأن عهده بعدم العودة إلى الوقوع في الحب الذي عقد العزم عليه على إثر «النكسة العاطفية البرلينية»، قد انكسر بعد ثلاثين سنة من الالتزام الصارم به، بسبب جمال، وذكاء، ورقة، وحسية ميتسوكو، المرأة التي شاءت ألوهيات السينتوستية[1] تثوير حياته من خلالها مذ خطرت له الفكرة المباركة في العودة إلى هذه المدينة، حيث صار، منذ بضعة شهور، أسعد رجل على وجه الأرض.

لقد أعادت إليه ميتسوكو شبابه، وملأته بالألق. وأنه لم يمارس الحب، حتى في زهرة شبابه، باندفاعه فيه الآن. لقد استعاد الترجمان اكتشاف الوله العاطفي. كم هو رهيب هدر كل تلك السنوات الطويلة، والمال، والحيوانات المنوية في غراميات مرتزقة! ولكن، ربما لا؛ ربما كل ما فعله حتى الآن كان زهداً، تدريباً وترويضاً لروحه وجسده كي يستحق ميتسوكو.

وأول ما سيفعله عندما يعود إلى باريس، هو أن يلقي إلى النار تلك الأحصنة، والجنود، والفرسان المزينين بالريش، وجنود حفر الخنادق الذين أهدر معهم حياته، على امتداد سنوات، في نشاط باهظ التكلفة وشاغل للوقت بقدر ما هو غير مجدٍ، ليعود بحياته إلى سعادة الحب. لن يعود بعد اليوم إلى جمع أي شيء؛ وستكون تسليته الوحيدة هي أن يحفظ عن ظهر قلب، وبكل اللغات التي يعرفها، قصائد إيروتيكية ليهمس بها في أذن ميتسوكو. فهي تحب سماعها، وإن كانت لا تفهمها، بعد «الملذات» التي ينالانها كل ليلة، في أجواء مشهدية مختلفة.

---

[1] السينتويسية Sintoista: ديانة وطنية في اليابان، تقدس الأسلاف وقوى الطبيعة. والربة أماتيراسو التي تجسد الشمس، هي كبيرة مجمع آلهة السينتويسية.

وينتقل بعد ذلك، في نثر مشحون بالحمى والبورنوغرافية، ليصف لي مآثر ميتسوكو الغرامية، ومفاتنها السرية، وترد بينها طريقة مخففة وغير مؤذية، رقيقة وحسية، للأسطورة اليونانية الرومانية المخيفة عن ***الفرج ذي الأسنان***. كانت طوكيو أغلى مدينة في العالم، وبالرغم من ارتفاع راتبه، إلا أن نقوده تتحلل في جولات الترجمان وميتسوكو الليلية في جينزا، حي الليل في طوكيو، حيث يترددان على المطاعم، والبارات، والكباريهات، وخاصة على بيوت المواعيد، درة تاج ***حياة الليل*** اليابانية. ولكن، من الذي يهتم بالمال عندما تكون السعادة في الميزان! لأن كل رهافة ذوق الثقافة اليابانية لا يتلألأ، مثلما أظن أنا بكل تأكيد، في أعمال النقش التي تعود إلى عصر ميجي، ولا في مسرح النوّ، ولا في الكابوكي، ولا في دمى البونروكو؛ وإنما في بيوت المواعيد أو *maisones closes*، المسماة هناك بالاسم المتفرنس ***شاتو*** *Châteaux*، وأشهرها الشاتو ميغيري، وهو فردوس حقيقي للملذات الجسدية، حيث انسكبت العبقرية اليابانية بملء يديها لمواءمة أشد أشكال التكنولوجيا تطوراً مع الخبرة الجنسية والطقوس التي أكسبتها العراقة نبلها. كل شيء ممكن في حجرات الشاتو ميغيري: الشطط، النزوات، التخيلات، الشذوذات تجد ميداناً لها ووسيلة للتجسد. لقد عاش هو وميتسوكو تجارب لا تنسى في مقصورات شاتو ميغيري المتكتمة: «نشعر هناك بأننا آلهة، محبوبون، وأقسم بشرفي إنني لا أبالغ ولا أهذي».

وأخيراً، عندما صرت أخشى ألا يأتي العاشق على ذكر أي كلمة عن الطفلة الخبيثة، بدأ الترجمان الاهتمام بما طلبته منه. فقد رآها مرة واحدة فقط، بعد تلقيه رسالتي. وقد كلفه التكلم معها على انفراد مشقة كبيرة، لأنه «لأسباب واضحة» لم يشأ الحديث عني «أمام السيد الذي تعيش معه، أو من تُشاهد معه عادة على الأقل»، وهو

«مخلوق» معروف بسوء السمعة، وبمظهر أسوأ، تكفي رؤيته للإحساس بقشعريرة والقول: «هذا الشخص لا أرغب في معرفته ولو كعدو».

لكنه أخيراً، وبمساعدة ميسوكو، تمكن من الانفراد بالمذكورة، وأوصل إليها طلبي. فقالت له، «بما أن ***صديقها الصغير*** غيور جداً»، فمن الأفضل ألا أكتب إليها مباشرة، كي لا يثير لها مشكلة (أو يقتلها بضربة على رقبتها). ولكن إذا كنتُ راغباً في إيصال بضعة سطور إليها عبر الترجمان، فسوف يسعدها تلقي أخباري. ويضيف سالمون توليدانو: «هل أنا بحاجة يا عزيزي إلى القول لك إنه ليس هناك ما يسعدني أكثر من أن أكون قواداً لك؟ فمهنتنا هي طريقة مواربة للوساطة، القوادة أو التوسط، ولهذا أنا مستعد لأداء هذه المهمة النبيلة. وسأقوم بها متخذاً كل ما في العالم من احتياطات، كي لا تصل رسائلك أبداً إلى يدي قاطع الطريق هذا الذي ترافقه طفلة أحلامك. أعذرني يا عزيزي، لكنني أدركت كل شيء: إنها حب حياتك، أم أنني على خطأ؟ وبالمناسبة، أهنئك: إنها ليست ميتسوكو ـ لا يمكن لأحد أن يكون ميتسوكو ـ، غير أن جمالها الإكزوتيكي يعكس نفحة غموض في الوجه الذي يبدو شديد الجاذبية. اعتن بنفسك!». والتوقيع: «لك عناق ترجمان شاتو ميغيري!».

مع من تورطت البيروية الصغيرة الآن؟ إنه ياباني دون أدنى شك. ربما هو قاطع طريق، أحد زعماء ***الياكوزا*** الذين يبترون جزءاً من الإصبع الخنصر، كعلامة مميزة للعصابة. لا شيء مستغرب بعد هذا. لا بد أنها تعرفت عليه خلال رحلاتها إلى الشرق برفقة مستر رتشاردسون، وهو قاطع طريق آخر، مع فارق أنه ذو ياقة، وربطة عنق، ويملك إسطبلات خيول في نيوماركت. أما الياباني فهو شخص مشؤوم، حسب وصف الترجمان المازح. أتراه يشير إلى بنيته الجسدية

فقط عندما يقول إن فيه شيئاً يبعث الرعب في النفس؟ أم إلى سوابقه؟ هذا هو الشيء الوحيد الذي كان ينقص سيرة حياة التشيلية: عشيقة أحد زعماء المافيا اليابانية. إنه رجل يملك النفوذ والمال طبعاً، وهما ضمانتان لا بد منهما لنيل رضاها. ولا بد أنه يحمل على كاهله، فوق ذلك، عدداً من الجثث. كانت الغيرة تنهشني، وسيطر عليّ في الوقت نفسه إحساس غريب، يختلط فيه الحسد والفضول. وبدا واضحاً أن الطفلة الخبيثة لن تتوقف أبداً عن مفاجأتي بجسارتها التي لا توصف.

عشرون مرة قلتُ لنفسي إنه يجب عليّ ألا أكون أحمق إلى حد الكتابة إليها، وألا أحاول أن أجدد معها أي نوع من العلاقات، لأنني سأخرج مسلوقاً ومبصوقاً كالعادة. ولكن، قبل انقضاء أقل من يومين على قراءة رسالة الترجمان، كتبت لها بضعة سطور وبدأت أفكر في طريقة للقيام بقفزة توصلني إلى بلاد الشمس المشرقة.

كانت رسالتي إليها مدارية بالكامل، إذ لم أشأ أن أزجها في أي ورطة (كنت واثقاً من أنها هذه المرة، في اليابان، قد غاصت في مياه آسنة أكثر من أي مرة أخرى). يسعدني كثيراً أنني حصلت على أخبار عنها من خلال زميلي، صديقنا المشترك، وأن أعلم أن أمورها تسير على ما يرام، وأنها سعيدة في طوكيو. وأخبرتها عن حياتي في باريس، وعن روتين العمل الذي ينقلني أحياناً إلى مدن أوروبية أخرى؛ وأعلنت لها أنني، ويا للمصادفة، سأسافر في وقت غير بعيد إلى طوكيو، في عقد عمل كمترجم في مؤتمر دولي. وآمل أن أراها لنستعيد ذكريات الأزمنة القديمة. وبما أنني لم أكن أعرف أي اسم تستخدمه الآن، فقد اكتفيت ببدء الرسالة بالقول: «عزيزتي البيروية الصغيرة». وأرفقتها بنسخة من ترجمتي لمختارات تشيخوف، مع إهداء يقول: «إلى الطفلة الخبيثة، مع مودة الصعلوك الذي ترجم هذه القصص». بعثت الرسالة والكتاب إلى عنوان سالمون توليدانو، مع

بضعة سطور أشكره فيها على مساعيه، وأعترف بحسدي له بعد معرفتي أنه سعيد وعاشق، وأرجوه أن يخبرني إذا ما بلغ علمه شيء عن مؤتمر أو ندوة بحاجة إلى مترجمين جيدين يتكلمون الإسبانية، والفرنسية، والإنكليزية، والروسية (ولكن ليس اليابانية)، لأنني شعرت فجأة برغبة جامحة في التعرف على طوكيو.

لم تتوج بالنجاح مساعيّ للحصول على عمل يوصلني إلى اليابان. فعدم معرفتي اللغة اليابانية كان يستبعدني من الكثير من الندوات المحلية، ولم تكن هناك آنذاك اجتماعات منتظرة في طوكيو لأي من منظمات هيئة الأمم المتحدة، حيث يطالبون بمترجمين عن اللغات الرسمية في المنظمة الدولية. أما الذهاب على نفقتي، كسائح، فيكلف عيناً من الوجه. هل سأبخر في بضعة أيام قسماً كبيراً مما تمكنت من جمعه في السنوات الأخيرة؟ قررت عمل ذلك. ولكنني ما كدت أتخذ القرار، وأتهيأ للذهاب إلى وكالة السفر، حتى تلقيت مكالمة من رئيسي القديم، السيد تشارنيس. وكان قد أحيل إلى التقاعد، لكنه يعمل لحسابه كمدير لمكتب ترجمة ومترجمين فوريين خاص، وكنت دوماً على اتصال به. لقد حصل لي على عقد عمل في ندوة، في سيؤل، لمدة خمسة أيام. وهكذا توافرت لي إذاً تذكرة السفر ذهاباً وإياباً. فمن كوريا سيكون القفز إلى طوكيو أرخص بكثير. دخلت حياتي منذ تلك اللحظة في دوامة: مساعٍ للتأشيرات، كتيبات سياحية حول كوريا واليابان، وكنت أردد بيني وبين نفسي طوال الوقت إنني أقترف حماقة كبيرة، لأن الاحتمال الأكبر هو ألا أتمكن حتى من رؤيتها في طوكيو. إذ قد تكون الطفلة الخبيثة قد انتقلت بموسيقاها إلى مكان آخر، أو أنها ستتجنبني خوفاً من أن يقوم زعيم *الياكوزا* بشق بطنها وإلقاء جثتها للكلاب، مثلما يفعل شرير في فيلم ياباني شاهدته للتو.

فـي أحد تلك الأيام المحمومة، أيقظني الهاتف فـي الفجر.

ـ أمازلتَ مغرماً بي؟

صـوتها نفسـه، النـبرة السـاخرة والحالمـة القديمـة نفسـها، وفـي العمق، ذلك الأثر من لهجة أهل ليما التي لم تفقدها تماماً قط.

ـ لابـد أنـني مازلـت أحبـك أيتهـا الطفلـة الخبيثـة ـ أجبتهـا وأنـا أستيقظ تماماً ـ وإلا ما كان بالإمكان تفسير طرقـي لكل الأبـواب، مذ عرفتُ أنك فـي طوكيو، لأحصل على عقد عمل يوصلني إلى هنـاك ولو ليوم واحد. وقد حصلت، أخيراً، على عقد إلى سيؤل. سـأذهب إليهـا خلال أسبوعين. ومن هناك سأقفز إلى طوكيو لرؤيتك. حتى ولـو قتلني بالرصـاص زعـيم *اليـاكوزا* الـذي أنـتِ معـه الآن، حسـب مـا قالـه لـي جواسيسي. أليست هذه مؤشرات إلى أنني عاشق؟

ـ أجل، أظن أنها كذلك. لحسن الحظ أيها الطفل الطيب. كنتُ أظن أنك قد نسيتني بعد كل هـذا الـزمن. وهـل هـذا هـو مـا أخبرك بـه صديقك توليدانو؟ أأخبرك بأني أعيش مع أحد زعماء المافيا؟

انفجرت فـي الضحك سعيدة بـذلك التقـديم. ولكنهـا، علـى الفـور تقريباً، غيّرت الموضوع وتكلمت بطريقة حانية:

ـ يسـعدني مجيئك. وإن كنـا لـن نـتمكن مـن اللقـاء كـثيراً. إنـني أتذكرك دوماً. أأخبرك بالسبب؟ لأنك الصديق الوحيد المتبقي لي.

ـ أنا لستُ صديقك، ولـن أكـون صـديقك أبـداً. ألـم تـدركي ذلـك بعد؟ إنني عاشقك، المتيم بك، المجنون منذ طفولته بالتشيلية الصـغيرة، بالفدائيـة، بزوجـة الموظـف، وزوجـة مربـي الخيـول، وعشـيقة قـاطع الطريق الياباني. إنني الصعلوك الـذي لا يعيش إلا لاشـتهائك والـتفكير فـيك. عنـدما نلتقـي فـي طوكيـو، لا أريـد أن نتـذكر أي شـيء. أريـد ضمك بين ذراعي، تقبيلك، شمك، عضك، وممارسة الحب معك.

عادت تضحك، وبرغبة أكبر الآن.

ـ أمازلت تمارس الحب؟ ـ سألتني ـ. هذا جيد، لحسن الحظ. لم يعد هناك من يقول لي مثل هذه الأشياء منذ المرة الأخيرة التي التقينا بها. هل ستقول لي الكثير منها عندما تأتي يا ريكارديتو؟ هيا، قل لي واحدة أخرى، كمثال.

ـ في ليالي اكتمال القمر أخرج لأنبح على السماء، وعندئذ أرى وجهك مرسوماً هناك في الأعالي. الآن بالذات، أنا مستعد لتقديم السنوات العشر المتبقية لي في الحياة، لمجرد أن أرى صورتي منعكسة في أعماق عينيك اللتين بلون العسل القاتم.

كانت تضحك، مستمتعة، ولكنها قاطعتني فجأة بذعر:

ـ عليّ أن أقطع المكالمة الآن.

سمعتُ «تك» الجهاز. ولم أعد قادراً على إغماض عيني، ضحية مزيج من السعادة والقلق أبقاني مؤرقاً حتى السابعة صباحاً، وهو الموعد الذي أنهض فيه لإعداد فطوري المعهود ـ فنجان قهوة ثقيلة وقطعة خبز محمصة مع العسل ـ، عندما لا أخرج لتناول الفطور نفسه على منضدة كونتوار المقهى المجاور، في جادة تورفي.

الأسبوعان المتبقيان على رحلتي إلى سيؤل أمضيتهما منهمكاً في أمور كان يقوم بها في الزمن الغابر، على ما أعتقد، أولئك العرسان الحالمون، في أيام ما قبل الزفاف الذي سيفقد فيه العروسان عذريتهما. فقد رحت أشتري ملابس، وأحذية، وأقص شعري (ليس عند الحلاق العادي خلف مبنى اليونسكو، حيث اعتدت قص شعري دائماً، وإنما في صالون حلاقة فاخر في شارع سان أونوريه). ورحت أجوب، قبل كل شيء، بوتيكات ومحلات البيع للسيدات، كي أختار هدية متحفظة، يمكن للطفلة الخبيثة أن تخفيها في خزانة ملابسها الخاصة، وأن تكون في الوقت نفسه أصيلة، ولطيفة، توصل إليها هذه الكلمات الرقيقة والجميلة التي أتلهف لأن أقولها لها في

أذنها. طوال الساعات التي كرستها للبحث عن الهدية، كنت أقول لنفسي إنني مازلت الآن أشد بلاهة مما كنته من قبل، وإنني أستحق أن أعامل مرة أخرى بالركل بطرف حذاء عشيقة زعيم *الياكوزا* والتمرغ في القذارة. وأخيراً، بعد بحث طويل، انتهيت إلى شراء أحد أول الأشياء التي رأيتها وأعجبتني، من عند فويتون: علبة أدوات تجميل مع مجموعة من قوارير العطور الزجاجية الصغيرة، والكريمات، وأقلام الشفاه، ومفكرة وقلم مرصعين بالصدف يخبآن في جيب سري. كان هناك شيء يوحي، بصورة مبهمة، بالخيانة الزوجية في ذلك المخبأ السري في الحقيبة المبهرجة.

كان مؤتمر سيؤل منهكاً؛ فهو يدور حول براءات الملكية والتعرفات، يلجأ المتكلمون فيه إلى استخدام مفردات مغرقة في تقنيتها، مما يطلب مني مضاعفة الجهود. استثارة الأيام الأخيرة، وطول الرحلة في الطائرة، واختلاف التوقيت بين باريس وكوريا، أبقتني مؤرقاً ومتوتر الأعصاب. ويوم وصلتُ إلى طوكيو، مع بداية المساء، سقطت مستنفداً من النعاس في الغرفة الضيقة التي حجزها لي الترجمان في فندق صغير في مركز المدينة. نمت أربع أو خمس ساعات متواصلة، وفي الليل، بعد دوش طويل وبارد كي أستيقظ، خرجت لتناول العشاء مع صديقي وحبيبته اليابانية. ومنذ اللحظة الأولى حدثتني هواجسي بأن سالمون توليدانو غارق في حب ميتسوكو أكثر مما هي مغرمة به. رأيت أن الترجمان قد استعاد الشباب والحماسة. كان يضع ربطة عنق مزركشة لم أره بمثلها من قبل قط، وبدلة ذات تفصيل حديث وشبابي. كان يمزح، ويضاعف حركات الاهتمام بصديقته، ويقبلها بأي ذريعة من خديها أو فمها، ويحيط خصرها بذراعه، وهي أمور يبدو أنها تضايقها. كانت أكثر منه شباباً بكثير، لطيفة، وجميلة بالفعل: ساقان بديعتان، ووجه من خزف تتلألأ

فيه عينان واسعتان وحيويتان. ولم تكن قادرة على موارة ملامح الاستياء في كل مرة يقترب منها سالمون. كانت تتكلم الإنكليزية جيداً، وتتعرض تلقائيتها ومودتها إلى نوع من الإحباط كلما أبدى لها صديقي مظاهر المحبة المفخمة تلك. ويبدو أنه لم يكن ينتبه إلى ذلك. ذهبنا أولاً إلى بار كابوكي ـ تشو، في سينجوكو، وهو حي يغص بالكباريهات، والمتاجر الإيروتيكية، والمطاعم، وصالات الرقص، وبيوت المساجات، تتجول في جنباته حشود كثيفة. وتتعالى من كل الأماكن موسيقى صاخبة، وكانت هناك غابة جوية معلقة من الأضواء، والرايات والإعلانات الدعائية. أحسست بالدوار. وبعد ذلك، تناولنا العشاء في مكان أكثر هدوءاً، في نيشي ـ أزابو، حيث تذوقت، أول مرة، طعاماً يابانياً، وشربت الساكي الدافئ والحريف. وعلى امتداد الليل اشتد إحساسي بأن العلاقة بين سالمون وميتسوكو أبعد من أن تكون جيدة مثلما كان الترجمان يؤكد في رسائله. ولكنني كنت أقول لنفسي إن السبب في ذلك دون شك، هو أن ميتسوكو، المعتدلة في إظهار عواطفها، لم تعتد بعد على الطريقة المنفتحة، المتوسطية، التي يعرض بها سالمون أمام الملأ الوله الذي أيقظته فيه. ستعتاد على ذلك.

أخذت ميتسوكو المبادرة في الكلام عن الطفلة الخبيثة. فعلت ذلك في منتصف العشاء، وبأكثر طريقة طبيعية في الدنيا، إذ سألتني إذا ما كنت أرغب في أن تتصل بمواطنتي لتخبرها بوصولي. فرجوتها أن تفعل وأن تعطيها رقم فندقي. فهذا أفضل من أن أتصل بها أنا نفسي، آخذاً بالاعتبار أن السيد الذي تعيش معه هو، كما يبدو، عُطيل ياباني، وربما قاتل أيضاً.

ـ أهذا ما أخبرك به هذا السيد؟ ـ ضحكت ميتسوكو ـ يا للبلاهة. السيد فوكودا رجل غريب الأطوار بعض الشيء، يقال إنه

داخل فـي صفقات غير واضحة، فـي أفريقيا. ولكنني لم أسمع قط أنـه مجـرم، أو شـيء من هـذا القبيـل. إنـه غيـور جـداً، هـذا صـحيح. أو علـى الأقل هذا ما تقوله كوريكو.

ـ كوريكو؟

ـ الطفلة الخبيثة.

قالـت «الطفلـة الخبيثـة» بالإسـبانية، واحتفـت هـي نفسـها بمأثرتهـا اللغويـة الصـغيرة، بالتصفـيق لنفسـها. هـذا يعـني أن اسمهـا الآن كوريكو. هكذا إذن. فـي تلك الليلة، وقبل أن نفترق، تـدبر الترجمـان الأمر للانفراد بي للحظات قصيرة. سألني وهو يشير إلى ميتسوكو:

ـ ما رأيك بها؟

ـ جميلة جداً أيها الترجمان. أنت على حق تماماً. إنها فاتنة.

ـ كـل هـذا وأنـت تراهـا بملابسـها فقـط ـ قـال وهـو يغمـز بعينـه ويضرب صدره ـ يجب أن نتكلم مطولاً يا عزيزي. ستُذهل بما لدي من خطـط غـير ناضـجة بعـد. غـداً سـأتصـل بـك. أمـا الآن فـنم، واحلـم، وانبعث.

لكن من اتصلت بي، باكراً، هي الطفلة الخبيثة. منحتني سـاعة لحلاقـة ذقـني، والاسـتحمام، وارتـداء مـلابسـي. وعنـدما نزلـتُ وجـدتها بانتظاري، جالسة على إحدى أرائك بهو الاستقبال. كانـت ترتـدي رداء مطريـاً فـاتح اللـون، وتحتـه بلـوزة بلـون القرميـد، وتنـورة كسـتنائية، تكشـف عـن ركبتيهـا، مسـتديرتين ونـاعمتين، وسـاقيها الـرقيقتين. كانت أشد نحولاً مما هي عليه فـي ذاكـرتي، وعيناهـا متعبتين بعض الشيء. ولكن لا يمكن لأحد فـي العالم أن يقول إن عمرها أكثـر مـن أربعين سنة. بـدت طازجة وجميلة. وكـان يمكـن اعتبارهـا، عـن بعـد، واحـدة مـن هـؤلاء اليابانيـات الحساسـات والضـئيلات اللـواتي يجتـزن الشـارع، هادئـات وطافـيات. ابـتهج وجهها حـين رآتـني، ونهضـت واقفـة

لتعانقني. قبّلت خديها ولم تبعد شفتيها عندما لامستهما بشفتي.

ـ أحبكِ كثيراً ـ تلعثمتُ ـ. وشكراً لأنك مازلتِ شابة وجميلة، أيتها التشيلية الصغيرة.

ـ تعال، هلم بنا لنركب الأومنبوس ـ قالت وهي تمسك بذراعي ـ. أعرف مكاناً جميلاً نتبادل فيه الحديث. إنها حديقة تذهب إليها طوكيو بأسرها للنزهة والسكر عندما تتفتح أزهار الكرز. هناك يمكن لك أن تقول لي بعض عباراتك المتكلفة.

اقتادتني متعلقة بذراعي حتى الموقف، على بعد شارعين أو ثلاثة شوارع عن الفندق، وهناك صعدنا إلى حافلة أومنيبوس تتلألأ نظافة. كان السائق وقاطعة التذاكر يضعان من كمامات الأفواه تلك التي فوجئت بأناس كثيرين يضعونها وهم يمشون في الشارع. إن طوكيو، ومن نواح كثيرة، تشبه مستشفى. سلمتها علبة أدوات التجميل التي أحضرتها لها، فتلقتها دون إفراط في الحماسة. كانت تتأملني، ما بين لاهية وفضولية.

ـ لقد تحولتِ إلى يابانية صغيرة. بطريقتك في اللبس، وكذلك بملامحك، وحركاتك، وحتى بلون بشرتك. منذ متى صار اسمك كوريكو؟

ـ هذا هو الاسم الذي أطلقه عليّ أصدقائي، ولست أدري من الذي خطر له أولاً. ربما لأن فيَّ شيئاً شرقياً. أنت قلت لي ذلك يوماً في باريس، ألا تتذكر؟

ـ إنني أتذكر بالطبع. أتدرين أنني كنت خائفاً من أن تكوني قد صرت قبيحة؟

ـ أما أنتَ بالمقابل، فامتلأت بالشيب. ولديك بعض التجعدات أيضاً، هنا تحت الجفون ـ شدت على ذراعي وامتلأت عيناها بالخبث. ثم أخفضت صوتها ـ: أتحب أن أكون فتاتك الجيشا، أيها الطفل الطيب؟

ـ أجل، ولكنني أرغب أن تكوني، قبل كل شيء، امرأتي. لقد جئتُ إلى طوكيو كي أعرض عليك الزواج للمرة الألف. وأحذركِ من أنني سأُقنعك في هذه المرة. وبالمناسبة، منذ متى تركبين الحافلة العامة. ألا يستطيع زعيم *الياكوزا* أن يخصص لك سيارة مع سائق وحارس شخصي؟

ـ حتى لو كان قادراً على ذلك، لن يفعله. ـ قالت لي وهي لا تزال متشبثة بذراعي ـ. سيكون مظهر تفاخر، وهو أشد ما يمقته اليابانيون. فهنا يُنظر بعين الاستياء إلى الاختلاف، في أي شيء، عن الآخرين. لهذا يتنكر الأغنياء كفقراء، والفقراء كأغنياء.

نزلنا في حديقة تغص بالناس، موظفون يستغلون استراحة منتصف النهار ليأكلوا السندوتش ويشربوا المرطبات تحت الأشجار، يحيط بهم العشب وبرك ماء فيها أسماك صغيرة ملونة. أخذتني الطفلة الخبيثة إلى صالة شاي، في أحد أركان الحديقة. كانت هناك مناضد وكنبات مريحة، بين حواجز ساترة تحافظ على نوع من الخصوصية. وما إن جلسنا حتى قبّلتُ يديها، فمها، عينيها. وكنت أتأملها طويلاً، أتنشقها.

ـ هل اجتزتُ الامتحان يا ريكارديتو؟

ـ بامتياز. ولكنني أراكِ متعبة بعض الشيء أيتها اليابانية الصغيرة. أهو التأثر لرؤيتي، بعد أربع سنوات من إبقائي مهجوراً تماماً؟

ـ والتوتر الذي أعيش فيه أيضاً. ـ أضافت بجدية كبيرة.

ـ وأية شيطنات تمارسين وتجعلك تعيشين متوترة؟

ظلت تنظر إليّ، دون أن تجيب، ثم مرت بيدها بين شعري، بتلك الطريقة الحانية نصف المُحبة ونصف الأمومية التي اعتادت عليها.

ـ كم من الشعر الشائب ظهر في رأسك ـ كررت وهي تتفحصني ـ. لا بد أنني كنتُ السبب في بعضها، أليس كذلك؟ عما قريب

سأجد نفسي مضطرة إلى تسميتك بالعجوز الطيب بدل الطفل الطيب.

ـ هل أنت مغرمة بالمدعو فوكودا؟ كنت أمني نفسي بأنك معه لمجرد المصلحة وحسب. من يكون؟ ولماذا له هذه السمعة السيئة؟ ماذا يعمل؟

ـ أسئلة كثيرة دفعة واحدة. قل لي أولاً بعض تلك العبارات المتكلفة التي تقال في المسلسلات التلفزيونية. فليس هناك من يقولها لي، منذ سنوات.

كلمتها بصوت خافت، ناظراً إلى عينيها ومقبّلاً، بين حين وآخر، يدها التي بين يدي.

ـ لم أفقد الأمل أيتها اليابانية الصغيرة. حتى لو بدوتُ لك قميئاً غبياً، سأظل ألح وألح إلى أن تأتي للعيش معي في باريس، وإذا لم تعجبك باريس، حيثما تشائين. فأنا أستطيع العمل مترجماً في أي مكان من العالم. أقسم لك إنني سأُسعدك أيتها اليابانية الصغيرة. لقد انقضت سنوات تكفي لأن لا تدع لديك أدنى شك: أحبك إلى حد أنني مستعد لعمل أي شيء من أجل استبقائك إلى جانبي، عندما نصير معاً. أيروقك قطاع الطرق الأوغاد؟ سأتحول إلى سارق، خاطف، نصاب، تاجر مخدرات، وكل ما تشائين. أربع سنوات دون أن أعرف شيئاً عنك، والآن أكاد لا أستطيع التكلم، أكاد لا أستطيع التفكير، من شدة تأثري وأنا أشعر بك قريبة مني.

ـ ليس سيئاً ـ ضحكت وقربت وجهها وقدمت لي قبلة عصفور سريعة على شفتي.

طلبت شاياً وبعض المعجنات بيابانية جعلتها النادلة تكرر كلامها مرتين. وبعد أن أحضروا ما طلبته، وقُدم لي فنجان الشاي، ردّت متأخرة على سؤالي:

ـ لا أدري إذا ما كان حباً ما أشعر به نحو فوكودا. لكنني لم

أتعلق في حياتي قط بشخص مثل تعلقي به. الحقيقة أنه يستطيع أن يفعل معي كل ما يرغب فيه.

لم تقل ذلك بسعادة وغبطة من اكتشف، مثل الترجمان، الحب ـ العاطفة. وإنما بدت مذعورة، متفاجئة من حدوث شيء كهذا لشخص مثلها يعتقد أنه بمنأى عن ذلك الضعف. وكان في عينيها اللتين بلون العسل القاتم شيء من القلق.

ـ حسن، إذا كان قادراً على أن يفعل معك كل ما يرغب فيه، فهذا يعني، أخيراً، أنك مغرمة. آمل أن يجعلك المدعو فوكودا تتألمين مثلما تجعلينني أنت أتألم منذ سنوات طويلة، أيتها المرأة الجليدية...

أحسست بها تمسك يدي وتدعكها.

ـ ليس حباً، أقسم لك. لست أدري ما هو، لكنه لا يمكن أن يكون حباً. إنه أقرب إلى المرض، إلى الإدمان. هذا هو فوكودا بالنسبة إليّ.

ربما كانت القصة التي روتها لي صحيحة، بالرغم من أنها أحاطت أشياء كثيرة بالظلال، وأخفت أشياء أخرى، وجمّلت غيرها. كان من الصعب عليّ أن أصدق أي شيء مما تقوله، لأنها اعتادت، مذ عرفتها، أن تروي لي أكاذيب على الدوام أكثر من الحقائق. وأنا أعتقد، خلافاً للبشر الفانين العاديين، وعند هذا المستوى من حياتها، أنه من الصعب على كوريكو الجديدة التمييز بين العالم الذي تعيش فيه، وذاك الذي تقول إنها تعيش فيه. كانت قد تعرفت على فوكودا، مثلما تصورتُ، منذ سنوات خلت، خلال إحدى رحلاتها إلى الشرق مع دافيد رتشاردسون الذي كانت له، بالفعل، بعض الأعمال التجارية في اليابان. وقد قال فوكودا للطفلة الخبيثة يوماً إنه من المؤسف أن امرأة مثلها، لها مثل هذه الشخصية، وهذا الحب للحياة، أن ترضى بأن تكون مسز رتشاردسون وحسب، لأنه يمكن لها أن

تحقق نجاحاً عظيماً في عالم الأعمال. وقد ظلت هذه الكلمات ترن في مسمعها. وعندما رأت أن عالمها ينهار، لأن زوجها السابق اكتشف أنها متزوجة أيضاً من ألبير أرنو، اتصلت بفوكودا، وأخبرته بما يحدث لها، وعرضت عليه أن تعمل تحت أمرته، في أي عمل يريده. أرسل إليها الياباني بطاقة بالطائرة من لندن إلى طوكيو.

ـ وعندما اتصلتِ بي من مطار باريس لوداعي، كنتِ آتية للقاء به؟

ـ أجل، ولكنني اتصلت بك، في الحقيقة، من مطار لندن.

في الليلة نفسها التي وصلت فيها إلى اليابان، جعل منها فوكودا عشيقته. لكنه لم يأخذها للعيش معه إلا بعد سنتين. وحتى ذلك الحين، عاشت وحيدة، في نزل، في غرفة ضيقة فيها حمام ومطبخ مدمجين، «أصغر من الحجرة المخصصة لخادمتي الفيليبينية في نيوماركت»، ولو أنها لم تسافر كثيراً «تنفيذاً لمهمات يطلبها منها فوكودا» لكان يمكن لها أن تصاب بالجنون من رهاب الأماكن الضيقة والعزلة. لقد كانت عشيقة فوكودا، ولكنها واحدة بين عشيقات عديدات. ولم يُخفِ عنها الياباني قط أنه يضاجع نساء مختلفات. كان يأخذها أحياناً لتقضي الليل معه، ولكن قد تنقضي أسابيع بعد ذلك دون أن يدعوها إلى بيته. كانت علاقاتهما، في تلك المرحلة، هي علاقة الخادمة وسيدها بالضبط. وما هي «المهمات» التي يكلفها بها السيد فوكودا؟ تهريب مخدرات، ألماس، لوحات، أسلحة، أموال؟ في كثير من الأحيان لم تكن تعرف ما الذي تحمله. تأخذ وتجلب ما يعدّه لها هو، في حقائب، أو علب، أو أكياس أو محافظ يدوية، وحتى الآن ـ ولمست خشب المنضدة ـ كانت تجتاز مراكز الجمارك، والحدود، والشرطة دون كثير من المشاكل. وكانت تسافر بهذه الطريقة إلى آسيا وأفريقيا، وقد اكتشفت ما هو الخوف الذعري. ولكنها في الوقت نفسه، لم تعش من قبل قط بمثل

ذلك الزخم والنشاط اللذين يُشعرانها، في كل رحلة، بأن الحياة مغامرة رائعة. «كم هو مختلف العيش هكذا عن العيش في ذلك الليمبو، في ذلك الموت البطيء محاطة بخيول نيوماركت!» وبعد سنتين من العمل معه، ورضا فوكودا عن خدماتها، سمح لها بالترقية: «تستحقين المجيء للعيش معي تحت السقف نفسه».

- سينتهي بكِ المطاف إلى أن تتلقي طعنات، أن تُقتلي، أن تُسجني لسنوات وسنوات في سجن رهيب - قلتُ لها -. هل أنت مجنونة؟ إذا كنت تقولين الحقيقة، فإن ما تفعلينه بلاهة. عندما يمسكون بك وأنتِ تهربين مخدرات أو ما هو أسوأ، أتظنين أن هذا الوغد سيهتم بأمرك؟

- أعرفُ أنه لن يفعل، وقد نبهني هو نفسه إلى ذلك - قاطعتني -. إنه كما ترى، صريح جداً معي على الأقل. إذا ما أُلقي القبض عليكِ يوماً، فأنتِ وشأنك. فأنا لا أعرفكِ ولم أعرفك قط. ستكونين وحدك.

- يبدو واضحاً كم يحبك.

- هو لا يحبني. لا يحبني ولا يحب أحداً. إنه مثلي في هذا الأمر. ولكنه أقوى شخصية وأشد حزماً مني.

كان قد مضى علينا أكثر من ساعة ونحن نجلس هناك، وبدأت بداية الظلام تنتشر. لم أدر ما يمكنني قوله لها. كنت أشعر بالإحباط. فقد كانت تلك هي أول مرة تبدو لي فيها مستسلمة جسداً وروحاً لرجل. أجل، الآن صار الأمر واضحاً جداً: الطفلة الخبيثة لن تكون لك قط أيها الصعلوك.

- لقد صار وجهكَ حزيناً - ابتسمت لي -. أيحزنك ما أرويه لك؟ إنك الشخص الوحيد الذي أستطيع إخباره بهذا. وأنا بحاجة لأن أبوح به لأحد. لكنني ربما أكون قد أسأت إليك. أتسامحني إذا ما أعطيتك قبلة؟

ـ يحزنني أنكِ، لأول مرة في حياتكِ، أحببت شخصاً ولم يكن أنا.

ـ لا، لا، ليس حباً ـ كررت وهي تهز رأسها ـ. الأمر أكثر تعقيداً، إنه أشبه بمرض، لقد قلتُ لك ذلك. إنه يجعلني أشعر بأنني حية، مفيدة، فعالة. ولكن دون أن أكون سعيدة. إنه نوع من الاستحواذ. لا تضحك، لست أمزح، أشعر أحياناً كما لو أن بي مَسّاً من فوكودا.

ـ يخيل إليّ أنك، إذا كنت تخافينه إلى هذا الحد، لن تستطيعي ممارسة الحب معي. وأنا الذي جئت إلى طوكيو لأطلب منك تحديداً أن تأخذيني إلى *شاتو ميغيري*.

كانت جدية جداً بينما هي تروي لي حياتها مع فوكودا، أما الآن، ففتحت عينيها على اتساعهما، وأفلتت قهقهة:

ـ وأية شياطين جعلتك تعرف، أنت القادم للتو إلى طوكيو، ما هو *الشاتو ميغيري*؟

ـ عرفت به من صديقي المترجم. فسالمون يطلق على نفسه اسم «ترجمان *شاتو ميغيري*» ـ أمسكتُ يدها وقبّلتها ـ. أتتجرئين على ذلك أيتها الطفلة الخبيثة؟

نظرت إلى ساعتها واستغرقت في التفكير للحظات، مجرية بعض الحسابات. وفجأة، حسمت أمرها، وطلبت من النادلة أن تستدعي لنا سيارة أجرة. ثم قالت لي:

ـ ليس لدي وقت طويل. لكنني لا أدري ما الذي أشعر به وأنا أراك بهذا الوجه الذي كوجه كلب مضروب. فلنذهب، مع أنني أجازف كثيراً بعملي هذا.

الشاتو ميغيري هو بيت مواعيد، في عمارة متاهية، ممتلئة بممرات وأدراج شبه مظلمة، تفضي إلى حجرات مجهزة بساونا،

وجـاكوزي، وأسـرَّة عليهـا فرشـات مائيـة، ومرايـا علـى الجـدران والسـقف، وأجهـزة مـذياع وتلفـاز، حولهـا أكـوام مـن أشـرطة الفـيديو البورنوغرافـية، بتخـيلات جنسـية ترضـي كـل الأذواق الـتي يمكـن تصورها، مع تفضيل ظاهر للميـول السادومازوشية. وهنـاك أيضـاً، فـي خزانـة زجاجيـة صـغيرة، واقيـات ذكريـة وأعضـاء جنسـية اصـطناعية متنوعـة الأحجـام لهـا زوائـد كـأعراف الديكـة، وقنـازع مـن الـريش، وتيجان مجنحة، إضافة إلى تشكيلة غنية من الأدوات السادومازوشية: سـياط، أقنعـة، أصـفاد وسلاسـل. وكمـا فـي حافلـة الأومنيبـوس، والشوارع، والحديقة، كانت النظافة هنا أيضاً شديدة التدقيق إلى حدّ مرضي. لدى الدخول إلى الحجرة، راودني إحسـاس بـأنني فـي مختبر أو فـي محطـة فضـائية. والحقيقـة أنـني وجـدت صـعوبة فـي فهـم سـالمون توليـدانو الـذي يطلـق تسـمية جنـة عـدن الملـذات علـى هـذه الحجـرات التكنولوجية ***والسكس شوب*** المصغرة.

عنـدما بـدأت بتعريـة كوريكـو، ورأيت ولمسـت بشـرتها الناعمـة، وشممت شذاها ـ على الرغم من جهودي لكبح نفسي ـ تغلب عليّ الغـم الـذي أثقل صـدري مـذ أخبرتني باستسـلامها غير المشـروط لفوكـودا، وانفجرتُ فـي البكـاء. تركتني أبكي لوقت لا بـأس بـه، دون أن تقـول شـيئاً. وعنـدما تمكنـتُ مـن ضـبط نفسـي، تلعثمـتُ بـبعض عبـارات الاعتذار، وشعرت بها تعود لمداعبة شعري.

ـ لم نأتِ إلى هنا لنحزن ـ قالت لي ـ. داعبني بحنـان، وقل لـي إنك تحبني، أيها الأبله.

عندما صرنا عاريين، رأيت أنهـا قـد نحلـت كثيراً بالفعل. كانت أضلاعها بارزة في الصدر والظهر، وندبة بطنها الصغيرة صـارت أطـول. لكن تكويناتها كانت متناسقة كما هي على الدوام، وكان نهداها صـلبين. قبّلتهـا ببطء، ولوقـت طويل، فـي كـل أنحـاء جسـدها ـ بـدا

الشذا الخفيف الذي يعبق من بشرتها كأنه يفوح من داخلها ـ، وأنا أهمس لها بكلمات حب. لم أعد أهتم بأي شيء. حتى لو كانت خاضعة لسحر ذلك الياباني. كان يرعبني، بسبب المهمات التي ورطها فيها، أن تنتهي مثقوبة الأحشاء بالرصاص أو حبيسة سجن أفريقي. لكنني سأحرك السماء والأرض لإنقاذها. لأني، ولماذا إنكار ذلك، أحبها كل يوم أكثر. وسوف أحبها دوماً، حتى لو خانتني مع ألف فوكودا، لأنها أشد النساء عذوبة وجمالاً في الخليقة. إنها ملكتي، أميرتي، معذبتي، كاذبتي، يابانيتي، حبي الوحيد. كانت كوريكو قد غطت وجهها بذراعها دون أن تقول شيئاً، وحتى دون أن تسمعني، مستغرقة تماماً في استمتاعها.

ـ إلى ما يروقني أيها الطفل الطيب ـ أمرتني أخيراً، وفتحت ساقيها وجذبت رأسي نحو عضوها.

رحتُ أقبِّل، أرشف متلذذاً بالشذا الخارج من أعماق بطنها والذي أسعدني كما في الأزمنة القديمة. وللحظات بدت أبدية، نسيتُ فوكودا والألف مغامرة ومغامرة التي روتها لي، وأنا مستغرق في تهيج هادئ ومحموم، أبتلع الرحيق العذب الذي تفرزه أعماقها. وبعد أن أحسست بها تنتشي، امتطيتها، وبصعوبة مرات كثيرة سابقة، أولجت فيها، شاعراً أنها تشكو وتقطب. كنت متهيجاً جداً، لكنني تمكنت من تأخير البقاء فيها غارقاً في نوبة دوار جامحة إلى أن قذفت أخيراً. أبقيتها لوقت طويل ملتحمة بي، أشدها إليّ بقوة. داعبتها، عضضت شعرها، أذنيها المتقنتين، قبّلتها، طلبت منها الصفح لأني لم أتمكن من كبح نفسي في الوقت المناسب.

ـ هناك دواء لعدم الانتهاء سريعاً، ومواصلة الانتصاب لوقت أطول، لساعات ـ قالت لي أخيراً، في أذني، بالصوت اللعوب لأزمنة أخرى ـ أتعرف ما هو؟ لا، ما أدراك أنت بهذه الأشياء، أيها القديس

الصغير. إنه مسحوق يحضرونه من طحن أنياب الفيلة، وقرن الكركدن. لا تضحك، فهذا ليس شعوذة، إنه حقيقة. سأهدي إليك قارورة صغيرة لتأخذها معك كذكرى مني إلى باريس. وأنبهك إلى إنه يساوي ثروة في آسيا. وهكذا ستتذكر كوريكو كلما ضاجعت إحدى الفرنسيات.

رفعت رأسي عن عنقها لأرى وجهها: كانت جميلة جداً وهي على تلك الحال، شاحبة، بأذنين مائلتين إلى الزرقة، وبالفتور الذي يغرقها فيه الحب.

ـ أهذا هو ما تهربينه في رحلاتك إلى آسيا وأفريقيا؟ مقويات جنسية محضرة من أنياب الفيلة وقرون الكركدنات لخداع الغافلين؟ ـ سألتها، مهتزاً بالقهقهة.

ـ إنها أفضل تجارة في العالم، حتى لو كنت لا تصدق ذلك ـ وضحكت، مصابة بعدوى ضحكي ـ. وبسبب حماة البيئة الذين منعوا صيد الأفيال والكركدانات ولستُ أدري أية حيوانات أخرى. صارت هذه الأنياب والقرون تساوي الآن عيناً من الوجه في بلدان هذه المنطقة. وأقوم أيضاً بتهريب أشياء أخرى لا أنوي إطلاعك عليها. ولكن هذه هي تجارة فوكودا الكبرى. والآن، عليّ أن أذهب أيها الطفل الطيب.

ـ لا أفكر في الرجوع إلى باريس ـ نبهتها وأنا أراها عارية، مولية ظهرها، وهي تتجه على رؤوس أصابعها نحو الحمام ـ. سأبقى للعيش في طوكيو، وإذا لم أستطع قتل فوكودا، سأقنع بأن أكون كلبك، مثلما أنت كلبة الوغد.

ـ هَو، هَو ـ نبحت التشيلية الصغيرة.

عند عودتي إلى فندقي، وجدت بانتظاري رسالة من ميتسوكو. تريد اللقاء بي على انفراد، من أجل مسألة مستعجلة. أيمكنني الاتصال بها في مكتبها، غداً باكراً؟

اتصلتُ بها فور استيقاظي، ووسط مجاملات يابانية لا تنتهي، طلبت مني صديقة الترجمان أن نتناول القهوة في كافتريا فندق هيلتون، عند الضحى، لأنها تريد أن تبلغني شيئاً مهماً. وما إن أغلقت الهاتف، حتى رنّ ثانية. وكانت كوريكو هي المتصلة. فقد أخبرت فوكودا بأن صديقاً قديماً من البيرو موجود في طوكيو، وقرر زعيم **الياكوزا** أن يدعوني هذه الليلة، مع الترجمان وخطيبته، لتناول كأس في بيته، وبعد ذلك إلى عشاء ـ استعراض، في أوسع الاستعراضات الموسيقية شعبية في جينزا. هل سمعتُ جيداً؟

ـ وقد قلتُ له فوق ذلك إنني سأرافقك خلال هذه الأيام في بعض الجولات السياحية. ولم يواجهني بأي اعتراض.

ـ يا له من كريم، ويا له من لطيف ـ أجبتُها ساخطاً مما أخبرتني به ـ أنت، تطلبين الإذن من رجل! أكاد لا أعرفك أيتها الطفلة الخبيثة.

ـ إنكَ تجعلني أحمّر خجلاً ـ همست، مضطربة بعض الشيء ـ. ظننت أنك ستبتهج حين تعلم أننا نستطيع اللقاء كل يوم من أيام وجودك في طوكيو.

ـ صرتُ غيوراً. ألم تلحظي ذلك؟ لم أكن أهتم من قبل، لأن عشاقك أو أزواجك لم يكونوا محط اهتمامك أيضاً. أما هذا الياباني، فيحظى باهتمامك. ما كان عليك أن تخبريني بأنه يستطيع أن يفعل بك ما يشاء. هذا الخنجر في القلب سيرافقني حتى القبر.

ضحكت، كما لو أن ما قلته لها كان نكتة.

ـ لا وقت لدي الآن للعبارات المتكلفة، أيها الطفل الطيب. أنا سأخلصك من الغيرة. لقد أعددت لك برنامجاً ملكياً لليوم كله، ولسوف ترى.

طلبتُ منها أن تأتي لتأخذني من كافتريا فندق هيلتون عند منتصف النهار، وذهبتُ إلى موعدي مع ميتسوكو. عندما وصلتُ

وجدتها هناك، تدخن. كانت تبدو عصبية جداً. عادت تطلب مني الاعتذار لتجرئها على الاتصال بي، ولكن ليس لديها، قالت لي، من تتوجه إليه، «لقد صار الوضع صعباً جداً، ولم أعد أدري ما الذي عليّ عمله». وربما يمكنني أنا أن أقدم النصح لها.

ـ أتشيرين إلى علاقتك بسالمون؟ ـ سألتها متوجساً ما سيأتي.

ـ كنت أظن أن علاقتنا ستكون حباً قصيراً ـ قالت مؤكدة، وهي تطلق دخاناً من أنفها وفمها في الوقت نفسه ـ. مغامرة لطيفة، عابرة، من تلك المغامرات التي لا تُلزم أحداً. لكن سالمون لم يفهم الأمر على هذا النحو. إنه يريد أن نتزوج. وأنا لن أعود إلى الزواج أبداً. لقد مررت بزواج فاشل وأعرف ما الذي يعنيه ذلك. أضف إلى ذلك أن أمامي حياة مهنية. الحقيقة أن إلحاحه بدأ يسبب لي الجنون. لا أدري ماذا أفعل كي ينتهي هذا كله دفعة واحدة.

لم يسعدني تأكد شكوكي. لقد شيد الترجمان قلاعاً في الهواء، وسيحصد أشد إحباط في حياته.

ـ بما أنكما صديقان حميمان، وهو يقدرك كثيراً، باختصار... آمل ألا يضايقك هذا. فكرتُ في أنه يمكن لك مساعدتي.

ـ ولكن، بأي طريقة أستطيع المساعدة يا ميتسوكو.

ـ بأن تكلمه. توضح له. فأنا لن أتزوج منه أبداً. وأنا لا أريد ولا أستطيع الاستمرار في هذه العلاقة بالطريقة التي يسعى إليها. الحقيقة أنه يضايقني، يثقل علي. لديّ مسؤوليات كثيرة في الشركة، وهذه المسألة تؤثر على عملي. لقد تكلفت الكثير من الجهد للوصول إلى ما أنا عليه في ميتسوبيشي.

يبدو أن جميع مدخني طوكيو قد اجتمعوا في كافتريا فندق هيلتون. سحب من الدخان ورائحة تبغ قوية كانت تعبق في المكان. وكان يُسمع كلام بالإنكليزية على كل الموائد تقريباً. فقد كان

هناك من الأجانب بقدر ما هناك من اليابانيين.

ـ آسف أشد الأسف يا ميتسوكو، لكنني لن أفعل. فهذه مسألة يجب ألا يتدخل بها أشخاص آخرون، وإنما هي مسألة بينك وبينه. عليك أن تتكلمي إليه بصراحة، وبأسرع ما يمكن. لأن سالمون يحبك جداً، كما لم يُحب في حياته أحداً من قبل. وهو يبني الكثير من الأوهام. ويعتقد أنك تحبينه أيضاً.

أخبرتها بشيء مما كان الترجمان يقوله لي عنها في رسائله. وكيف أن تعرفه عليها بدّل طريقته في التفكير عن الحب منذ تلك التجربة البعيدة، في شبابه البرليني، عندما تخلت عنه خطيبته البولونية وهجرته في أوج الإعدادات للزفاف. لاحظتُ أن ما أقوله لا يثير فيها أية مشاعر على الإطلاق: لا بد أنها ضجرة من الترجمان المسكين.

ـ إنني أفهم تلك الفتاة تماماً ـ علقت ببرود جليدي ـ. فصديقك يمكن له أن يكون... لا أدري كيف أقول ذلك بالإنكليزية... مُرهِقاً، خانقاً. عندما أكون على انفراد معه أحياناً، أشعر أنني في سجن. لا يترك لي أي مجال لأن أكون أنا نفسي، لأتنفس. يريد أن يلمسني طوال الوقت. على الرغم من أنني أوضحت له أن الناس، هنا في اليابان، غير معتادين على مثل هذا الكشف عن المشاعر أمام الملأ.

كانت تتكلم بطريقة دفعتني إلى التفكير، بعد دقائق قليلة، في أن المشكلة أكثر خطورة مما أعتقد: ميتسوكو تشعر بالاشمئزاز من كل تلك القبلات والمداعبات التي يقدم عليها الترجمان على مرأى من الجميع، ومن يدري مقدار مضايقته لها في جلساتهما الحميمة، إلى حدّ وصلت معه إلى كرهه.

ـ أنت تعتقد إذن أنه يجب عليّ التحدث إليه؟

ـ لست أدري يا ميتسوكو، لا تدفعيني إلى نصحك في مسألة

بالغة الخصوصية. الشيء الوحيد الذي أريده هو أن يتعرض صديقي إلى أقل قدر ممكن من الألم. وأنا أظن، إذا كنتِ لا تريدين المواصلة معه، وقررتِ قطع العلاقة، أنه من الأفضل أن تفعلي ذلك بأسرع وقت. لأن التأخير سيجعل الوضع أسوأ.

عندما ودّعتني، وسط اعتذارات ومجاملات أخرى، أحسست بعدم الراحة والاستياء. كنت أفضل لو أنني لم أخض في هذا الحديث مع ميتسوكو، وألا أكون قد علمت بأن صديقي سيُوقَظُ بفظاظة من الحلم الذي هو فيه، ويعاد إلى الواقع القاسي. ولم يكن عليّ، لحسن الحظ، أن أنتظر هناك طويلاً. فقد ظهرت كوريكو في مدخل الكافتريا وذهبت للقائها، سعيداً بخروجي من تلك المغارة الدخانية. كانت تضع قبعة ورداء مطرياً من القماش الفاتح نفسه، مزيناً بمربعات، وبنطالاً قطنياً قاتماً، وكنزة عالية العنق ذات لون أحمر رماني، وخفاً رياضياً. وبدا وجهها أكثر نضارة وشباباً مما كان عليه في اليوم السابق. إنها مراهقة في الأربعين وبضع سنوات. كانت رؤيتها كافية لأن يفارقني الغم والقلق. قرّبت هي نفسها شفتيها كي أقبّلها، وهو ما لم تعتد عمله، إذ كنت أنا من يبحث دوماً عن فمها.

ـ تعال، هيا، سآخذك إلى المعابد السينتويستية، وهي الأجمل في طوكيو. فيها جميعها حيوانات طليقة، خيول، ديوك، حمائم. يعتبرونها مقدسة، متقمصة. وغداً سآخذك إلى معابد بوذية الزن، بحدائقها التي من الرمل والحجر، والتي يمشطها الرهبان ويسوونها ثم يبدلونها كل يوم. إنها بديعة أيضاً.

كان يوم مشاوير مكثفة، نصعد وننزل من حافلات أومنيبوس، ومن المترو المعلق، وأحياناً من سيارات الأجرة. دخلت وخرجت من معابد وباغودات، ومن متحف هائل حيث توجد أعمال خزف بيروية مقلدة لأن المؤسسة لا تعرض قطعاً أثرية أصلية ـ هذا ما تقوله لوحة توضيحية ـ،

احتراماً منها للحظر الذي تفرضه البيرو على إخراج قطع من التراث الأثري إلى خارج البلاد. لكنني لم أُولِ اهتماماً كبيراً إلى ما كنت أراه، لأن حواسي الخمس كانت مركزة على كوريكو التي تمسك بيدي طوال الوقت تقريباً، وتبدو محبة بصورة غير مسبوقة. فهي تمازحني وتتدلّل، وتضحك على سجيتها، وبعينين متلألئتين، كلما همست في أذني مطالبة: «والآن، عبارة متكلفة أخرى أيها الطفل الطيب»، فكنت أرضيها. وعند العصر، جلسنا إلى منضدة معزولة في كافتريا المتحف الأنثروبولوجي لنأكل سندوتشاً. خلعت القبعة ذات المربعات، ورتبت شعرها. كان قصيراً جداً، يكشف عن عنقها المزهو الذي تظهر فيه تلويات الأفعى الخضراء لأحد أوردتها.

ـ يمكن لأي شخص لا يعرفكِ أن يقول إنك مغرمة بي أيتها الطفلة الخبيثة. فمنذ أن عرفتك في ميرافلوريس، وأنت تشيلية، لا أظن أنك كنت بمثل هذه الحالة من المحبة.

ـ ربما أكون قد أغرمتُ بك ولم أنتبه إلى ذلك بعد ـ قالت لي، وهي تمر بيدها على شعري وتقرّب وجهها مني كي أرى مدى السخرية والغطرسة في عينيها ـ ما الذي ستفعله إذا ما قلتُ لك إنني مغرمة بك وليس بإمكاننا الذهاب للعيش معاً؟

ـ سأصاب بسكتة قلبية وسأبقى متخشباً هنا. أأنت مغرمة بي حقاً يا كوريكو؟

ـ إنني سعيدة لأننا نستطيع اللقاء في الأيام التي ستقضيها في طوكيو. لقد كنتُ أعاني هذا القلق: ما الذي عليّ عمله كي أراك كل يوم. لهذا تجرأت على إخبار فوكودا. وها أنتذا ترى أن الأمر جاء مواتياً جداً.

ـ قاطع الطريق الكريم منحك الإذن لتعرّفي مواطنك على مفاتن طوكيو. إنني أكره عشيقك زعيم الياكوزا اللعين. كنت أفضل عدم

التعرف إليه، عدم رؤيته مطلقاً. هذه الليلة سأقضي وقتاً رهيباً برؤيتك معه. أيمكنني أن أطلب منكِ جميلاً؟ لا تلمسيه، لا تقبليه أمامي.

انفجرت كوريكو في الضحك وأطبقت فمي بيدها.

- اصمت أيها الأبله، فهو لن يفعل هذه الأمور أبداً، لا معي ولا مع سواي. ليس هناك ياباني واحد يفعل ذلك. هنا يوجد فرق كبير بين ما يفعله المرء في العلن وما يفعله في السر، والأمور الطبيعية عندنا، تصدمهم هنا. فهو ليس مثلك. فوكودا يعاملني كما لو أنني خادمته. وأحياناً كعاهرته. أما أنت بالمقابل، والحقيقة هي الحقيقة، فعاملتني على الدوام كأميرة.

- أنتِ من تقولين عبارات متكلفة الآن.

أمسكتُ وجهها بين يدي وقبّلتها.

- ما كان عليكِ أيضاً أن تقولي لي إن الياباني يعاملك كعاهرته - همستُ في أذنها - ألا ترين أن هذا أشبه بسلخ جلدي حياً؟

- لم أقل ذلك لك. انسه، امسحه.

فوكودا يعيش في حي بعيد عن مركز المدينة، منطقة سكنية تتجاور فيها أبنية من ستة أو ثمانية طوابق، حديثة جداً؛ وبيوت تقليدية ذات سقوف قرميدية، لها حدائق صغيرة جداً، تبدو كما لو أنها ستُسحق بجاراتها العالية. كان يملك شقة في الطابق السادس من عمارة لها بواب يرتدي زياً خاصاً، رافقني حتى المصعد. وكان هذا المصعد ينفتح داخل البيت، وبعد ردهة صغيرة عارية الجدران، ظهرت قاعة طعام فسيحة، لها نافذة كبيرة تظهر من خلالها ملاءة لامتناهية من الأنوار المتلألئة، تحت سماء بلا نجوم. كانت القاعة مفروشة ببساطة، وعلى جدرانها بضعة أطباق خزفية زرقاء، وهناك على رف بعض المنحوتات البولينيزية، وعلى منضدة مسطحة وطويلة، منحوتات من العاج. ميتسوكو وسالمون كانا هناك، وفي أيديهما كؤوس

شمبانيا. وكانت الطفلة الخبيثة ترتدي فستاناً طويلاً، بلون الخردل، يكشف عن كتفيها، وتضع سلسلة ذهبية حول عنقها. كانت متبرجة كما للذهاب إلى حفلة، وشعرها مربوط بشريطتين. هذه التسريحة التي لم أرها بها من قبل، تُبرز مظهرها الشرقي. وقد كان بإمكاني الآن، أكثر من أي وقت مضى، أن أعتبرها يابانية. قبّلتني على خدي وقالت للسيد فوكودا بالإسبانية:

ـ هذا هو ريكاردو سوموكورثيو، الصديق الذي حدثتك عنه.

قام السيد فوكودا بانحناءة التحية اليابانية المعروفة. وحياني بإسبانية مفهومة بصورة كافية وهو يمد لي يده:

ـ زعيم الياكوزا يرحب بك.

المزحة شوشتني تماماً، ليس لأني لم أكن أتوقعها وحسب ـ فلم أكن أتصور أنه يمكن لكوريكو أن تخبره بما أقوله لها عنه ـ، وإنما لأن السيد فوكودا مازحني ـ أيكون مزاحاً؟ ـ دون أن يبتسم، بالوجه الحيادي نفسه الذي احتفظ به طوال الليل، والذي لا يحمل أي تعبير، كأنه رق. وجه يبدو أشبه بقناع. وعندما تمكنت من القول له: «آه، أنت تتكلم الإسبانية»، نفى ذلك بحركة من رأسه، وابتداء من تلك اللحظة لم يتكلم إلا بإنكليزية بالغة التقطع والصعوبة، في المرات القليلة التي تكلم فيها. قدم لي كأس شمبانيا وأشار لي إلى مقعد، إلى جانب كوريكو.

كان رجلاً قصيراً، أقصر من سالمون توليدانو، وشبه هيكل عظمي، إلى حد أنه يبدو قزماً بالمقارنة مع الطفلة الخبيثة النحيلة والضئيلة. كانت قد تشكلت لدي فكرة مختلفة جداً عنه، مما أشعرني بأنني أمام نصاب. كان يضع نظارة سوداء، ذات عدسات مدورة وإطار معدني، لم يخلعها طوال الليل، مما فاقم من شعور الاستياء الذي يسببه لي شخصه، إذ لم أعرف إذا ما كانت عيناه ـ

وكنت أتصورهما باردتين وقتاليتين ـ تراقبانني أم لا. له شعر رمادي، يلتصق مضغوطاً إلى رأسه، ربما هو مثبت بمادة تثبيت، ومسرّح إلى الخلف على طريقة مغني التانغو الأرجنتينيين في الخمسينيات. وكان يرتدي بدلة وربطة عنق سوداوين تضفيان عليه مظهراً مأتمياً؛ ويمكن له البقاء ثابتاً دون حراك وصامتاً لوقت طويل، ويداه الصغيرتان على ركبتيه، كأنه متحجر. وربما كان أكثر ملامحه اتهامية هو فمه الذي بلا شفتين، والذي يكاد لا يتحرك عندما يتكلم، مثل من يتكلمون من بطونهم. شعرت بالتوتر وعدم الراحة، حتى إنني في تلك الليلة، وخلافاً لعادتي ـ فأنا لا أشرب كثيراً لأن الكحول يصعد إلى رأسي بسرعة ـ أفرطتُ في الشراب. عندما نهض السيد فوكودا واقفاً، مشيراً بهذه الطريقة إلى أنه علينا الانطلاق، كنتُ قد أدخلت إلى جسمي ثلاث كؤوس من الشمبانيا، وبدأت أشعر برأسي يدور. وغير عابئ بحديثه الموجه إلى الترجمان وحده تقريباً، عن التنوعات في المناطق اليابانية التي بدأت تتميز، تساءلت بذهول: «ما الذي في هذا الرجل التافه والعجوز لتتحدث عنه الطفلة الخبيثة بتلك الطريقة؟». ما الذي يقوله لها، وما الذي يفعله بها لتقول عنه إنه إدمانها، مرضها، وإن بها مسّاً منه، ويمكنه أن يفعل بها ما يشاء؟ ولأنني لم أجد جواباً، صرت أشعر بمزيد من الغيرة، ومزيد من الغضب، ومزيد من الاحتقار لنفسي، ورحت ألعن نفسي لاقترافي حماقة المجيء إلى اليابان. مع ذلك، وبعد ثانية واحدة، بينما أنا أنظر إليها بطرف عيني، قلت لنفسي إنني لم أرها مشتهاة كما في هذه الليلة، إلا في تلك المرة الوحيدة، في حفلة الرقص في دار أوبرا باريس.

كانت هناك بانتظارنا سيارتا أجرة عند مدخل البناء. وكان علي أن أذهب وحيداً مع كوريكو في إحداهما، حسب ما أشار، في إيماءة بسيطة آمرة، السيد فوكودا الذي صعد إلى سيارة التكسي

الأخرى مع الترجمان وميتسوكو. وما إن انطلقنا حتى شعرتُ بالطفلة الخبيثة تمسك يدي وتضعها على ساقيها كي ألمسها.

ـ أليس غيوراً جداً ـ قلت وأنا أشير إلى سيارة الأجرة الأخرى التي كانت تتجاوزنا ـ. كيف سمح بأن تأتي وحدك معي؟

تظاهرت هي بعدم الفهم.

ـ لا تبدِ هذا الوجه ـ قالت لي ـ. ألم تعد تحبني إذن؟

ـ أكرهكِ ـ قلتُ لها ـ. لم أشعر قط بمثل هذه الغيرة التي أشعر بها الآن. أهذا القزم، برعم الإنسان هذا، هو حب حياتك الكبير؟

ـ دعك من التفوه بالحماقات، ومن الأفضل أن تقبّلني الآن.

ألقت ذراعيها حول عنقي وقدمت لي فمها، وأحسست بطرف لسانها يتشابك بلساني. تركتني أقبلها طويلاً، وتستجيب هي لقبلاتي بسعادة.

ـ إنني أحبكِ، يا للعنة، أحبك، أحبك ـ قلت متضرعاً في أذنها ـ. تعالي معي أيتها اليابانية الصغيرة، تعالي، أقسم لك إننا سنكون سعيدين.

ـ كن حذراً، لقد وصلنا ـ قالت وهي تبتعد عني، وأخرجت منديل كلينكس من حقيبتها ومسحت فمها ـ. امسح شفتيك، فقد لوثتهما لك بقليل من أحمر الشفاه.

كان المسرح ـ المطعم عبارة عن قاعة موسيقى هائلة، فيها موائد ومناضد صغيرة متدرجة على منصة فسيحة جداً لها شكل مروحة، تحت ثريات ضخمة تلقي أضواء قوية على المكان الفسيح. وكانت المائدة المحجوزة لفوكودا قريبة جداً من منصة المسرح، وتتيح رؤية رائعة. وقد بدأ الاستعراض فور وصولنا تقريباً. وكان استذكاراً لنجاحات برودوي الكبرى، يتضمن فقرات محاكاة ساخرة حيناً، وفقرات إيمائية في حين آخر، ورقص ترافقه طرطقة أحذية، ودمى

تغطـي أجسـاد حشـد مـن الراقصـين. وكانـت هنـاك أيضـاً فقـرات مهـرجين، ومشـعوذين، وبهلوانـات، وأغنيـات بالإنكليزيـة واليابانيـة. ويبدو أن مقدم الاستعراض يعرف لغات كثيرة كما الترجمان، لكنه يتكلمها كلها، على حد قول الترجمان، بطريقة سيئة.

وهنـا أيضـاً تـولى السيد فوكودا، بإيمـاءة آمرة، تحديد أمـاكن جلوسنا. وقد أجلسني مرة أخرى إلى جانب كوريكو. ومـا إن أُطفئت الأنوار ـ المائدة ظلت مضاءة بمصابيح شبه مخفية بين الزهور المنسقة ـ، حتـى أحسسـتُ بقـدم الطفلـة الخبيثـة فـوق قـدمي. نظـرت إليهـا، فرأيتها، فـي أشـد مظهـر طبيعي فـي العـالم، تتحـدث علـى ميتسـوكو بيابانية لا بد أن تكون، بالنظر إلى ما تبذله تلك من جهد لتفهمها، تقريبية مثلما هي فرنسيتها وإنكليزيتها. كانت جميلة جداً فـي هـذه العتمـة الخفـيفة، ببشـرتها المصقولة، والشـاحبة قليـلاً، وكتفـيها المكـورين، وعنقهـا الطويـل، وعينيهـا اللامعـتين اللـتين بلـون العسـل، وشفتيها المحـددتين بـالطلاء. كانت قد خلعت حذاءها كـي تُشعرني بباطن قدمها التي ظلت طوال العشاء تقريباً فوق قدمي، تتحـرك أحيانـاً لتفرك رسغ قدمي وتجعلني أشعر أنها هناك، وأنها مدركة لما تفعله، فـي تحد لمولاها وسيدها. وكان هـذا جامـداً، ينظـر إلى الاسـتعراض أو يتحـدث إلى الترجمـان دون أن يحـرك فمـه تقريبـاً. وقـد توجـه إلـيّ مـرة واحدة، علـى مـا أظـن، ليسـألني بالإنكليزيـة كيـف هـي الأحوال فـي الـبيرو، وإذا مـا كنـت أعـرف أناسـاً مـن الجاليـة اليابانيـة هنـاك، وهـي جالية كبيرة كما يبدو. فأجبته بأنني لم أذهب منذ سنوات طويلة إلى البيرو، وأنني لا أعرف شيئاً يستحق الذكر عما يحدث فـي البلاد التي ولدت فيها. وأنني لم أتعرف على أي ياباني بيرويّ، مع أن هنـاك كثيرين منهم بالفعل، لأن البيرو هي البلد الثاني فـي العـالم، بعد البرازيل، الذي فتح حدوده للهجرة اليابانية في أواخر القرن التاسع عشر.

كانت وجبة العشاء قد طُلبت سلفاً، وراحت الأطباق تتوالى، بلا نهاية؛ وهي أطباق صغيرة حسنة التقديم وعديمة الطعم، من خضار، وبحريات، ولحوم. لم أكد أتذوقها، إلا بما يكفي للمجاملة. لكنني شربت بالمقابل عدة فناجين خزفية صغيرة جداً كان قاطع الطريق يملؤها لنا بشراب الساكي الدافئ والحلو. أحسستُ بالدوار قبل أن ينتهي الجزء الأول من الاستعراض. لكن استيائي الأولي، على الأقل، كان قد تبخر. وعند إضاءة الأنوار، وقد فوجئتُ بها، كانت قدم الطفلة الخبيثة الحافية لا تزال هناك، تلامسني. وفكرت: «إنها تعرف أنني أتألم بصورة رهيبة من الغيرة، وتحاول أن ترضيني». إنني أعرف ذلك: في كل مرة أحاول عدم إظهار ما أشعر به، أعود للنظر إليها، وأقول لنفسي إنني لم أرها قط جميلة ومشتهاة مثلما هي الآن. هذه الأذن الصغيرة، على سبيل المثال، هي أعجوبة هندسية منمنمة، بانحناءاتها الناعمة والانحسار الصغير في الجزء العلوي من شحمتها.

في لحظة من تلك الليلة، وقع حادث صغير بين سالمون وميتسوكو، لا أدري كيف بدأ. فقد نهضت هي فجأة، وانصرفت دون أن تودع أحداً، ودون أن تقدم أي تفسير. فنهض الترجمان قافزاً ولحق بها.

ـ ما الذي جرى؟ ـ سألتُ السيد فوكودا، لكن هذا ظل ينظر إليّ صامتاً، دون أن يقول شيئاً.

ـ إنها لا تحب أن تُلمس أو تُقبّل في مكان عام ـ قالت كوريكو ـ. وصديقك رجل طويل اليد. ولسوف تهجره ميتسوكو في أي لحظة. لقد أخبرتني بذلك.

ـ سالمون سيموت إذا ما تخلت عنه. إنه مغرم بميتسوكو مثل عجل. ويرتعش حباً حتى المئة.

ضحكت الطفلة الخبيثة، بذلك الفم المفتوح ذي الشفتين

الممتلئتين، وشديدتي الحمرة الآن بفعل المكياج:

ـ مغرم مثل عجل! يرتعش حتى المئة! ـ كررت ـ منذ قرون لم أسمع هذه العبارات المضحكة. أما زالوا يقولونها في البيرو أم أن هناك عبارات محلية جديدة عن الوقوع في الحب؟

وتحولت من الإسبانية إلى اليابانية، وراحت تشرح لفوكودا ما الذي تعنيه تلك العبارات. كان يصغي إليها متيبساً ومتأملاً بعمق. وبين وقت وآخر، يتحرك مثل دمية ذات مفاصل، ليتناول كأسه، ويرفعها إلى فمه دون أن ينظر إليها، فيشرب رشفة ويعيدها إلى المنضدة. وبصورة غير متوقعة، رجع الترجمان وميتسوكو بعد قليل. يبدو أنهما تصالحا، فقد كانا يبتسمان ويمسك كل منهما بيد الآخر.

ـ ليس هناك مثل المشاجرات لإبقاء الحب متأججاً ـ قال سالمون بابتسامة رجل مفعم بالحب، وغمز لي بعينه ـ. ولكن، لا بد للرجل من معاقبة المرأة بين حين وآخر، كي لا تركب فوق رأسه.

لدى الخروج، كانت هناك بالانتظار سيارتا أجرة مرة أخرى، وكما جرى عند المجيء، قرر السيد فوكودا، بإيماءة، أن أصعد إلى إحدى السيارتين وحيداً مع كوريكو. وذهب هو مع سالمون وميتسوكو. لقد بدأ الياباني البغيض يبدو لي لطيفاً بهذا الامتياز الذي يمنحني إياه.

ـ دعيني على الأقل آخذ حذاء القدم التي لامستني بها طوال الليل. سأنام معه، لأني لا أستطيع النوم معك. وسأحتفظ به إلى جانب فرشاة الأسنان ماركة غيرلان.

ولكن، لدى وصولنا إلى عمارة السيد فوكودا، وحيال دهشتي، أمسكت كوريكو بيدي؛ وبدل أن تودعني، دعتني للصعود معها وتناول «كأس الختام» في جناحها. وفي المصعد، قبّلتها بجزع. وقلتُ لها وأنا أقبّلها إنني لن أسامحها أبداً على كونها باهرة الجمال في هذه

الليلة بالذات، حين اكتشفتُ أن أذنيها أعجوبتا خلقٍ منمنم. وإنني أعبدهما، وأرغب في قطعهما وتحنيطهما وحملهما عبر العالم في جيب سترتي الأقرب إلى القلب.

ـ واصل، واصل مغازلاتك المتكلفة، أيها المغازل المتكلف ـ وكانت تبدو جذابة، حالمة، متمكنة من نفسها جيداً.

لم يكن فوكودا في القاعة. «سأذهب لأرى إن كان قد وصل»، دمدمت هي بعد أن سكبت لي كأساً من الويسكي مع الثلج. ورجعت بعد هنيهة، ووجهها يتألق بتعبير متهيج:

ـ لم يأت. لقد فزت أيها الطفل الطيب. هذا يعني أنه لن يأتي. سوف يقضي الليل خارجاً.

لم يبدُ عليها الحزن لأن مرضها، إدمانها، قد تخلى عنها. بل على العكس، يبدو أن الخبر قد أسعدها. أوضحت لي أن فوكودا يختفي على هذا النحو، فجأة، بعد عشاء أو بعد الخروج من السينما، دون أن يقول لها شيئاً. وأنه حين يرجع في اليوم التالي، لا يقدم لها أي تفسير.

ـ أتعنين أنه يذهب للنوم مع أخرى؟ أتكون لديه في بيته أجمل امرأة في العالم، ويستطيع هذا الأبله الذهاب لقضاء الليل مع أخرى؟

ـ ليس لدى جميع الرجال ذوق سليم مثلك ـ قالت كوريكو وهي تهوي جالسة على ركبتي، وتطوق عنقي بذراعيها.

وبينما أنا أحتضنها وأداعبها وأقبّل عنقها، كتفيها، أذنيها، كنت أقول لنفسي إنه لا يمكن أن يكون الحظ، أو الآلهة، أو أي شيء آخر، كريماً معي إلى هذا الحد، بحيث يُبعد زعيم **الياكوزا** ويمنحني كل هذه السعادة.

ـ أأنت واثقة من أنه لن يعود؟ ـ سألتها في إحدى اللحظات، في نقزة صحو مفاجئة.

ـ لا، أنا أعرفه، مادام لم يأتِ فهو سيقضي الليل في الخارج. لماذا

تسأل يا ريكارديتو؟ هل أنت خائف؟

ـ لا، ليس خوفاً. إذا ما طلبتِ مني اليوم أن أقتله، فسوف أقتله. لم أشعر يوماً في حياتي بمثل هذه السعادة أيتها اليابانية الصغيرة.

ـ تعال، تعال.

لحقت بها، مقاوماً الدوار. كانت محتويات القاعة تتحرك من حولي، في كاميرا بطيئة. كنت أشعر بسعادة، حتى إنني، لدى المرور بجانب النافذة الكبيرة التي تُرى منها المدينة، فكرت في أنني إذا ما فتحت الزجاج وألقيت نفسي في الفراغ، فسوف أطفو مثل ريشة فوق تلك الملاءة من الأنوار. اجتزت ممراً شبه معتم على جدرانه لوحات إيروتيكية. ثم حجرة يلفها ظلام خفيف، أرضها مغطاة بالسجاد، تعثرت فيها ووقعت على سرير كبير ووثير، عليه وسائد كثيرة. ودون أن أطلب منها، كانت كوريكو قد بدأت بخلع ملابسها. وما إن انتهت، حتى راحت تساعدني في خلع ملابسي.

ـ ماذا تنتظر أيها الأبله؟

ـ هل أنت متأكدة من أنه لن يرجع؟

بدل أن ترد على سؤالي، ألصقت جسدها بجسدي، التحمت بي، وبينما هي تبحث عن فمي، ملأتني بلعابها. لم أشعر من قبل قط بمثل ذلك التهيج، ذلك الانفعال، وتلك السعادة. أكان كل ذلك يحدث حقاً؟ لم تكن الطفلة الخبيثة يوماً بمثل هذا التأجج، هذه الحماسة، ولم تقدم قط على كل هذه المبادرات في الفراش. لقد كانت تتخذ على الدوام موقفاً سلبياً، غير مبال تقريباً، تبدو فيه كمن تستسلم للتقبيل، للمداعبة، للمضاجعة، دون أن تساهم بشيء من جانبها. والآن، هي من تبادر إلى تقبيلي وعضعضتي في كل أنحاء جسمي، وترد على مداعباتي بتسرع وتصميم يثيران استغرابي. «ألا تريدين أن أفعل لك ما يروقك؟»، سألتها مدمدماً. فأجابت: «أنا سأفعل لك أولاً»،

ودفعتني بيد حانية كي أستلقي على ظهري وأفتح ساقي. وقرفصت بين ركبتي، ولأول مرة منذ بدأنا نمارس الحب في تلك الغرفة على السطح في فندق دي سينا، أقدمت على عمل ما توسلت إليها عمله مرات كثيرة، ولم تشأ عمله قط. أحسستُ بأني أتأوه، مثقلاً بلذة لا يمكن تقديرها، راحت تفككني إلى فتات، ذرة فذرة، محولة إياي إلى حسية خالصة، إلى موسيقى، إلى لهب مفرقع. عندئذ، في واحدة من ثواني أو دقائق الغيبوبة الإعجازية تلك، عندما أحسست أن كياني كله مركّز في قطعة اللحم تلك التي تلحسها الطفلة الخبيثة، تقبلها، تمصها، ترشفها، بينما أصابعها تداعب خصيتي، رأيتُ فوكودا.

كان شبه مستتر في الظل، إلى جوار جهاز تلفاز كبير، كما لو أنه حفر نافر من الظلمة في ذلك الركن من حجرة النوم، على بعد مترين أو ثلاثة أمتار على الأكثر عن السرير الذي نمارس أنا وكوريكو الحب عليه. كان يجلس على كرسي أو مقعد صغير، ثابتاً وصامتاً مثل أبي هول، بنظارته السوداء الدائمة كقاطع طريق أفلام، ويداه الاثنتان على فتحة سرواله.

أمسكتُ الطفلة الخبيثة من شعرها، وأجبرتها على إفلات عضوي الذي كان في فمها ـ سمعتها تتأوه متألمة من شد شعرها ـ، وقلت لها في أذنها وأنا مذهول تماماً من المفاجأة، والخوف، والارتباك، بصوت خافت وببلاهة: «ولكن، إنه هنا، فوكودا هنا». وبدل أن تقفز من السرير، وتبدي وجهاً مذعوراً، وتندفع راكضة، وتجن، وتصرخ، ترددت ثانية واحدة؛ بدأت خلالها بالالتفات نحو ذلك الركن. لكنها ما لبثت أن ندمت على ذلك؛ ورأيتها تفعل ما لم يخطر ببالي، وما لم أرغب في أن أراها تفعله: عانقتني بذراعيها، والتصقت بي بكل قوتها كي تثبتني على ذلك الفراش، باحثة عن فمي، ساعية

لعضـي، لتقبيلـي، لتنقـل إلـيّ لعابهـا المختلط بمـنيّ، ولتقـول لـي يائسـة بالتسرع، ومتلهفة:

- وما يعنيك إذا كان أو لم يكن موجوداً أيها الغبي؟ ألا تستمتع، ألا أمنحك اللذة؟ لا تنظر إليه، انسَ وجوده.

شلني الذهول، وفهمت كل شيء: فوكودا لم يفاجئنا معاً، لقد كان هناك بالتواطؤ مع الطفلة الخبيثة، يستمتع بمشهد أعدا له كلاهما مسبقاً. لقد وقعتُ في كمين مدبر. عندئذ بدأت تتضح لي الأمور المفاجئة التي توالى حدوثها. لقد خطط الياباني للأمر وقامت هي بتنفيذه بدقة، مذعنة لأوامره ورغباته. أدركتُ سبب الانفتاح الشديد الذي أبدته كوريكو نحوي خلال هذين اليومين، ولاسيما في هذه الليلة بالذات. لم تفعل ذلك من أجلي، ولا من أجلها، وإنما من أجله هو. من أجل أن يستمتع سيدها. كان قلبي يخفق بشدة كما لو أنه سينفجر، وكنت لا أكاد استطيع التنفس. فارقني الدوار، وأحسستُ بعضوي المترهل، يقطر، يتضاءل، وكأنه يشعر بالخجل. أبعدتها دافعاً إياها بعنف، واعتدلتُ جالساً، بينما تحاول هي منعي من النهوض، صارخة:

- سأقتلك يا بن العاهرة! عليك اللعنة!

لكن فوكودا لم يعد موجوداً الآن في ذلك الركن، ولا في الحجرة كلها؛ وتبدّل الآن مزاج الطفلة الخبيثة، وصارت تشتمني بصوت ووجه شنجهما الغضب:

- ما الذي جرى لك أيها الأبله! لماذا تثير كل هذه الفضيحة! - كانت تضربني على وجهي، على صدري، وأينما استطاعت، بكلتا يديها - لا تكن مضحكاً، لا تكن متخلفاً. ما كنتَ على الدوام ولن تكون إلا إلى مجرد شيطان بائس، ما الذي يمكن انتظاره منك غير هذا أيها الصعلوك.

في تلك الظلمة الخفيفة، وبينما أنا أحاول إبعادها عني، كنت أبحث عن ملابسي على الأرض. لست أدري كيف عثرتُ عليها، ولا كيف ارتديتها وانتعلت حذائي، ولا كم استمر ذلك المشهد المهزلة. كانت كوريكو قد توقفت عن ضربي؛ لكنها ظلت تصرخ بهستيرية، وهي جالسة على السرير، مرفقة صراخها بإجهاشات بكاء وشتائم مهينة:

ـ أكنت تظن أنني سأفعل كل هذا من أجلك أيها الميت من الجوع، أيها الأبله؟ ولكن، من أنت، من تظن نفسك. لابد أنك ستموت لو عرفتَ مدى احتقاري لك، مدى كراهيتي لك، أيها الجبان.

انتهيتُ أخيراً من ارتداء ملابسي، واجتزت ممر اللوحات الإيروتيكية بما يشبه الركض، متمنياً أن يكون فوكودا بانتظاري في القاعة وفي يده مسدس، ومعه حارسان شخصيان مسلحان بهراوى، لأني سأنقض عليه مهما كان الأمر، محاولاً أن أنتزع عن عينيه تلك النظارة الكريهة، وأن أبصق في وجهه، كي يقتلوني بأسرع ما يمكن. لكنني لم أجد أحداً في القاعة أيضاً، ولا في المصعد. وفي الأسفل، عن مدخل البناء، وبينما أنا أرتجف من البرد، كان عليّ أن أنتظر طويلاً مجيء سيارة الأجرة التي طلبها لي البواب ذي الزي.

في غرفتي في الفندق، استلقيت على السرير بملابسي. أحسست بالإنهاك، والألم، والمهانة، ولم أجد الحماسة ولو لخلع ملابسي. ظللتُ ساعات خاوي الذهن، مؤرقاً، أشعر بأنني قذارة إنسانية مضمخة ببراءة بلهاء، بسذاجة حمقاء. وكنتُ أردد طوال الوقت: «الذنب ذنبك يا ريكاردو. كنتَ تعرفُ ذلك. كنت تعرف ما يمكنها الإقدام عليه. فهي لم تحبك قط، وكانت تزدريك على الدوام. ما الذي يبكيك أيها الصعلوك. مم تتذمر، على مَ تتحسر أيها النذل، أيها الأخرق، الأحمق.

هذا هو أنت، كل ما قالته عنك وأكثر. عليك أن تكون سعيداً وأن تقول لنفسك، مثلما يفعل الأنذال، المحدثون، الأذكياء، أنك نلت مرادك. ألم تضاجعها؟ ألم تمص عصفورك؟ ألم تُفرغ في فمها؟ ماذا تريد أكثر، وما شأنك في أن القزم ذاك، زعيم الياكوزا ذاك، كان هناك، ينظر كيف تضاجع عاهرته. ماذا يهمك مهما حدث. من طلب منك الوقوع في حبها؟ أنت المذنب في كل شيء، ولا أحد سواك يا ريكارديتو».

عندما بزغ ضوء النهار، حلقتُ ذقني، واستحممت، وأعددت حقيبتي، واتصلت بشركة الخطوط الجوية اليابانية كي أقدم موعد عودتي إلى باريس، وكان لا بد لي من عمل ذلك عن طريق كوريا. حصلت على مكان في طائرة منتصف النهار إلى سيؤل، وهذا يوفر لي الوقت اللازم بالضبط للوصول إلى مطار ناريتا. اتصلت بالترجمان لأودعه، وأوضحت له أنني مضطر إلى العودة بصورة مستعجلة إلى باريس. لأن هناك عقد عمل جيد عُرض عليّ للتو. أصر هو على مرافقتي بالرغم من بذلي كل ما أستطيع لصرفه عن عزمه.

عندما كنت عند منضدة كونتوار الاستقبال في الفندق، أدفع حسابي، طلبني أحدهم في الهاتف. وما إن سمعت صوت الطفلة الخبيثة تقول «ألو، ألو» حتى أغلقت السماعة. خرجتُ إلى الشارع لأنتظر الترجمان. ركبنا حافلةً راحت تجمع المسافرين من عدة فنادق، بحيث استغرقنا أكثر من ساعة في الوصول إلى ناريتا. وفي الطريق، سألني صديقي عما إذا كنت قد تعرضتُ لمشكلة ما مع كوريكو أو مع فوكودا، فأكدتُ له أن لا، وأن سفري المفاجئ هو بسبب عقد عمل رائع عرضه عليّ السيد تشارنيس بالفاكس. لم يصدق كلامي، لكنه لم يواصل الإلحاح.

وعندئذ تحول إلى ما يخصه، وبدأ يحدثني عن ميتسوكو. فقد

كانت لديه على الدوام حساسية ضد الزواج، وهو يعتبره تنازلاً يقدمه أي كائن حرّ مثله. ولكن، بما إن ميتسوكو تلح كثيراً على أن يتزوجا، ولأنها فتاة طيبة جداً، وقد عاملته أحسن معاملة، فإنه يفكر في التضحية بحريته، ومنحها هذه المتعة والزواج منها. «وفق الطقوس السينتويسية اليابانية، إذا شئت التحديد يا عزيزي».

لم أتجرأ حتى على التلميح إليه بأنه ربما كان يناسبه أن ينتظر قليلاً قبل أن يقدم على مثل هذه الخطوة الانتقالية الكبيرة. وبينما هو يحدثني كنت أشعر بأنني مطعون حتى النخاع وأنا أفكر بمقدار ما سيعانيه عندما تتجرأ ميتسوكو، في أحد الأيام، على القول له إنها تريد قطع العلاقة معه، لأنها لا تحبه، وحتى إنها صارت تمقته.

وفي مطار ناريتا، عندما عانقت الترجمان، بعد سماع النداء على رحلتي إلى سيؤل، أحسست، بعبثية، أن عينيّ تمتلئان بالدموع حين سمعته يقول:

- هل توافق على أن تكون شاهداً على زواجي يا عزيزي؟

- طبعاً يا صاحبي، سيكون شرفاً كبيراً لي.

وصلتُ بعد يومين إلى باريس، متحولاً إلى حطام جسدي ومعنوي. لم أكن قد أغمضت عيني، ولم آكل لقمة واحدة خلال الثماني والأربعين ساعة الأخيرة. لكنني وصلتُ كذلك وأنا مصمم - كنت أجتر هذا القرار طوال الرحلة - على عدم الاستسلام نهائياً، والتغلب على حالة الاكتئاب التي تنخرني. وكنت أعرف الوصفة المناسبة. فذلك يشفى بالعمل وملء وقت الفراغ بأمور تشغلني، وإن لم تكن خلاقة ومفيدة. وبإحساسي بأن إرادتي تجرجر جسدي، توسلتُ إلى السيد تشارنيس أن يجد لي عقود عمل كثيرة، لأني مضطر إلى سداد دَين مهم. وقد حقق لي ذلك بأريحية أحاطني بها دائماً، منذ أن تعرفت إليه. وخلال الشهور التالية لم أكن أبقى في باريس إلا لوقت قصير.

عملت في مؤتمرات ولقاءات من كل نوع، في لندن، وفيينا، وإيطاليا، وفي البلدان الاسكندنافية، ومرتين في أفريقيا، في مدينة الكاب وأبيدجان. وكنت في المدن كلها، بعد انتهاء العمل، أذهب لأتعرق من الجهد في ناد رياضي، بممارسة تمارين المعدة، والركض على الحزام المتحرك، وركوب الدراجة الثابتة، والسباحة أو ممارسة تمارين الإيروبيك. وواصلت إتقان اللغة الروسية، ذاتياً؛ وترجمتي ببطء، كي أشغل نفسي، لقصص إيفان بونين التي كانت أكثر ما أعجبني، بعد قصص تشيخوف. وعندما انتهيتُ من ترجمة ثلاث منها، أرسلتها إلى صديقي ماريو موتشنيك، في إسبانيا. فردّ علي: «إصراري على طباعة أعمال بارعة فقط، تسبب في إفلاس أربع دور نشر. وأنا أسعى الآن، وإن كنت لا تصدق، لإقناع رجل أعمال انتحاري كي يمول لي الخامسة. وفيها سأنشر بونينك، بل إنني سأدفع لك حقوقاً تكفيك لتناول بضعة فناجين من القهوة بالحليب. اعتبر الاتفاق ساري المفعول». أخرجتني هذه النشاطات المتواصلة، شيئاً فشيئاً، من انعدام التوازن العاطفي الذي سببته لي الرحلة إلى طوكيو. ولكنها لم تخلصني من بعض الحزن الحميم، من خيبة أمل عميقة رافقتني لزمن طويل كظلي، وراحت تقرض، مثل حمض، أي حماسة أو اهتمام أبدأ بالشعور به نحو شيء أو أحد. ولليال كثيرة كان يداهمني الكابوس القذر نفسه، فأرى وسط غلالة من الظلال الكثيفة صورة فوكودا النحيل، ثابتاً على مقعده الصغير، بملامح لا تعبر عن شيء، مثل بوذا، وهو يستمني ويقذف مطر منيّ يسقط على الطفلة الخبيثة وعليّ.

بعد حوالي ستة شهور، ولدى عودتي إلى باريس من أحد تلك المؤتمرات، أعطوني في اليونسكو رسالة مبعوثة من ميتسوكو. لقد قتل سالمون نفسه بتناول عبوة حبوب منومة في الشقة المستأجرة التي

كان يسكنها. وقد كان انتحاره مفاجأة لها، لأن ميتسوكو، بعد قليل من مغادرتي طوكيو، تشجعت وتكلمت إليه عملاً بنصيحتي، موضحة له أنهما لا يستطيعان الاستمرار معاً، لأنها تريد تركيز اهتمامها بعمق على عملها؛ وقد تفهمها سالمون جيداً. لقد بدا متفهماً، ولم يُثر أي مشهد صاخب. وظلا على صداقة عن بعد، وهو ما لا مفر منه في انشغالات طوكيو الكثيرة. كانا يلتقيان بين حين وآخر في إحدى صالات الشاي أو في مطعم، ويتبادلان الحديث بكثرة في الهاتف. وقد أخبرها سالمون بأنه، بعد انتهاء عقده مع ميتسوبيشي، لا يفكر في تجديده؛ ويرغب في العودة إلى باريس، «حيث له صديق طيب». ولهذا أذهلها، هي وكل من يعرفونه، قراره بوضع حدّ لحياته. لقد تولت الشركة نفقات الدفن كافة. ولحسن الحظ أن ميتسوكو لم تأتِ في رسالتها على ذكر كوريكو. لم أردّ على الرسالة، ولم أبعث لها تعازيّ. اكتفيتُ بحفظ رسالتها في درج الكوميدينو حيث أحتفظ بدمية جندي الخيالة الذي أهداه إليّ الترجمان يوم سفره إلى طوكيو، وفرشاة الأسنان ماركة غيرلان.

٧. الطفل الذي بلا صوت

إلى أن جاء سيمون وإيلينا غرافوسكي للعيش في عمارة **الآرت ديكو** في شارع جوزيف غرانيه، وبالرغم من كل السنوات التي أمضيتها هناك، لم أُقم علاقة صداقة مع أحد من جيراني. ظننتُ في أحد الأوقات أني توصلت إلى أن أكون صديقاً لمسيو دورتوا، الموظف في سكك الحديد الفرنسية، والمتزوج من امرأة ذات شعر أشقر ومظهر متجهم، معلمة مدرسة متقاعدة. كان يعيش في الشقة المقابلة، وكنا نلتقي على بسطة السلم، أو على السلم، أو بهو العمارة، ونتبادل إيماءات التحية وعبارة صباح الخير. ومع مرور السنوات تحولنا إلى المصافحة باليد، وتبادل التعليقات حول حالة الطقس، وهو قلق الفرنسيين الدائم. وبسبب هذه المحادثات العابرة، اعتقدتُ أننا صرنا أصدقاء، لكنني اكتشفت غير ذلك في إحدى الليالي، عندما رجعتُ إلى بيتي بعد حفلة موسيقية لفكتوريا دي لوس أنخيليس في مسرح الشانزليزيه، تنبهتُ إلى أنني نسيت المفتاح في الشقة. ولم يكن هناك، في مثل تلك الساعة، فاتح أقفال يمكن له مساعدتي. وقفت بأفضل طريقة ممكنة على بسطة الدرج، بانتظار الخامسة صباحاً، وهي الساعة التي يخرج بها جاري الدقيق في مواعيده متوجهاً إلى عمله. وتوقعتُ أنه عندما يجدني هناك، سيُدخلني إلى بيته ريثما يتقدم النهار. ولكن، حين ظهر المسيو دورتوا، في الخامسة صباحاً، وشرحتُ له سبب وجودي هناك بعظام مطحونة من السهر، اكتفى بالإشفاق عليَّ، والنظر إلى ساعته لينبهني:

ـ سيكون عليك أن تنتظر ثلاث أو أربع ساعات أخرى، إلى أن

يفتح أحد مصلحي الأقفال محله، *mon pauvre ami* [***يا صديقي المسكين***].

طمأن ضميره بهذا القول، وانصرف. أما الجيران الآخرون في العمارة، فكنت ألتقي بهم أحياناً على الأدراج وأنسى وجوههم فوراً، وتنخسف أسماؤهم بعد قليل من تعرفي إليهم. ولكن، عندما جاء الزوجان غرافوسكي ومعهما جيلال، ابنهما بالتبني ذو التسع سنوات، إلى العمارة بعد أن ذهب آل دورتوا للإقامة في دُردني، اختلفت الأمور. كان سيمون، وهو فيزيائي بلجيكي، يعمل باحثاً في معهد باستور، أما زوجته إيلينا، وهي فنزويلية، فكانت طبيبة أطفال في مستشفى كوشان. وكانا شابين، لطيفين، منفتحين، فضوليين، مثقفين، ومنذ اليوم الذي تعرّفتُ فيه عليهما، في ذروة انتقالهما، وعرضت عليهما المساعدة وتقديم معلومات لهما عن الحي، صرنا أصدقاء. نتناول القهوة معاً بعد العشاء، ونتبادل استعارة الكتب والمجلات، ونذهب أحياناً إلى سينما لاباغود القريبة، أو نأخذ جيلال إلى السيرك، وإلى اللوفر ومتاحف أخرى في باريس.

كان سيمون يقارب الأربعين، بالرغم من أن لحيته الكثيفة المائلة إلى الحمرة، وكرشه البارز يجعلانه يبدو أكبر بعض الشيء. يتجول مرتدياً ملابسه كيفما اتفق، وبسترة لها جيوب كثيرة منتفخة بدفاتر صغيرة وأوراق، وحقيبة كتف مترعة بالكتب. يضع نظارات ضعف بصر، كثيراً ما ينظفها بربطة عنقه المجعدة. إنه التجسيد الكامل للعالِم المهمل والساهي. أما إيلينا بالمقابل، فهي أصغر سناً بقليل، جذابة ومتأنقة، لا أتذكر أني رأيتها يوماً متعكرة المزاج. فكل شيء يبث فيها الحماسة إلى الحياة: عملها في مستشفى كوشان، ومرضاها الصغار الذين تروي عنهم نوادر مسلية، وكذلك المقال الذي قرأته للتو في ***الليموند*** أو في ***الاكسبريس***، وتهيئ نفسها من أجل

الذهاب إلى السينما أو للعشاء في مطعم فيتنامي يوم السبت القادم كما لو أنها تتهيأ لحضور توزيع جوائز الأوسكار. كانت قصيرة، ضئيلة، معبرة، ترشح لطفاً من كل مسامات جسمها. وكانا يتبادلان الحديث في ما بينهما بالفرنسية، لكنهما يتكلمان معي بالإسبانية التي يتقنها سيمون تماماً.

جيلال ولد في فيتنام، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يعرفانه عنه. وقد تبنياه عندما كان عمره أربع أو خمس سنوات ـ ليس لديهما معرفة مؤكدة حتى عن عمره ـ وجرى التبني من خلال جمعية كاريتاس، وبعد إجراءات ومعاملات كافكاوية، كان سيمون يؤسس عليها، في مناجيات باسمة، نظريته عن تفكك الإنسانية المحتوم بسبب الغنغرينة البيروقراطية. وقد أطلقا عليه اسم جيلال تيمناً بسلف بولوني لسيمون، كان شخصاً أسطورياً، حسب قول جاري، جرى قطع رأسه في روسيا ما قبل الثورة، بعد أن قُبض عليه بالجرم المشهود في عملية زنا، ومع زوجة القيصر نفسها. وفضلاً عن كون ذلك السلف رجل مضاجعات ملكية، إلا أنه كان لاهوتياً قبالياً أيضاً، وصوفياً، ومهرباً، ومزيف نقود، ولاعب شطرنج. وقد كان الطفل المتبنى أبكم. ولم يكن خرسه بسبب قصور عضوي ـ فحباله الصوتية سليمة ـ وإنما بسبب صدمة في الطفولة، ربما عملية قصف أو مشهد رهيب في حرب فيتنام، حوّله إلى يتيم. وقد فحصه اختصاصيون واتفقوا جميعهم على أنه سيستعيد، مع مرور الوقت، القدرة على التكلم، وأنه ليس هناك ما يستدعي، في الوقت الراهن، فرض مزيد من العلاج عليه. كانت جلسات العلاج تعذبه، ويبدو أنها تعزز، في روحه المتضررة، إرادة التمسك بالصمت. كان قد أمضى شهراً في مدرسة للصم والبكم، لكنهم أخرجوه من هناك، لأن الأساتذة أنفسهم نصحوا أبويه بإرساله إلى مدرسة عادية. فجيلال لم يكن أصم، بل كان

مرهف السمع والموسيقى تسليه؛ يتابع إيقاعها بقدمه وبتحريك يديه ورأسه. وكانت إيلينا وسيمون يتوجهان إليه بصوت عالٍ، ويرد هو عليهما بإشارات وإيماءات معبرة، وأحياناً بالكتابة على لوح صغير يحمله معلقاً في عنقه.

كان نحيلاً وضعيف البنية بعض الشيء، ليس لأنه يأكل دون شهية. فقد كان شهيته ممتازة، وعندما كنت أظهر في بيتهم ومعي علبة شوكولاته أو قالب حلوى، تلمع عيناه ويلتهم تلك الحلويات مبدياً مظاهر السعادة. لكنه، باستثناء مناسبات قليلة، كان طفلاً منطوياً على نفسه، يعطي الانطباع بأنه غارق في سهو يبعده عن الواقع المحيط به. يمكن له أن يظل لوقت طويل ساهم النظرات، منغلقاً في عالمه الخاص، كما لو أن كل ما يحيط به قد تلاشى.

لم يكن شديد الحنان، بل كان يوحي بأن حركات التدليل تثير اشمئزازه، وأن خضوعه لها يكون استسلاماً أكثر منه سعادة. وكانت هيئته تتضح بشيء من الرقة والهشاشة. لم يكن لدى الزوجين غرافوسكي جهاز تلفاز ـ فباريسيو الطبقة المثقفة جميعهم في ذلك الحين، كانوا يرون أنه يجب عدم إدخال التلفزيون إلى بيوتهم، لأنه جهاز مضاد للثقافة ـ لكن جيلال لم يكن يشاطرهم هذه الأحكام المسبقة، وكان يطلب من أبويه أن يشتريا جهاز تلفاز، مثل أُسر زملائه في المدرسة. وقد اقترحتُ عليهما، إذا كانا يصران على عدم إدخال ذلك الشيء المفقر للحساسية إلى بيتهما، أن يأتي جيلال بين حين وآخر إلى بيتي ليشاهد مباراة بكرة القدم أو برنامجاً للأطفال. وافقا على اقتراحي، ومنذ ذلك الحين، صار جيلال يجتاز بسطة السلم، ويدخل إلى بيتي ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع، بعد إنجاز واجباته المدرسية، ليشاهد برامج يقترح عليه أبواه أو أنا مشاهدتها. وخلال هذه الساعة التي يقضيها في غرفة الجلوس والطعام في بيتي، بعينين معلقتين

بالشاشة الصغيرة، يشاهد رسوماً متحركة، أو برنامج مسابقات أو رياضة، كان يبدو متحجراً. وكانت حركاته وملامحه تكشف عن انبهاره الكامل بالصور. وفي بعض الأحيان، بعد انتهاء البرنامج، كان يبقى معي لبعض الوقت، وكنا نتبادل الحديث. هذا يعني أنه كان يوجه إليّ أسئلة حول كل الأمور التي يمكن تصورها، وأنا أردّ عليه، أو أقرأ له قصيدة أو حكاية من كتاب قراءته المدرسي أو من مكتبتي. وقد توصلتُ إلى محبته، لكنني كنت أحاول عدم إظهار تلك المشاعر بكثرة، لأن إيلينا نبهتني: «عليك أن تعامله كطفل *طبيعي*. وليس باعتباره ضحية أو عاجزاً، لأن ذلك سيُلحق به ضرراً كبيراً». وعندما لا أكون في اليونسكو، ويكون لدي عقد عمل خارج باريس، كنت أترك مفتاح شقتي للزوجين غرافوسكي كي لا تضيع على جيلال برامجه التي يشاهدها.

لدى عودتي من إحدى رحلات العمل تلك، في بروكسل، أراني جيلال رسالة على لوحه الصغير: «عندما كنتَ مسافراً، اتصلت بك الطفلة الخبيثة». كانت الجملة مكتوبة بالفرنسية، لكن كلمتي *الطفلة الخبيثة* كانتا بالإسبانية.

كانت تلك هي المرة الرابعة التي تتصل بي، خلال السنتين اللتين انقضتا على تلك الحادثة في اليابان. المرة الأولى كانت بعد ثلاثة أو أربعة شهور من مغادرتي المتعجلة لطوكيو، عندما كنت لا أزال أجاهد لأستعيد توازني من تلك التجربة التي خلّفت في ذاكرتي ندبة مازالت تنز قيحاً في بعض الأحيان. كنت أقوم بالبحث عن معلومة في مكتبة اليونسكو، وحوّلت لي أمينة المكتبة مكالمة من قاعة المترجمين. وقبل أن أقول «ألو» تعرفت على صوتها:

ـ أمازلتَ غاضباً مني أيها الطفل الطيب؟

قطعتُ الاتصال فوراً وأنا أشعر بأن يدي ترتعش.

ـ أهي أخبار سيئة؟ ـ سألتني أمينة المكتبة، وهي جورجية اعتدنا التكلم معها بالروسية، وأضافت: ـ يا للشحوب الذي أصابك.

اضطررتُ إلى الانزواء في أحد حمامات اليونسكو لأتقيأ. وظللتُ طوال اليوم مشوشاً من تلك المكالمة. لكنني كنت قد اتخذت القرار بعدم العودة إلى لقاء الطفلة الخبيثة أو التكلم معها، ولسوف أنجز قراري. بهذه الطريقة وحدها سأشفى من الثِقل الذي يكبل حياتي منذ ذلك اليوم الذي أردت فيه مدّ يد المساعدة لصديقي بول، فذهبتُ إلى مطار أورلي لاستقبال الفتيات الثلاث المتطلعات إلى أن يكن فدائيات حرب عصابات. وكنت قد توصلت إلى نسيانها بصورة وسطية. فبانغماسي في عملي، وفي الواجبات التي يفرضها عليّ ـ يتقدمها على الدوام انهماكي في إتقان اللغة الروسية ـ، كانت تنقضي شهور أحياناً دون أن أتذكرها. ولكن شيئاً ما يستحضرها، فجأة، إلى ذاكرتي، فيكون ذلك كما لو أن دودة وحيدة تستقر في أحشائي وتبدأ بالتهام حماستي وطاقاتي. فأسقط في القنوط، ولا تعود هناك طريقة مجدية لأنتزع من رأسي صورة كوريكو، وهي تثقل علي بمداعبات نارية لم تُظهرها نحوي من قبل، كي ترضي عشيقها الياباني الذي كان يراقبنا، ويستمني، في العتمة.

اتصالها الثاني فاجأني في فندق ساشير في فيينا، أثناء المغامرة الغرامية الوحيدة التي قمت بها خلال هاتين السنتين، مع زميلة عمل في مؤتمر لهيئة الطاقة الذرية. فعدم شهيتي الجنسية كانت مطلقة منذ حادثة طوكيو، حتى بلغ بي الأمر حدّ التساؤل عما إذا لم أكن قد أصبتُ بالعجز. كنت شبه معتاد على العيش دون جنس، عندما اقترحت عليّ أستريد، وهي مترجمة دنماركية، وفي اليوم نفسه الذي تعارفنا فيه، بلهجة مثيرة للذعر بتلقائيتها: «إذا أنت شئت، يمكننا أن نلتقي هذه الليلة». كانت طويلة القامة، ذات شعر مائل إلى الحمرة،

وبنية رياضية، وبلا تعقيدات، لها عينان زرقاوان تبدوان مائعتين. ذهبنا لتناول عشاء مؤلفاً من وجبة **تافيلسبتز** مع بيرة في المقهى المركزي، في قصر فيرستيل الذي يستند إلى أعمدة مسجد تركي، وله سقف مقبب، ومناضده من مرمر مشوب بالحمرة. ثم ذهبنا بعد ذلك، دون حاجة إلى توافق مسبق، للنوم في فندق ساشير الفاخر، حيث كنا نقيم كلانا، لأن الفندق يقدم حسماً مهماً للمشاركين في المؤتمر. كانت لا تزال امرأة جذابة، بالرغم من أنها في سن بدأت تترك بعض الآثار على جسدها شديد البياض. تمارس الحب دون أن تتراجع الابتسامة عن وجهها، حتى في لحظة النشوة. استمتعتُ، واستمتعت هي أيضاً، ولكن بدا لي أن هذه الطريقة بممارسة الحب، الصحية جداً، هي أقرب إلى الرياضة منها إلى ما أسماه سالمون توليدانو المتوفى في إحدى رسائله «متعة الغدد التناسلية المضطربة والشهوانية». وفي المرة الأخيرة التي نمنا فيها معاً، رن الهاتف على الكوميدينو الذي بجانبي في الوقت الذي انتهينا فيه من بلهوانياتنا، وبدأت أستريد تروي مأثرة ابنة لها، في كوبنهاجن، تحولت من راقصة باليه إلى لاعبة أكروبات في سيرك. فتناولتُ سماعة الهاتف، وقلت «ألو؟»، وسمعت صوت الهريرة الحانية:

ـ هل ستغلق الهاتف في وجهي مرة أخرى أيها الشويعر؟

استبقيتُ الجهاز في يدي لبضع ثوان، بينما كنت ألعن في ذهني اليونسكو التي لا بد أنها أعطتها رقم هاتفي في فيينا. لكنني قطعت الاتصال عندما بدأت تقول لي، بعد صمت قصير: «حسن، على الأقل في هذه المرة لم...».

ـ أهي قصة حب قديم؟ ـ خمنت أستريد، وأضافت ـ: سأذهب إلى الحمام كي تتكلم براحتك؟

لا، لا، إنها قصة منتهية تماماً. ومنذ تلك الليلة لم أعد إلى إقامة

أي علاقة جنسية. والحقيقة أن الموضوع لم يعد يستثير اهتمامي بالمطلق. ففي السابعة والخمسين من عمري توصلت إلى اليقين بأنه يمكن للرجل أن يعيش حياة عادية تماماً دون ممارسة الحب. لأن حياتي كانت عادية جداً، وإن تكن خاوية. كنت أشتغل كثيراً، وأقوم بعملي على أحسن وجه، كي أملأ الوقت وأتقاضى راتباً، ليس لأنني أهتم بذلك ـ فهذا يحدث لي في أحيان نادرة ـ، وحتى دراستي للغة الروسية، وترجمتي اللامتناهية لقصص إيفان بونين التي كنت أفككها وأعيد تركيبها، كانت كلها أشغال ميكانيكية للنفس، لا تبدو إلا بين حين وآخر مسلية. بل إن السينما، والحفلات الموسيقية، والمطالعة، والأسطوانات، صارت وسائل لشغل الوقت أكثر منها نشاطات تبعث فيَّ الحماسة، مثلما كانت في السابق. ولهذا السبب أيضاً كنت أشعر بالحقد على كوريكو. فبسببها انطفأت لدي الأوهام التي تجعل العيش شيئاً أكثر من مجرد مجموعة أعمال روتينية. وصرت في بعض اللحظات أشعر بأنني عجوز.

ربما بسبب هذه الحالة المعنوية، كان مجيء إيلينا وسيمون وجيلال إلى العمارة في شارع جوزيف غرانيه حدثاً صادراً عن العناية الإلهية. صداقة جيراني حقنت شيئاً من الإنسانية والعاطفة في حياتي النازفة. وكانت مكالمة الطفلة الخبيثة الثالثة إلى بيتي في باريس، بعد سنة على الأقل من مكالمة فيينا.

كان الوقت فجراً، حوالي الرابعة أو الخامسة صباحاً، وقد أخرجني رنين الهاتف من أحلامي مذعوراً. لقد رنّ مرات عديدة إلى أن فتحت عيني، أخيراً، وبحثت عن السماعة متلمساً:

ـ لا تقطع المكالمة ـ كان يختلط في صوتها التوسل والغضب ـ. إنني بحاجة إلى التحدث إليك يا ريكاردو.

قطعتُ المكالمة، ولم أعد قادراً، بالطبع، على إغماض عيني

طوال ما تبقى من الليل. ظللتُ مغموماً، أشعر بالاستياء، إلى أن رأيت طلوع الفجر الذي بلون جرذ في سماء باريس من خلال كوة السقف التي بلا ستائر في حجرة نومي. لماذا تصرّ على الاتصال بي بين وقت وآخر؟ لأنني لا بد أن أكون أحد الأشياء القليلة الثابتة في حياتها الزاخرة؛ فالأحمق الوفي والعاشق موجود دائماً، ينتظر المكالمة ليجعل سيدته تشعر أنها مازالت، ما لم تعد عليه دون شك: شابة، جميلة، محبوبة، ومشتهاة. أم أنها بحاجة ماسة إلى شيء مني؟ ليس هذا مستحيلاً. ربما تكون قد ظهرت، فجأة، في حياتها فجوة ما، ويمكن للصعلوك أن يملأها. وبطبعها الجليدي هذا، لا تتردد في البحث عني، موقنة من أنه لا وجود لإهانة، لألم، إلا ويمكنها محوه خلال دقيقتين من الحديث، بسلطتها غير المتناهية على مشاعري. ولأنني أعرفها، فقد كنت واثقاً من أنه لا يمكن لها أن تسمح بليّ ذراعها؛ سوف تواصل الإلحاح، بعد كل عدد من الشهور، من السنوات. لا، إنكِ مخطئة هذه المرة. فلن أعود إلى الرد على الهاتف أيتها البيروية.

وها قد اتصلت الآن للمرة الرابعة. من أين اتصلت؟ سألتُ إيلينا غرافوسكي؛ لكنها أجابتني، وهذا ما فاجأني، بأنها ليست هي من ردّت على تلك المكالمة أو أي مكالمة أخرى خلال سفري إلى بروكسل.

- لا بد أن يكون سيمون من ردّ عليها إذاً. ألم يخبركِ شيئاً؟

- إنه لا يضع قدمه في شقتك أبداً، فهو يأتي من المعهد أثناء تناول جيلال العشاء.

ولكن، أيعني هذا أن جيلال هو الذي *تكلم* مع الطفلة الخبيثة؟ شحب لون إيلينا قليلاً.

ـ لا تسأله ـ قالت لي، خافضة صوتها. كان وجهها أبيض كالورق ـ لا تشر له بأدنى تلميح إلى هذه الرسالة التي أوصلها إليك.

أيكون ممكناً أن جيلال قد *تكلم* مع كوريكو؟ أيكون ممكناً أن الطفل يكسر بكمه عندما لا يكون أبواه قريبين منه، ولا يستطيعان رؤيته ولا سماعه؟

ـ يجب ألا نفكر في هذا الأمر، ولا نتحدث فيه ـ كررت إيلينا وهي تبذل الجهد لاسترداد صوتها والظهور بحالة طبيعية ـ ما يجب أن يحدث، سيحدث. في وقته المناسب. إذا ما حاولنا إجباره *سنُفسد* كل شيء. لقد كنت أعرف طوال الوقت أن ذلك سيحدث، ولسوف يحدث. فلنغير الموضوع يا ريكاردو. ما هو شأن هذه الطفلة الخبيثة؟ من هي؟ من الأفضل أن تحدثني عنها.

كنا نتناول القهوة في بيتها، بعد العشاء، وأصرت على الحديث كي لا تلفت اهتمام سيمون الذي كان في مكتبه، في الغرفة المجاورة، يراجع تقريراً عليه أن يقدمه في اليوم التالي أمام حلقة بحثية. وكان جيلال قد نام منذ قليل.

ـ إنها قصة قديمة ـ أجبتها ـ لم أروها لأحد قط. لكنني أظن أني سأرويها لك يا إيلينا. كي تنسي ما حدث مع جيلال.

ورويتها لها. من البداية حتى النهاية، منذ أيام الطفولة البعيدة، عندما جاءت لوكي وليلي، التشيليتان المزيفتان، وهيج مجيئهما هدوء شوارع ميرافلوريس، حتى ليلة الحب المشبوب تلك في طوكيو ـ أجمل ليلة حب في حياتي ـ، والتي انقطعت بصورة مفاجئة برؤية السيد فوكودا، في ظلمة تلك الحجرة، يراقب المشهد من وراء نظارته السوداء، ويداه على فتحة بنطاله. لا أدري كم من الوقت ظللت أتحدث. ولا أدري في أي لحظة ظهر سيمون وجلس إلى جانب إيلينا، وراح يستمع مثلها، بصمت واهتمام. ولا أدري في أي لحظة طفرت الدموع من عينيّ، وصمتُ خجلاً من هذا الانفعال العاطفي. تأخرتُ وقتاً لا بأس به في استعادة سكينتي. وبينما أنا أتلعثم ببعض

الاعتذارات، رأيت سيمون ينهض واقفاً ويعود بعد قليل حاملاً كؤوساً وزجاجة نبيذ.

ـ هذا هو الشيء الوحيد الذي لدي، إنه نبيذ، وهو فوق ذلك نبيذ بيجوليه، من النوع الرخيص جداً ـ قال معتذراً وهو يربت على كتفي ـ. أظن أن ما يليق بمثل هذه اللحظة هو شراب أكثر نبلاً.

ـ ويسكي، فودكا، روم، أو كونياك، بالطبع! ـ قالت إيلينا ـ. هذا البيت كارثة. لا نملك أبداً ما يتوجب امتلاكه. إننا مضيفان يرثى لنا يا ريكاردو.

ـ لقد أفسدتُ عليك تقريرك الذي ستقدمه في الغد، بفقرتي الاستعراضية هذه، يا سيمون.

ـ إنها أكثر تشويقاً بكثير من تقريري ـ أكد هو ـ. كما أن هذا اللقب ينطبق عليك كانطباق القفاز على اليد. ليس بالمعنى الاستخفافي، وإنما بالمعنى الحرفي. فهذا هو أنت، يا عجوزي العزيز، إنك طفل طيب، وإن لم يرق لك ذلك.

ـ أتعرف أنها قصة حب رائعة؟ ـ هتفت إيلينا، ناظرة إليّ بذهول ـ. لأنها هكذا في العمق. قصة حب رائعة. وهذا البلجيكي الحزين لم يحبني هكذا قط. من مثلها يا فتى.

ـ أرغب في التعرف على هذه الماتا هاري ـ قال سيمون.

ـ عليك أن تمر قبل ذلك على جثتي ـ قالت له إيلينا متوعدة وهي تشد لحيته، ثم قالت لي: ـ ألديك صور لها؟ أيمكنك أن ترينا إياها؟

ـ ليست لدي أي صورة لها. وحسب ما أذكر، نحن لم نلتقط ولو صورة واحدة معاً.

ـ عندما تتصل بك في المرة القادمة، أرجوك أن تردّ على هذا الهاتف ـ قالت إيلينا ـ. لا يمكن لهذه القصة أن تنتهي على هذا النحو، بهاتف يرن ويرن، كما في أسوأ أفلام هيتشكوك.

ـ وفوق ذلك ـ أخفض سيمون صوته ـ، عليك أن تسألها إذا ما كان جيلال قد ***تكلم*** معها.

ـ إنني أموت خجلاً ـ اعتذرتُ للمرة الثانية ـ. أعني البكاء وكل هذا المشهد.

ـ أنت لم تنتبه، لكن إيلينا سكبت بعض الدموع أيضاً ـ قال سيمون ـ. وحتى أنا كان يمكن لي أن أجاريكما في البكاء لو لم أكن بلجيكياً. أسلافي اليهود يجعلونني ميالاً إلى البكاء. ولكن، الطبع البلجيكي تغلب. فالبلجيكي لا يمكن له أن يسقط في انفعالات أمريكيين جنوبيين تروبيكاليين.

ـ نخب الطفلة الخبيثة، نخب هذه المرأة الرائعة ـ رفعت إيلينا كأسها ـ أية حياة مملة عشتها أنا، أيها الرب المقدس!

شربنا زجاجة النبيذ كلها، ومع الضحك والمزاح، أحسستُ بالتحسن. وخلال الأيام والأسابيع التالية، لم يشر صديقاي غرافوسكي بأدنى إشارة إلى ما رويته لهما، كي يجنباني الشعور بالارتباك. وفي أثناء ذلك، اتخذتُ القرار فعلاً، بالرد على البيروية إذا ما عادت للاتصال بي. كي تخبرني إذا ما كانت، في اتصالها السابق، قد ***تكلمت*** مع جيلال. أمن أجل هذا فقط؟ ليس من أجل هذا فقط. فمنذ أن اعترفتُ لإيلينا غرافوسكي بغرامياتي، كما لو أن مشاطرة أحدهم بهذه القصة ينظفني من كل شحنة الحقد، والغيرة، والمذلة، والتأثر التي أجرجرها، بدأتُ أنتظر تلك المكالمة متلهفاً، وخائفاً ألا تحدث بسبب صدي لها طوال سنتين. كنت أخمد شعوري بالذنب بالقول لنفسي إن ذلك لن يشكل بأي حال ارتداداً من جانبي. فسوف أكلمها كصديقة بعيدة، وسيكون فتوري هو أكبر دليل على أني قد تحررت منها حقاً.

وقد كان للانتظار تأثير جيد على حالتي المعنوية. فبين عقد عمل

وآخر في اليونسكو أو خارج باريس، كنت أرجع إلى ترجمة قصص إيفان بونين، ثم قمت بمراجعتها لآخر مرة، وكتبت لها مقدمة قصيرة قبل أن أرسل المخطوطة إلى صديقي ماريو موتشنيك الذي ردّ عليّ: «أخيراً أنجزتها. كنت أخشى أن يصلني تصلب الشرايين أو خرف الشيخوخة قبل أن يصلني منك بونين.» وعندما أكون في البيت خلال الساعة التي يشاهد فيها جيلال برنامجه التلفزيوني، كنت أقرأ له قصصاً. القصص التي ترجمتها لم ترقه كثيراً، وكان استماعه إليها بدافع التهذب أكثر من الاهتمام. وبالمقابل، كانت تفتنه روايات جول فيرن. فبإيقاع فصلين في اليوم، قرأتُ له عدة روايات خلال ذلك الخريف. والرواية التي أعجبته أكثر من سواها ـ أحداثها تجعله يقفز من السعادة ـ كانت ***حول العالم في ثمانين يوماً***. مع أنه افتتن كذلك بـ ***ميخائيل ستروغوف، مراسل القيصر***. وعملاً بوصية إيلينا، لم أسأله قط عن تلك المكالمة التي لا يمكن لأحد سواه أن يكون قد تلقاها، بالرغم من أن الفضول كان ينهشني. وخلال الأسابيع والشهور التالية لتلك الرسالة التي كتبها لي على سبورته الصغيرة، لم ألمح أدنى إشارة تنبئ بأن جيلال قادر على الكلام.

جاءت المكالمة بعد شهرين ونصف من سابقتها. كنتُ تحت الدوش في الحمام، أتهيأ للذهاب إلى اليونسكو، عندما سمعت رنين الهاتف، وأحسست بالخفقة: «إنها هي». ركضتُ إلى غرفة النوم، مبللاً بالماء مثلما كنت:

ـ هل ستغلق الخط في وجهي هذه المرة أيضاً، أيها الطفل الطيب؟

ـ كيف حالك أيتها الطفلة الخبيثة؟

ساد صمت قصير، وأخيراً رنت ضحكتها:

ـ ما هذا، ما هذا كله، لقد تنازلتَ أخيراً بالرد عليّ. هل يمكنني أن أعرف سبب هذه المعجزة؟ أفارقك الغضب أم أنك مازلت

تكرهني؟

راودتني رغبة في إغلاق الهاتف حين أحسست بالنبرة الساخرة قليلاً، وبنداوة الفوز في كلماتها.

- لماذا تتصلين بي - سألتها - لماذا اتصلتِ بي كل هذه المرات.

- إنني بحاجة إلى تبادل الحديث معك - قالت، وقد بدلت نبرة صوتها.

- أين أنت الآن؟

- إنني هنا، في باريس، منذ بعض الوقت. أيمكننا أن نلتقي للحظة.

أصبتُ بالتجمد. كنت واثقاً من أنها لا تزال في طوكيو، أو في بلد بعيد آخر، وأنها لن تفكر أبداً في العودة إلى فرنسا. ومعرفتي أنها هنا، ويمكنني رؤيتها في أي لحظة، أغرقتني في بلبلة كاملة.

- برهة قصيرة فقط - ألحت معتقدة أن صمتي يسبق الرفض - ما أريد قوله لكَ شخصي جداً، وأُفضِّل ألا أقوله في الهاتف. نصف ساعة فقط. ليس هذا كثيراً على صديقة قديمة، أليس كذلك؟

اتفقت معها على اللقاء بعد يومين، في موعد خروجي من اليونسكو، الساعة السادسة مساء، في حانة **ريميري**، بسان جيرمان دو بري (هذا البار كان يسمى على الدوام **ريميري المارتينيكي**، ولكنه فقد في الأزمنة الأخيرة النبل). عندما أغلقتُ الهاتف، كان قلبي يدوي في صدري. وقبل أن أعود لأكمل استحمامي، وجدت نفسي مضطراً إلى الجلوس قليلاً، وأنا مفتوح الفم، ريثما ينتظم تنفسي. ما الذي تفعله في باريس؟ أتراها تقوم بأعمال خاصة بتكليف من فوكودا؟ أتفتح السوق الأوروبية للمنشطات الإكزوتيكية المصنوعة من أنياب الأفيال وقرون الكركدن؟ أتريدني أن أمد لها يد المساعدة في ما تمارسه من عمليات التهريب، وغسل الأموال وغيرها

من الصفقات المافياوية؟ لقد اقترفتُ حماقة بردي على الهاتف. فالقصة القديمة ستتكرر. سنتبادل الحديث، وسأعود للاستسلام لذلك التأثير الذي امتلكته عليّ دوماً، وسنعيش غراماً قصيراً وزائفاً، وسأبني كل أنواع الأوهام والأحلام؛ وفي لحظة لا تخطر في البال، ستختفي هي وأظل أنا مخبولاً وفي حالة مزرية، ألعق جراحي كما جرى لي في طوكيو. وانتظر الفصل التالي!

لم أخبر إيلينا وسيمون بأمر المكالمة أو الموعد، وقضيت تلك الساعات الثماني والأربعين في حالة من الغيبوبة، ما بين تشنجات صحو وضباب ذهني يتصاعد بين حين وآخر كي أتمكن من الاستسلام لجولة مازوشية أشتم فيها نفسي: أبله، قميء، تستحق كل ما يحدث، وما حدث، وما سيحدث لك.

كان يوم الموعد واحداً من تلك الأيام الرمادية والمبللة في أواخر الخريف الباريسي، الأيام التي تكاد لا تبقى فيها أوراق على الأشجار، ولا ضوء في السماء، فيتزايد تعكر مزاج الناس مع تعكر الطقس، ويُشاهَد في الشارع رجال ونساء متدثرين بمعاطفهم، وشالاتهم، وقفازاتهم، ومظلاتهم، يمضون مسرعين ومترعين بالحقد على العالم. لدى الخروج من اليونسكو بحثتُ عن سيارة أجرة؛ لكن هطول المطر أفقدني الأمل في العثور على واحدة؛ فاخترت المترو. نزلت في محطة سان جيرمان. ومن بوابة حانة ريميري، رأيتها تجلس على مقهى الرصيف، قبالة فنجان شاي وزجاجة ماء بيريّه. عندما رأتني، نهضت واقفة وقرّبت خدها مني:

ـ أيمكننا أن نتعانق أم أن هذا غير ممكن أيضاً؟

كان المكان يغص بأناس تقليديين من الحي: سياح، شبان لعوبون بقلائد وسلاسل حول أعناقهم وصدارات وسترات مزركشة، وفتيات بصدور مفتوحة بجرأة وتنانير قصيرة، بعضهن متبرجات كما

لو أنهن ذاهبات إلى حفلة راقصة. طلبتُ مشروباً ساخناً. ظللنا صامتين، نتبادل النظرات بشيء من عدم الراحة، دون أن ندري ما علينا قوله.

كان التحول الذي طرأ على كوريكو بارزاً. فهي لا تبدو كمن فقدت عشرة كيلوغرامات من وزنها وحسب ـ كانت قد تحولت إلى هيكل عظمي لامرأة ـ، وإنما هرمت عشر سنوات منذ ليلة طوكيو التي لا تُنسى. ملابسها متواضعة ومهملة كما لا أتذكر أنني رأيتها إلا في ذلك الصباح البعيد الذي ذهبتُ فيه لإحضارها من مطار أورلي بطلب من بول. كانت ترتدي سترة مخططة يمكن لها أن تكون لرجل، وبنطالاً من قماش قطني حائل اللون، يظهر تحته حذاء بالٍ ودون تلميع. وكانت مشعثة الشعر، وفي أطراف أصابعها النحيلة تبدو أظفارها المقصوصة بصورة سيئة، ودون تشذيب، كما لو أنها قضمتها بأسنانها. وكانت عظام جبهتها، ووجنتيها، وفكها بارزة، تشد البشرة شديدة الشحوب والتجعدات البارزة والمائلة إلى الخضرة. وكانت عيناها قد فقدتا البريق، وفيهما شيء من الذعر، يذكّر ببعض الحيوانات الخوافة. ولم تكن تضع أية زينة أو مكياج.

ـ يا للمشقة التي تكلفتها للتمكن من رؤيتك ـ قالت أخيراً. ومدت يدها لتلمس ذراعي، وحاولت رسم واحدة من الابتسامات القديمة المتغنجة، لكنها لم تخرج معها على ما يرام في هذه المرة ـ أخبرني على الأقل إذا ما كنت قد تجاوزت غضبك، وصارت كراهيتك لي أقل قليلاً.

ـ لن نتحدث في هذا الأمر ـ رددتُ عليها ـ لا الآن ولا في أي وقت آخر. لماذا اتصلتِ بي كل هذه الاتصالات؟

ـ لقد منحتني نصف ساعة، أليس كذلك؟ ـ قالت وهي تفلت ذراعي وتستوي في مقعدها ـ لدينا وقت كاف. حدثني عنك. أتمضي أمورك على ما يرام؟ هل لديك عشيقة؟ أما زلت تكسب عيشك من

العمل نفسه؟

ـ سأظل صعلوكاً حتى الموت ـ ضحكتُ دون رغبة، أما هي فظلت على جديتها، تتفحصني.

ـ لقد صرتَ شديد الحساسية مع مرور السنوات يا ريكاردو. فغضبك لم يكن يستمر كل هذا الوقت من قبل ـ لمع في عينيها، لثانية واحدة، البريق القديم ـ أمازلت تقول عبارات متكلفة للنساء، أم تراك توقفت عن ذلك؟

ـ منذ متى أنتِ في باريس؟ وماذا تفعلين هنا؟ أتعملين من أجل قاطع الطريق الياباني؟

نفت برأسها. وبدا لي أنها ستضحك، لكن ملامحها تصلبت بدلاً من ذلك، وارتعشت شفتاها المتلئتان اللتان مازالتا تبرزان بوضوح في وجهها، وإن بدتا ذاويتين بعض الشيء أيضاً، مثل كل ما فيها.

ـ لقد طردني فوكودا، منذ أكثر من سنة. لهذا جئت إلى باريس.

ـ الآن فهمت سبب حالتك المفجعة ـ قلتُ بسخرية ـ. لم أتصور قط رؤيتكِ بهذه الحالة، بهذا القدر من التردي.

ـ كنت في وضع أسوأ بكثير ـ قالت معترفة بجفاء ـ. اعتقدتُ في بعض اللحظات أنني سأموت. وكان هذا هو سبب محاولتي التحدث إليك في المرات الأخيرة. كي تكون أنت، على الأقل، من يدفنني. كنت أريد الطلب منك أن تحرق جسدي. ترعبني فكرة أن تأكل الديدان جثتي. ولكن ذلك انقضى.

كانت تتكلم بهدوء، لكنها تتيح أن يُلمح غضب مكبوح في كلماتها. لم يكن يبدو عليها أنها تقوم بعرض إشفاق ذاتي، كي تؤثر عليّ، أو أنها تفعل ذلك ببراعة متكبرة. بل بدت كما لو أنها تصف وضعاً محدداً بموضوعية، وبرود، مثل شرطي أو موثق عقود.

ـ أحاولتِ الانتحار عندما تخلى عنكِ حب حياتك الكبير؟

نفت برأسها وهزت كتفيها:

- لقد كان يقول لي دوماً إنه سيملني في أحد الأيام ويصرفني. كنت مهيأة. ولم يكن يتكلم لمجرد الكلام. ولكن الوقت الذي أقدم فيه على ذلك لم يكن أفضل الأوقات، وكذلك الأسباب التي قدمها لطردي.

ارتعش صوتها وتشوه فمها في تكشيرة حقد. وامتلأت عيناها بالشرر. أيكون كل هذا مجرد تمثيلية هزلية، لاستثارة عواطفي؟

- إذا كان هذا الموضوع يضايقك، يمكننا التحدث حول شيء آخر - قلتُ لها - ماذا تفعلين في باريس، وممّ تعيشين؟ هل قدم لك قاطع الطريق تعويضاً يتيح لك، على الأقل، قضاء فترة من الوقت دون ضيق؟

- كنت مسجونة في لاغوس، أمضيت شهرين بدوا لي قرناً - قالت هي، كما لو أنني، فجأة، لم أعد موجوداً معها -. أشد المدن فظاعة، وأشدها قبحاً، وأكثر الناس شراً في العالم. إياك أن تفكر في الذهاب إلى لاغوس يوماً. عندما تمكنتُ أخيراً من مغادرة السجن، منعني فوكودا من العودة إلى طوكيو. «إنك محروقة يا كوريكو». وكان يقصد «محروقة» بمعنيي الكلمة. لأنني كنت قد صرت مشبوهة في سجلات الشرطة الدولية. ولأن النيجيريين قد يكونون نقلوا إليّ العدوى بالإيديز. وقطع المكالمة دون أي كلمة أخرى، بعد أن قال لي إنه عليّ عدم العودة، وعدم الكتابة إليه أو الاتصال به إلى الأبد. هكذا صرفني؛ مثل كلبة جرباء. حتى إنه لم يدفع لي ثمن التذكرة إلى باريس. إنه رجل بارد وعملي، يعرف ما الذي يناسبه. وأنا لم أعد أناسبه. إنه أشد نقيض لك في العالم. ولهذا تجد فوكودا ثرياً ومتنفذاً، بينما كنت أنت وستظل صعلوكاً إلى الأبد.

- شكراً، فما قلتِه هو مديح في نهاية المطاف.

أيكون كل هذا صحيحاً؟ أم تراه كذبة خيالية أخرى من تلك

الأكاذيب التي هي معالم بارزة تؤشر لكل مراحل حياتها؟ كانت قد استعادت السيطرة على نفسها. وكانت تمسك فنجان الشاي بكلتا يديها، تشرب رشفات منه، وتنفخ على السائل الساخن. كان من المحزن رؤيتها بذلك الدمار، وبتلك الملابس البائسة، وبكل تلك السنوات على كاهلها.

ـ هل هذا البوح صحيح؟ أليست قصة أخرى من اختلاقك؟ هل كنتِ سجينة حقاً؟

ـ كنتُ سجينة، وفوق ذلك تعرضتُ للاغتصاب من قبل شرطة لاغوس ـ قالت مؤكدة وهي تغرس عينيها فيَّ، كما لو أنني المذنب في نكبتها ــ. إنهم زنوج يتكلمون إنكليزية غير مفهومة، لأنهم يتكلمون *Pidgin English*. هذا ما كان يقوله دافيد عن إنكليزيتي، عندما يريد شتمي: *Pidgin English*. لكنهم لم ينقلوا إليَّ عدوى الإيدز. القمل فقط، وقرحة رحم. كلمة رهيبة، أليس كذلك؟ هل سمعتها يوماً؟ المرجح أنك لا تعرف ما الذي تعنيه أيها القديس الصغير. قرحة الرحم هي نوع من القروح تنتقل بالعدوى. شيء مقرف، لكنها ليست خطرة إذا ما عولجت في الوقت المناسب بالمضادات الحيوية. أما أنا فعالجوني بصورة سيئة في لاغوس اللعينة، وكاد الالتهاب أن يقتلني. ظننت أنني سأموت، لهذا اتصلت بك. ولكنني الآن، لحسن الحظ، في حالة حسنة.

قد يكون ما تقوله صحيحاً وقد يكون زيفاً، لكن الغضب الشديد الذي يضمخ كل ما تقوله لم يكن مصطنعاً. مع أن التمثيل، في حالتها، كان أمراً محتملاً على الدوام. أهو تمثيل متقن؟ أحسستُ بالتشوش، بالارتباك. لقد كنت أنتظر أي شيء في هذه المقابلة، باستثناء مثل هذه القصة.

ـ أشعر بأنكِ قد مررتِ بذلك الجحيم ـ قلتُ أخيراً، لمجرد أن أقول شيئاً، فما الذي يمكن قوله حيال مثل ذلك البوح؟ ـ إذا كان ما

تقولينه صحيحاً. فأنت تعلمين أن شيئاً رهيباً يحدث لي معكِ. لقد رويت لي الكثير من الحكايات في الحياة، حتى صار من الصعب عليّ تصديق شيء مما تقولينه.

ـ ليس مهماً ألا تصدقني ـ قالت وهي تمسك ذراعي مرة أخرى، وتجهد لتبدو ودودة ـ أعرف أنكَ مازلت غاضباً، وأنك لن تسامحني أبداً على ما جرى في طوكيو. ليس مهماً. لا أريدك أن تشفق عليّ. ولستُ أريد نقوداً كذلك. ما أريده، في الحقيقة، هو أن أتمكن من الاتصال بك بين حين وآخر، وأن نتناول، بين فترة وأخرى، فنجاناً من القهوة معاً، مثلما نحن الآن. ولا شيء أكثر.

ـ لماذا لا تقولين لي الحقيقة؟ ولو لمرة واحدة في حياتك. هيا، أخبريني بالحقيقة.

ـ الحقيقة هي أنني، لأول مرة، أشعر بعدم الأمان، دون أن أدري ما عليّ عمله. إنني وحيدة جداً. مثل هذا لم يحدث لي من قبل قط، بالرغم من أنني كنت قد مررت بلحظات عصيبة. ولكي تعرف أكثر: إنني مريضة بالخوف ـ كانت تتكلم بجفاء متكبر، بنبرة ومظهر يبدوان كأنهما يكذّبان ما تقوله. وكانت تنظر إلى عينيّ، دون أن يرف لها جفن وهي تضيف ـ: الخوف مرض أيضاً. إنه يشلني، يعطلني. لم أكن أعرف ذلك من قبل، لكنني أعرفه الآن. أعرف بعض الأشخاص في باريس، لكنني لا أثق بأحد. أما أنت، فأثق بك. هذه هي الحقيقة، سواء أصدقتني أم لم تصدقني. أيمكنني الاتصال بك بين وقت وآخر؟ أيمكننا اللقاء بين فترة وأخرى في أحد المقاهي؛ هكذا، مثلما نحن اليوم؟

ـ أجل، بالطبع. ليست هناك أي مشكلة.

تبادلنا الحديث قرابة ساعة أخرى، إلى أن خيم الظلام تماماً، وأضيئت واجهات المحلات التجارية، ونوافذ البيوت في سان جيرمان،

وشكلت أنوار السيارات الحمراء والصفراء نهر أضواء يطفو ببطء في الجادة، قبالة رصيف مقهى ريميري. وعندئذ تذكرت. من ردّ عليها من هاتف بيتي عندما اتصلت بي في المرة السابقة؟ هل تتذكر؟

نظرت إليّ باستغراب، دون أن تفهم. لكنها هزت رأسها بعد ذلك:

ـ أجل، كانت امرأة صغيرة. ظننت أن لديك عشيقة، لكنني أدركت بعد ذلك أنها يجب أن تكون خادمة. أهي فيليبينية؟

ـ إنه طفل. هل تكلم معك؟ أأنت متأكدة؟

«ـ قال لي إنك مسافر، على ما أعتقد. لا شيء، كلمتان. وطلبتُ منه أن يوصل لك رسالة، وأرى أنه قد أوصلها إليك. وما سبب كل هذا الاهتمام الآن؟

ـ هل تكلم معك؟ هل أنت متأكدة؟

ـ كلمتان ـ كررت مؤكدة ـ. ومن أين جاءك هذا الطفل؟ هل تبنيته؟

ـ اسمه جيلال. عمره تسع أو عشر سنوات. إنه فيتنامي، ابن جارين لي، إنهما صديقان. أأنت متأكدة من أنه تكلم معك؟ لأن هذا الطفل أبكم. لم يسمع أبواه ولا أنا صوته قط.

أصابها الارتباك، وأغمضت عينيها، للحظة طويلة، متفحصة ذاكرتها. قامت بعدة إيماءات تأكيد برأسها. أجل، أجل، إنها تتذكر بوضوح. لقد تكلم بالفرنسية. وكان صوته نحيلاً جداً، بدا لها صوتاً أنثوياً. نصف صائت، ونصف إكزوتيكي. تبادلا كلمات قليلة جداً. قال إنني غير موجود، وإنني مسافر. وعندما طلبت منه أن يخبرني بأن «الطفلة الخبيثة» قد اتصلت ـ وقالت له هذا بالإسبانية ـ، قاطعها الصوت الناعم: «ماذا، ماذ؟». وكان عليها أن تتهجى له «طفلة خبيثة». إنها تتذكر ذلك جيداً. لقد تكلم الطفل معها، ليس لديها أدنى شك.

ـ لقد حققتِ معجزة إذن. صار جيلال يتكلم بفضلك.

ـ إذا كنتُ أملك هذه القدرة، فسوف أستخدمها. لا بد أن الساحرات يكسبن، كما أظن، الكثير من المال في فرنسا.

عندما ودعتها، بعد قليل من ذلك، عند مدخل مترو سان جيرمان، طلبتُ منها رقم هاتفها وعنوانها، فلم توافق على إعطائي إياهما. ستتصل هي بي.

ـ لن تتبدلي أبداً. الغموض دائماً، الحكايات الخيالية دائماً، الأسرار دائماً.

ـ لقد أسعدتني رؤيتكَ والتحدث إليك أخيراً ـ أسكتتني ـ وآمل ألا تعود إلى إغلاق الهاتف في وجهي.

ـ هذا يعتمد على سلوكك.

رفعت نفسها على رؤوس أصابعها وأحسست بفمها يلامس خدي بقبلة سريعة.

رأيتها تختفي في فتحة المترو. مديرة ظهرها، شديدة النحول، دون كعب عالٍ، بدت هرمة بالقدر نفسه الذي رأيتها فيه مواجهة.

وبالرغم من أن المطر كان لا يزال يهطل، وكان هناك شيء من البرد، فقد فضلتُ المشي بدلاً من ركوب المترو أو الأمنوبوس. إنها رياضتي الوحيدة الآن؛ فذهابي إلى النادي الرياضي لم يستمر إلا شهوراً قليلة. فقد أضجرتني التمارين، وأكثر منها نوعية الناس الذين يجاورونني في تمارين الخصر، والعارضة، والإيروبيك. أما المشي، بالمقابل، في هذه المدينة الممتلئة بالأسرار والعجائب، فكان يسليني. وفي أيام الانفعالات القوية، مثلما هو هذا اليوم، يمكن لمسيرة طويلة، وإن تكن تحت المظلة، والمطر والريح، أن تُشعرني بالتحسن.

من كل الأشياء التي قالتها لي الطفلة الخبيثة، الشيء الوحيد الصحيح بصورة مطلقة، ودون أي شك، هو أن جيلال قد تبادل معها بعض العبارات. بإمكان طفل الزوجين غرافوسكي أن يتكلم إذن؛

وربما يكون قد فعل ذلك من قبل، مع أناس لا يعرفونه، في المدرسة، في الشارع. إنه سر صغير سيكشفه لأبويه عاجلاً أو آجلاً. تخيلتُ سعادة سيمون وإيلينا عندما سيسمعان ذلك الصوت النحيل، والصائت قليلاً، الذي وصفته لي الطفلة الخبيثة. كنتُ أذرع بوليفار سان جيرمان باتجاه السين، عندما اكتشفت، قبل قليل من مكتبة جوليار، وجود متجر صغير يبيع دمى الجنود الرصاصية، ذكرني بسالمون توليدانو وغرامياته اليابانية التعيسة. دخلت المتجر واشتريت لجيلال علبة دمى فرسان من الحرس الإمبراطوري الروسي.

ماذا هناك من الحقيقة أيضاً في قصة الطفلة الخبيثة؟ من المحتمل أن يكون فوكودا قد طردها بصورة مهينة، وأنها كانت ـ وربما لا تزال ـ مريضة. وهذا يبدو واضحاً للعيان، تكفي رؤية تلك العظام البارزة، وشحوبها، والازرقاق حول عينيها. وماذا عن قصة لاغوس؟ ربما يكون صحيحاً أنها واجهت مشاكل مع الشرطة. فهي مخاطر تتعرض لها في الأعمال القذرة التي ورطها فيها عشيقها الياباني. ألم تخبرني هي نفسها بذلك، وبحماسة، في طوكيو؟ لقد كانت الساذجة تظن أن تلك المغامرات في التهريب والتجارة غير المشروعة، والمقامرة بحريتها في رحلاتها الأفريقية، تضيف توابل إلى الحياة، وتجعلها أكثر لذة ومتعة. إنني أتذكر كلماتها: «بممارسة هذه الأمور، أعيش أكثر». حسن، من يلعب بالنار سينتهي به الأمر، عاجلاً أو آجلاً، إلى حرق نفسه. إذا كانت قد سُجنت حقاً، فمن المحتمل أن تكون الشرطة قد اغتصبتها. فنيجيريا مشهورة بأنها جنة الفساد، إقطاعية يحكمها العسكريون، ولا بد أن تكون شرطتها متعفنة. الله أعلم كم عدد من اغتصبوها، وامتهنوها بقسوة لساعات وساعات في جحر قذر، وانتقلت إليها عدوى مرض زهري والقمل، وبعد ذلك، عالجها أطباء جهلة يستخدمون أدوات سبر غير معقمة.

داهمني إحساس بالعار والغضب. إذا ما كانت قد تعرضت لذلك كله، أو لجزء منه، وأشرفت على الموت، فإن رد فعلي البارد، غير المصدق، كان بائساً، ردّ فعل رجل ساخط لا يريد سوى تهدئة كبريائه الجريح بسبب تلك اللحظة العصبية في طوكيو. كان عليّ أن أقول لها بضع كلمات حانية، أن أتظاهر بأني أصدقها. وحتى لو كانت قصة الاغتصاب والسجن كذباً، فالحقيقة أنها قد تحولت إلى حطام جسدي. وهي، دون شك، شبه ميتة من الجوع. لقد أسأتَ التصرف يا ريكاردو. بل أسأتُ التصرف جداً إذا كانت قد لجأت إليّ حقاً لأنها تشعر بالوحدة وعدم الأمان، ولأنني الشخص الوحيد الذي تثق به في العالم. وهذا الأمر الأخير لا بد أن يكون دقيقاً. فهي لم تحبني قط، لكنها تثق بي. إنها العاطفة التي يوقظها خادم وفي. فبين عشاقها وأصحابها العابرين، كنت أنا أكثرهم نزاهة وتجرداً عن المصلحة، والأكثر وفاء. إنكَ المتفاني، الوديع، الجبان. لهذا اختارتكَ أنت بالذات كي تحرق جثتها. هل كنتَ ستلقي رمادها إلى السين أم ستحتفظ به في إناء صغير من خزف سيفر، في الكوميدينو الذي بجوار سريرك؟

وصلتُ إلى شارع جوزيف غرانيه مبللاً من رأسي حتى قدمي، وأكاد أموت من البرد. اغتسلت تحت دوش ماء ساخن، وارتديت ثياباً جافة، وأعددت سندوتش جبن وجانبون أرفقته بعبوة لبن بنكهة الفاكهة. ثم وضعت علبة دمى جنود الرصاص تحت إبطي، وذهبت لأطرق باب شقة آل غرافوسكي. كان جيلال قد نام، وكان الزوجان ينهيان العشاء بتناول بعض المعكرونة مع الريحان. عرضا عليَّ طبقاً، لكنني وافقت على تناول فنجان قهوة فقط. وبينما سيمون يتفحص دمى جنود الرصاص ويمزح بالقول إنني بمثل هذه الهدايا سأجعل جيلال ذا ميول عسكرية. أحست إيلينا أن في حذري شيئاً غريباً.

ـ لقد حدث لك شيء يا ريكاردو ـ قالت لي، وهي تتفحص عيني ـ هل اتصلت بك الطفلة الخبيثة؟

رفع سيمون رأسه عن دمى الجنود، وصوب نظره إليّ.

ـ لقد أمضيتُ معها ساعة، للتو، في أحد المقاهي. إنها تعيش في باريس. وقد صارت حطاماً بشرياً، وتمر بضائقة شديدة، وتلبس كمتسولة. تقول إن الياباني قد صرفها، بعد أن اعتقلتها شرطة لاغوس، في إحدى تلك الرحلات التي كانت تقوم بها إلى أفريقيا، لتساعده في تجارته. وإنهم اغتصبوها هناك. ونقلوا إليها العدوى بالقمل والتهابات في الرحم. وكادوا بعد ذلك أن يجهزوا عليها في مستشفى تعيس. يمكن أن يكون ذلك صحيحاً، ويمكن أن يكون زيفاً. لست أدري. تقول إن فوكودا طردها لخوفه من أن تكون الانتربول قد نظمت لها ملفاً، وأن يكون الزنوج قد نقلوا إليها العدوى بالإيدز. أهي حقيقة أم اختراعات؟ لن أجد طريقة للتأكد من ذلك أبداً.

ـ الأسطورة تصبح أكثر تشويقاً كل يوم ـ هتف سيمون بذهول ـ سواء أكانت صحيحة أم لم تكن، فهي قصة بديعة.

تبادل هو وإيلينا النظرات، ثم نظرا إليّ، وكنت أعرف جيداً ما الذي يفكران فيه. فهززت رأسي مؤكداً:

ـ إنها تتذكر جيداً مكالمتها إلى بيتي. وقد ردّ عليها، بالفرنسية، صوت نحيل، صائت، بدا لها صوت فتاة آسيوية. وطلب منها أن تكرر عدة مرات «طفلة خبيثة» بالإسبانية. لا يمكن لها أن تكون قد اختلقت هذا.

رأيت وجه إيلينا يشحب. وكانت ترمش بسرعة كبيرة.

ـ لقد كنتُ موقناً على الدوام أن هذا صحيح ـ دمدم سيمون. وكان صوته قد تبدل، ووجهه قد احمّر، كما لو أنه سيختنق من الحر. وراح يحك لحيته المائلة إلى الحمرة بإلحاح ـ لقد قلّبت الأمر من

كل جوانبه، وتوصلت إلى أنه لا بد أن يكون صحيحاً. فكيف يمكن لجيلال أن يخترع ما كتبه عن «طفلة خبيثة». يا للسعادة التي تمنحنا إياها بهذا الخبر يا صديقي.

وكانت إيلينا تهز رأسها موافقة، وهي تمسك بذراعي. كانت تبتسم وتلوي شفتيها في الوقت نفسه.

ـ وأنا أيضاً كنت موقنة دوماً من أن جيلال قد تكلم معها ـ قالت متلذذة بكل كلمة ـ ولكن، أرجوكما، يجب عدم فعل أي شيء. وعدم قول أي شيء للطفل. كل شيء سيأتي في حينه. إذا ما حاولنا إكراهه، فقد يؤدي ذلك إلى حدوث ارتداد. يجب أن يفعل ذلك هو، أن يكسر هذا الحاجز بجهده الخاص. وسيفعل ذلك في الوقت المناسب، سيفعله قريباً، وستريان.

ـ هذه هي اللحظة المناسبة لإخراج الكونياك ـ غمزني سيمون بإحدى عينيه ـ أترى يا صاحبي، لقد اتخذت احتياطاتي. إننا مستعدون الآن للمفاجآت التي ستأتينا بها بين حين وآخر. كونياك نابليون فاخر، سترى!

تناولنا كأس الكونياك ذاك، دون أن نتكلم تقريباً، مستغرقين في تأملاتنا الخاصة. أشعرني الكونياك بالتحسن، ذلك أن المشي تحت المطر أصابني بالبرد. وعند الوداع، خرجت إيلينا معي حتى بسطة السلم:

ـ لا أدري، لقد خطر لي الأمر للتو ـ قالت ـ ربما كانت صديقتك بحاجة إلى فحص طبي. اسألها. وإذا هي شاءت، يمكنني أن أرتب أمر إجراء الفحوص لها في مستشفى كوشان، *بالزمالة*. أعني دون أن يكلفها ذلك شيئاً. ليس لديها تأمين صحي، أو أي شيء مشابه على ما أعتقد.

شكرتها. ووعدتها بأن أبحث ذلك مع الطفلة الخبيثة عندما ألتقي بها في المرة القادمة

ـ إذا كان ما تقوله صحيحاً، فلا بد أن الأمر كان فظيعاً على المسكينة ـ دمدمت إيلينا ـ. فمثل هذا الوضع يخلّف ندوباً رهيبة في الذاكرة.

في اليوم التالي رجعتُ مسرعاً من اليونسكو، كي ألحق بجيلال. كان يشاهد برنامج رسوم متحركة في التلفزيون، وإلى جانبه دمى فرسان الحرس الإمبراطوري الروسي، مرتبة في صف واحد. أراني لوحه الصغير «شكراً لهديتك الجميلة أيها العم ريكاردو». ومد لي يده مبتسماً. جلستُ لأقرأ *الليموند* بينما هو مستغرق باهتمام، كمن هو منوّم مغنطيسياً، في برنامجه التلفزيوني. بعد ذلك، وبدلاً من أن أقرأ له شيئاً، حدثته عن سالمون توليدانو. أخبرته عن مجموعته من دمى الجنود المصنوعة من الرصاص التي رأيتها تملأ كل أنحاء بيته، وعن السهولة التي يتمتع بها في تعلم اللغات. فقد كان أفضل مترجم فوري في العالم. وعندما سألني، على لوحه، إذا ما كان بإمكاني أخذه إلى بيت سالمون ليرى معاركه النابليونية، وأوضحت له أنه قد توفي بعيداً جداً عن باريس، في طوكيو، بدا الحزن على جيلال. أريته فارس الحرس الإمبراطوري الذي أحتفظ به في الكوميدينو، وأخبرته بأنه أهداه إليّ يوم سفره إلى طوكيو. وبعد قليل دخلت إيلينا لتأخذه.

وكي لا أفكر كثيراً في الطفلة الخبيثة، ذهبت إلى دار للسينما في الحي اللاتيني. وفي الصالة المظلمة والدافئة، الممتلئة بالطلاب، في شارع شامبليون، بينما أنا أتابع ساهياً مغامرات فيلم ويسترن كلاسيكي لجون فورد، *عربة البريد*، كانت تظهر في رأسي وتختفي صورة التشيلية المتردية، الكارثية. في ذلك اليوم، وخلال بقية الأسبوع، ظلت صورتها طوال الوقت في ذاكرتي، ومثلها السؤال الذي لم أجد له جواباً قط: أتراها أخبرتني بالحقيقة؟ هل صحيح ما قالته

عن لاغوس وعن فوكودا؟ كانت تعذبني القناعة بأنني لن أعرف الحقيقة الكاملة في هذا الشأن أبداً.

اتصلت بي بعد ثمانية أيام، في بيتي، وفي وقت مبكر أيضاً. وبعد أن سألتها كيف حالها ـ «جيدة، إنني في حالة جيدة الآن، مثلما قلت لك» ـ، اقترحت عليها أن نتناول العشاء معاً هذه الليلة بالذات. وافقت واتفقنا على اللقاء في مطعم البروكوب، في شارع المسرح القديم، الساعة الثامنة. وصلتُ قبلها، وانتظرتها جالساً إلى منضدة صغيرة بجوار النافذة المطلة على طريق روان. وقد وصلت هي على الفور تقريباً. كانت ترتدي ملابس أفضل من المرة السابقة، ولكنها بائسة أيضاً: تحت السترة القبيحة التي تنفع للجنسين، كانت ترتدي فستاناً أزرق قاتماً، بلا فتحة تكشف الصدر، وبلا أكمام، وتنتعل حذاء متوسط الكعب، تملؤه الشقوق، وملمعاً حديثاً. بدا لي غريباً جداً أن أراها بلا خواتم، ولا ساعة، ولا أساور، ولا أقراط، ولا مكياج. لكنها شذبت أظفارها على الأقل. كيف أمكن لها أن تهزل إلى هذا الحد؟ يبدو كما لو أنه يمكن لأي تعثر أو انزلاق أن يهشمها إلى فتات.

طلبت لنفسها فنجان مرق مركّز وسمكاً مشوياً، ولم تكد تتذوق أكثر من رشفة نبيذ خلال العشاء. كانت تمضغ بتمهل، ودون شهية، وتتكلف مشقة في ابتلاع الطعام. أصحيح أنها في حالة جيدة؟

ـ لقد تقلصت معدتي كثيراً ولم أعد قادرة على تقبل الطعام ـ أوضحت لي ـ أشعر بالشبع والامتلاء بلقمتين أو ثلاث. لكن هذه السمكة لذيذة جداً.

انتهيتُ إلى تناول إبريق نبيذ **كوت ديرون** وحدي. وعندما أحضر النادل القهوة لي، ومغلي الفيربينا لها، قلت وأنا أمسك يدها:

ـ بحق كل ما تشائين، أتوسل إليك، أقسمي لي إن كل ما أخبرتني به قبل أيام في ريميري هو الحقيقة.

ـ لن تصدق أبداً أي شيء مما أقوله لك، أعرف ذلك ـ كانت تبدو منهوكة، من الضجر، ولا يبدو عليها الاهتمام بما أصدقه أو لا أصدقه ـ دعنا من الحديث في هذا الشأن. لقد أخبرتك به كي تسمح لي برؤيتك، بين حين وآخر. لأنني أشعر بالتحسن حين أتحدث معك، حتى لو لم تصدق هذا.

راودتني رغبة في تقبيل يدها، لكنني كبحت نفسي. نقلت إليها اقتراح إيلينا. فنظرت إليّ مرتبكة.

ـ ولكن، هل تعرف هي بأمري، بأمرنا؟

هززت رأسي مؤكداً. إيلينا وسيمون يعرفان كل شيء. في نوبة قنوط رويت لهما قصتنا «كلها». إنهما صديقان طيبان، وليس لدي ما أخشاه منهما. لن يشيا بها إلى الشرطة باعتبارها مهربة منشطات جنسية.

ـ لست أدري لماذا بحتُ لهما بذلك. ربما لأنني أحتاج، مثل الناس جميعاً، إلى أن أشاطر أحداً بين حين وآخر بعض الأمور التي تثقل عليّ أو التي تبهجني. أتقبلين عرض إيلينا؟

لم تبدِ حماسة كبيرة. كانت تنظر إليّ بقلق، كما لو أنها تخشى أن يكون في الأمر كميناً. كان ذلك البريق، ذو اللون العسلي القاتم، قد تلاشى من عينيها. وكذلك المكر، والسخرية.

ـ دعني أفكر في الأمر ـ قالت أخيراً ـ. فلنر كيف هي حالتي. فأنا أشعر الآن بأني في حالة جيدة. الشيء الوحيد الذي أحتاج إليه هو الهدوء، الراحة.

ـ ليس صحيحاً أنك في حالة جيدة ـ ألححت ـ إنك شبح. ففي الهزال التي أنت عليه، يمكن لزكام بسيط أن يوصلك إلى القبر. ولستُ راغباً في تولي هذا العمل المشؤوم في إحراق جثتك، إلى آخره. ألا تريدين استعادة جمالك من جديد؟

انفجرت في الضحك.

ـ آه، هذا يعني أنني أبدو قبيحة الآن. شكراً لصراحتكَ ـ ضغطت على يدي بيدها التي كنت أمسك بها طوال الوقت، وبعد ثانية واحدة، أشرقت عينيها بالحماسة ـ ولكنكَ لا تزال مغرماً بي، أليس كذلك يا ريكارديتو؟

ـ لا، لم أعد كذلك. ولن أعود أبداً إلى حبك أيضاً. ولكنني لا أريدك أن تموتي.

ـ يبدو صحيحاً أنك لم تعد تحبني، لأنك لم تقل لي ولو عبارة متكلفة واحدة هذه المرة ـ اعترفت وهي تقوم بتكشيرة شبه كوميدية ـ ما الذي عليّ عمله كي أستعيد حبك؟

ضحكت بتدلل الأزمنة القديمة، وامتلأت عيناها بومضات شيطنة. ولكنني أحسست، فجأة، ودون مقدمات، بأن ضغط يدها على يدي راح يتراخى. ابيضت عيناها، وشحب لون وجهها، وفتحت فمها كما لو أنها تفتقد الهواء. ولو لم أكن بجانبها، أسندها، لتدحرجت على الأرض. دلكت صدغيها بفوطة مبللة، وساعدتها على شرب قليل من الماء. استعادت شيئاً من قواها، لكنها ظلت شاحبة، بيضاء تقريباً. وكان في عينيها الآن رعب حيواني.

ـ سأموت ـ تلعثمت وهي تغرس أظفارها في ذراعي.

ـ لن تموتي. لقد سمحتُ لكِ باقتراف كل نذالات العالم مذ كنا طفلين، لكنني لن أسمح لك بنذالة الموت هذه. إنني أمنعك.

ابتسمت دون قوة.

ـ أرى أن الوقت قد حان لتقول لي شيئاً جميلاً ـ كان صوتها غير مسموع تقريباً ـ إنني بحاجة إلى ذلك، حتى لو لم تصدق هذا أيضاً.

عندما حاولتُ، بعد قليل، مساعدتها على النهوض، ارتجفت ساقاها، وتهاوت منهارة على الكرسي مستنفدة. طلبت من نادل في

البروكوب أن يستدعي سيارة أجرة من موقف ناصية سان جيرمان إلى بوابة المطعم، وأن يساعدني بإخراجها إلى الشارع. اقتدناها كلانا، محمولة من خصرها، وعندما سمعتني أقول لسائق التاكسي أن يوصلنا إلى أقرب مستشفى ـ «مستشفى أوتل ديو، في ستي، أليس كذلك؟» ـ تعلقت بي بيأس: «لا، لا، لا أريد الذهاب إلى مستشفى بأي حال، لا، لا». فوجدت نفسي مضطراً إلى التصويب والقول للسائق إنه من الأفضل أن يوصلنا إلى شارع جوزيف غرانيه. وفي الطريق إلى بيتي ـ وكانت تستند إلى كتفي ـ عادت إلى فقدان الوعي مرة أخرى لبضع ثوان. تراخى جسدها وسال على المقعد. وعندما ساعدتها على الجلوس، أحسستُ بكل عظام ظهرها. وعند بوابة العمارة، اتصلتُ بسيمون وإيلينا بالانترفون لأطلب منهما النزول لمساعدتي.

حملناها ثلاثتنا إلى شقتي ووضعناها في سريري. لم يسألني صديقاي شيئاً، لكنهما كانا ينظران إلى الطفلة الخبيثة بفضول شره، كما لو أنهما يريان منبعثة من الموت. قدمت لها إيلينا قميص نوم، وقاست حرارتها وضغطها الشرياني. لم تكن لديها حرارة، لكن ضغطها منخفض جداً. وعندما استعادت وعيها تماماً، ساعدتها إيلينا في شرب فنجان من الشاي الساخن، مع قرصي دواء، قائلة لها إنهما مجرد مقوٍ عادي. وعند مغادرتها، أكدت لي أنها لا ترى أي خطر آني، ولكن إذا ما ساءت حالتها في الليل، فعلي أن أوقظها. وسوف تتولى هي نفسها الاتصال بمستشفى كوشان كي يرسلوا سيارة إسعاف. ونظراً لهذه الإغماءات المتكررة، لا بد من إجراء فحص طبي كامل. وسترتب هي كل شيء، لكن ذلك يتطلب يومين على الأقل.

عندما رجعتُ إلى غرفة النوم، وجدتها مفتوحة العينين على اتساعهما. قالت لي:

ـ لا بد أنكَ تلعن الساعة التي رددت فيها على مكالمتي الهاتفية.

لم آت إلا لأسبب لك المشاكل.

ـ منذ عرفتكِ، لم تفعلي شيئاً سوى خلق المشاكل لي. هذا هو قدري. وليس بالإمكان عمل شيء ضد القدر. انظري، ها هي ذي، إذا ما احتجتِ إليها. إنها لكِ. ولكن عليك أن تعيديها إليّ.

وأخرجتُ من الكوميدينو فرشاة الأسنان ماركة غيرلان. وتفحصتها هي مبتهجة.

ـ ما الذي جعلك تحتفظ بها؟ إنها الملاطفة الثانية هذه الليلة. يا للرفاهية. وأين ستنام أنت، إذا كان لي أن أعرف؟

ـ صوفا الصالة تتحول إلى سرير، فدعكِ إذن من الأوهام. لن تجدي طريقة لجعلي أنام معك.

ضحكت مرة أخرى. لكن هذا الجهد الصغير أنهكها، فانكمشت على نفسها تحت الملاءات، وأغمضت عينيها. دثرتُها بالأغطية، ووضعت كذلك روبي البيتي فوق قدميها. ذهبتُ لتنظيف أسناني، وارتداء البيجاما، وفتحت الصوفا ـ السرير في الصالة. وعندما رجعت إلى غرفة النوم، وجدتها نائمة، تتنفس بصورة طبيعية. كان بريق الشارع الذي يتسرب من كوة السقف يضيء وجهها: إنه شديد الشحوب طوال الوقت، وأنفها مرهف؛ ومن بين شعرها، تظهر أذناها الصغيرتان البديعتان. كان فمها نصف مفتوح، وزعنفتا أنفها ترتعشان، وكانت ملامحها ذاوية، وفي حالة استسلام كامل. وعندما لامستُ شعرها بشفتي، أحسست بأنفاسها في وجهي. ذهبتُ للنوم. وغفوتُ على الفور تقريباً. لكنني استيقظت مرتين في الليل، وفي المرتين نهضت على رؤوس أصابعي كي أذهب وأراها. كانت نائمة، وتنفسها منتظم. وكانت بشرة وجهها مشدودة تُبرز عظامها. ومع التنفس، كان صدرها يرفع الأغطية ويُنزلها بصورة خفيفة. كنت أخمن حجم قلبها الصغير، وأتخيل كيف ينبض متعباً.

في صباح اليوم التالي، كنتُ أُعد الفطور عندما أحسست بها تنهض. جاءت إلى المطبخ، حيث كنت أصفي القهوة، ملتفة بروبي، كان فضفاضاً عليها بصورة هائلة؛ تبدو فيه كمهرج. وكانت قدماها الحافيتان كقدمي طفلة.

ـ لقد نمتُ قرابة ثماني ساعات ـ قالت باستغراب ـ. لم أفعل هذا منذ قرون. لقد أغمي عليّ في الليل، أليس كذلك؟

ـ مجرد تصنع، كي أجيء بك إلى بيتي. وها أنت ترين أنك قد حققت بغيتك. بل إنك نمت في سريري. أنت تتقنين ألاعيب كيكو وكاكو أيتها الطفلة الخبيثة.

ـ لقد أفسدتُ ليلتك، أليس كذلك يا ريكارديتو؟

ـ وستفسدين يومي أيضاً. لأنك ستبقين هنا، في السرير، ريثما ترتب إيلينا أمور مستشفى كوشان ويتمكنون من إجراء هذه الفحوصات الكاملة لك. لا تُقبل الاعتراضات. لقد حان الوقت الذي أفرض فيه سلطتي عليك، أيتها الطفلة الخبيثة.

ـ عجباً، يا للتقدم. تتكلم كما لو كنت عشيقي.

لكنني لم أتمكن من الابتسام هذه المرة. كانت تنظر إليّ بوجه ممتقع، وعينين واهنتين. كانت مضحكة جداً وهي بتلك الهيئة، شعرها مشعث، وذلك الروب الذي تجرجر أذياله على الأرض. دنوت منها واحتضنتها. أحسست أنها شديدة الهشاشة، ومرتعشة. وفكرتُ في أنني إذا ما ضغطتُ عليها قليلاً بذراعي، فسوف تتكسر، مثل عصفور صغير.

ـ لن تموتي ـ أكدت لها في أذنها، مقبلاً شعرها برفق ـ. سيُجرون لك هذه الفحوص، وإذا كان هناك شيء غير سليم، فسوف تُعالجين وتشفين. وستعودين جميلة مرة أخرى، وربما تتمكنين بذلك من جعلي أُغرم بك من جديد. والآن، تعالي، هلمي بنا لتناول الفطور، فأنا لا

أريد الوصول متأخراً إلى اليونسكو.

وبينما نحن نتناول القهوة مع خبز محمص، جاءت إيلينا، وكانت خارجة إلى العمل. قاست حرارتها وضغطها مرة أخرى، ووجدتها أفضل مما كانت عليه في الليلة الفائتة. لكنها أوصتها بالتزام الفراش طوال النهار، وأن تأكل أشياء خفيفة. وستحاول هي بدورها أن تنهي كل الإجراءات في المستشفى، لنقلها إليه يوم غد بالذات. ثم سألت الطفلة الخبيثة إذا ما كانت بحاجة إلى شيء، فأوصتها هذه بأن تأتيها بفرشاة للشعر.

وقبل أن أغادر، أريتها المؤن في الثلاجة وخزانة المطبخ، فهناك أكثر مما يكفي كي تعدّ عند الظهر وجبة من لحم الدجاج أو الشعيرية مع الزبد. وسوف أتولى أنا إعداد العشاء عندما أعود. وعليها، إذا ما شعرت بأي اعتلال، أن تتصل بي فوراً في اليونسكو. كانت تهز رأسها دون أن تقول شيئاً، وتنظر إلى كل شيء بملامح ساهية، كما لو أنها لم تدرك بعد ما يجري لها.

اتصلتُ بها بعد الظهر. وكانت على ما يرام. فحمّام الرغوة في حوض الاستحمام منحها السعادة، لأنها لم تستحم منذ ستة شهور إلا تحت الدوش في الحمامات العامة، وبسرعة كبيرة دوماً. وعندما رجعتُ في المساء، وجدتها هي وجيلال مستغرقين في مشاهدة فيلم للثنائي لوريل وهاردي، لدبلجته إلى الفرنسية وقع سخيف. لكنهما بدوا لي سعيدين، وكانا يحتفيان بتهريجات البدين والنحيل. وكانت هي قد ارتدت إحدى بيجاماتي، وفوقها الروب الواسع الذي تبدو ضائعة فيه. وكانت مسرحة الشعر جيداً، وبوجه طازج وباسم.

سألني جيلال على سبورته، مشيراً إلى الطفلة الخبيثة: «هل ستتزوجها يا عم ريكاردو؟».

ـ لن أفعل ذلك ولو مت ـ قلت له وأنا أبدي وجهاً مذعوراً ـ هذا ما

تريده هي. منذ سنوات تحاول إغوائي، ولكنني لا أستجيب لها.

«استجب لها»، ردّ علي جيلال، وكان يكتب بسرعة على سبورته: «إنها لطيفة وستكون زوجة طيبة.»

- ما الذي فعلتِه لرشوة هذا الصغير أيتها الفدائية؟

- حكيتُ له أشياء عن اليابان وأفريقيا. إنه جيد جداً في الجغرافية. يعرف العواصم أفضل مني.

الأيام الثلاثة التي أمضتها الطفلة الخبيثة في بيتي، قبل أن تتمكن إيلينا من الحصول لها على مكان في مستشفى كوشان، قامت بين نزيلتي وجيلال صداقة حميمة. كانا يلعبان الدامة معاً، ويضحكان ويمزحان كما لو أنهما في السن نفسها. كانا يستمتعان كثيراً وهما معاً، ومع أنهما يبقيان التلفاز مشعلاً، للحفاظ على المظاهر، إلا أنهما لا ينظران في الواقع إلى الشاشة، مركزين اهتمامهما على لعبة اليان - كين - بو، وهي لعبة لم أعد أرى من يلعبها منذ طفولتي في حي ميرافلوريس: فالحجر يكسر المقص، والورقة تلف الحجر، والمقص يقطع الورقة. وفي بعض الأحيان تبدأ هي بقراءة قصص جول فيرن لجيلال، لكنها بعد بضعة أسطر، تنأى عن النص وتأخذ بهذر ارتجال للقصة إلى أن ينتزع جيلال الكتاب من يديها، وهو يهتز من القهقهات. وفي الليالي الثلاث تناولنا العشاء في بيت آل غرافوسكي. وكانت الطفلة الخبيثة تساعد إيلينا في طهو الطعام وغسل الأطباق. وفي أثناء ذلك تتبادلان الحديث والمزاح. كنا نحن الأربعة كما لو أننا زوجي أصدقاء نعرف بعضنا بعضاً منذ الأزل.

في الليلة التالية حاولت هي أن تنام على الصوفا وتعيد لي غرفة النوم. واضطررتُ إلى إرضائها، لأنها هددتني بمغادرة البيت إذا لم افعل. وقد كانت في هذين اليومين الأولين بحالة معنوية جيدة؛ أو هكذا بدت لي على الأقل عند الغروب، لدى عودتي من اليونسكو،

حيث كنت أجدها تلعب مع جيلال كند له. وفي اليوم الثالث، وكان الظلام لا يزال مخيماً، استيقظتُ متأكداً من أنني سمعت من يبكي. أصختُ السمع، ولم يكن هناك شك: كان بكاء خافتاً، متقطعاً، مع توقفات صمت. ذهبتُ إلى الصالة ووجدتها منكمشة في الفراش، تغطي فمها، ومبللة بالدموع. كانت ترجف من رأسها حتى قدميها. مسحتُ وجهها، ورتبت شعرها، وجئتها بكأس ماء.

ـ أتشعرين بألم؟ هل تريدين أن أوقظ إيلينا؟

ـ سأموت ـ قالت بصوت خافت جداً، وهي تنشج ـ. لقد نقلوا إليّ عدوى شيء ما، هناك في لاغوس، ولا أحد يعرف ما هو. يقولون إنه ليس الإيدز، ولكن ما هو إذن. لم تعد لدي قوة لعمل أي شيء. ليس لدي قوة للأكل، ولا للمشي، ولا حتى لرفع ذراعي. هذا ما جرى لخوان بارّيتو، هناك في نيوماركت، ألا تتذكر؟ إنني أعاني من سيلان متواصل، هنا في الأسفل، يشبه القيح. ليس الألم فقط، وإنما أشعر فوق ذلك بقرف شديد من جسدي، ومن كل شيء، منذ ما جرى في لاغوس.

ظلت تبكي لوقت طويل، وتشكو من البرد، بالرغم من كثرة الأغطية فوقها. فكنت أمسح دموعها، وأقدم لها رشفات من الماء، يثبط همتي إحساس بالعجز. ماذا أقدم لها، ماذا أقول لها، لأُخرجها من هذا الوضع؟ إلى أن أحسست أخيراً أنها نامت. رجعتُ إلى غرفة نومي بقلب منقبض. أجل، إنها في حالة حرجة جداً، ربما هي مصابة بالإيدز، وستنتهي في الغالب كما انتهى المسكين خوان بارّيتو.

عندما رجعتُ، في مساء هذا اليوم بالذات، من العمل، كانت جاهزة للدخول إلى مستشفى كوشان في صباح اليوم التالي. كانت قد ذهبت في سيارة أجرة لإحضار أمتعتها، وقد جاءت بحقيبة وحقيبة يد ووضعتهما في الخزانة. عنفتُها. لماذا لم تنتظرني كي أرافقها

لإحضار أمتعتها؟ ودون لف ولا دوران، قالت لي إنها تخجل من السماح لي برؤية الغرفة الحقيرة حيث كانت تعيش.

في صباح اليوم التالي، حملت الحقيبة الصغيرة فقط، وغادرت مع إيلينا. وعند الوداع، همست في أذني بشيء أسعدني:

ـ أنت أفضل ما جرى لي في الحياة أيها الطفل الطيب.

اليومان اللذان كان مقرراً أن يستغرقهما الفحص الطبي، امتدا إلى أربعة أيام، ولم أستطع رؤيتها في أي يوم منها. فقد كان المستشفى صارماً جداً بالمواعيد، وحين كنت أخرج من اليونسكو، يكون وقت الزيارة قد انقضى. ولم أستطع التكلم معها بالهاتف كذلك. فكانت إيلينا تخبرني، في الليل، بما استطاعت أن تتقصاه عن حالتها. إنها تتحمل، بكل قوة وثبات، الفحوص والتحاليل والاستجوابات ووخز الإبر. إيلينا تعمل في جناح آخر، لكنها كانت تتدبر الأمر لتمر وتراها مرتين في اليوم. كما أن البروفسور بوريشون، وهو طبيب داخلية، وأحد أبرز أطباء المستشفى، تولى حالتها باهتمام. وفي الأمسيات، عندما كنت أعود وأجد جيلال مقابل جهاز التلفاز، أرى على سبورته السؤال «متى ستعود؟».

في اليوم الرابع ليلاً، وبعد أن تناول جيلال العشاء وأوى إلى فراشه، جاءت إيلينا إلى بيتي لتنقل لي أخباراً. بالرغم من أنه مازال بالانتظار معرفة نتيجة تحليلين، إلا أن البروفسور بوريشون قدم لها بعض النتائج المستخلصة. الإصابة بالإيدز مستبعدة تماماً. إنها تعاني من سوء تغذية شديد، ومن حالة قنوط وانحطاط، ومن فقدان الدافع الحيوي. وهي بحاجة إلى علاج نفساني فوراً، يساعدها على استعادة «وهم الحياة»، وبدون ذلك لن يجدي أي برنامج لاسترداد القوة البدنية. ربما تكون مسألة الاغتصاب حقيقية؛ فلديها آثار تمزق وقروح في الرحم وفي المستقيم على السواء، وهناك جرح متقيح، ناتج عن أداة

معدنية أو خشبية ـ هي لا تتذكر ذلك ـ أُدخلت بالقوة، فأحدثت تمزقاً فـي أحد جدران المهبل، قريباً جداً من الرحم. ومن المفاجئ أن هذا الجرح، المهمل دون علاج، لم يسبب لها تعفنات دموية. لابد من مداخلة جراحية لتنظيف الدمل وخياطة الجرح. لكن ما هو أشد حساسية في لوحتها الطبية الضغط النفسي الشديد الذي يثقل عليها، نتيجة تلك التجربة في لاغوس ووضعها الحالي الغامض، ويجعلها غير مطمئنة، وضعيفة الشهية، وضحية نوبات هلع. وحالات الإغماء هي بسبب تلك الصدمة النفسية. أما القلب، والدماغ، والمعدة فتعمل بصورة طبيعية.

ـ سيُجرون لها هذه العملية الجراحية الصغيرة في الرحم غداً صباحاً ـ أضافت إيلينا ـ الدكتور بينو، الجراح، هو صديق لي، ولن يتقاضى شيئاً. يتوجب دفع تكاليف طبيب التخدير وثمن الأدوية فقط. حوالي ثلاثة آلاف فرنك، قد تزيد أو تنقص قليلاً.

ـ لا توجد أي مشكلة يا إيلينا.

ـ بعد كل شيء، الأخبار ليست سيئة، أليس كذلك؟ ـ شجعتني ـ. كان يمكن لوضعها أن يكون أسوأ، إذا أخذنا في الاعتبار المجزرة التي ارتكبها أولئك المتوحشون بهذه المسكينة. البروفيسور بوريشون يوصي بأن تقضي بعض الوقت براحة تامة في إحدى المصحات، حيث يتوفر أطباء نفسانيون جيدون. وألا تقع في أيدي أوغاد مدعين يمكن لهم أن يدخلوها في متاهة ويزيدون حالتها سوءاً أكثر مما هي عليه. المشكلة أن مثل هذه المصحات تكون عالية التكاليف عادة.

ـ سأتولى أنا تأمين ما يتطلبه الأمر. المهم أن نجد لها طبيباً اختصاصياً جيداً، يُخرجها من هذا الوضع لتعود إلى ما كانت عليه، وليس الجثة التي هي عليها الآن.

ـ سنجده، أعدك بذلك ـ ابتسمت لي إيلينا، وهي تربت على

ذراعي ـ إنها حب حياتك الكبير، أليس كذلك يا ريكاردو؟

ـ حبي الوحيد يا إيلينا. إنها المرأة الوحيدة التي أحببتها، منذ أن كانت طفلة. لقد فعلت المستحيل لأنساها، ولكن دون طائل في الحقيقة. لقد أحببتها دائماً. ولن يكون للحياة مغزى في نظري إذا ما توفيت.

ـ يا لهذه الفتاة من محظوظة، أن تُلهم حباً كهذا ـ ضحكت جارتي، ـ تستحق أن أرفع لها قبعتي! سأطلب منها الوصفة. وسيمون على حق: هذا اللقب الذي تطلقه عليك يناسبك مناسبة الخاتم للإصبع.

في صباح اليوم التالي طلبتُ إذناً من اليونسكو لأكون في مستشفى كوشان خلال إجراء العملية الجراحية الصغيرة. انتظرتُ في ممر ذي سقف عالٍ جداً، تهب عليه ريح جليدية وتذرعه ممرضات، وأطباء، ومرضى، وبين حين وآخر مرضى مطروحون على نقالات مع مضخات أوكسجين وزجاجات بلازما تتدلى فوق رؤوسهم. وكانت هناك لوحة تقول «ممنوع التدخين»، يبدو أنه ليس هناك من يتقيد بها.

تحدث إليّ الدكتور بينو بضع دقائق، بوجود إيلينا، بينما هو يخلع قفازيّ المطاط، ويغسل يديه بعناية بصابون كثيف الرغوة وتحت ماء متدفق يتصاعد منه البخار. كان رجلاً فتياً إلى حد ما، واثقاً من نفسه، ولا يلجأ إلى المداراة وهو يتكلم:

ـ ستكون في حالة جيدة جداً. أنت مطلع على حالتها. رحمها متضرر ومعرّض للالتهاب والنزف. المستقيم متأذٍ أيضاً. يمكن لأي شيء أن يهيجها ويفتح الجراح. عليك أن تضبط نفسك يا صديقي. ممارسة الحب بحذر شديد وليس بتواتر كبير. وأنصحك بالامتناع نهائياً في هذين الشهرين الأولين. يفضل عدم لمسها. وإذا لم يكن هذا ممكناً، فلابد من توخي أقصى الحذر. لقد تعرضت السيدة لتجربة قاسية. لم يكن اغتصاباً عادياً، وإنما هي، كي تدرك ذلك، مجزرة

حقيقية.

كنت إلى جانب الطفلة الخبيثة عندما جاؤوا بها من غرفة العمليات إلى القاعة الكبيرة المشتركة، حيث وضعوها في حيز معزول بين حاجزين متحركين. كان مكاناً فسيحاً جداً، جدرانه حجرية، وسقفه محدب وقاتم يدفع إلى التفكير بعش خفافيش، وأرضية بلاطها نظيف لا تشوبه شائبة، ورائحة معقمات وسوائل غُسول نفاذة، وإضاءة سيئة. بدت أشد شحوباً مما كانت عليه، أشبه بجثة، وبعينين نصف مغمضتين. عندما تعرّفت عليّ، مدت لي يدها. وحين صارت بين يدي، بدت لي شديدة النحول والصغر مثل يد جيلال.

- إنني بخير - قالت لي، بقوة، قبل أن أسألها عن حالها -. الطبيب الذي أجرى لي العملية كان لطيفاً جداً. وشاباً وسيماً.

قبّلتها من شعرها، ومن أذنيها البديعتين.

- آمل ألا تبدئي مغازلته. أنت قادرة على عمل أي شيء.

ضغطت على يدي، وفي الحال تقريباً، غطت في النوم. نامت طوال فترة الصباح، ولم تستيقظ إلا مع بداية المساء، وكانت تشكو الألم. وبتعليمات من الطبيب، جاءت ممرضة لتزرقها حقنة. بعد قليل من ذلك جاءت إيلينا مرتدية روباً أبيض، وحاملة إليها كنزة. لبستها فوق قميص النوم. سألتها الطفلة الخبيثة عن جيلال، وابتسمت حين علمت أن ابن الزوجين غرافوسكي يسأل عنها طوال الوقت. ظللت إلى جانبها شطراً لا بأس به من المساء، ورافقتها بينما هي تأكل، في صينية بلاستيكية صغيرة: حساء خضار، وقطعة لحم دجاج مسلوق مع بطاطا مطبوخة. كانت ترفع الملاعق إلى فمها دون شهية، لا يدفعها إلى ذلك إلا إلحاحي عليها.

- أتدري لماذا يعاملني الجميع هنا معاملة جيدة - قالت لي -. من أجل إيلينا. فالممرضات والأطباء يعبدونها. إنها واسعة الشعبية في

المستشفى.

بعد قليل أخرجونا نحن الزائرين. وفي تلك الليلة، في بيت الزوجين غرافوسكي، كانت لدى إيلينا أخبار لي. لقد قامت باستقصاءات واستشارات مع الدكتور بوريشون. وقد اقترح عليها مصحة خاصة صغيرة، في بيتي كلامار، غير بعيد جداً عن باريس، حيث كان قد أرسل بعض المرضى، ضحايا اكتئاب واختلال عصبي نتيجة سوء معاملة، وكانت النتائج جيدة. مدير المصحة من زملائه في الدراسة. وإذا رغبنا، يمكنه أن يوصيه بحالة الطفلة الخبيثة.

ـ لا يمكنك أن تعرفي مقدار امتناني لك يا إيلينا. يبدو لي أنه المكان المطلوب. سنبدأ الإجراءات بأسرع ما يمكن.

تبادلت إيلينا النظرات مع سيمون. كنا نتناول فنجان القهوة المعهود، بعد أن تناولنا عجة على العشاء، مع قليل من الجانبون، وسلطة، وكأس نبيذ.

ـ هناك مشكلتان ـ قالت إيلينا، بارتباك ـ المشكلة الأولى أنت تعرفها، المصحة خاصة ولابد أن تكون باهظة التكاليف.

ـ لدي بعض المدخرات، وإذا لم تكن كافية، فسأطلب قرضاً. وإذا تطلب الأمر، سأبيع الشقة. النقود ليست مشكلة، المهم أن تشفى. وما هي المشكلة الثانية؟

ـ جواز السفر الذي قدمته الطفلة الخبيثة في مستشفى كوشان مزيف ـ أوضحت لي إيلينا، بملامح ونبرة صوت كما لو أنها تطلب المعذرة، وأضافت ـ: كان عليَّ أن أقوم ببهلوانيات كي لا تشي بها الإدارة إلى الشرطة. ولكن عليها، لسوء الحظ، أن تغادر المستشفى غداً وألا تعود لتضع قدميها هناك أبداً. ولست أستبعد أنهم، فور خروجها، سيشون بها إلى السلطات.

ـ هذه السيدة لن تتوقف عن مفاجأتي ـ هتف سيمون ـ أتلاحظان

كم هي عقيمة حيواتنا بالمقارنة مع حياتها؟

ـ أيمكن تدبر مسألة الوثائق تلك؟ ـ سألتني إيلينا ـ. يخيل إليّ أن الأمر لن يكون سهلاً، بالطبع. لا أدري، ربما يكون عائقاً كبيراً في مصحة الدكتور زيلاكسي، في بيتي كلامار. لن يقبلوها هناك إذا ما اكتشفوا أن وضعها في فرنسا غير شرعي. وربما يشون بها إلى الشرطة.

ـ لا أظن أن وثائق الطفلة الخبيثة كانت نظامية في أي يوم من حياتها ـ قلت أنا ـ. إنني واثق من أنها لا تملك جواز سفر واحداً، وإنما عدة جوازات سفر. قد يكون أحدها أقل زيفاً من الأخرى. سأسألها.

ـ سننتهي جميعنا إلى السجن ـ أطلق سيمون قهقهة مدوية ـ. سيمنعون إيلينا من ممارسة الطب، وسيطردونني من معهد باستور. حسن، هكذا سنبدأ أخيراً بعيش الحياة الحقيقية.

انتهينا ثلاثتنا إلى الضحك، وأشعرني الضحك المشترك مع صديقيّ بأنني على ما يرام. وكانت تلك هي الليلة الأولى من الليالي الأربع الأخيرة التي نمتُ فيها نوماً متصلاً إلى أن رنّ المنبه. وفي اليوم التالي، عند عودتي من اليونسكو، وجدت الطفلة الخبيثة مستقرة في سريري، ومعها باقة الزهر التي كنتُ قد أرسلتها إليها، وقد وُضعت في إناء مملوء بالماء على الكوميدينو. كانت تشعر بالتحسن، ودون آلام. لقد جاءت بها إيلينا من مستشفى كوشان وساعدتها على الصعود، لكنها رجعت بعد ذلك إلى عملها. وكان يرافقها جيلال، سعيداً، سعيداً جداً بالقادمة الجديدة. وعندما انصرف الطفل، قالت لي الطفلة الخبيثة بصوت خافت، كما لو أن ابن الزوجين غرافوسكي مازال قادراً على سماعها:

ـ قل لسيمون وإيلينا أن يأتيا لتناول القهوة هنا هذه المرة. بعد أن ينام جيلال. سأساعدك في إعداد القهوة. أريد أن أشكرهما على كل

ما فعلته إيلينا من أجلي.

لم أسمح لها بالنهوض لمساعدتي. أعددتُ القهوة، وبعد قليل طرق الزوجان غرافوسكي الباب. نقلتُ الطفلة الخبيثة محمولة ـ لم يكن لها وزن يذكر، ربما مثل جيلال ـ، كي تجلس معنا في الصالة، وغطيتها ببطانية. عندئذ، ودون أن تحييهما، أطلقت لهما الخبر بعينين متلألئتين:

ـ إياكما أن تسقطا ميتين من المفاجأة، أرجوكما. هذا المساء، بعد أن تركتنا إيلينا وحدنا، عانقني جيلال وقال لي بالإسبانية، وبوضوح: «يحبك كثيراً أيتها الطفلة الخبيثة». قال «يحبك»، وليس أحبك.

وكي لا يبقى لدينا أدنى شك في أنها تقول لنا الحقيقة، فعلت شيئاً لم أر أحداً يفعله منذ أيامي كتلميذ في مدرسة شامبان، في ميرافلوريس: رفعت إلى فمها إصبعين شكلت بهما صليباً، وقبّلتهما وهي تقول: «أقسم إنه قال لي ذلك، وبكل حروفه».

انفجرت إيلينا في البكاء، وبينما هي تسكب تلك الدمعات، وتضحك، عانقت الطفلة الخبيثة. هل قال جيلال شيئاً آخر؟ لا. فعندما حاولت أن تبدأ محادثة معه، عاد الطفل إلى صمته، وصار يرد عليها بالفرنسية مستخدماً لوحه الصغير. لكن هذه الجملة التي نطق بها، بالصوت الرفيع نفسه الذي تتذكره في الهاتف، تثبت بصورة قاطعة أن جيلال ليس أبكم. لم نتكلم في أي شيء آخر لبعض الوقت. تناولنا قهوة، وشربت أنا وسيمون وإيلينا كأساً من ويسكي كنت أحتفظ به في خزانة مطبخي منذ زمن لا ترقى إليه الذاكرة. وضع الزوجان غرافوسكي الإستراتيجية التي يجب إتباعها. عليهما هما، وأنا أيضاً، أن نتظاهر بأننا لا نعرف شيئاً. وبما أن الطفل بادر إلى التوجه في الكلام إلى الطفلة الخبيثة، فعلى هذه أن تحاول، بصورة

طبيعية، ودون أي ضغط عليه، أن تفتح حواراً معه من جديد، بأن توجه إليه أسئلة، دون أن تنظر إليه، وكأنها مشغولة وساهية، متجنبة بأي حال أن يشعر جيلال بأنه مراقب أو خاضع لاختبار.

وبعد ذلك، تحدثت إيلينا إلى الطفلة الخبيثة عن مصحة الدكتور زيلاكسي، في بيتي كلامار. إنها مصحة صغيرة، في حديقة معتنى بها وممتلئة بالأشجار، والمدير هو صديق وزميل دراسة للبروفيسور بوريسون، وهو عالم نفس وطبيب نفساني مشهور، متخصص في معالجة مرضى يعانون حالات اكتئاب وانهيار عصبي ناتجة عن حوادث، أو إساءات، أو صدمات مختلفة؛ كما أنه يعالج حالات فقدان الشهية، والتسمم الكحولي، والإدمان على المخدرات. ونتائج الفحوص كانت حاسمة: الطفلة الخبيثة بحاجة إلى الانعزال لبعض الوقت في مكان مناسب، وأن تكون في راحة تامة، حيث تتابع في الوقت نفسه علاجاً يقوم على حمية خاصة، وتمارين تعيد إليها قواها، وستتلقى دعماً نفسياً يساعدها على محو آثار تلك التجارب الفظيعة من ذهنها.

- أتريدين القول إنني مجنونة؟ - سألت.

- لقد كنتِ مجنونة على الدوام - أكدتُ أنا - ولكنك الآن، فوق ذلك، مصابة بفقر الدم، وخوار القوى، وهذا ما ستشفين منه في المصحة. ولكنك ستظلين مجنونة لا علاج لها طوال ما تبقى من حياتك، إذا كان هذا هو ما يقلقك.

لم تحتفِ بما قلته؛ لكنها، بالرغم من بعض التحفظ، انصاعت لإصراري ووافقت على أن تطلب إيلينا موعداً مع مدير مصحة بيتي كلامار. وسترافقنا جارتنا إلى هناك. عندما انصرف الزوجان غرافوسكي، نظرت إليّ بقلق ومفعمة بالتأنيب:

- ومن سيدفع لي تكاليف هذه المصحة، وأنا كما تعلم ليس لدي مكان أموت فيه؟

ـ ومن سيكون سوى الأخرق المعهود ـ قلت لها وأنا أرتب لها الوسائد ـ. أنت تميمتي الدينية، ألا تعرفين ذلك؟ الحشرة الأنثى التي تلتهم الذكر بينما هو يمارس الحب. ويموت سعيداً كما يبدو. إنها حالتي بالضبط. لا تقلقي بشأن النقود. ألا تعلمين أنني ثري؟

تعلقت بإحدى ذراعيّ بكلتا يديها.

ـ أنت لست ثرياً، وإنما صعلوك فقير ـ قالت بغضب ـ. لو كنتَ غنياً لما كنتُ ذهبت إلى كوبا، ولا إلى لندن، ولا إلى اليابان. ولكنتُ ظللت معك منذ تلك المرة، عندما عرّفتني على باريس، وكنت تأخذني إلى تلك المطاعم المريعة، مطاعم المتسولين. وكنتُ أهجرك دوماً لأذهب مع أغنياء يتكشفون عن قمامة. هكذا انتهى بي المطاف لأن أصير في حالة يرثى لها. أأنت سعيد باعترافي هذا؟ أيروقك سماعه؟ أتفعل كل هذا لتثبت لي أنك أسمى منهم جميعاً، ولتنبهني إلى ما خسرته معك؟ لماذا تفعل هذا كله، إذا كان ممكناً أن أعرف؟

ـ وماذا سيكون السبب أيتها الطفلة الخبيثة. ربما أريد أن أكسب مغفرة لأذهب إلى الجنة. ويمكن أيضاً أن أكون مازلت مغرماً بك. والآن، يكفي تكهنات. إلى النوم. البروفيسور بوريشون يقول إنه عليك، إلى أن تستردي عافيتك تماماً، أن تنامي ثماني ساعات يومياً على الأقل.

بعد يومين من ذلك، انتهى عقدي المؤقت مع اليونسكو، وصار بإمكاني أن أكرس لها اليوم كله. لقد وصفوا لها في مستشفى كوشان نظام حمية يستند إلى الخضار، والسمك، واللحم المسلوق، أما الكحول فممنوع، بما في ذلك النبيذ، وكذلك القهوة وكل أنواع التوابل الحريفة. وعليها أن تمارس تمارين، وأن تمشي ساعة في اليوم على الأقل. في الصباح، بعد الفطور ـ كنت أخرج لشراء أهلة كروسان خارجة لتوها من الفرن من مخبز في إيكول ميليتير ـ، كنا

نقوم بنزهة، متأبطي الأذرع، تحت برج إيفل، وعبر حقول مارس، وإذا ما كان الطقس مناسباً، وكانت هي في حالة معنوية جيدة، كنا نبتعد على ضفاف السين حتى ساحة الكونكورد. وكنتُ أتركها تدير الحديث، لكنني أحول دون السماح لها بالتحدث عن فوكودا أو عن أحداث لاغوس. لم يكن باستطاعتي تحقيق ذلك دوماً. وعندئذ، إذا ما أصرت على التطرق إلى الموضوع، كنت أكتفي بالاستماع إلى ما تريد إخباري به، دون أن أوجه إليها أسئلة. ومن خلال الأشياء التي كنتُ ألمحها، بين حين وآخر، من شبه المونولوجات تلك، استنتجت أن اعتقالها في نيجيريا جرى في اليوم الذي كانت تغادر فيه تلك البلاد. لكن قصتها، وهي مخلخلة، تدور دائماً في نوع من الضبابية. كانت قد تجاوزت جمارك المطار، وكانت تقف في آخر صف المسافرين، متوجهة إلى الطائرة. أخرجها شرطيان من هناك، بأسلوب لطيف؛ لكنّ سلوكهما تبدل تماماً فور إدخالها في سيارة كبيرة، زجاجها مطلي بالأسود، وصار الوضع أسوأ عندما أنزلوها في مبنى كريه الرائحة، حيث توجد زنازين لها قضبان حديدية، وتنبعث منها رائحة البراز والبول.

ـ أنا لا أظن أنهم اكتشفوني، فتلك الشرطة غير قادرة على اكتشاف أي شيء ـ كانت تقول مرة بعد أخرى ـ. هناك من وشى بي. ولكن من، من؟ أفكر أحياناً في أنه فوكودا نفسه. ولكن، لماذا يفعل ذلك؟ إنه اعتقاد بلا أساس ولا رأس، أليس كذلك؟

ـ ما أهمية كل هذا الآن. لقد انقضى. انسي ذلك، أدفنيه. لا يناسبك أن تعذبي نفسك بهذه الذكريات. الشيء الوحيد المهم هو أنك ظللت على قيد الحياة، وعما قريب ستكونين معافاة تماماً. ولن تتورطي بعد اليوم أبداً بمثل هذه التعقيدات التي أضعت فيها نصف حياتك.

بعد أربعة أيام، وكان يوم خميس، قالت لنا إيلينا إن الدكتور زيلاكسي، مدير مصحة بيتي كلامار، سيستقبلنا يوم الاثنين ظهراً. فقد تحدث إليه البروفيسور بوريشون بالهاتف، وأرسل إليه كل نتائج الفحص الطبي الذي أُجري للطفلة الخبيثة، وأضاف إليها إرشاداته ونصائحه. ويوم الجمعة، ذهبتُ للقاء السيد تشارنيس الذي استدعاني من خلال سكرتيرة وكالة الترجمة والمترجمين الفوريين التي يديرها. عرض عليّ عقد عمل لمدة أسبوعين، في هلسنكي، وبأجر جيد. وافقتُ على العرض. وعندما رجعت إلى البيت، وفور فتحي الباب، سمعت أصواتاً وضحكاً في غرفة النوم. ظللت ساكناً أصغي، عند الباب الموارب. كان الكلام يدور بالفرنسية، وأحد الصوتين هو صوت الطفلة الخبيثة. وكان الصوت الآخر نحيلاً، صائتاً، ومتردداً قليلاً، لا يمكن له إلا أن يكون صوت جيلال. ابتلت يداي بالعرق فجأة. ظللت منتشياً. لم أتمكن من فهم ما يقولانه، لكنهما كانا يلعبان لعبة ما، ربما الدامة، وربما لعبة يان ـ كين ـ بو، ولابد أنهما كانا يستمتعان باللعب، نظراً إلى ضحكهما. لم يسمعاني وأنا أدخل. أغلقتُ الباب الخارجي بهدوء، وتقدمت باتجاه غرفة النوم وأنا أقول بصوت عالٍ، وبالفرنسية:

ـ أراهن أنكما تلعبان الدامة، وأن الطفلة الخبيثة هي التي تكسب.

كانت هناك برهة صمت، وعندما تقدمتُ خطوة أخرى ودخلت إلى غرفة النوم، رأيت أنهما يضعان رقعة الدامة في منتصف السرير الذي يجلسان على طرفيه متقابلين، وكلهما منحن على أحجار اللعب. كانت هيئة جيلال تنظر إليّ بعينين تلمعان بالاعتزاز. وعندئذ فتح فمه كثيراً، وقال بالفرنسية:

ـ يكسب جيلال.

ـ إنه يفوز عليّ دوماً، هذا غير عادل ـ صفقت الطفلة الخبيثة ـ.

هذا الطفل بطل.

ـ فلنر، فلنر، أريد أن أكون الحكم في هذه اللعبة ـ قلتُ وأنا أتهاوى على أحد أركان السرير وأمعن النظر إلى رقعة اللعب. حاولتُ التظاهر بالتلقائية المطلقة، كما لو أنه ليس ثمة شيء استثنائي يحدث، ولكنني كنت أكاد لا أستطيع التنفس.

كان جيلال ينحني على الأحجار، يراقب، ويدرس الحركة التالية. وفي إحدى اللحظات، تقاطعت نظرتي ونظرة الطفلة الخبيثة. فابتسمت وغمزت لي بعينها.

ـ يكسب مرة أخرى! ـ صاح جيلال مصفقاً.

ـ أجل يا صاحبي، لم يعد أمامها مجال للحركة. لقد كسبتَ. اضرب كفك!

شددت على يده، وقبّلته الطفلة الخبيثة.

ـ لن أعود إلى لعب الدامة معك، لقد مللت تلقي الضربات ـ قالت هي.

ـ لقد خطرت لي فكرةُ لعبة أكثر إمتاعاً يا جيلال ـ ارتجلتُ فوراً ـ لماذا لا نقدم إلى إيلينا وسيمون مفاجأة حياتهما؟ سنرتب لهما مشهداً يتذكره أبواك طوال ما تبقى لهما في الحياة. أترغب في ذلك؟

كان الطفل قد اتخذ مظهر التنبه، وراح ينتظر ما سأقوله، دون أن يلزم نفسه بأي شيء. وبينما أنا أعرض أمام عينيه هذه الخطة التي كنت أرتجلها أولاً بأول وأنا أطرحها، كان يستمع إليّ مأخوذاً، وبشيء من الفزع، دون أن يتجرأ على الرفض، بين انجذاب إلى اقتراحي وصد عنه في الوقت نفسه. وعندما انتهيت، ظل ساكناً وصامتاً لبعض الوقت، ينظر إلى الطفلة الخبيثة، وينظر إليّ:

ـ ما رأيك يا جيلال؟ ـ ألححتُ عليه، بالفرنسية أيضاً ـ أنقدم هذه المفاجأة إلى سيمون وإيلينا؟ أؤكد لك أنهما لن ينسياها مدى الحياة.

ـ حسن ـ قال صوت جيلال النحيل، بينما رأسه يتحرك موافقاً ـ سنقدم لهما هذه المفاجأة.

فعلنا ذلك مثلما ارتجلته، وسط الانفعال والحيرة اللذين سادا لدى *سماع* جيلال. فعندما جاءت إيلينا لتأخذه، توسلنا إليها أنا والطفلة الخبيثة أن ترجع، بعد العشاء، ومعها سيمون والطفل، لأن لدينا حلوى لذيذة جداً نريد تكريمهم بها. فقالت إيلينا التي فوجئت قليلاً إنهم سيأتون، لا بأس، ولكن لوقت قصير، لأنهم إذا تأخروا فلن يكون سهلاً إيقاظ جيلال النؤوم في صباح اليوم التالي. خرجتُ مثل روح يحملها الشيطان إلى ناصية إيكول ميليتير، حيث محل الحلويات الذي نشتري منه الكروسان، في جادة بوردونيه. وكان المحل مفتوحاً لحسن الحظ. اشتريت كعكة فيها الكثير من الكريما، وفوقها حبات فريز كبيرة وشديدة الحمرة. وبالانفعال الذي كنا عليه، لم نكد نتذوق وجبة حمية الخضار والسمك التي كنت أتقاسمها مع الناقهة.

عندما جاء سيمون وإيلينا وجيلال ــ وكانوا ينتعلون أخفافاً ويرتدون أرواباً بيتية ــ، كانت القهوة جاهزة، وقالب الحلوى مقطعاً إلى شرائح بانتظارهم. وعلى الفور لمحتُ في ملامح إيلينا أنها تتوجس شيئاً. أما سيمون، بالمقابل، فمشغول الفكر بمقالة عالِمٍ روسي منشق، قرأها ذلك المساء، فكان هائماً في القمر، يروي لنا، بينما كريما الحلوى تلوث لحيته، أن ذلك العالم قد زار منذ وقت غير بعيد معهد باستور، وأن جميع الباحثين والعلماء ذهلوا بتواضعه وإمكاناته الفكرية. عندئذ، ووفقاً للسيناريو الهذياني الذي ارتجلته، سألتنا الطفلة الخبيثة بالإسبانية:

ـ كم لغة في اعتقادكم يتكلمها جيلال؟

أحسستُ، على الفور، أن سيمون وإيلينا تجمدا في مكانيهما،

وفتحا عيونهما على اتساعها وكأنهما يتساءلان: «ما الذي يحدث هنا؟».

ـ أظن أنه يتكلم لغتين ـ قلتُ مؤكداً ـ الفرنسية والإسبانية. وأنتما، ماذا تظنان؟ كم لغة يتكلم جيلال، يا إيلينا؟ وكم لغة تظن أنت يا سيمون؟

كانت عينا جيلال تتنقلان من أبويه إليّ، ومني إلى الطفلة الخبيثة، ثم من جديد إلى أبويه. كان جدياً جداً.

ـ إنه لا يتكلم أية لغة ـ تلعثمت إيلينا وهي تنظر إلينا، وتتجنب أن تدير رأسها باتجاه الطفل ـ أو أنه لا يتكلم أي لغة حتى الآن على الأقل.

ـ أنا أظن... ـ قال سيمون ذلك وصمت مرتبكاً، ومتوسلاً بنظره أن نشير له إلى ما عليه أن يقوله.

ـ الحقيقة أنه لا أهمية لما نعتقده نحن ـ تدخلت الطفلة الخبيثة ـ. المهم هو ما يقوله جيلال. ما قولك أنت يا جيلال؟ كم لغة تتكلم؟

ـ يتكلم فرنسية ـ قال الصوت النحيل والصائت. وبعد توقف قصير، بدّل اللغة قائلاً ـ: جيلال يتكلم إسبانية.

ظل سيمون وإيلينا ينظران إليه وقد عقد البكم لسانيهما. قطعة الحلوى التي كان يحملها سيمون انزلقت من الطبق باتجاه الأرض، واستقرت على بنطاله. انفجر الطفل في الضحك، ورفع إحدى يديه إلى فمه، وهتف بالفرنسية وهو يشير إلى ساق سيمون:

ـ وسَّخَ بنطلون.

كانت إيلينا قد نهضت واقفة، وصارت الآن إلى جانب الطفل، تنظر إليه بنشوة، تداعب شعره بإحدى يديها، وتمر بالأخرى على شفتيه، مرة بعد أخرى، مثل متدينة تتلمس صورة القديس شفيعها. ولكن أشد الزوجين تأثراً كان سيمون. لقد كان عاجزاً عن النطق بأي شيء، ينظر إلى ابنه، إلى زوجته، إلينا، مخبولاً، كما لو أنه

يطلب منا ألا نوقظه... أن نتركه يحلم.

لم يقل جيلال شيئاً آخر في تلك الليلة. أخذه أبواه بعد قليل، وأعدّت الطفلة الخبيثة، في دورها كربة البيت، لفافة فيها نصف قالب الحلوى الزائد، وأصرت أن يأخذه الزوجان غرافوسكي. أما أنا فصافحتُ جيلال مودعاً:

- لقد خرج ما فعلناه جيداً، أليس كذلك يا جيلال؟ إنني مدين لك بهدية، لأنك تصرفت على أحسن وجه. أتريد ستة جنود آخرين من الرصاص، تضيفهم إلى مجموعتك؟

هز رأسه بحركة موافقة. وعندما أغلقنا الباب، هتفت الطفلة الخبيثة:

- إنهما في هذه اللحظة أسعد زوجين على وجه الأرض.

بعد وقت طويل من ذلك، عندما بدأت أغفو، رأيتُ شبحاً ينسل في الصالة، ويقترب بصمت من الصوفا التي أنام عليها. أمسكت يدي:

- تعال، تعال معي - قالت لي آمرة.

- لا أستطيع ذلك، ويجب علي عدم فعله - قلت لها وأنا أنهض وأتبعها - الدكتور بينو حظر عليّ ذلك. لا يمكن لي أن ألمسك طوال شهرين، ناهيك عن ممارسة الحب. ولن ألمسك أو أمارس الحب معك إلى أن تشفي تماماً. مفهوم؟

اندسسنا في فراشها، ولاذت هي بي مسندة رأسها إلى كتفي. أحسست بجسدها الذي كان عظماً وجلداً فقط، وبقدميها الصغيرتين المتجمدتين وهي تفركهما بساقيّ، فاجتاحتني قشعريرة من رأسي حتى كاحليّ.

- لا أريدك أن تمارس الحب معي - همست وهي تقبل رقبتي -. أريدك أن تحتضنني، أن تمنحني الدفء، وأن تخلصني من الخوف

الذي أشعر به. إنني أموت من الرعب.

كان جسدها، وهو هيئة ممتلئة بالنتوءات، يرتعش مثل ورقة. احتضنتها، دلكت ظهرها، ذراعيها، خصرها، وظللتُ لوقت طويل أقول لها كلاماً عذباً في أذنها. لن أسمح بعد اليوم أن يُلحق أحدٌ بها الأذى، عليها أن تبذل جهداً كي تستعيد عافيتها بسرعة، وتسترد قواها، ورغبتها في العيش والسعادة. كي تعود جميلة من جديد. وكانت تصغي إليّ صامتة، ملتحمة بي، وتعتريها بين وقت وآخر اختلاجات تجعلها تئن وتتلوى. وبعد وقت طويل، أحسستُ أنها نامت. ولكنني طوال تلك الليلة، في نومي المتقطع بالأرق، كنت أشعر بها تختلج، تئن، ضحية نوبات الهلع تلك. وعندما أراها على تلك الحال، في ذلك الخذلان، تتوارد إلى ذهني صور ما حدث لها في لاغوس، فأشعر بالأسى، بالغضب، برغبة شرسة في الانتقام من جلاديها.

الزيارة إلى مصحة بيتي كلامار، للقاء الدكتور أندريه زيلاكسي، الفرنسي ذي الأصل الهنغاري، كانت نزهة ريفية. فقد طلعت الشمس مشرقة في ذلك اليوم، جعلت قمم أشجار الحور والبلاتنو في الأيكة تلمع. كانت المصحة في أقصى حديقة فيها تماثيل مثلمة، وبركة تسبح فيها طيور بجع. وصلنا هناك عند الظهر، وأدخلنا الدكتور زيلاكسي فوراً إلى مكتبه. كان المكان في الأصل بيتاً إقطاعياً من القرن التاسع عشر، مؤلفاً من طابقين، أدراجه من الرخام، وشرفاته محاطة بحواجز حديدية، وقد حُدِّث من الداخل، وأضيف إليه جناح جديد، بنوافذ زجاجية كبيرة، ربما هو قاعة سولاريوم أو صالة رياضية مع مسبح مغلق. ومن خلال نافذة مكتب الدكتور زيلاكسي، يظهر في البعيد أناس يتنقلون تحت الأشجار، وبينهم أرواب ممرضات وأطباء بيضاء. وكان زيلاكسي يبدو كذلك كأنه آت من القرن التاسع عشر، بلحيته الصغيرة المشذبة على شكل

مربع، والتي تشكل إطاراً لوجه هزيل وصلعة لامعة. كان يرتدي بدلة سوداء، وصداراً رمادياً، وياقة قاسية تبدو أنها مستعارة، وبدلاً من ربطة العنق، وضع شريطة مطوية أربع طيات يثبتها مشبك قرمزي. ويملك ساعة جيب، مثبتة بسلسلة ذهبية.

ـ لقد تحدثتُ مع زميلي بوريشون، وقرأت تقرير مستشفى كوشان ـ قال داخلاً في الموضوع مباشرة، كما لو أنه لا يستطيع إضاعة الوقت في الترهات ـ. إنكم محظوظون، فالمصحة تكون ممتلئة على الدوام، وهناك أناس ينتظرون طويلاً لقبولهم فيها. ولكن، بما أن للسيدة وضعاً خاصاً، فهي تأتي بتوصية من صديق قديم، فإننا قادرون على توفير مكان لها.

له صوت ذو رنة موزونة جيداً، وأسلوب لبق، مسرحي إلى حدّ ما، في تحريك يديه وإظهارهما. قال إن «المريضة» ستتلقى تغذية خاصة، وفق نظام حمية، كي تسترد ما فقدته من وزنها، وإن مدرباً خاصاً سيتولى الإشراف على تمارينها البدنية. والطبيب الخاص بها سيكون الدكتورة رولان، متخصصة بالصدمات النفسية من النوع الذي وقعت السيدة ضحية له. ويمكن لها أن تستقبل الزيارات مرتين في الأسبوع، بين الخامسة والسابعة مساء. وإضافة إلى العلاج مع الدكتورة رولان، ستشارك في جلسات العلاج الجماعية التي يشرف عليها هو نفسه. اللهم إلا إذا كان هناك مانع من جانبها، ويمكن استخدام التنويم المغناطيسي في العلاج، إنما تحت إشرافه شخصياً. ولكن ـ وتوقف عن الكلام صامتاً كي نعرف أن ما سيأتي هو توضيح مهم ـ إذا ما شعرت المريضة، في أي مرحلة من مراحل العلاج «بخيبة الأمل»، فبإمكانها قطع العلاج فوراً.

ـ لم يحدث مثل هذا الأمر عندنا أبداً ـ أضاف وهو يفرقع بلسانه ـ. ولكن الاحتمال وارد، إذا ما حدث ذلك يوماً.

وقال إنه، بعد التحدث مع البروفيسور بوريشون، اتفقا على أنه لابد للمريضة من البقاء في المصحة أربعة أسابيع على الأقل. وبعد ذلك يُنظر إذا ما كان يُنصح بتمديد إقامتها أو أنه يمكن لها أن تواصل استرداد عافيتها في البيت.

أجاب على كل أسئلة إيلينا وأسئلتي ـ الطفلة الخبيثة لم تفتح فمها، واكتفت بالاستماع كما لو أن الأمر لا يعنيها ـ حول أسلوب عمل المصحة، والمتعاونين معها، وبعد مداعبة مازحة حول لاكان ومزاوجته الخيالية بين البنيوية وفرويد، أشار كي يطمئننا «نحن لا نقدم طريقته في قائمة علاجنا»، طلب من ممرضة أن ترافق الطفلة الخبيثة إلى مكتب الدكتورة رولان. فهي بانتظارها لتبادل الحديث معها وتعريفها على المؤسسة.

عندما بقينا وحدنا مع الدكتور زيلاكسي، تطرقت إيلينا بحذر إلى الموضوع الحساس في تقدير كلفة شهر من العلاج. وسارعت إلى توضيح أنه ليس لدى «السيدة» أي نوع من التأمين أو الثروة الشخصية، وأن الصديق الموجود هنا هو من سيتولى نفقات العلاج.

ـ مئة ألف فرنك تقريباً، دون حساب الأدوية التي يصعب معرفة كلفتها مسبقاً، ولكنها قد تكون حوالي عشرين أو ثلاثين بالمئة من المبلغ في أسوأ الحالات ـ صمت قليلاً، وسعل قبل أن يضيف ـ: إنه سعر خاص، لأن السيدة آتية بتوصية من البروفيسور بوريشون.

نظر إلى ساعته، ونهض واقفاً وهو يشير لنا، إذا ما حسمنا أمرنا، أن نمر بالإدارة كي نملأ الاستمارات.

بعد ثلاثة أرباع الساعة ظهرت الطفلة الخبيثة. كانت سعيدة بمحادثتها مع رولان التي بدت لها حكيمة جداً ولطيفة، وبزيارتها للمصحة. الغرفة التي ستقيم فيها صغيرة، مريحة، وجميلة جداً، لها إطلالة على الحديقة، والمنشآت كلها حديثة جداً: المطعم، صالة

التمارين الرياضية، المسبح الدافئ، قاعة الاستماع حيث تُلقى المحاضرات، وتعرض أفلام وأفلام وثائقية. وقّعتُ وثيقة أتعهد فيها بتحمل كافة التكاليف، وقدمتُ شيكاً بمبلغ عشرة آلاف فرنك كوديعة. وقدمت الطفلة الخبيثة جواز سفر فرنسياً للمشرفة الإدارية، لكن هذه، وهي امرأة نحيلة جداً، تربط شعرها في عقيصة، ولها نظرة محقق تفتيش، قالت إنه من الأفضل إبراز بطاقة الهوية. تبادلنا إيلينا وأنا نظرات قلقة، منتظرين وقوع كارثة.

ـ ليس لدي بطاقة هوية بعد ـ قالت الطفلة الخبيثة، بطبيعية مطلقة ـ لقد عشتُ سنوات طويلة في الخارج، ورجعت للتو إلى فرنسا. أعرف أنه عليّ إصدار بطاقة هوية. سأفعل ذلك بأسرع وقت.

دونت المشرفة الإدارية معلومات جواز السفر في سجل، وأعادته إليها. ثم ودعتنا قائلة:

ـ سيتم إدخالها في الغد. احضري قبل الظهر من فضلك.

انتهزنا اليوم البديع، وسماءه الصافية بالرغم من بعض البرودة، وقمنا بمسيرة طويلة عبر أيكة بيتي كلامار، ونحن نشعر بصريف أوراق الخريف الميتة تحت أقدامنا. تناولنا الغداء في مطعم صغير على ضفاف الغابة، حيث كانت مدفأة حطب مفرقعة تدفئ المحل وتورّد وجوه الزبائن بالحمرة. كان على إيلينا أن تذهب إلى عملها، فتركتنا عند أبواب باريس، في أول محطة مترو وجدناها. وطوال ما تبقى من الرحلة، حتى وصولنا إيكول ميليتير، ظلت الطفلة الخبيثة صامتة، ويدها في يدي. كنتُ أشعر بها تختلج في بعض اللحظات. وفي البيت، في شارع جوزيف غرانيه، أجلستني فور دخولنا على أريكة في الصالة وتهاوت على ركبتي. كان أنفها وأذناها مجمدين ويرتعشان بطريقة لا تتيح لها النطق بكلمة، وكانت أسنانها تصطك.

ـ المصحة ستُحسن حالتك ـ قلتُ لها وأنا أداعب عنقها، كتفيها،

وأدفئ بأنفاسي أذنيها المتجمدتين ـ سيعتنون بك، وسيسمنونك، ويخلصونك من نوبات الخوف هذه. سيجعلونك جميلة، وستتمكنين من التحول مرة أخرى إلى العفريت الصغير الذي كنتهِ دوماً. وإذا لم تعجبك المصحة، ستأتين إلى هنا، فوراً. في اللحظة التي تطلبين فيها ذلك. إنها ليست سجناً، وإنما مكان للراحة.

كانت ملتصقة بي، لكنها ظلت ترتجف لوقت لا بأس به قبل أن تهدأ. عندئذ أعددتُ فنجان شاي مع الليمون لكل منا. ورحنا نتبادل الحديث بينما هي تعد حقيبتها من أجل الذهاب إلى المصحة. قدمتُ إليها مغلفاً وضعتُ فيه ألف فرنك في أوراق نقدية، لتأخذه معها.

ـ ليس هدية، وإنما هو دين ـ قلت لها ممازحاً ـ ستردينه إليّ عندما تصيرين ثرية. وسأتقاضى منك فوائد عالية.

ـ كم سيكلفك هذا كله؟ ـ سألتني، دون أن تنظر إليّ.

ـ أقل مما كنت أظنه. حوالي مئة ألف فرنك. وماذا أهمية المئة ألف فرنك إذا كنتُ سأراك جميلة من جديد؟ إنني أفعل هذا لمجرد المصلحة الخاصة أيتها التشيلية الصغيرة.

لم تقل شيئاً لبعض الوقت، وواصلت إعداد حقيبتها مستاءة.

ـ أصرتُ قبيحة إلى هذا الحد؟ ـ قالت فجأة.

ـ مريعة ـ قلت لها ـ اعذريني، ولكنك تحولت إلى امرأة مخيفة.

ـ كذاب ـ قالت لي، وقذفت نحوي، وهي تستدير، فردة حذاء ارتطمت بصدري ـ لا بد أنني لم أكن قبيحة جداً بالأمس، في الفراش، عندما ظل عصفورك منتصباً طوال الليل. كنتَ تكبح رغبتك في ممارسة الحب معي أيها القديس المزيف.

انفجرت في الضحك، وابتداء من هذه اللحظة صارت في أفضل حالة معنوية. وما إن انتهت من إعداد حقيبتها حتى عادت مرة أخرى للجلوس على ركبتي، كي أحتضنها، وأُجري بعض التدليك الخفيف

لظهرها وذراعيها. وكانت لا تزال هناك، نائمة بعمق، عندما دخل جيلال، في حوالي الساعة السادسة، لمشاهدة برنامجه التلفزيوني. منذ ليلة المفاجأة التي رتبناها لأبوية، انفلت في التكلم معهما ومعنا، ولكن للحظات فقط، ليعود إلى سبورته الصغيرة التي مازال يحملها معلقة إلى عنقه، مع قطعتي طباشير في جراب صغير. لم نسمع صوته في هذه الليلة إلا عندما انصرف مودعاً، بالإسبانية: «ليلة سعيدة يا أصدقاء».

بعد العشاء، ذهبنا لتناول القهوة في بيت الزوجين غرافوسكي، ووعداها بالذهاب لزيارتها في المصحة، وطلبا منها أن تتصل بهما إذا ما احتاجت إلى أي شيء أثناء وجودي في فنلندا. وعندما رجعنا إلى البيت، لم تسمح لي بفتح الصوفا ـ السرير:

ـ لماذا لا تريد النوم معي؟

احتضنتها وشددتها إليّ.

ـ أنت تعرفين السبب جيداً. فوجودك عارية إلى جانبي سيكون تعذيباً لي وأنا أشتيهك بكل هذه الرغبة، ولا أستطيع لمسك.

ـ أنت لا شفاء لك ـ قالت ساخطة، كما لو أنني شتمتها ـ. لو أنكَ كنت فوكودا، لمارست الحب معي طوال الليل، دون أن تهتم قلامة ظفر أن أنزف أو أموت.

ـ أنا لستُ فوكودا. أم أنك لم تلحظي ذلك بعد؟

ـ لقد لحظته بالطبع ـ كررت هي، ملقية ذراعيها حول عنقي ـ. ولهذا ستنام معي هذه الليلة. لأنه ليس هناك ما يروقني أكثر من تعذيبك. ألم تلحظ ذلك؟

ـ بلى، للأسف ـ قلتُ لها وأنا أقبّلها من شعرها ـ. لقد لاحظت ذلك أكثر من كفاية، منذ عدد كبير من السنوات، والأسوأ أنني لا أعتبر. بل كان يبدو كما لو أنني أستعذب الأمر. إننا الثنائي المتكامل:

السادية والمازوشي.

نمنا معاً، وعندما حاولت مداعبتي أمسكتُ يديها وأبعدتهما.

ـ سنبقى عفيفين كملاكين إلى أن تستعيدي عافيتك تماماً.

ـ صحيح، فأنت مغفل حقيقي. احتضني بقوة كي أتخلص من الخوف على الأقل.

في صباح اليوم التالي ذهبنا لركوب القطار من محطة سان لازار، وطوال الرحلة حتى بيتي كلامار ظلت صامتة ومطرقة الرأس. ودعتها عند بوابة المصحة. فتعلقت بي كما لو أننا لن نلتقي إلى الأبد، وبللت وجهي بدموعها.

ـ يمكن لكِ، على هذه الوتيرة، أن تقعي في حبي في أية لحظة.

ـ أراهنك على ما تشاء بأن ذلك لن يحدث أبداً يا ريكاردو.

سافرتُ إلى هلسنكي في مساء ذلك اليوم بالذات، وخلال أسبوعي العمل اللذين أمضيتهما هناك، تكلمت الروسية طوال تلك الفترة، صباحاً ومساء، دون توقف. فقد كان مؤتمراً ثلاثياً، يشارك فيه مندوبون من أوروبا والولايات المتحدة وروسيا، لرسم سياسة مساعدة وتعاون مع البلدان الغربية لما راح يتبقى من أنقاض الاتحاد السوفييتي. كانت هناك لجان تبحث في الاقتصاد، والمؤسسات، والسياسة الاجتماعية، والثقافة، والنقل، وفي هذه اللجان كلها كان المندوبون الروس يعبّرون بحرية وتلقائية ما كان بالإمكان تصورهما قبل وقت قصير من تلك الروبوتات الرتيبة التي كانها أولئك ***الأباراتشيك*** الذين كانت ترسلهم إلى المؤتمرات الدولية حكومات بريجنيف، بل وغورباتشوف أيضاً. لقد كانت الأمور تتبدل هناك، وبدا ذلك واضحاً. شعرتُ برغبة في العودة لزيارة موسكو، ومدينة سان بطرسبورغ بعد إعادة تعميدها، اللتين لم أذهب إليهما منذ بضع سنوات.

كان لدينا نحن المترجمين عمل كثير، نكاد لا نجد معه وقتاً للتنزه. كانت تلك هي رحلتي الثانية إلى هلسنكي. الرحلة الأولى كانت في الربيع، عندما كان بالإمكان السير في الشوارع والخروج إلى الريف لرؤية غابات التنوب التي تتخللها البحيرات والقرى الجميلة ذات البيوت الخشبية في هذه البلاد التي كل شي فيها جميل: الهندسة المعمارية، الطبيعة، الناس، لاسيما المسنون منهم. أما الآن بالمقابل، بوجود الثلج والحرارة المنخفضة إلى عشرين درجة تحت الصفر، فقد كنت أفضل قضاء ساعات الفراغ في الفندق، أقرأ أو أمارس طقوس الساونا السرية التي تسبب لي تأثيراً تخديرياً مبهجاً.

بعد عشرة أيام من وجودي في هلسنكي تلقيت رسالة من الطفلة الخبيثة. إنها مستقرة على ما يرام في مصحة بيتي كلامار التي تأقلمت فيها دون صعوبة. وهم لا يقدمون لها حمية غذائية وإنما إفراط زائد في التغذية. ولكن، بما أنه عليها القيام بتمارين كثيرة في صالة الألعاب الرياضية ـ وهي فوق ذلك تسبح، بمساعدة مدرب، لأنها لم تتعلم السباحة من قبل، وإنما كانت تطفو بالتحرك في الماء مثل كلب صغير ـ، فإن ذلك يفتح شهيتها أكثر. وكانت قد حضرت جلستين مع الدكتورة رولان وقد بدت لها شديدة الذكاء، وتعاملها بصورة جيدة جداً. ولم تكد تتاح لها الفرصة تقريباً للتحدث مع المرضى الآخرين؛ وتقتصر على تبادل التحية مع بعضهم في موعد الغداء. المريضة الوحيدة التي تبادلت الحديث معها مرتين أو ثلاث مرات هي فتاة ألمانية، ضعيفة الشهية، شديدة الحياء والهلع، لكنها فتاة طيبة. وعن جلسة التنويم مع الدكتور زيلاكسي، لا تتذكر إلا أنها شعرت، عندما استيقظت، بالصفاء والراحة. وتقول لي أيضاً إنها تشتاق إليّ، وتطلب مني ألا أقوم «بالكثير من القذارة في تلك الساونات الفنلندية التي هي، كما يعرف الجميع، مراكز كبيرة

للانحلال الجنسي».

عندما رجعتُ إلى باريس، بعد انقضاء الأسبوعين، حصلت لي وكالة السيد تشارنيس، على الفور تقريباً، على عقد عمل آخر لمدة خمسة أيام في الإسكندرية. لم أكد أقضي سوى يوم واحد في فرنسا، ولم أستطع بالتالي أن أذهب لزيارة الطفلة الخبيثة. لكننا تحدثنا في الهاتف عند الغروب. وجدتها مرتفعة المعنويات، وسعيدة بصورة خاصة مع الدكتورة رولان التي تقدم لها، كما قالت لي، «جميلاً هائلاً»، وكانت مبتهجة بجلسات العلاج الجماعي التي يشرف عليها البروفيسور زيلاكسي، «إنها شيء أشبه بالاعترافات لدى الكهنة، ولكن بصورة جماعية، مع مواعظ يقدمها الدكتور». وماذا تريدين أن أحضر لها من مصر؟ «جمل.» وأضافت بجد: «عرفتُ الآن ما أريده: واحد من ملابس رقصة هز البطن المكشوف التي تؤديها الراقصات العربيات». هل تفكر في إسعادي، عندما تخرج من المصحة، باستعراض رقصة هز البطن لي وحدي؟ «عندما أخرج سأفعل لك أشياء لا تعرف أنها موجودة أيها القديس الصغير.» وعندما قلت لها إنني مشتاق إليها كثيراً، ردّت علي: «وأنا أيضاً، على ما أظن». إنها تتحسن، لا شك في ذلك.

تناولتُ العشاء هذه الليلة في بيت الزوجين غرافوسكي، وحملت إلى جيلال دزينة من الجنود المصنوعين من رصاص اشتريتها من متجر في هيلسنكي. ولم تكن الفرحة تتسع لإيلينا وسيمون. فعلى الرغم من أن الطفل يستغرق في الصمت أحياناً ولا يتخلى عن لوحه الصغير، إلا أن لسانه ينفلت في كل يوم أكثر من السابق، ليس معهما فقط، وإنما كذلك في المدرسة، حيث صار زملاؤه يسمونه «الببغاء» بعد أن كانوا يسمونه «الأخرس». إنها مسألة صبر؛ سيصبح عادياً تماماً عما قريب. وكان الزوجان غرافوسكي قد ذهبا لزيارة الطفلة الخبيثة

مرتين، ووجداها متأقلمة تماماً مع أجواء المصحة. وقد تحدثت إيلينا مرة بالهاتف مع البروفيسور زيلاكسي، فقرأ لها بضعة سطور قدمتها إليه الدكتورة رولان في تقرير إيجابي جداً حول تقدم حالة المريضة. كان وزنها قد ازداد، وهي تتحكم بأعصابها في كل يوم أكثر من السابق.

في مساء اليوم التالي سافرت إلى القاهرة، حيث كان علي، بعد خمس ساعات من الطيران الشاق، أن أركب طائرة أخرى، للخطوط الجوية المصرية، إلى الإسكندرية. وصلتُ منهوكاً. وما كدت أستقر في غرفتي الصغيرة في الفندق بالغ التواضع المسمى **فندق النيل** ـ أنا المذنب، فقد اخترت أرخص الفنادق التي عُرضت على المترجمين ـ، ودون أن أجد حماسة لإفراغ حقيبتي، سقطتُ نائماً قرابة ثماني ساعات متواصلة، وهو ما لا يحدث لي إلا نادراً.

في اليوم التالي، وهو يوم فراغ، قمتُ بجولة في المدينة القديمة التي أسسها الاسكندر، وزرت متحفها الذي يضم آثاراً رومانية، وبقايا مدرجها الروماني، وقمت بنزهة طويلة على كورنيشها البحري الجميل الممتلئ بالمقاهي، والمطاعم، والفنادق، ومتاجر السياح، حيث تمور حشود صاخبة وكوزموبوليتية. وبينما أنا جالس في أحد مقاهي الرصيف تلك التي جعلتني أفكر في الشاعر كافافي ـ لم يكن بالإمكان زيارة بيته في الحي اليوناني المختفي والمتعرب الآن، فهناك لافتة بالإنكليزية تشير إلى أن البيت يخضع للترميم من قبل القنصلية اليونانية ـ، كتبتُ رسالة طويلة إلى المريضة، قلتُ لها فيها إنني سعيد جداً لأنها مرتاحة في مصحة بيتي كلامار؛ وأعرض عليها، إذا ما أحسنت السلوك وخرجت معافاة تماماً من المصحة، أن آخذها لمدة أسبوع إلى أحد شواطئ جنوب إسبانيا، كي تتحمص تحت الشمس. أيروقها أن تقضي شهر عسل مع هذا الصعلوك؟

في المساء، عكفت على مراجعة كل الوثائق المتعلقة بالمؤتمر الذي سيبدأ في اليوم التالي. إنها تتحدث عن التعاون والتطور الاقتصادي بين جميع بلدان حوض المتوسط: فرنسا، إسبانيا، اليونان، إيطاليا، تركيا، قبرص، مصر، لبنان، الجزائر، المغرب، ليبيا، سوريا. أما إسرائيل فقد استُبعدت. كانت خمسة أيام منهكة، لا وقت فيها لأي شيء، أمضيتها غارقاً في مداخلات ومجادلات مختلطة ومملة، بدا لي أنها لن تؤدي إلى شيء عملي، على الرغم من أنها أنتجت جبالاً من الورق المطبوع. أحد مترجمي المؤتمر العرب، وهو من الإسكندرية، ساعدني في اليوم الأخير في الحصول على ما طلبته مني الطفلة الخبيثة: ثوب رقص عربي، تملأه البراقع والخرز. تخيلتها تتمايل، وهي ترتديه، مثل نخلة فوق رمل الصحراء، تحت القمر، على إيقاع المزامير والنايات والجلاجل والدفوف والمندولينات والصنوج وغيرها من الآلات الموسيقية العربية، فاشتهيتها.

في اليوم التالي لوصولي إلى باريس، وحتى قبل أن ألتقي الزوجين غرافوسكي، ذهبتُ لزيارتها في مصحة بيتي كلامار. كان يوماً رمادياً وماطراً، وكان الشتاء قد جرد الأيكة المجاورة من أوراقها وأحرقها بالكامل تقريباً. وحديقة النافورة الحجرية، وهي الآن بلا بجع، كانت مغطاة بغمامة ضباب رطبة وكئيبة. أدخلوني إلى صالة فسيحة جداً، يجلس فيها على الكراسي أناس يبدون كأفراد جماعات عائلية. انتظرتُ إلى جوار إحدى النوافذ، تظهر لي من خلالها النافورة، وفجأة رأيتها تدخل، بروب حمام، وعلى رأسها منشفة على شكل عمامة، وتنتعل خفاً.

ـ اعذرني، جعلتك تنتظر، لقد كنت في المسبح، كنت أسبح ـ قالت لي وهي تتطاول لتقبّل خدي ـ. لم أكن أعرف أنك ستأتي. يوم أمس فقط تلقيتُ رسالتك المرسلة من الإسكندرية. أحقاً أننا سنذهب

في شهر عسل إلى أحد شواطئ جنوبي إسبانيا؟

جلسنا في ذلك الركن نفسه، وقرّبت هي كرسيها مني إلى أن تلامست رُكبنا. مدّت إليّ كلتا يديها كي أمسكهما وبقينا على هذه الحال، أصابعنا متشابكة، طوال الساعة التي استغرقها حديثنا. التبدل كان بارزاً بوضوح. فقد استردت عافيتها فعلاً، وصار لجسدها من جديد تكورات وانحناءات، ولم تعد بشرة وجهها تُبرز العظام، ولا تظهر وجنتاها غائرتين. ومن عينيها اللتين بلون العسل القاتم، أطلت من جديد الحيوية والمكر السابقين، وفي جبهتها تلويات الوريد الرفيع الأزرق. كانت تحرك شفتيها المتلثثين بدلال يذكّرني بالطفلة الخبيثة في أزمنة ما قبل التاريخ. لاحظتُ أنها واثقة، هادئة، سعيدة بإحساسها بأنها على ما يرام، ولأن نوبات الخوف، كما أكدت لي، لم تعد تنتابها إلا في أوقات متباعدة، بعد أن كانت قد أوصلتها في السنوات الأخيرة إلى حافة الجنون.

ـ لستِ بحاجة لأن تقولي لي إنك أفضل حالاً ـ قلت لها وأنا أقبّل يديها وألتهمها بعيني ـ. تكفي رؤيتك. إنك باهرة الجمال من جديد. وأنا متأثر إلى حد أكاد لا أعرف معه ما أقوله.

ـ كل هذا وقد فاجأتني خارجة من المسبح ـ ردّت عليّ، وهي تنظر إلى عينيّ بإثارة ـ. انتظر إلى أن تراني مرتبة ومتبرجة. ستسقط على ظهرك يا ريكارديتو.

في هذه الليلة أخبرتُ الزوجين غرافوسكي اللذين تناولت العشاء معهما، بتحسن الطفلة الخبيثة غير المعقول بعد ثلاثة أسابيع من العلاج. وكانا قد زاراها يوم الأحد السابق، وتكوّن لديهما الانطباع نفسه. كانا لا يزالان سعيدين بجيلال. فالطفل يتشجع في كل يوم أكثر على الكلام، سواء في البيت أو المدرسة؛ بالرغم من أنه يعود، في بعض الأيام، إلى التمسك بالصمت. ولكن، لم يكن ثمة مجال للشك:

الارتداد إلى الوراء لم يعد ممكناً. لقد خرج من سجن الصمت الذي لجأ إليه هو نفسه، وراح يندمج أكثر فأكثر في مجتمع البشر المتكلمين. وكان في مساء ذلك اليوم قد حياني بالإسبانية: «عليك أن تخبرني شيئاً عن الأهرامات أيها العم ريكاردو».

انهمكتُ خلال الأيام التالية في تنظيف وتجميل الشقة في شارع جوزيف غرانيه من أجل استقبال المريضة. عملتُ على غسل الستائر والملاءات وكيّها، وتعاقدتُ مع سيدة برتغالية لتساعدني في كنس الشقة، وتشميع الأرضية، وتنظيف الجدران، وغسل الملابس؛ واشتريتُ أزهاراً لوضعها في مزهريات البيت الأربع. ووضعت لفافة ثوب الرقص المصري على سرير حجرة النوم، ومعه بطاقة كتبتُ عليها عبارة بهيجة. وعشية يوم خروجها من المصحة كنتُ منشرح الصدر مثل فتى يخرج أول مرة مع فتاة.

ذهبنا لإحضارها بسيارة إيلينا، ورافقنا جيلال الذي لم تكن لديه دروس في ذلك اليوم. وعلى الرغم من المطر وشدة الريح، إلا أنني كنت أشعر بأن السماء ترسل دفقات من النور الذهبي على فرنسا. وجدناها جاهزة، تنتظرنا عند مدخل المصحة، وحقيبتها عند قدميها على الأرض. كانت قد سرّحت شعرها بعناية، وطلت شفتيها قليلاً، ووضعت بعض الحمرة على خديها، وشذبت يديها وأطالت رموشها بشيء من الرِميل. وكانت ترتدي معطفاً لم أكن قد رأيتها ترتديه من قبل، لونه أزرق بحري، له حزام بإبزيم كبير. أشرقت عينا جيلال عندما رآها وركض لمعانقتها. وبينما كان البواب يضع الأمتعة في سيارة إيلينا، دخلتُ إلى الإدارة حيث قدمت لي السيدة ذات العقيصة قائمة الحساب. وكان مجموع المبلغ يصل إلى ما قدره الدكتور زيلاكسي تقريباً: 127,315 فرنك. وكنت قد أودعت في حسابي مبلغ 150,000 فرنك لهذا الغرض. فقد بعت كل سندات الخزينة التي

أستثمر مدخراتي بها، وحصلت على قرضين، أحدهما من صندوق التعاون النقابي الذي كنت عضواً فيه، وكانت فوائده ضئيلة إلى أدنى الحدود، والقرض الآخر من المصرف الذي أتعامل معه، مصرف سوسيتي جنرال، بفوائد أعلى من ذاك. لقد كان كل شيء يشير إلى أنه استثمار ممتاز، فالمريضة تبدو أفضل حالاً بكثير. طلبت مني المشرفة الإدارية أن أتصل بسكرتيرة المدير لأطلب موعداً معه، لأن الدكتور زيلاكسي يريد رؤيتي. وأضافت: «على انفراد».

كانت تلك ليلة جميلة جداً. تناولنا عشاء خفيفاً في بيت الزوجين غرافوسكي، مع أنه أُرفق بزجاجة شمبانيا، وما إن رجعنا إلى البيت، حتى تعانقنا وتبادلنا القبلات طويلاً. في البدء بحنان، وبعد ذلك بنهم، بشغف، بيأس. كانت يداي تتفحصان جسدها كله، وساعدتاها على خلع ملابسها. كانت رائعة: قوامها النحيل دائماً، عادت إليه من جديد تكوراته، وانحناءاته؛ وكان لذيذاً أن أشعر بين يدي، وشفتي، بنهديها الناعمين وحسني التكوين، بحلمتيهما المنتصبتين وحبيبات تويجيهما. لم أتعب من شم عطر إبطيها منزوعي الشعر. وعندما صارت عارية، رفعتها بذراعي وحملتها إلى غرفة النوم. نظرت إليّ وأنا أخلع ثيابي، بواحدة من تلك الابتسامات القديمة الساخرة:

ـ هل ستمارس الحب معي؟ ـ استثارتني وهي تتكلم كما لو أنها تغني ـ ولكن الشهرين اللذين حددهما الطبيب لم ينقضيا بعد.

ـ لن أهتم بذلك في هذه الليلة ـ أجبتها ـ إنك جميلة جداً، وسأموت إذا أنا لم أمارس الحب معك. لأنني أحبك بكل روحي.

ـ لقد بدا لي غريباً أنك لم تقل لي حتى الآن أية عبارة متكلفة ـ قالت ضاحكة.

بينما أنا أقبّل جسمها كله، ببطء، بادئاً بالشعر ومنتهياً بباطن القدمين، برقة غير متناهية وحب عميق، أحسست بها تخرخر، تتقبض

وتنبسط متهيجة. وعندما قبّلت عضوها وجدته مبللاً، نابضاً، منتفخاً جداً. طوقتني ساقاها وضغطتا عليّ بقوة. لكنني ما إن أدخلت فيها حتى صرخت وانفجرت في البكاء، مقطبة وجهها بتكشيرات ألم.

ـ هذا يؤلمني، يؤلمني ـ بكت، وأبعدتني عنها بكلتا يديها ـ. أريد إرضاءك هذه الليلة، لكنني لا أستطيع، إنني أتمزق، أتألم.

كانت تبكي وتقبّل فمي بلهفة، ويدخل شعرها ودموعها إلى عيني وأنفي. وراحت ترتعش مثلما كانت ترتعش حين تباغتها نوبات الهلع. طلبتُ منها أن تعذرني، لأني كنت فظاً، متهوراً، أنانياً. ولأني أحبها، ولن أسبب لها الألم أبداً، فهي أثمن ما لدي، أعذب وأرق ما في الحياة. ولأن الألم لم يتوقف، فقد نهضتُ، عارياً، وأحضرت من الحمام منشفة مبللة بماء فاتر ومررت بها برفق على عضوها، إلى أن بدأ الألم يتراجع شيئاً فشيئاً. تغطينا باللحاف، وأرادت هي أن أنهي في فمها، لكنني رفضت. كنتُ نادماً لأني تسببت لها بالألم. لن أعود إلى تكرار ما فعلته هذه الليلة قبل أن تشفى تماماً: سنعيش حياة عفيفة، فصحتها أهم من ملذاتي. كانت تسمعني دون أن تقول شيئاً، ملتصقة بي وجامدة تماماً. ولكن، بعد مرور وقت طويل، وقبل أن تغفو، وبينما هي تحيط عنقي بذراعيها، وشفتاها ملتصقتان بشفتي، قالت لي هامسة: «قرأتُ رسالتك التي بعثتها من الإسكندرية عشر مرات على الأقل. كنت أنام معها كل ليلة، أشد عليها بين ساقيّ».

في صباح اليوم التالي اتصلتُ من الشارع بمصحة بيتي كلامار، وحددت لي سكرتيرة الدكتور زيلاكسي موعداً بعد يومين. وأكدت لي هي أيضاً أن المدير يريد اللقاء بي على انفراد. ذهبتُ بعد الظهر إلى اليونسكو لأستطلع إمكان وجود عقد عمل، لكن رئيس دائرة المترجمين قال لي إنه لا وجود لأي شيء طوال ما تبقى من الشهر، واقترح عليّ أن يوصي بي للعمل في مؤتمر يستمر ثلاثة أيام، في

بروكسل. لم أقبل العرض. ولم يكن هناك في وكالة السيد تشارنيس أيضاً أي شيء فوري في باريس أو محيطها، لكن صديقي رب العمل الذي رأى أنني بحاجة إلى عمل، قدم لي كومة من الوثائق لأترجمها، عن الروسية والإنكليزية، وبأجر جيد. وهكذا وجدت نفسي أستقر للعمل في صالة البيت، مع آلتي الكاتبة ومعاجمي. فرضتُ على نفسي توقيت عملٍ مكتبي. وكانت الطفلة الخبيثة تعدّ لي فناجين قهوة، وتتولى أمر الوجبات. وبين حين وآخر، مثلما تفعل عروس حديثة الزواج، مفعمة بالاهتمام بزوجها، كانت تأتي من وراء ظهري لتمسك بكتفي، وتقبلني على عنقي أو أذني. ولكنها عندما يأتي جيلال تتساني تماماً وتنهمك في اللعب مع الطفل كما لو أنهما في السن ذاتها. وفي الليل، بعد تناول العشاء، كنا نسمع موسيقى قبل أن ننام، وقد تغفو أحياناً وهي بين ذراعي.

لم أخبرها بأن لدي موعد في مصحة بيتي كلامار، وخرجتُ من البيت بحجة الذهاب إلى مقابلة من أجل عمل محتمل على مقربة من باريس. وصلتُ إلى المصحة قبل نصف ساعة من الموعد المتفق عليه، وكنت أموت من البرد، فانتظرت في قاعة الزيارات، انظر إلى هطول ثلج خفيف على العشب. كان الطقس الرديء قد حجب عن الأنظار النافورة الحجرية والأشجار.

الدكتور زيلاكسي، بملابس مطابقة لما رأيته عليه في المرة الأولى، قبل شهر، كان في مكتبه مع الدكتورة رولان. وجدتها لطيفة منذ دخولي. فهي امرأة مربوعة، لا تزال شابة، لها عينان ذكيتان وابتسامة لطيفة تكاد لا تفارق شفتيها. وتحمل على ذراعها محفظة، تنقلها من يد إلى يد، بصورة إيقاعية. استقبلاني واقفين، وبالرغم من وجود بعض المقاعد في المكتب، إلا أنهما لم يدعواني للجلوس.

ـ كيف وجدتها؟ ـ سألني الدكتور على سبيل التحية، موحياً لي بالانطباع نفسه الذي شعرتُ به في المرة الأولى: شخص غير مستعد لإضاعة الوقت في المداورة.

ـ إنها في حالة رائعة يا دكتور ـ أجبته ـ. إنها شخص آخر. لقد استعادت عافيتها، استردت الشكل واللون. وألاحظ أنها مطمئنة جداً. وقد اختفت نوبات الرعب التي كانت تعذبها كثيراً. إنها شاكرة لكم جزيل الشكر. وأنا أيضاً، بالطبع.

ــ حسن، حسن ــ قال الدكتور زيلاكسي، محركاً يديه كمشعوذ، ومتململاً في المكان قبل أن يضيف ـ: ولكنني أنبهك، مع ذلك، إلى أنه لا يمكن الثقة كثيراً بالمظاهر في مثل هذه الأمور.

ـ أيه أمور يا دكتور؟ ـ قاطعته مذهولاً.

ــ الأمور الذهنية يا صديقي ــ ابتسم لي ــ وإذا كنت تفضل تسميتها روحية، فليس لدي أي مانع. السيدة في حالة بدنية جيدة. فقد استعاد جسمها عافيته بالفعل، بفضل حياة الانضباط، ونظام التغذية الجيد، والتمارين. وعليها الآن مواصلة التقيد بالتعليمات التي أعطيناها إياها بشأن الطعام. وعليها ألا تتخلى عن ممارسة الرياضة والسباحة اللتين حسنتا حالها كثيراً. أما من الناحية النفسية، فعلى حضرتك إظهار كثير من الصبر. لقد وُضعت في الوجهة السليمة، على ما أظن، غير أن الطريق الذي عليها اجتيازه ما زال طويلاً.

نظر إلى الدكتورة رولان التي لم تكن قد فتحت فمها حتى تلك اللحظة. فهزت رأسها. كان في عينيها النفاذتين شيء أفزعني. رأيتها تفتح المحفظة وتتصفحها بسرعة. هل ستقدم لي خبراً سيئاً؟ في هذه اللحظة فقط، أشار لي المدير إلى الكرسي. وجلسا هما أيضاً.

ــ لقد عانت صديقتك وتعذبت كثيراً ــ قالت الدكتورة رولان بكثير من اللطف الذي يُبدي أنها تعني شيئاً آخر مختلفاً جداً ــ. هناك

فـي رأسها حِلة حقيقية مملوءة بالجداجد. نتيجة ما لحق بها من أذى. أو ما تعاني منه حتى الآن بعبارة أصح.

ـ ولكنني أجدها في حالة أفضل بكثير من الناحية النفسية أيضاً ـ قلتُ لهما، لمجرد أن أقول شيئاً. ذلك أن تمهيدات الطبيبين أصابتني بالخوف ـ حسن، أظن أنه بعد تجربة كالتي تعرضت لها في لاغوس، لا يمكن لأي امرأة أن تستعيد عافيتها تماماً.

كان هناك صمت قصير، وتبادلٌ سريع للنظرات بين الدكتور والدكتورة. ومن خلال النافذة الكبيرة المطلة على الحديقة، بدت ندف الثلج الآن أشد كثافة وبياضاً. وكانت الحديقة، والأشجار، والنافورة قد اختفت كلها.

ـ من المحتمل أن عملية الاغتصاب تلك لم تحدث قط يا سيدي ـ ابتسمت الدكتورة رولان، ببشاشة. وأومأت بحركة كما لو أنها تعتذر.

ـ إنها أوهام مختلقة لحماية شخص ما، لمحو الأثر ـ أضاف الدكتور زيلاكسي، دون أن يتيح لي المجال لرد فعل ـ الدكتورة رولان ارتابت في الأمر منذ اللقاء الأول بينهما. ثم تأكدنا من ذلك في ما بعد، عند تنويمها. ما حدث هو أنها اخترعت هذه القصة لتحمي شخصاً استغلها وامتهنها بطريقة منهجية لوقت طويل، لسنوات. حضرتك كنت على إطلاع، أليس كذلك؟

ـ من هو السيد فوكودا؟ ـ سألتني الدكتورة رولان بعذوبة ـ أهو زوجها؟ أم إنه مغامرة؟

ـ عشيقها ـ تلعثمتُ ـ شخصية خسيسة، يقوم بصفقات مشبوهة، وقد عاشت معه في طوكيو عدة سنوات. وأوضحت لي أنه تخلى عنها عندما علم أن الشرطة قد اعتقلتها واغتصبتها في لاغوس. لأنه ظن أنهم قد نقلوا إليها عدوى الإيدز.

ـ وهذه قصة مختلقة أخرى، لتحمي نفسها بالذات ـ حرك مدير المصحة يديه ـ. فذلك السيد لم يطردها. إنها هي من هربت منه. وهذا هو سبب نوبات رعبها. إنها مزيج من الخوف والندم، لهروبها من شخص كان يمارس عليها سيطرة مطلقة، شخص حرمها من السيادة، من الكرامة، من الاعتزاز بالنفس، ومن العقل تقريباً.

كنتُ قد فتحتُ فمي مذهولاً. ولم أعد أدري ما أقول.

ـ إنها تخاف من أنه قد يلاحقها للانتقام منها ومعاقبتها ـ أكملت الدكتورة رولان، بالصوت اللطيف والرصين نفسه ـ. لكن تجرؤها على الهرب منه كان شيئاً عظيماً يا سيدي. إنه دليل على أن الطاغية لم يدمر شخصيتها تماماً. فقد كانت تحافظ، في أعماقها، على كرامتها. وعلى مشيئتها الحرة.

ـ ولكن، تلك الجراح، تلك القروح ـ سألتُ، وندمتُ فوراً، لأني خمنت ما سيقولانه لي.

ـ كان يخضعها لكل أنواع التنكيل، من أجل متعته ـ أوضح المدير، دون كثير من المداورة ـ. لقد كان شخصاً متفنناً وتقنياً في الوقت نفسه، في إدارة ملذاته. لا بد أن تكون لديك فكرة واضحة عما تعرضت له وتحمَّلته، كي تتمكن من مساعدتها. لا أجد مفراً من إطلاعك على تفاصيل مزعجة. فبهذه الطريقة فقط ستكون في وضع يمكنك من أن تقدم إليها كل المساعدة التي تحتاجها. كان يجلدها بحبال لا تخلّف أثراً على الجلد. ويقدمها إلى أصدقائه وحراسه في حفلات مجون جماعية، كي يراهم، لأنه كان ***بصاصاً*** أيضاً. والأسوأ، ما ترك أعمق أثر في ذاكرتها، هي الريح. ويبدو أنها تهيجه كثيراً. يجعلها تشرب محلول بعض المساحيق التي تملؤها بالغازات. وهذه إحدى النزوات التي تبهج ذلك السيد شاذ الطباع: يبقيها عارية، جاثية على أربع، مثل كلب، وهي تطلق ريحاً.

ـ لم يمزق شرجها ورحمها فقط يا سيدي ـ قالت الدكتورة رولان، بالعذوبة نفسها، ودون أن تتخلى عن ابتسامتها ـ. بل حطم كذلك شخصيتها. كل ما كان فيها من كرامة ووقار. ولهذا، أكرر لك، عانت وستعاني كثيراً، حتى لو كانت المظاهر تقول عكس ذلك. وستتصرف أحياناً بطريقة غير عقلانية.

جفّ حلقي، وكما لو أن الدكتور زيلاكسي قد قرأ أفكاري، قدم لي كأس ماء تتصاعد منه فقاعات مادة فوارة.

ـ حسن، لا بد من قول كل شيء. لا تخطئ الظن حضرتك. فهي لم تكن ضحية خداع. لقد كانت ضحية بإرادتها. تحمّلت كل ذلك وهي تعرف جيداً ما الذي تفعله ـ وراحت عينا مدير المصحة الصغيرتين ترصداني فجأة، لتقدرا ردّ فعلي ـ. سَمِّهِ حضرتك حباً منحرفاً، عاطفة باروكية، فساداً أخلاقياً، دافعاً مازوشياً، أو أنه ببساطة، انصياع مذعن حيال شخص متسلط، لم تكن قادرة على معارضته أو مواجهته بأي حال. وكانت ضحية خدوم، تقبلت راضية كل نزوات ذلك السيد. وهذا هو ما يبعث فيها الآن، بعد أن استعادت الوعي، الغضب واليأس.

ـ ستكون النقاهة شديدة البطء، بالغة الصعوبة ـ قالت الدكتورة رولان ـ. يجب أن تستعيد احترامها لنفسها. هي من تقبلت، ومن أرادت أن تكون جارية، أو ما هو أقل من ذلك، وعُوملت على هذا النحو. هل تفهمني؟ إلى أن جاء يوم طيب، لست أدري كيف، وهي نفسها لا تعرف كيف أيضاً، انتبهت إلى الخطر الذي هي فيه. أحست، أدركت أنها إذا ما استمرت على تلك الحال، فسوف تنتهي أسوأ نهاية: مجنونة أو ميتة. وعندئذ هربت. لا أدري من أين جاءت بالقوة للإقدام على ذلك. يجب تقدير عملها هذا، أؤكد لك. فمن يصلون إلى ذلك الدرك من التبعية، لا يتمكنون من التحرر في أغلب الأحيان إلى الأبد.

ـ لقد كان هلعها شديداً إلى حد دفعها إلى اختراع كل تلك

القصة عن لاغوس، واغتصاب رجال الشرطة لها، وأن جلادها قد طردها خوفاً من الإيدز. بل إنها توصلت إلى تصديق القصة. فالعيش في هذا الوهم يمنحها مسوغاً للشعور بأنها أكثر أمناً، وأقل تهديداً، من العيش في الواقع الحقيقي. العيش في الواقع، بالنسبة للناس جميعاً، هو أصعب من العيش في الأكذوبة. ولكنه أصعب بكثير لمن هو في مثل وضعها. ستتكلف مشقة كبيرة في الاعتياد مجدداً على الحقيقة.

صمت المدير، وظلت الدكتورة رولان أيضاً مطبقة الفم. كلاهما كانا ينظران إليّ بتسامح مثير للفضول. كنت أشرب الماء برشفات صغيرة، غير قادر على قول أي شيء. وكنت أشعر بأنني محتقن وأنضح عرقاً.

ـ أنت تستطيع مساعدتها ـ قالت الدكتورة رولان، بعد لحظة ـ. بل أكثر من ذلك يا سيدي. فربما كنتَ أنت، وسيفاجئك سماع هذا، الشخص الوحيد القادرَ على مساعدتها في العالم. أؤكد لك أنك قادر على ذلك أكثر منا بكثير. الخطر عليها هو في أن تنكفئ إلى أعماق ذاتها، أن تقع في نوع من الانطوائية. يمكن لحضرتك أن تكون جسرها للتواصل مع العالم.

ـ إنها تثق بك، وأظن أنها لا تثق بأحد سواك ـ أكد المدير ـ. فهي تشعر أمامك بأنها.. كيف أقول ذلك....

ـ قذرة ـ قالت الدكتورة رولان وهي تخفض عينيها للحظة ـ. لأنكَ في نظرها، حتى لو لم تصدق، نوع من القديس.

الضحكة التي أفلتُها كانت لها رنَّة زائفة جداً. أحسست أني أبله، غبي، وراودتني رغبة في أن أرسل إلى الشيطان هذين الشخصين، وأن أقول لهما إنهما يؤكدان عدم ثقتي، مدى الحياة، بعلماء النفس، والأطباء النفسيين، والمحللين النفسانيين، والكهنة، والسحرة، والتشامانات، والمشعوذين. فكانا ينظران إليّ كما لو أنهما

يقرأان أفكاري ويسامحانني. وكانت ابتسامة الدكتورة رولان الثابتة لا تزال هناك.

- إذا كنتَ تتمتع بالصبر، وقبل ذلك بالكثير من الحنان، فإنه يمكن لروحها أيضاً أن تستعيد عافيتها، مثلما استعادت عافيتها بدنياً - قال المدير.

ولأنني لم أعد أعرف عن أية أشياء أخرى أسألهما، فقد سألتهما عما إذا كانت الطفلة الخبيثة بحاجة للعودة إلى المصحة.

- على العكس - قالت الدكتورة رولان الباسمة ـ. يجب عليها أن تنسانا، وأن تنسى أنها كانت هنا، وأن هذه المصحة موجودة. يجب أن تبدأ حياتها من جديد، ومن الصفر. حياة مختلفة تماماً عما عاشته من قبل، مع أحد يحبها ويحترمها. مثل حضرتك.

- هناك شيء آخر أيها السيد - قال المدير وهو ينهض واقفاً، مشيراً بذلك إلى انتهاء المقابلة ـ. قد يبدو الأمر غريباً لحضرتك. أما هي، وجميع من يعيشون شطراً كبيراً من حياتهم منغلقين في تخيلات تبنوها لإلغاء الحياة الحقيقية، فيعرفون ولا يعرفون ما يفعلونه. الحدود بين الأمرين تتلاشى لفترات، ثم تعود للظهور بعد ذلك. ما أعنيه هو أنهم يعرفون أحياناً ما يفعلونه، ولا يعرفون ذلك في أحيان أخرى. وهذه هي نصيحتي: لا تحاول إجبارها على تقبل الواقع. ساعدها، ولكن لا تجبرها، لا تتعجلها. إنها مسألة تَعَلُّم طويلة وشاقة.

ـ يمكن لأي إكراه أن يأتي بنتائج عكسية، ويؤدي إلى انتكاسة - قالت الدكتورة رولان بابتسامتها الغامضة، وأضافت ـ: هي نفسها، وبجهدها الذاتي، يجب أن تأخذ بالاستقرار شيئاً فشيئاً، وأن تتقبل الحياة الحقيقية من جديد.

لم أفهم جيداً ما الذي يريدان قوله لي، لكنني لم أحاول أن أستقصيه أيضاً. كنت أريد الذهاب، الخروج من هناك وعدم العودة

إلى تذكر ما سمعته. رغم معرفتي جيداً أن ذلك سيكون مستحيلاً. في القطار، أثناء رجوعي إلى باريس، أُصبتُ بانهيار معنوي عميق. كان الضيق يسدّ حنجرتي. لم يكن مفاجئاً لي أنها اختلقت مسألة لاغوس. أولم تقضِ حياتها في اختلاق الأشياء؟ لكن ما آلمني هو معرفة أن جراحها، في الرحم والمستقيم، سببها لها فوكودا، هذا الذي صرت أكرهه بكل قواي. أية ممارسات كان يُخضعها لها؟ أكان يمارس اللواط معها بقطعٍ حديدية، بتلك الأعضاء الجنسية الاصطناعية المسننة التي يضعونها تحت تصرف الزبائن في **قصر ميغيري**؟ كنت أعرف أن صورة الطفلة الخبيثة، عارية، وجاثية على أربع، بمعدتها المنتفخة بتلك المساحيق، وهي تطلق وابلاً من الضراط، لأن هذه الرؤية وتلك الأصوات والروائح تهيج انتصابات الوغد الياباني ـ له هو وحده، أم أنه كان مشهداً يقدمه لرفاقه أيضاً؟ ـ، ستلاحقني شهوراً، سنوات، وربما طوال ما تبقى من حياتي. أهذا هو ما كانت الطفلة الخبيثة تسميه (ويا للتهيج المحموم الذي حدثتني به عنه) عيش الحياة بزخم؟ هي من قدمت نفسها بنفسها لكل تلك الممارسات. ففي الوقت الذي كانت فيه ضحية فوكودا، كانت شريكته، ومتواطئة معه أيضاً. هناك إذن شيء منحرف وفاسد يعشش فيها كما في الياباني الفظيع. كيف لن يبدو لها قديساً هذا الأبله الذي أغرق نفسه بالديون كي تشفى هي وتتمكن، بعد مرور بعض الوقت، من التحول إلى شخص آخر أغنى وأكثر تشويقاً من الصعلوك البائس! وبالرغم من كل هذه الأحقاد والغضبات، لم أكن أرغب إلا في الوصول بسرعة إلى البيت، ورؤيتها، لمسها، وجعلها تعرف أنني أحبها أكثر من أي وقت آخر. يا للمسكينة. كم تعذبت وعانت. إن بقاءها حية هو معجزة. ولسوف أكرس كل ما تبقى من حياتي لإخراجها من هذه البئر. يا لي من أبله!

وفـي بـاريس، كـان مـا يشـغلني هـو بـذل الجهـد ليبـدو وجهـي طبيعياً، وتجنب أن تراود الطفلة الخبيثة الشـكوك حول ما يجول فـي رأسـي. عنـدما دخلـتُ البيـت، وجـدتُ جـيلال يعلمهـا لعـب الشـطرنج. وكانت تشكو من أن ذلك صعب جداً ويتطلب كثيراً من التفكير، وأن لعب الدامـة أسـهل وأكثـر تسلية. «جيلال سيتعلمك.» وتصـوب لـه هـي: «جيلال سيُعَلِّمك، وليس سيتعلمك».

عندما انصرف الطفل، وكي أداري حالتي المعنوية، جلست أعمل فـي ترجمـاتي، وظللتُ أضرب على آلـتي الكـاتبة حتى موعد العشـاء. ولأن المنضـدة الـتي نتنـاول عليهـا الطعـام فـي الصـالة كانـت ممتلئـة بـأوراقي، فقـد تناولنـا الطعـام فـي المطـبخ، علـى لـوح خشـبي صـغير وكرسـيين بـلا مسـند. وكانـت هـي قـد أعـدت للعشـاء عجـة بـالجبن وسلطة.

ـ ماذا أصابك؟ ـ سـألتني فجـأة، بينمـا نحـن نـأكـل ـ أراك غريبـاً. لقد ذهبتَ إلى المصحة، أليس كذلك؟ لماذا لم تقل لي أي شـيء؟ هـل أخبروك بشـيء سيئ؟

ـ لا، بالعكس ـ أكدت لها ـ. إنك علـى مـا يـرام. مـا قـالوه لـي هـو أنك، الآن، بحاجة إلى نسيان المصحة، والدكتورة رولان والماضـي. لقد قالوا لي هم أنفسهم: عليك أن تنسيهم، كـي تكـون معافاتك كاملة.

رأيتُ فـي عينيها أنها تعرف أني أخفـي شيئاً عنهـا، لـكنهـا لم تلـح عليّ. ذهبنا لتناول القهوة عند الـزوجين غرافوسـكي. وكـان صـديقانا مـنفعلين جـداً. فقـد تلقـى سـيمون عرضـاً لقضـاء سـنتين فـي جامعـة برنسـتون، لإجـراء أبحـاث، ضـمن برنـامج تبـادل مـع معهـد باسـتور. كلاهما كان يحلم بالذهاب إلى نيوجرسي: خلال سنتين في الولايات المتحدة، سيتعلم جيلال الإنكليزية، ويمكن لإيلينا أن تقوم بتدريبات عمليـة فـي مستشفى برنسـتون. وهـي تتقصـى إذا مـا كـان مستشـفى

كوشان سيمنحها استيداعاً، دون أجر، لمدة سنتين. وبما أنهما كانا يتكلمان طوال الوقت، فإنني لم أجد ثمة حاجة لأن أفتح فمي، كنت أستمع وحسب، أو أنني بعبارة أدق، كنت أتظاهر بأنني أستمع، وكنتُ شاكراً لهما ذلك.

كانت الأسابيع والشهور التالية فترة عمل كثير. فلكي أتمكن من دفع الديون، وفي الوقت نفسه تغطية النفقات الجارية التي ازدادت الآن، بوجود الطفلة الخبيثة معي، اضطررت إلى قبول كل عقود العمل التي تُعرض عليّ، وأن أكرس في الوقت نفسه ساعتين أو ثلاث ساعات، خلال الليل، أو في الصباح الباكر، من أجل ترجمة وثائق يكلفني بها مكتب السيد تشارنيس الذي كان يسعى دائماً، بوفاء لعادته، إلى مدّ يد العون لي. كنت أذهب وأجيء عبر أنحاء أوروبا للعمل في ندوات ومؤتمرات من كل الأنواع، وأحمل معي ترجمة الوثائق لأواصل العمل فيها ليلاً، في الفنادق أو البنسيونات، على آلة كاتبة محمولة. لم أكن أهتم للزيادة المفرطة في العمل. والحقيقة أنني كنت أشعر بالسعادة لأنني أعيش مع المرأة التي أحبها. كانت تبدو معافاة تماماً. ولم نكن نأتي أبداً على ذكر فوكودا، أو لاغوس، أو مصحة بيتي كلامار. وكنا نذهب إلى السينما، ولسماع الموسيقى أحياناً في قبو جاز في السان جيرمان، ونذهب في أيام السبت لتناول العشاء في مطعم لا يكون غالياً جداً.

كان تبذيري الوحيد هو صالة التمارين الرياضية، لأنني كنت واثقاً من أنها مفيدة للطفلة الخبيثة. لقد سجلتها في نادٍ للتمارين في جادة مونتيني، فيه مسبح دافئ. وكانت تذهب إليه، برغبة، عدة مرات كل أسبوع، لتشارك في دروس إيروبيك بإشراف مدرب، ولتمارس السباحة. فقد صارت السباحة الآن، بعد أن تعلمتها، هي رياضتها المفضلة. وقد اعتادت، عندما لا أكون موجوداً، أن تقضي

شطراً كبيراً من الوقت مع آل غرافوسكي الذين يعدون العدة، بعد أن حصلت إيلينا على الإذن، من أجل السفر إلى الولايات المتحدة في الربيع. وكان الزوجان يأخذانها بين حين وآخر لمشاهدة أحد الأفلام، أو إلى معرض تشكيلي، أو إلى عشاء خارج البيت. وكان جيلال قد تمكن من تعليمها لعب الشطرنج، وصار يُلحق بها الهزائم نفسها كما كان في لعبة الدامة.

في أحد الأيام، قالت لي الطفلة الخبيثة إنها، وقد صارت تشعر أنها على أحسن حال، وهو ما كان يبدو لي صحيحاً بالنظر إلى مظهرها الجيد، وحبها للحياة الذي يبدو أنها استردته، تريد البحث عن عمل، كي لا تضيع الوقت سدى، وكي تساعدني في نفقات البيت. كانت تتألم لأني أقتل نفسي في العمل بينما هي لا تفعل شيئاً سوى الذهاب إلى نادي التمارين واللعب مع جيلال.

لكنها عندما بدأت البحث عن عمل، برزت مشكلة الوثائق. كان لديها ثلاثة جوازات سفر، واحد بيروي منتهي الصلاحية، وآخر فرنسي وثالث إنكليزي، وكان الاثنان الأخيران مزيفين. لا يمكن لأحد في أي مكان أن يقدم لها عملاً بصورة نظامية، لأنها غير شرعية. لاسيما في هذه الأوقات، حيث تزايد في أوروبا كلها، وفي فرنسا خاصة، جنون العداء للمهاجرين من بلدان العالم الثالث. فالحكومات تقيّد منح التأشيرات وتلاحق الأجانب الذين ليس لديهم تصريح عمل.

جواز السفر الإنكليزي الذي تظهر عليه صورة لها بمكياج يبدل هيئة وجهها بالكامل تقريباً، صادر باسم مسز باتريسيا ستيوارد. وقد شرحت لي أنها، ومنذ أن أثبت زوجها السابق دافيد رتشاردسون زواجها من شخصين، وألغى زواجها الإنكليزي، فقدت بصورة آلية المواطنية البريطانية التي اكتسبتها بالزواج. أما جواز السفر الفرنسي

الـذي حصـلت عليـه بفضـل زوجهـا الأسـبق، فلـم تكـن تتجـرأ علـى استخدامه لأنها لا تعرف إذا ما كان المسيو روبير أرنو قد قرر أخيراً رفع شكوى ضدها، وإذا ما كان قد بدأ ضدها محاكمة جزائية أو وجه إليها تهمة تعدد الأزواج، أو أي شيء آخر لينتقم منها. وكان فوكودا قد تدبر لها، من أجل رحلاتها الأفريقية، جواز سفر إنكليزياً، إضافة إلى آخر فرنسي باسم مدام فلورنس ميلون؛ والصورة فيه تُظهرها فتية جداً، وبتسريحة مختلفة تماماً عن تسريحتها المعهودة. وبجواز السفر هذا دخلت إلى فرنسا في المرة الأخيرة. وكنت أخشى، إذا ما انكشف أمرها، أن يطردوها من البلاد، أو أن يحلّ بها ما هو أسوأ من ذلك.

وعلى الرغم من هذا العائق، واصلت الطفلة الخبيثة البحث، والاتصال بالإعلانات التي تجدها في جريدة *الأصداء* التي تعرض وظائف في مكاتب سياحية، أو علاقات عامة، أو صالات الفنون أو الشركات التي لها علاقات عمل مع إسبانيا أو أميركا اللاتينية وتحتاج إلى عاملين يتقنون الإسبانية. لم يبدُ لي سهلاً، بسبب وضعها غير الشرعي، أن تجد عملاً نظامياً، لكنني لم أشأ أن أخيب أملها، وشجعتها على مواصلة البحث.

وقبل يوم واحد من سفر آل غرافوسكي إلى الولايات المتحدة، في عشاء وداع قدمناه لهم في مطعم *جنينة الليلك*، وبعد سماع الطفلة الخبيثة تتحدث عن الصعوبة التي تواجهها للحصول على عمل، يقبلونها فيه دون أوراق، خطرت الفكرة لإيلينا فجأة:

ـ ولماذا لا تتزوجان؟ ـ توجهت إيلينا إليّ ـ: أنت تملك الجنسية الفرنسية، أليس كذلك؟ تزوج منها إذن، وتعطي الجنسية لزوجتك. وهكذا تنتهي المشاكل القانونية يا فتى. ستصير فرنسية بكل ما في القانون من معنى.

ربما قالت ذلك دون أن تفكر فيه، وجاراها سيمون: لا بد لهذا الزواج من أن ينتظر، فهو يريد أن يكون حاضراً، وأن يكون شاهد العريس، وبما أنهما لن يرجعا إلى فرنسا قبل انقضاء سنتين، علينا أن نطوي ملف المشروع حتى ذلك الحين. اللهم إلا إذا قررنا الذهاب للزواج في برينسون، نيوجرسي، وفي هذه الحالة لن يكون الشاهد وحسب، وإنما الإشبين أيضاً، وهلمجرا. ولدى رجوعنا إلى البيت، قلت بين الجد والهزل للطفلة الخبيثة التي كانت تخلع ملابسها:

ـ وماذا لو عملنا بنصيحة إيلينا؟ فهي على حق: إذا ما تزوجنا، تصبح قضيتك محلولة في الحال.

انتهت من ارتداء قميص نومها والتفتت لتنظر إليّ، ويداها على خاصرتيها، مع ابتسامة ساخرة ووقفة ديك مصارع. وتوجهت إليَّ قائلة بكل ما هي قادرة عليه من سخرية:

ـ أتطلب بجد أن تتزوجني؟

ـ حسن، هذا ما أظنه ـ حاولتُ المزاح ـ. إذا كنت ترغبين في ذلك. كي أحلّ لك المشاكل القانونية. وحتى لا يطردوك في أي يوم من فرنسا لكونك غير شرعية.

ـ أنا لا أتزوج إلا بدافع الحب ـ قالت وهي ترميني بسهام عينيها وتطرق الأرض بقدمها اليمنى المتقدمة ـ. لا يمكنني أن أتزوج أبداً من غليظ يقدم لي عرض زواج فظ كهذا الذي عرضته عليّ للتو.

ـ إذا كنت ترغبين، فإنني سأجثو على ركبتي، وأضع يداً على قلبي، وأتوسل إليك أن تكوني امرأتي المعبودة حتى نهاية الأزمنة ـ قلتُ مرتبكاً، دون أن أدري إذا ما كانت تلعب طوال الوقت أم أنها بدأت تتكلم بجد.

قميص النوم الصغير الذي من الأورغنزا كان يكشف بشفافيته عن نهديها وسرتها، وعن أجمة الزغب القاتمة في عانتها. كان يصل حتى ركبتيها فقط، ويكشف عن كتفيها وذراعيها. وكان شعرها

مفلتاً ووجهها مشتعلاً بفعل التمثيل الذي بدأته. كان بريق مصباح الكوميدينو يسقط على ظهرها ويشكل هالة ذهبية حول ظلها. كنت أراها جذابة جداً، جريئة، وأشتهيها.

ـ افعل ما قلته ـ أمرتني ـ. وأنت جاثٍ على ركبتيك، واليدان على الصدر. قل أفضل عبارة متكلفة في قائمتك، ولنر إذا كنتَ تقنعني.

تهاويتُ جاثياً على ركبتي، وتوسلت إليها أن تتزوج مني، بينما أنا أقبّل قدميها، كاحليها، ركبتيها، وأداعب إليتيها، وأقارنها بمريم العذراء، بربات الأولمب، بسمير أميس وكليوبترا، بنوزيكا أوليسيس، بدولثينيا دون كيخوته، وأقول لها إنها أجمل من كلوديا كاردينالي، وبريجيت باردو، وكاترين دونوف، ومشتهاة أكثر منهن معاً. وأخيراً أمسكتها من خصرها وأجبرتها على الانبطاح على السرير. وبينما أنا أداعبها وأحبها، شعرت بها تضحك، وتقول لي في الوقت نفسه في أذني: «آسفة، لكنني تلقيت عروضاً أفضل لطلب يدي من عرضك، أيها السيد الصعلوك». في كل مرة نمارس فيها الحب، يكون عليّ أن أتخذ احتياطات كبيرة كي لا أسبب لها الأذى. ومع أنني كنت أتظاهر بتصديقها بأنها تتحسن أكثر فأكثر، إلا أن مرور الوقت أقنعني بأن الأمر ليس كذلك، وأن تلك الجراح في رحمها لن تختفي نهائياً إلى الأبد، وستحدّ على الدوام من حياتنا الجنسية. كنت أتجنب في أحيان كثيرة الإيلاج فيها، وعندما أفعل ذلك، أفعله بحذر شديد، وأتراجع فور إحساسي بأن جسدها يقشعر ووجهها يتشوه في تكشيرة ألم. ومع ذلك، فإن هذه الغراميات الشاقة، وغير المكتملة أحياناً، كانت تُشعرني بمتعة هائلة. منحها اللذة بفمي ويديّ، وتلقيها من فمها ويديها كذلك، كان يشكل في نظري مسوغاً للحياة، ويجعلني أشعر بأنني أكثر البشر الفانين تميزاً. ومع أنها كثيراً ما تحتفظ بذلك الموقف غير المبالي الذي اعتادت عليه في الفراش، إلا أنها تبدو

متشجعة أحياناً وتشارك بحماسة وحمية، فأقول لها: «أظن أنكِ بدأت تحبينني، حتى لو لم يرق لك الاعتراف بذلك». وفي تلك الليلة، بعد أن استنفدنا الإجهاد، وبدأنا نغفو، قلت لها مؤنباً:

ـ لم تعطني جواباً أيتها الفدائية. يجب أن يكون هذا هو إعلان الحب الخامس عشر الذي أطرحه عليك. هل ستتزوجين مني، نعم أم لا؟

ـ لا أدري ـ ردّت عليّ، بجدية عالية، وهي تحتضنني ـ. ما زال عليّ أن أفكر في الأمر.

سافر آل غرافوسكي إلى الولايات المتحدة في يوم ربيعي مشمس، مع ظهور أول البراعم الخضراء على أشجار الكستناء والزان والحور الباريسية. ذهبنا لوداعهم في مطار شارل ديغول. وعندما عانقت الطفلة الخبيثة جيلال، امتلأت عيناها بالدموع. وكان الزوجان غرافوسكي قد تركا لنا مفتاح بيتهما كي نلقي عليه نظرة بين حين وآخر، ونحول دون أن يجتاحه الغبار. لقد كانا صديقين طيبين جداً، والوحيدين اللذين تربطنا بهما هذه الصداقة الأحشائية على الطريقة الأمريكية الجنوبية، ولسوف نفتقدهما كثيراً في هاتين السنتين من الغياب. لأني رأيت الطفلة الخبيثة خامدة الهمة بسبب سفر جيلال، فقد اقترحت عليها أن نقوم بنزهة أو نذهب إلى السينما بدل العودة إلى البيت. وبعد ذلك سآخذها إلى مطعم صغير يروقها كثيراً في جزيرة سان لوي. لقد تعلقت كثيراً بجيلال إلى حدّ أني، بينما نحن نتمشى في محيط نوتردام، متوجهين إلى المطعم، قلت لها مازحاً إنه يمكن لنا بعد الزواج، إذا هي رغبت، أن نتبنى طفلاً.

ـ لقد اكتشفتُ لديكِ ميلاً إلى الأمومة. وكنت أظن دوماً أنك لا ترغبين في الأطفال.

ـ عندما كنت في كوبا، مع ذلك القومندان تشاكون، قمت بعملية ربط الأنابيب، لأنه كان يريد ابناً، وكانت الفكرة ترعبني ـ

ردّت عليّ، بجفاء ـ لكنني نادمة الآن.

ـ فلنتبنَ واحداً ـ شجعتها ـ أليس هو الشيء نفسه؟ ألم تري علاقة جيلال بأبويه؟

ـ لا أدري إذا ما كان الأمر نفسه ـ قالت مدمدمة، وأحسستُ أن صوتها قد صار على شيء من العدائية ـ بل إنني لا أدري، فوق ذلك، إذا ما كنتُ سأتزوج منك. فلنبدل الموضوع، أرجوك.

تعكر مزاجها جداً، فأدركتُ أنني، دون أن أدري، لمستُ ركناً مجروحاً في أعماقها الحميمة. حاولت إلهاءها، وأخذتها لرؤية الكاتدرائية، وهو مشهد لم يتوقف عن إبهاري قط، على الرغم من كل السنوات التي أمضيتُها في باريس. وفي هذه الليلة أكثر من غيرها. كان هناك نور ضعيف، مع هالة وردية باهتة، تحمم أحجار نوتردام. الضخامة تبدو خفيفة بفعل تناظر أجزائها المتقن وتناسقها التام في توازن وتماسك دقيقين، بحيث لا يشذ أو يفلت شيء منها. التاريخ والضوء المصفى يشحنان هذه الواجهة بإيحاءات وإيقاعات، بصور ومرجعيات. كان هناك سائحون كثيرون، يلتقطون صوراً. أهذه الكاتدرائية هي نفسها التي كانت مسرح قرون من تاريخ فرنسا، أهي نفسها من أوحت برواية فيكتور هوغو التي استثارتني كثيراً عندما قرأتها، وأنا طفل، في ميرافلوريس، في بيت عمتي ألبيرتا؟ إنها نفسها ومختلفة، أُضيفت إليها أساطير وأحداث قريبة. إنها باهرة الجمال، تبث في النفس انطباعاً بالاستقرار والبقاء، وبأنها أفلتت من جور الزمن. كانت الطفلة الخبيثة تسمعني أتكلم إلى نوتردام كما لو أنها تسمع هطول المطر، وهي مستغرقة في أفكارها. وخلال تناول الطعام ظلت مطرقة، مغتاظة، ولم تكد تأكل شيئاً. ونامت في تلك الليلة دون أن تتمنى لي ليلة سعيدة، وكأنني أنا المذنب في سفر جيلال. بعد يومين من ذلك، سافرتُ إلى لندن، في عقد عمل لمدة

أسبوع. وعندما ودّعتها، في الصباح الباكر، قلت لها:

ـ ليس مهماً عدم زواجنا إذا كنت لا تريدين ذلك، أيتها الطفلة الخبيثة. ولسنا بحاجة إلى الزواج كذلك. أريد أن أقول لك شيئاً واحداً قبل أن أغادر. في سنوات حياتي السبع والأربعين، لم أكن سعيداً قط كما في هذه الشهور التي عشناها معاً. لا أدري كيف أكافئك على السعادة التي منحتِها لي.

ـ أسرع، ستتخلف عن الطائرة، أيها الممل ـ ودفعتني باتجاه الباب.

كانت لا تزال معكرة المزاج، منطوية على نفسها صباحاً ومساء. فمنذ سفر آل غرافوسكي لم أستطع تبادل الحديث معها تقريباً. أيؤثر فيها ذهاب جيلال إلى هذا الحد؟

عملي في لندن كان مشوقاً أكثر مما في ندوات ومؤتمرات أخرى. فهو اجتماع يعقد تحت أحد تلك العناوين التافهة التي تتكرر دون توقف في موضوعات مختلفة: «أفريقيا: حوافز التطور». وكان برعاية الكومنولث، والأمم المتحدة، واتحاد الدول الأفريقية وعدة مؤسسات مستقلة. ولكن خلافاً لملتقيات أخرى، كانت هناك شهادات جدية لقادة سياسيين، أو رجال أعمال أو أكاديميين من البلدان الأفريقية، حول الوضع الكارثي الذي آلت إليه المستعمرات الفرنسية والإنكليزية القديمة بعد نيلها الاستقلال. والعوائق التي تواجهها الآن لتنظيم المجتمع، وإقرار المؤسسات، وتصفية النزعة العسكرية وتسلط الزعماء، ودمج مختلف اثنيات كل بلد في وحدة منسجمة والانطلاق اقتصادياً. وكان وضع غالبية البلدان الممثلة في الملتقى حرجاً؛ ومع ذلك، فقد كان هناك شيء نابض في الصراحة وبُعد النظر اللذين يعرض بهما أولئك الأفارقة ـ وجلُّهم من الشباب ـ واقعهم ويعكس حافز أمل لذلك الوضع المأساوي. ومع أنني كنت أترجم إلى الإسبانية، إلا أنه كان عليّ أن أترجم كذلك من الفرنسية إلى الإنكليزية أو

العكس. وقد قمت بعملي باهتمام، بفضول، وبرغبة في أن أقوم، يوماً ما، برحلة إجازة عبر أفريقيا. بالرغم من أنني لم أستطع نسيان أن الطفلة الخبيثة قامت بغزواتها في تلك القارة، بخدمة فوكودا.

كلما سافرتُ للعمل خارج باريس، كنت أتحدث معها مرة كل يومين. وتكون هي من تتصل بي، لأن أسعار المكالمات أرخص؛ ذلك أن الفنادق والبنسيونات تحمّل المكالمات الدولية أسعاراً رهيبة. ولكن، على الرغم من أنني تركت لها رقم هاتف فندق شوريهام، في بايزوتر، إلا أن الطفلة الخبيثة لم تتصل بي خلال اليومين الأولين لوجودي في لندن. وفي اليوم الثالث، اتصلتُ أنا، باكراً، قبل أن أخرج إلى معهد الكومنولث، حيث يعقد المؤتمر.

لاحظت أنها في حالة غريبة جداً. تتكلم باقتضاب، بتهرب، بنزق. أصابني الذعر وأنا أفكر في أن نوبات الهلع القديمة ربما تكون قد عاودتها. أكدت لي أن لا، وأنها على ما يرام. أتشتاق إلى جيلال إذن؟ طبعاً تشتاق إليه. وألا تشتاق إليَّ قليلاً أيضاً؟

- فلنر، دعني أفكر في الأمر - قالت لي، لكن صوتها لم يكن صوت امرأة تمزح - لا، بصراحة لم أشتق إليكَ كثيراً بعد.

أحسستُ بمذاق من الغم في فمي عندما أغلقت الهاتف. حسن، الجميع يمرون بفترات من الوهن العصبي، ويفضلون خلالها إظهار الجفاء للكشف عن استيائهم من العالم. لا بد أنها ستتجاوز هذا الوضع. وبما أنها لم تتصل بي كذلك بعد يومين، فقد اتصلتُ أنا مجدداً، وفي وقت مبكر أيضاً. لم تردّ على الهاتف. من المستحيل أن تكون قد خرجت من البيت في السابعة صباحاً: إنها لم تفعل ذلك قط. التفسير الوحيد هو أنها مازالت معكرة المزاج - ولكن، ما السبب؟ - وأنها لا تريد أن ترد عليّ، فهي تعرف جيداً أنني أنا المتصل. وقد عدت للاتصال ليلاً، ولم ترفع سماعة الهاتف أيضاً. اتصلتُ أربع أو

خمس مرات خلال ليلة من الأرق: الصمت مطبق. وقد لاحقني رنين الهاتف المتقطع طوال الساعات الأربع والعشرين التالية، إلى أن هرعتُ، فور انتهاء الجلسة الختامية، إلى مطار هيثرو لآخذ طائرتي إلى باريس. كل أنواع الأفكار القاتمة التي جالت في ذهني، جعلت الرحلة لانهائية، وبعد ذلك المشوار في سيارة الأجرة من مطار شارل ديغول حتى بيتي في شارع جوزيف غرانيه.

كانت الساعة الثانية وبضع دقائق فجراً، تحت مطر لجوج، عندما فتحت باب شقتي. كانت الشقة مظلمة، خاوية، وكانت هناك على السرير رسالة قصيرة مكتوبة بقلم رصاص على ذلك الورق الأصفر المخطط الذي نملكه في المطبخ لنسجل عليه المستلزمات اليومية. كانت نموذجاً من برودة الجليد والاقتضاب: «لقد تعبت من لعب دور ربة البيت البرجوازية الصغيرة التي يروقك أن أكونها. فأنا لست كذلك ولن أكون. أشكرك جزيل الشكر على كل ما فعلته من أجلي. آسفة. اعتنِ بنفسك ولا تتألم كثيراً أيها الطفل الطيب».

أفرغتُ حقيبتي، ونظفت أسناني، واستلقيت للنوم. ظللت طوال ما تبقى من الليل أفكر، هاذياً. هذا هو ما كنتَ تنتظره، تخشاه، أليس كذلك؟ كنتَ تعرف أنه سيحدث عاجلاً أو آجلاً، منذ أن أحضرتَ الطفلة الخبيثة، قبل سبعة أشهر، للإقامة معك في شارع جوزيف غرانيه. بالرغم من أنكَ حاولت، بدافع الجبن، عدم التهيؤ لذلك، وتجنبه، وخداع نفسك بالقول إنها أخيراً، وبعد تلك التجارب الرهيبة مع فوكودا، قد تخلت عن المغامرات، عن الأخطار، وأنها أذعنت للعيش معك. لكنك كنت تعلم دوماً، ومن أعماق أعماقك، أن ذلك السراب لن يستمر أكثر مما يتطلبه شفاؤها ونقاهتها. وأن هذه الحياة الوسطية التافهة والمملة التي تعيشها معك ستُتعبها، وأنها ما إن تستعيد عافيتها، والثقة بنفسها، وتتخلص من الندم أو الخوف من فوكودا،

ستتدبر الأمر لتجد شخصاً أكثر تشويقاً، أكثر غنى وأقل روتينية منك، وتنطلق في شيطنة جديدة.

ما إن بدا بعض الضوء من كوة السقف، حتى نهضتُ، وأعددت قهوة وفتحت صندوق النقود الصغير الذي أحتفظ فيه دوماً بمبلغ نقدي من المال لنفقات الشهر. وبالطبع، كانت قد أخذت معها كل شيء. لا بأس، لم يكن هناك شيء عظيم غير ذلك. من يكون يا ترى، في هذه المرة، سعيد الحظ الفاني؟ متى وأين تعرّفت إليه؟ لا شك في أن ذلك حدث خلال إحدى رحلاتي للعمل. ربما في صالة الألعاب الرياضية في جادة مونتيني، بينما هي تمارس الإيروبيك أو السباحة. وربما يكون واحداً من أولئك الفتيان اللعوبين الذين لا وجود لذرة شحم واحدة في أجسادهم، ذوي العضلات المتينة، أولئك الذين يأخذون حمامات أشعة ما فوق بنفسجية كي يحمصوا بشرتهم، ويشذبون أظفارهم ويدلكون فروة رؤوسهم كثيفة الشعر في صالونات الحلاقة. أكانا يمارسان الحب، في الوقت الذي كانت تتظاهر بمواصلة العيش معي، بينما هي تعدّ العدة للهرب؟ هذا مؤكد. ومما لا شك فيه أن العشيق الجديد لا يولي كبير اهتمام، مثلك يا ريكارديتو، لرحمها المتأذي.

تفحصتُ الشقة كلها، ولم يكن قد بقي فيها أي أثر لها. فقد حملت معها حتى آخر دبوس يخصها. بحيث يمكن القول إنها لم تكن فيه قط. استحممت، ارتديت ثيابي وخرجت إلى الشارع، هارباً من هاتين الغرفتين والنصف اللتين كنتُ فيهما ـ حسب ما قلتُ لها عند الوداع ـ أسعد مما كنت في أي مكان آخر، وحيث سأكون منذ الآن ـ مرة أخرى! ـ تعيساً إلى أقصى الحدود. ولكن، ألم تكن تستحق ذلك أيها البيروي الصغير؟ ألم تكن تعرف، عندما لم تكن تردّ على اتصالاتها الهاتفية، أنكَ إذا ما فعلت ذلك وأذعنت من جديد لهذه العاطفة اللجوجة، فإن كل شيء سينتهي مثلما هي الحال الآن؟

ليس هناك ما يدعو للمفاجأة: فقد حدث ما كنتَ تعرف دائماً أنه سيحدث.

كان يوماً جميلاً، بلا غيوم، بشمس باردة بعض الشيء، وكان الربيع قد ملأ شوارع باريس بالخضرة. الحدائق تشتعل بالأزهار. سرتُ لساعات، على أرصفة النهر، عبر التويللري، عبر اللكسمبورغ. أدخل، كلما أحسست أني أكاد أدوخ من التعب، إلى أحد البارات لتناول شيء ما. وعند الغروب، أكلت سندوتش مع زجاجة بيرة، ثم دخلتُ داراً للسينما، دون أن أعرف حتى ما هو الفيلم الذي يُعرض فيها. غلبني النوم فور جلوسي، ولم أستيقظ إلا عندما أضيئت الأنوار. ولم أكن أتذكر صورة واحدة من الفيلم.

حين خرجتُ إلى الشارع كان الظلام قد خيم. أحسست بكآبة شديدة وخشيت أن تنفلت دموعي. لستَ قادراً على قول عبارات متكلفة وإنما على عيشها أيضاً يا ريكارديتو. الحقيقة أني لن أجد في هذه المرة القوة، مثلما فعلت في مرات أخرى، لاستعادة تماسكي، والقيام بردّ فعل، ومواصلة اللعب في لعبة نسياني للطفلة الخبيثة.

صعدت ماشياً على أرصفة السين حتى جسر ميرابو، محاولاً أن أتذكر الأبيات الأولى من قصيدة لأبولينير، وأرددها من بين أسناني:

Sous le Pont Mirabeau
Coule la Seine
Faut-il qu'il m'en souvienne
de nos amours
Ou après la joie
Venait toujours la peine?[1]

وقررت، ببرود، دون دراماتيكية، أن هذه في نهاية المطاف هي

---

[1] تحت جسر ميرابو/ يجري السين/ أيجب أن يذكّرني/ بحبنا/ أم أنه بعد الفرح/ يأتي الألم دوماً.

طريقة مشرفة للموت: القفز من فوق هذا الجسر المكرم بشعر الحداثة الجيد، وصوت جوليت غريكو الزخم، إلى مياه نهر السين القذرة. وبحبس أنفاسي أو ابتلاع جرعات من الماء، سأفقد الوعي بسرعة ـ وربما أفقده مع الصدمة، مع ارتطام جسدي بالماء ـ ثم يأتي الموت في الحال. إذا لم تستطع امتلاك ما تحبه في الحياة، أي امتلاكها هي، فمن الأفضل الخلاص دفعة واحدة من هذا العالم أيها الصعلوك.

وصلتُ إلى جسر ميرابو وقد تحولت، حرفياً، إلى حساء. حتى إنني لم أكن قد انتبهت إلى هطول المطر. لم تكن هناك سيارات ولا مشاة عابرون في محيط المكان. تقدمتُ حتى منتصف الجسر، وصعدتُ دون تردد على الحاجز الحديدي، وأنا متهيئ للقفز ـ أقسم إنني كنت سأفعل ـ، عندما أحسست بصفعة ريح في وجهي، وفي الوقت نفسه، كانت يدان تطوقان ساقيّ وتشدانني لأتعثر وأسقط إلى الوراء، على أسفلت الجسر:

ـ *Fais pas le con, imbecile!* [دعك من الحماقة، أيها الغبي!]

كان ***متشرداً*** تفوح منه رائحة النبيذ والوساخة، شبه ضائع في رداء مطري كبير جداً من البلاستيك يغطي رأسه. كانت له لحية هائلة تبدو ما بين الرمادية والمبيضة. ودون أن يساعدني على النهوض، وضع زجاجة النبيذ في فمي وجعلني أشرب رشفة: شيء ساخن وقوي قلب أحشائي. إنه نبيذ فاسد، آخذ بالتحول إلى خلّ. أحسستُ بالغثيان، لكني لم أتقيأ.

ـ *Fais pas le con,mon vieux* [دعك من الحماقة يا صاحبي] ـ كرر. وعندما التفتُ، رأيته يبتعد مترنحاً، وزجاجة النبيذ الحامض تتراقص في يده. عرفتُ أنني سأتذكر إلى الأبد هيئته المخمورة، وتينك العينين المتقافزتين والمحتقنتين، وصوته الأجش، الإنساني.

رجعتُ ماشياً حتى شارع جوزيف غرانيه، أضحك من نفسي،

مفعماً بالشكر والتقدير لذلك المتشرد المخمور الذي أنقذ حياتي على جسر ميرابو. كنتُ سأقفز، وكنت سأفعل لو لم يمنعني. أحسست بأني غبي، مضحك، مخجل، وبدأت أعطس. كل هذا التهريج الرخيص سينتهي بإصابةٍ بالزكام. كانت عظام ظهري تؤلمني من ارتطامي برصيف الجسر، وكنتُ أريد النوم، النوم طوال ما تبقى من الليل ومن الحياة.

وبينما أنا أفتح باب شقتي، رأيتُ شعاعاً نحيلاً من النور في الداخل. اجتزت بقفزتين الصالة ـ غرفة الطعام. ومن باب غرفة النوم، رأيتُ الطفلة الخبيثة، مولية ظهرها، تجرب قبالة المرآة فستان الرقص العربي الذي اشتريته لها في القاهرة، ولا أظن أنها كانت قد ارتدته من قبل. ومع أنها أحست بوجودي دون شك، إلا أنها لم تلتفت لتنظر إليّ، كما لو أنني دخلتُ حجرة شبح.

ـ ما الذي تفعلينه أنتِ هنا؟ ـ قلتُ، صرختُ أو زمجرت، مشلولاً عند العتبة، شاعراً أن صوتي غريب جداً، مثل صوت رجل يُخنَق.

بهدوء شديد، كما لو أنه لم يحدث أي شيء، وكأن هذا المشهد هو الأكثر ابتذالاً في الدنيا، التفتت القامة السمراء شبه العارية، الملتفة ببراقع شفافة، وتتدلى من خصرها أحزمة يمكن لها أن تكون من جلد أو سلاسل، استدارت نصف استدارة، ونظرت إليّ باسمة:

ـ لقد غيّرت رأيي، وها قد عدت إلى هنا ـ كانت تتكلم كما لو أنها تكشف لي عن إحدى نمائم الصالونات. ثم انتقلت إلى أمور أكثر أهمية، فعرضت عليّ ثوبها قائلة ـ: كان واسعاً عليّ قليلاً، لكنه الآن جيد. كيف يبدو عليّ؟

لم تستطع قول أكثر من ذلك لأنني، لا أدري كيف، كنت قد اجتزت الغرفة بقفزة واحدة، وصفعتها بكل قوتي. رأيتُ ومضة رعب في عينيها، رأيتها تترنح، تستند إلى الكوميدينو، تسقط على الأرض.

وسمعتها تقول، ربما تصرخ، دون أن تفقد هدوءها بالكامل، ذلك الهدوء المسرحي:

- لقد بدأتَ تتعلم كيفية معاملة النساء يا ريكارديتو.

تهاويتُ أنا إلى الأرض بجانبها، وأمسكت كتفيها ورحت أهزها، فاقداً الصواب، ومتقيئاً غيظي، غضبي، غبائي، غيرتي:

ـ معجزة أنني لستُ في أعماق السين، بسببكِ، بسببك أنت ـ كانت الكلمات تزدحم في فمي، تتشابك بلساني ـ لقد جعلتِني أموت ألف مرة في هذه الساعات الأربع والعشرين. ما الذي تلعبينه معي، أخبريني. أمن أجل هذا اتصلتِ بي، بحثتِ عني، عندما كنتُ قد توصلت إلى التحرر منكِ؟ إلى متى تظنين أني سأتحمل؟ أنا أيضاً لي حدود. ويمكن لي أن أقتلك.

وفي هذه اللحظة انتبهت إلى أنه يمكن لي، فعلاً، أن أقتلها إذا ما واصلتُ هزها على ذلك النحو. فأفلتُها مذعوراً. وكانت هي شاحبة، تنظر إلي فاغرة فمها، تحمي نفسها بذراعيها المرفوعين.

ـ لا أستطيع التعرف عليكَ، لستَ أنت نفسك ـ قالت متلعثمة، وانقطع صوتها. ثم راحت تفرك خدها وصدغها الأيمن الذي بدا لي، على الضوء الخافت، متورماً.

ـ كنتُ على وشك قتل نفسي بسببكِ ـ كررتُ بصوت مضمخ بالغضب والحقد ـ لقد صعدتُ إلى حاجز الجسر لألقي بنفسي إلى النهر، وأنقذني متشرد هناك. هذا ما كان ينقصكِ: منتحرٌ في سيرة حياتك. أتظنين أنك ستواصلين اللعب بي هكذا؟ يبدو واضحاً أنني لن أتحرر منكِ إلى الأبد إلا بقتل نفسي أو قتلك.

ـ هذا كذب، أنت لا تريد قتل نفسك ولا قتلي ـ قالت وهي تجرجر نفسها نحوي ـ أنت تريد «مضاجعتي» cacharme. أليس صحيحاً؟ وأنا أيضاً أريدك أن «تضاجعني». أو أن تمارس الحب معي،

إذا كانت هذه الكلمة الصريحة تزعجك.

إنها أول مرة أسمعها تقول هذه الكلمة البذيئة، فعل لم أسمع من ينطق به منذ قرون. وكانت هي قد بدأت بالنهوض قليلاً لتلقي بنفسها بين ذراعي، وتلمس ثيابي باستنكار: «إنكَ مبلل تماماً، ستصاب بالزكام، اخلع هذه الثياب المبللة أيها الأبله». ثم قالت: «إذا كنت تريد قتلي فافعل ذلك في ما بعد، أما الآن، أريدك أن تمارس الحب معي.» كانت قد استردت هدوءها، وصارت الآن سيدة الموقف. أما أنا، فكان قلبي يكاد يقفز من فمي، وأكاد أعجز عن التنفس. وفكرتُ في أنه سيكون من الغباء أن أصاب بالإغماء الآن. ساعدتني على خلع سترتي، والبنطال، والحذاء، والقميص ـ وكانت كلها تبدو كأنها قد أُخرجت للتو من الماء ـ، وبينما هي تساعدني على خلع ملابسي، كانت تمر بيدها من خلال شعري بتلك المداعبة الغريبة والوحيدة التي تداعبني بها أحياناً. «يا لخفقان قلبك أيها الأبله الصغير»، قالت لي ذلك بعد قليل، وهي تلصق أذنها بصدري، وأضافت: «أأنا التي جعلته هكذا؟» وكنت أنا بدوري قد بدأت مداعبتها، دون أن أكون قد توصلت بذلك إلى كبح غضبي. ولكن، صارت تخالط تلك المشاعر الآن رغبة متنامية تؤججها هي ـ كانت قد خلعت ثوب الرقص واستلقت فوقي لتجففني من البلل بالتحرك فوق جسدي ـ، بدس لسانها في فمي، وجعلي أبتلع لعابها، وإمساك عضوي ومداعبته بيديها؛ وأخيراً، بالتكور على نفسها مثل حنكليس، وإدخاله في فمها. قبّلتها، داعبتها، احتضنتها، دون الرقة التي كنت أبديها في مرات سابقة، بل بشيء من الخشونة، وكنت لا أزال مجروحاً، متألماً. وأخيراً أجبرتها على إخراج عضوي من فمها، وعلى الاستلقاء تحتي. فتحت ساقيها، بوداعة، عندما أحست بعضوي المتصلب يجهد للدخول فيها. أولجتُه بفظاظة وسمعتها تئن من الألم. لكنها لم تصدني، وانتظرت

بجسدها المتيبس، وهي تشكو وتئن ببطء، إلى أن أنتهي. بللت دموعها وجهي، فكنت ألحسها. كانت نحيلة، بعينين زائغتين ووجه متوعك من الألم.

ـ من الأفضل أن تذهبي، أن تتركيني حقاً ـ تضرعتُ إليها وأنا أرتجف من رأسي حتى قدمي ـ. كنتُ اليوم على وشك أن أقتل نفسي، وكدتُ أن أقتلك أنت أيضاً. لا أريد هذا. هيا، ابحثي عن آخر، عن رجل يجعلك تعيشين بزخم، مثل فوكودا. رجل يجلدك، يقدمكِ لأصدقائه، يجعلك تبتلعين مسحوقاً كي تطلقي له ضراطاً في أنفه القذر. أنت لا تنفعين للعيش مع قديس تافه وممل مثلي.

كانت هي قد طوقت عنقي بذراعيها، وراحت تقبّل فمي بينما أنا أتكلم. وكان جسدها كله يتلوى لينطبق على جسدي.

ـ لا أفكر في الذهاب الآن، وإلى الأبد ـ همست في أذني ـ. لا تسألني عن السبب، لأني لن أخبرك به ولو كنت أموت. لن أقول لك أبداً إنني أحبك حتى لو كنتُ أحبك.

لابد أنه أُغمي عليّ في تلك اللحظة، أو أنني غفوت فجأة، بالرغم من أنني شعرت، منذ كلماتها الأخيرة، أن قواي تفارقني وأن كل شيء بدأ يدور بي. استيقظتُ بعد وقت طويل من ذلك، في الغرفة المظلمة، وأحسست بشيء دافئ يلتصق بي. كنا نائمين، تحت الملاءات والأغطية. ومن خلال الكوة الكبيرة في السقف، رأيتُ بريق نجمة. كان المطر قد توقف، منذ بعض الوقت دون شك، لأن الزجاج لم يكن مبللاً. كانت الطفلة الخبيثة ملتحمة بجسدي، وكانت ساقاها متشابكتين بساقيّ، وفمها يستند إلى خدي. أحسست بقلبها ينبض، مضغوطاً، بداخلي. وكان غضبي قد تبخر، وكنت ممتلئاً الآن بالندم، لأني ضربتها وسببت لها الألم وأنا أحبها. قبّلتها بحنان، محاولاً ألا أوقظها، وهمست دون صوت في أذنها: «أحبك، أحبك، أحبك». لم

تكن نائمة، التصقت بي أكثر، وكلمتني وهي تضع شفتيها على شفتيّ، بينما لسانها ينقر لساني بين كل كلمة وأخرى:

- أنت لن تعيش مطمئناً معي على الإطلاق، إنني أحذرك. لأني لا أريدك أن تتعب مني، أن تعتاد عليّ. ومع أننا سنتزوج من أجل ترتيب أمر أوراقي، إلا أنني لن أكون زوجتك أبداً. أريد أن أظل على الدوام عشيقتك، كلبتك، عاهرتك. مثلما كنتُ هذه الليلة. لأني بهذه الطريقة فقط سأبقيك مجنوناً بي.

كانت تقول هذا كله وهي تقبلني دون توقف، وتحاول أن تحشر نفسها بالكامل في جسدي.

VI. أرخميدس، باني كاسرات الأمواج

ـ كاسرات الأمواج هي سر الهندسة العظيم ـ قال لاميل مبالغاً، وهو يفتح ذراعية ـ. أجل أيها العم ريكاردو، لقد حلّ العلم والتقنية كل أسرار الكون، باستثناء هذا السر. ألم يخبرك أحد بذلك من قبل؟

منذ أن عرَّفني العم أتاولفو على ابن أخته هذا، المهندس المتخرج من معهد ماساشوستس للتكنولوجيا والذي يُعتبر فخر آل لاميل، الشاب الظافر الذي يدعوني عمه دون أن أكون كذلك، فهو ابن أخت أتاولفو من فرع آخر من الأسرة، بدا لي سمجاً، لأنه يتكلم كثيراً وبنبرة شديدة الأسقفية. لكن الشعور بالسماجة، كما يبدو واضحاً، لم يكن متبادلاً؛ لأنه مذ تعرف عليّ، ضاعف من اهتمامه بي، وأبدى لي تقديراً بالغ الحفاوة بقدر ما هو غير مفهوم. أي أهمية أمثلها لهذا الشاب اللامع والناجح الذي يشيد أبنية في كل مكان من توسعات ليما في الثمانينيات، وأنا المترجم المجهول المهاجر، والعائد إلى البيرو بعد كل هذه السنوات، والذي يرى كل شيء بمزيج من الحنين والخبل؟ لست أدري السبب، لكن ألبريتو كان يضيع الكثير من وقته معي. لقد أخذني ليريني الأحياء الجديدة ــ لاس كاسواريناس، بلانيثي، تشاكاريّا، رينكونادا، فيبّا ــ، ومنشآت الاصطياف التي كانت تنبثق مثل الفطر على شواطئ الجنوب، وأراني بعض البيوت المحاطة بحدائق، وبحيرات ومسابح تبدو كأنها خارجة من أفلام هوليود. ولأنه سمعني أقول في أحد الأيام إن أكثر ما كان يثير حسدي، في الطفولة، من أصدقائي في ميرافلوريس هو أن كثيرين

منهم كانوا مشتركين في نادي ريغاتاس ـ أنا كنت أضطر إلي دخول النـادي متسللاً، أو بالسباحة من شاطئ الصيادين المجاور ـ، فقد دعاني للغداء في النادي التشوريّاني القديم. ومثلما قال لي، فإن منشآت النادي صارت حديثة جداً الآن، بملاعب التنس والفرونتون فيها، وبمسابحها الأولمبية والمغلقة، والشاطئين الجديدين المكتسبين من البحر بفضل إقامة كاسري أمواج طويلين. وتبين لي صحيحاً أن مطعم ألفريسكو، في ريغاتاس، يحضّر أرزاً مع البحريات، له مذاق المجد عند تناوله مع بيرة مثلجة. المشهد الرمادي، الغائم، في هذه الظهيرة من شهر تشرين الثاني، من شتاء يقاوم كي لا ينصرف، مع جروف بارانكو وميرافلوريس الشبحية، شبه المطموسة بالضباب، حرّكت صوراً كثيرة هاجعة في أعماق ذاكرتي. ما قاله لي حينذاك عن كاسرات الأمواج أخرجني من الشرود الذي كنت غارقاً فيه.

ـ أتتكلم بجد؟ ـ سألته، يلسعني الفضول ـ. الحقيقة أنني لا أصدق ذلك يا ألبيرتو.

ـ وأنا أيضاً لم أكن أصدقه أيها العم ريكاردو. لكنني أقسم لك إن الأمر كذلك.

كان شاباً طويل القامة ومتأمرك، له جسم رياضي ـ يأتي إلى ريغاتاس ليلعب الباليتا والفرونتون كل يوم في السادسة صباحاً ـ، بشعر حليق بالكامل تقريباً، شديد السمرة، ينضح زهواً وتفاؤلاً. يخلط ما يقوله بكلمات إنكليزية. له خطيبة في بوسطن، سيتزوج منها خلال بضعة شهور، فور أن تتخرج من دراستها الهندسة الكيميائية. لقد رفض عدة عروض عمل في الولايات المتحدة بعد أن تخرج بدرجة الشرف من معهد ماساشوستس للتكنولوجيا M.I.T. كي يأتي إلى البيرو لـ «لخدمة الوطن»، لأنه إذا ما ذهب جميع البيرويين المتميزين إلى الخارج «فمن الذي سيضع كتفه ويخرج قدماً

ببلادنا؟». كان يثقب أذنيّ بمشاعره كوطني طيب؛ لكنه يفعل ذلك دون أن ينتبه. لقد كان ألبيرتو لاميل الشخص الوحيد في وسطه الاجتماعي الذي يبدي ثقة كبيرة بمستقبل البيرو. في تلك الشهور الأخيرة من حكومة فرناندو بيلاندي تيري الثانية ـ أواخر العام 1984 ـ، مع التضخم المنفلت من عقاله، وإرهاب منظمة الدرب المضيء، وانقطاعات الكهرباء، وعمليات الخطف، ورؤية أن حزب الأبرا، بمرشحه آلان غاسيا، سيكسب انتخابات السنة التالية، كان هناك الكثير من القلق والتشاؤم في أوساط الطبقة الوسطى. ولكن لم يكن هناك، كما يبدو، ما يحبط معنويات ألبيرتو. لقد كان يتجول بمسدس محشو في سيارته تحسباً من التعرض للسطو، والابتسامة لا تفارق وجهه. لم يكن يخيفه احتمال أن يصل آلان غارسيا إلى الحكم. فقد حضر اجتماعاً لرجال أعمال شباب مع مرشح حزب الأبرا وبدا له أنه «برغماتي كفاية، وليس أيديولوجياً بأي حال».

ـ هذا يعني أن كاسر الأمواج لا يكون جيداً أو سيئاً لأسباب تقنية، لحسابات صائبة أو خاطئة، لصواب أو خلل في عملية البناء، وإنما لتعويذات غريبة، وسحر أسود أو أبيض ـ قلت له ساخراً ـ. أهذا هو ما أردت قوله لي، وأنت المهندس المتخرج من .M.I.T؟ هل وصلت الشعوذة إلى كامبردج، ماساشوستس؟

ـ هكذا بالضبط، إذا أردت فهم الأمر على هذا النحو ـ احتفى بي. لكنه عاد لإبداء الجدية والتأكيد، بحركات قوية من رأسه ـ: كاسر الأمواج يكون صالحاً أو غير صالح لأسباب ليس العلم في وضع يمكّنه من تفسيرها. المسألة شديدة الإبهار إلى حد أنني أكتب الآن تقريراً موجزاً لمجلة جامعتي. وسيروقك التعرف على مصدر معلوماتي. اسمه أرخميدس، وهو اسم ينطبق عليه تماماً. إنه شخصية تصلح لفيلم أيها العم ريكاردو.

بعد سماع قصص ألبيرتو، اكتسبت كواسر أمواج نادي ريغاتاس التي أراها من شرفة الفريسكو هالة أسطورية، هالة أوابد موروثة عن الأسلاف، ليست مجرد نتوءات حجرية موجودة هناك، تردم البحر لإجباره على التراجع، وتوفير حاجب شاطئي لمحبي السباحة، وإنما كتذكارات مبهمة لسلالة قديمة، منشآت نصف عمرانية ونصف دينية، حصيلة كفاءة حِرفية وحكمة سرية، مقدسة وخرافية أكثر منها عملية ووظيفية. فمن أجل بناء كاسر أمواج، حسب قول ابن الأخ المزعوم، والتحديد الدقيق للمكان الذي سينتصب فيه ذلك الهيكل من الكتل الحجرية المتراكمة أو الملتحمة بعضها ببعض بالملاط، لا يكفي، بل لا حاجة لأي حسابات تقنية. فما لا بد منه هو «عين» الخبير، وهو نوع من الساحر، التشامان، العراف، على طريقة العراف بالعصا الذي يكتشف أماكن آبار الماء المختفية تحت الأرض، أو المعلم الصيني فينغ شوي الذي يحدد اتجاه بناء البيت والأثاث الذي يجب أن يوضع فيه، كي يعيش قاطنوه في ما بعد بأمان ويستفيدوا منه، وإلا فإنهم سيجدون أنفسهم منكدين ومدفوعين إلى الشقاق والخلافات الزوجية. وبإمكان ذلك الخبير أن يحدد باستشعار داخلي أو علم غريزي ـ مثلما يفعل العجوز أرخميدس منذ حوالي نصف قرن على ساحل ليما ـ أين تبنى كاسرات الأمواج بحيث تتقبلها المياه ولا تلتف عليها وتغمرها بالرمل، وتزعزعها، وتقوض خاصرتيها، حائلة بذلك دون أن تؤدي كاسرات الموج وظيفتها في ترويض البحر وإخضاعه.

ـ لا بد أن السورياليين سيُفتنون بسماع شيء كهذا يا بن الأخ ـ قلتُ له مشيراً إلى كاسرات أمواج نادي ريغاتاس التي تتطاير عليها نوارس بيضاء، وطيور بط سوداء وسرب من طيور القطرس تتطلع بنظرات فلسفية وحويصلات كأنها المغارف ـ كاسرات الأمواج هي النموذج الكامل للأعجوبة اليومية.

ـ ستشرح لي فيما بعد من هم السورياليون أيها العم ريكاردو ـ قال المهندس، وهو يستدعي النادل ويشير لي بطريقة حاسمة أنه هو من سيدفع الحساب ـ إنني أرى، بالرغم من تظاهرك بالارتياب، أن قصتي عن كواسر الأمواج قد أسقطتك بالضربة القاضية من الانبهار.

أجل، لقد أصابني بالانبهار. تراه يتكلم بجد؟ ما رواه لي ألبيرت أبقاني مستغرقاً في تقليب الأمر منذ ذلك اليوم، يروح ويأتي إلى وعيي بين حين وآخر، كما لو أنني أحدس بأن متابعتي لهذا الأثر الطفيف ستوصلني فجأة إلى مغارة كنز ما.

كنت قد رجعت إلى ليما، لقضاء أسبوعين، بصورة مستعجلة جداً، وفي نيتي وداع ودفن العم أتاولفو لاميل الذي نُقل في حالة إسعاف سريع إلى المستشفى الأمريكي، بسبب نوبة قلبية ثانية أصابته، وأُخضع لعملية قلب مفتوح، دون أن يكون هناك أمل كبير في اجتيازه المحنة حياً. لكنه، وبصورة مفاجئة، ظل حياً، بل بدا واضحاً كذلك أنه آخذ باستعادة عافيته رغم سنوات عمره الثمانين وعمليات استبدال شرايين القلب الأربعة. «لعمك هذا حيوات أكثر من هرّ»، قال لي الدكتور كاستانيدا، جرّاح القلب الذي أجرى له العملية في ليما، وأضاف: «الحقيقة أنني كنت أظن أنه لن يخرج من هذه». فتدخل العم أتاولفو ليقول إنني أنا، بمجيئي إلى ليما، من أعاده إلى الحياة، وليس الأطباء الجهلة. كان قد غادر المستشفى الأمريكي، وبدأ يقضي نقاهة في بيته، برعاية ممرضة دائمة والخادمة أناستاسيا التسعينية التي رافقته مدى الحياة. أما زوجته العمة دولويس، فكانت قد توفيت قبل نحو سنتين. ومع أنني حاولت النزول في فندق، إلا أنه أصر على ذهابي إلى بيته المؤلف من طابقين، غير بعيد عن حي أوليفار سان إيسيدرو، حيث يوجد متسع كافٍ.

كان العم أتاولفو قد هرم كثيراً، وصار الآن رجلاً ضعيفاً

يجرجـر قدميـه، ونحـيلاً مثـل عصـا مكنسـة. لكنـه يحـتفظ بمودتـه الفياضة المعهودة، ويحافظ على تنبهه وفضوله، فهو يقرأ ثلاث أو أربع صحف يومية، مستعيناً بعدسة مكبرة كالتي يستخدمها هواة جمع الطوابع، ويسمع الأخبار كل ليلة ليعرف كيف يمضي العالم الذي نعيش فيه. وخلافاً لألبيرتو، كانت لدى العم أتاولفو تحفظات غائمة حول المستقبل القريب. فهو يعتقد أن منظمتي الدرب المضيء والحركة الثورية توباك آمارو (MRTA) ستستمران لبعض الوقت، ولا يثق بفوز الحزب الأبريستا في الانتخابات القادمة مثلما تتنبأ استطلاعات الرأي. «سيكون ذلك ضربة قاضية للبيرو البائسة يا بن الأخ»، كان يقول لي شاكياً.

لقد عدتُ إلى ليما بعد غياب قرابة عشرين سنة. كنت أشعر أنني غريب تماماً، في مدينة لم يبق فيها أي أثر تقريباً من ذكرياتي. بيت عمتي ألبيرتا اختفى، وظهرت مكانه بناية قبيحة من أربعة طوابق. والشيء نفسه كان يحدث في كل مكان من ميرافلوريس، حيث لم تصمد في مواجهة التحديث سوى واحد هنا وآخر هناك من تلك البيوت الصغيرة ذات الحدائق التي عرفتها في طفولتي. لقد فقد الحي كله شخصيته بفيض من العمارات متعددة الارتفاعات، وتكاثر المتاجر، وغابات معلقة من الإعلانات التجارية المضيئة التي تتنافس بفجاجة وانعدام ذوق. وبفضل المهندس إلبيرتو لاميل، تمكنتُ من إلقاء نظرة على أحياء ألف ليلة وليلة التي انتقل إليها الأغنياء والمترفون. وكانت محاطة بأحياء هامشية عملاقة، تُطلق عليها الآن تسمية ملطفة: «القرى الفتية»، حيث التجأ ملايين الفلاحين النازلين من الجبال، هرباً من الجوع والعنف ـ فالأعمال المسلحة والإرهابية كانت تتركز في منطقة سلسلة الجبال الوسطى بصورة أساسية ـ، يعيشون حياة بؤس في أكواخ من الحصائر، والخشب، والصفيح، والخرق أو

أي شيء متوافر، في أحياء لا وجود في معظمها للماء، أو النور، أو المجاري، أو الشوارع، أو وسائل النقل. هذا التعايش بين الثراء والفقر، في ليما، جعل الأغنياء يبدون أكثر غنى، والفقراء أشد فقراً. في أمسيات كثيرة، عندما لا أخرج لألتقي مع أصدقائي القدماء في حي باريو أليغري، أو مع ابن الأخ الجديد ألبيرتو لاميل، كنت أظل مع العم أتاولفو، ويتردد هذا الموضوع بإلحاح في أحاديثنا. فقد كنتُ أرى أن الفروقات الاقتصادية بين أقلية ضئيلة جداً من البيرويين الذين يعيشون حياة مترفة، ويتمتعون بالتعليم، والعمل، ووسائل الرفاهية؛ ومن يحافظون على حياتهم بمشقة في ظروف فقر وبؤس تفاقمت كثيراً في هذين العقدين. أما هو فكان يرى أنه انطباع سيئ، بسبب الرؤية الذي أحملها عن أوروبا، حيث وجود طبقة وسطى هائلة يذيب ويمحو هذه التباينات بين الحدين. أما في البيرو، حيث الطبقة الوسطى محدودة جداً، فكانت تلك التباينات موجودة على الدوام. كان العم أتاولفو يعيش في ذهول من العنف الذي يعصف بالمجتمع البيروي. «لقد كنت أشك على الدوام في أنه يمكن لهذا أن يحدث. وها هو قد حدث. لحسن الحظ أن العمر لم يمتد بدولوريس المسكينة لترى هذا كله». فعمليات الاختطاف، قنابل الإرهابيين، تدمير الجسور والطرق والمحطات الكهربائية، أجواء انعدام الأمن والتخريب ـ يتحسر ـ تؤخر لسنوات كثيرة أخرى إقلاع هذه البلاد نحو التحديث الذي لم يتوقف العم أتاولفو عن الإيمان به قط. وحتى الآن. «أنا لن يتاح لي رؤية هذا الإقلاع يا بن الأخ. عسى أن تتمكن أنت من رؤيته».

لم أستطع أن أقدم له تفسيراً مقنعاً لعدم رغبة الطفلة الخبيثة في المجيء معي إلى ليما، لأني أنا نفسي لم أكن أعرف السبب أيضاً. فقد أخذ بارتياب مستتر العذر بأنها لم تستطع ترك عملها، لأن الشركة تتلقى، في هذه الفترة من السنة تحديداً، طلبات متعاظمة لتنظيم

مؤتمرات، وندوات، وحفلات زفاف، وولائم، واحتفالات من كل نوع، مما يحول دون تمكنها من نيل إجازة لأسبوعين. وأنا لم أصدق ذلك أيضاً، هناك في باريس، عندما تعللت هي بهذه الحجة كي لا ترافقني، وقد أخبرتها بأنني لا أصدق ذلك. عندئذ انتهت الطفلة الخبيثة إلى الاعتراف لي بأنني على حق، وأنها لا تريد في الواقع المجيء إلى ليما. فكنتُ أستحثها: «ولماذا، إذا كان يمكن لي أن أعرف؟ ألا تتشوقين كثيراً إلى المأكولات البيروية؟ إنني أعرض عليك أسبوعين مع كل لذائذ المطبخ الوطني، الثيفيتشي، يخنة القريدس، الرز بالبط، فيليه عجل، سلطة لاكاوسا[1]، نبيذ تشابيلو الحريف، وكل ما تشتهين». لم تكن هناك طريقة، فهي لم تتقبل حيلي، سواء بالجد أو بالمزاح، لإقناعها. لن تذهب إلى البيرو، لا الآن ولا في أي وقت آخر. لن تعود لوضع قدميها هناك ولو لساعتين. وعندما أردتُ إلغاء سفري، كي لا أتركها وحدها، أصرت هي على أن أسافر، متذرعة بأن آل غرافوسكي سيكونون في باريس في هذه الفترة بالذات، ويمكن لها أن تلجأ إليهم إذا ما احتاجت في إحدى اللحظات للمساعدة.

عثورها على ذلك العمل كان أفضل علاج لحالاتها المعنوية. وقد ساعدها أيضاً، على ما أظن، في أن تتحول، بعد تجاوز ألف تعقيد وتمكننا من الزواج، إلى «امرأة تمتلك أوراقاً نظامية لأول مرة، بعد أن أوشكت على بلوغ الثامنة والأربعين من عمرها»، كما كان يروقها أن تقول لي في جلساتنا الحميمة. وقد فكرتُ، وهي المرأة القلقة والمتحررة على الدوام، في أن العمل في شركة تتعهد تنظيم

---

[1] لاكاوسا la causa: نوع من السلطة التقليدية في البيرو، قوامها البطاطا المهروسة، مع قطع بيض مسلوق، وزيتون وأشياء أخرى.

«احتفالات اجتماعية» سيسبب لها الضجر قريباً، وستكون موظفة قليلة الجدوى وسيفصلونها. لم يحدث ذلك. بل على العكس، إذ سرعان ما اكتسبت ثقة رب عملها. فشغل نفسها، وعمل أشياء، والاضطلاع بواجبات، حتى لو كانت مجرد طلب أسعار في الفنادق والمطاعم، ومقارنتها، والتفاوض على حسومات، وتقصي ما الذي تصبو إليه الجمعيات، والمؤسسات، والأسر ـ نوع المناظر الطبيعية، الفنادق، وجبات الطعام، الاستعراضات، الفرق الموسيقية ـ في أجواء لقاءاتها، ولائمها، مناسباتها، وكانت تولي ذلك كله أقصى اهتمام. ولم تكن تقصر عملها على المكتب فقط، وإنما كانت تعمل في البيت أيضاً. ففي المساء والليل، كنت أسمعها، وهي ملتصقة بالهاتف، تناقش تفاصيل تلك العقود بصبر غير متناهٍ أو منبهة مارتان، رب عملها، إلى مساعي اليوم. ويكون عليها في بعض الأحيان السفر إلى الأقاليم ـ إلى بروفانس أو الشاطئ اللازوردي أو بياريتز في الغالب ـ برفقة مارتان، أو مبعوثة منه. وعندئذ تتصل بي كل ليلة، وتخبرني بانشغالاتها اليومية بإسهاب في التفاصيل. لقد أفادها كثيراً شغل وقتها، وتحمّل المسؤولية، كسب المال. وصارت ترتدي من جديد ملابسها بصورة جذابة، وتذهب إلى صالونات التجميل، واختصاصيي التدليك، والمنيكور، ومشذبي القدمين، وتفاجئني على الدوام بتبدل في المكياج، أو التسريحة، أو الأناقة. «أتفعلين هذا مجاراة للموضة أم لتُبقي زوجك مغرماً بك دوماً؟». «أفعله لأن الزبائن يحبون رؤيتي جميلة وأنيقة. هل يُشعرك هذا بالغيرة؟» أجل، إنه يشعرني بالغيرة. لقد كنتُ واقعاً في حبها كعجل، وأظن أنها كانت واقعة في حبي أيضاً. فباستثناء بعض الأزمات الصغيرة العابرة، كنت ألحظ في علاقتنا، منذ تلك الليلة التي كنت فيها على وشك إلقاء نفسي في السين، بعض التفاصيل التي لم يكن بالإمكان التفكير فيها من قبل. «هذا

الفراق لمدة أسبوعين سيكون اختباراً»، قالت لي في ليلة سفري. «فلنر إذا ما كنتَ ستزداد حباً لي أو أنك ستتركني من أجل واحدة من أولئك البيرويات اللعوبات، أيها الطفل الطيب». «بشأن البيرويات اللعوبات لدي منك ما يزيد». كانت تحافظ على قوامها الرشيق ـ إنها تواظب، في عطلة نهاية كل أسبوع، على الذهاب إلى المركز الرياضي في جادة مونتيني لممارسة التمارين والسباحة ـ، ووجهها نضر وحيوي.

لقد كان زواجنا مغامرة بيروقراطية. وإن يكن قد طمأنها معرفة أنها توصلت، أخيراً، إلى وضع نظامي وقانوني، بالرغم من أن الشكوك كانت تساورني في أن السلطات الفرنسية ستنبش في أحد الأيام، لسبب ما، أوراقها القديمة، وتكتشف أن زواجنا يتضمن عيوباً كثيرة في العمق، وأنه زواج باطل. لكنني لم أكن أخبرها بمخاوفي، وخاصة الآن، بعد انقضاء سنتين على زواجنا، وانتهاء الأمر بالحكومة الفرنسية إلى منحها الجنسية، دون أن تخامرها الشكوك في أن مدام ريكاردو سوموكورثيو الجديدة، كانت قد نالت الجنسية الفرنسية من قبل بحكم الزواج، وباسم مدام روبير أرنو.

من أجل التمكن من الزواج، كان لا بد من اصطناع وثائق مزيفة لها، باسم مختلف عن الاسم الذي كانت عليه عندما تزوجت من روبير أرنو. وما كان يمكن لنا الحصول عليها دون مساعدة العم أتاولفو. عندما كتبتُ إليه عن المشكلة، بخطوط عريضة، دون أن أقدم له توضيحات أكثر مما لا بد منه، تجنبتُ الحديث عن التفاصيل الوعرة في حياة الطفلة الخبيثة. وقد ردّ عليّ بأنه لا يريد معرفة المزيد. كان التخلف يوفر حلولاً سريعة، وإن تكن باهظة التكاليف نوعاً ما، لمثل هذه الحالات. وقد قال وفعل، فبعد أسابيع قليلة أرسل إليّ شهادة ميلاد، وشهادة تعميد، صادرتين عن بلدية هوارا وأبرشيتها باسم

لوكي سولورثانو كاخاوارينغا، وبهذه الوثائق، عملاً بتعليماته، مثلنا أمام قنصل البيرو في بروكسل، وهو صديق له. وكان العم أتاولفو قد أوضح له بإيجاز، في رسالة، أن لوكي سولورثانو، خطيبة ابن أخيه ريكاردو سوموكورثيو، قد فقدت كل أوراقها الثبوتية، بما في ذلك جواز السفر، وهي بحاجة إلى جواز سفر جديد. استقبلنا القنصل - وهو لقية أثرية بشرية بصدار وسلسلة ساعة جيب ونظارة مونكل - ببرود حذر لكنه مهذب. لم يوجه إلينا سؤالاً واحداً، مما أشعرني بأن العم أتاولفو قد أخبره بأكثر مما يتظاهر بأنه يعرفه. كان لطيفاً، موضوعياً، واحتفظ بكل الشكليات. وقد سعى لدى وزارة العلاقات الخارجية، وعبرها لدى الحكومة والشرطة، وأرسل نسخاً من شهادتي ميلاد خطيبتي وتعميدها، طالباً منحه الإذن بإصدار وثيقة جديدة لها. وبعد انقضاء شهرين، كان لدى الطفلة الخبيثة جواز سفر جديد، وشخصية جديدة، يمكننا بها أن نسعى لها، في بلجيكا، للحصول على تأشيرة دخول إلى فرنسا، بكفالتي أنا الفرنسي المتجنس والمقيم في باريس. وبدأنا على الفور إجراءات الزواج في بلدية الدائرة الخامسة، في ساحة البانتيون. وهناك أنجزنا عقد الزواج أخيراً، في شهر تشرين الأول 1982، في ظهيرة يوم خريفي، دون مرافقة أحد باستثناء الزوجين غرافوسكي اللذين تقدما كشاهدين. لم نُقم مأدبة زفاف، أو أي احتفال آخر، لأنني في مساء ذلك اليوم بالذات غادرتُ إلى روما في عقد عمل لمدة أسبوعين لدى منظمة الفاو.

كانت الطفلة الخبيثة أفضل حالاً بكثير. لقد كنتُ أتكلف مشقة أحياناً في رؤيتها تمارس حياة عادية، فهي مشغولة طوال الوقت بعملها، وسعيدة، كما يبدو لي، أو أنها على الأقل مستسلمة لهذه الحياة البرجوازية الصغيرة التي نعيشها: العمل الكثير طوال الأسبوع،

وتحضير الطعام في الليل، والذهاب إلى السينما، المسرح، أحد المعارض، أو حفلة موسيقية، وإلى العشاء في الخارج في نهاية الأسبوع، وحدنا في معظم الأحيان، أو مع الزوجين غرافوسكي عندما يكونان هنا، ذلك أنهما ما زالا يذهبان لقضاء بضعة شهور كل سنة في برنستون. أما جيلال فلم نكن نراه إلا في الصيف، لأنه يظل خلال ما تبقى من السنة في مدرسة داخلية في نيوجرسي. فقد قرر أبواه أن يتعلم في الولايات المتحدة. ولم يبق فيه أي أثر لمشكلته القديمة. إنه يتكلم ويكبر بصورة طبيعية، ويبدو مندمجاً على أحسن وجه بالمجتمع الأمريكي. كان يرسل إلينا بطاقات بريدية، أو رسالة قصيرة، بين حين وآخر، وكانت الطفلة الخبيثة تكتب إليه رسالة كل شهر، وترسل له على الدوام هدية ما.

بالرغم مما يقال عن أن الحمقى وحدهم هم السعداء، فإني أعترف بأنني كنت أشعر بالسعادة. فتقاسم أيامي ولياليّ مع الطفلة الخبيثة، صار يملأ حياتي. وعلى الرغم من مودتها نحوي، بالمقارنة مع البرودة الجليدية التي كانت عليها في السابق، إلا أنها توصلت بالفعل إلى جعلي أعيش في قلق على الدوام، متوجساً أنها في أحد الأيام، وبطريقة غير متوقعة، ستعود إلى مغامراتها وتختفي دون أن تقول وداعاً. لقد كانت تتدبر الأمر دوماً لجعلي أعرف، أو لجعلي أخمن بكلمة أدق، أن هناك سراً أو عدة أسرار في حياتها اليومية، امتداداً لحياتها لا يمكن لي الدخول إليه، ويمكن أن ينتج عنه في أية لحظة زلزال يقوض تعايشنا. لم أكن قادراً على استيعاب أن ليلي التشيلية ستتقبل أن يظل ما تبقى من حياتها مثلما هو الآن: حياة امرأة باريسية من الطبقة الوسطى، دون مفاجآت أو أسرار، غارقة في روتين صارم، وبعيدة عن المغامرات.

لم نكن متحدين مثلما كنا في الشهور التي تلت مصالحتنا،

ولنسمها هكذا، في تلك الليلة التي برز فيها *متشرد* مجهول وسط المطر والظلام، على جسر ميرابو، لينقذ حياتي. «ألا يكون الرب نفسه هو من أمسك ساقيك، أيها الطفل الطيب؟»، كانت تسخر مني. فهي لم تقتنع اقتناعاً تاماً بأنني كنت على وشك الانتحار. وقد كانت تقول لي مراراً وتكراراً: «عندما يريد شخص الانتحار، فإنه يفعل ذلك، وليس هناك أي *متشرد* قادر على منعه يا ريكارديتو». وفي تلك المرحلة، كانت نوبات الهلع لا تزال تفاجئها بين حين وآخر. عندئذ تبدو مستنفدة، بشفتين ضاربتين إلى البنفسجي، شاحبة جداً وبعينين تحيط بهما الزرقة، ولم تكن تبتعد عني ثانية واحدة أثناء ذلك. تلحق بي في كل أرجاء البيت مثل كلب وفيّ، ممسكة بيدي، أو متشبثة بحزامي أو قميصي، لأن هذه الملامسة الجسدية تمنحها الحد الأدنى من الأمان الذي من دونه، كما تقول لي «سأتحطم». رؤيتها تعاني بهذه الطريقة، تجعلني أعاني أنا أيضاً. وفي بعض الأحيان، كان انعدام الأمان الذي يتلبسها وسط النوبة قوياً إلى حدّ لا تستطيع معه الذهاب إلى الحمام وحدها؛ فتطلب مني وهي تموت من الخجل، وأسنانها تصطك، أن أدخل معها إلى المرحاض وأبقى ممسكاً بيدها وهي تقضي حاجتها.

لم أستطع قط تكوين فكرة دقيقة عن طبيعة الخوف الذي ينتابها فجأة، لأنه لم يكن لديها هي نفسها تفسير عقلاني لذلك. أهي صور مختلطة، أحاسيس، أفكار، هواجس بأن شيئاً رهيباً سينقض عليها ويمزقها؟ «إنه هذا وأشياء أخرى أكثر بكثير.» وعندما تتعرض لنوبات الهلع تلك، وهي تستمر عدة ساعات عموماً، كانت هذه المرأة الجريئة وقوية الشخصية تتحول إلى عزلاء وسريعة العطب مثل طفلة صغيرة. كنت أُجلسها على ركبتيّ وأجعلها تتكور ملتصقة بي. أشعر بها ترتجف، تتنهد، تتشبث بي بيأس لا يمكن لأي شيء أن يخفف منه. وبعد قليل، تغط في نوم عميق. ثم تستيقظ بعد ساعة أو ساعتين،

وتكون على أحسن حال، كأن شيئاً لم يحدث لها. كل توسلاتي كي تقبل العودة إلى مصحة بيتي كلامار كانت بلا جدوى. فتوقفتُ أخيراً عن الإلحاح لأن مجرد التطرق إلى الموضوع كان يُغضبها. في تلك الشهور، وبالرغم من اتحادنا الجسدي الشديد، إلا أننا كنا نكاد لا نمارس الحب، لأنها لم تكن تتوصل، حتى في حميمية الفراش، إلى أدنى قدر من الطمأنينة، أو إلى قابلية مؤقتة للاستسلام للمتعة.

ساعدها العمل على الخروج من هذه المرحلة الصعبة. لم تختف النوبات فجأة، وإنما راحت تتباعد وتصير أقل زخماً كذلك. وقد صارت تبدو الآن أفضل بكثير، وتحولت إلى امرأة عادية تقريباً. حسن، أنا أعلم في العمق أنها لن تكون امرأة طبيعية أبداً. ولست أريدها أن تكون كذلك، لأن ما أحبه فيها هو الجموح والاندفاع غير المتوقع في شخصيتها.

في الأحاديث التي كنتُ أتبادلها مع العم أتاولفو خلال نقاهته، لم يوجه إليّ أية أسئلة قط عن ماضي زوجتي. كان يرسل إليها تحياته، ويبدو سعيداً بانضمامها إلى الأسرة، ويأمل أن تتشجع يوماً وتأتي إلى ليما كي يتعرّف عليها، لأنها إذا لم تفعل، فلن يكون أمامه مفر، على الرغم من أمراضه، إلا الذهاب لزيارتها في باريس. وكان يضع ضمن إطار، في الصالة، الصورة التي أرسلناها إليه، وقد التُقطت لنا في يوم زواجنا، لدى الخروج من البلدية، ويشكل البانتيون خلفية لها.

في تلك الأحاديث، وكنا نتبادلها بعد الظهر عموماً، بعد تناولنا الغداء، وتستمر لساعات أحياناً، كنا نتحدث كثيراً عن البيرو. لقد كان نصيراً متحمساً للرئيس بيلاوندي مدى الحياة، لكنه الآن حزين، مثلما اعترف لي، لأن حكومة بيلاوندي تيري الثانية خيبت أمله. فباستثناء إعادة الصحف والقنوات التي أممتها دكتاتورية

فيلاسكو ألفارادو العسكرية، لم تتجرأ على إصلاح أي من إجراءات تلك الدكتاتورية التي أفقرت البيرو، وفاقمت من الأحقاد فيها، كما تسببت في تضخم سيؤدي إلى انتصار حزب الأبرا في الانتخابات القادمة. وخلافاً لابن أخيه ألبيرتو رميل، لم تكن لدى العم أتاولفو أية أوهام بشأن آلان غارسيا. وكنت أقول لنفسي إنه يوجد، دون شك، في هذه البلاد التي ولدتُ فيها وابتعدت عنها بطريقة لا رجعة عنها، كثير من الرجال والنساء من أمثاله. أناس محترمون في الأساس، حلموا طوال حياتهم بتقدم اقتصادي، واجتماعي، وثقافي، وسياسي، يجعل من البيرو مجتمعاً متقدماً، مزدهراً، ديمقراطياً، يوفر فرصاً مفتوحة للجميع، لمجرد أن يروا أنفسهم محبطين مرة بعد أخرى، ويصلوا مثل العم أتاولفو إلى الشيخوخة ـ إلى حافة الموت ـ مذهولين، يتساءلون لماذا نتراجع بدل أن نتقدم، ونصير الآن أسوأ ـ مزيد من التناقضات، وانعدام المساواة، والعنف، وانعدام الأمن ـ مما كنا عليه عندما بدأنا العيش.

ـ لقد أحسنتَ صنعاً بذهابك إلى أوروبا يا بن الأخ ـ كانت لازمته التي يكررها وهو يمسد لحيته الشهباء التي تركها تنمو ـ. تصور ما الذي كان سيحلّ بك لو أنك بقيت لتعمل هنا، مع كل هذه الانقطاعات في الكهرباء، والقنابل، وعمليات الاختطاف. وانعدام فرص العمل للشباب.

ـ لست واثقاً تماماً أيها العم. صحيح أن لدي مهنة تتيح لي العيش في مدينة رائعة. لكنني تحولت هناك إلى كائن بلا جذور، إلى شبح. لن أكون فرنسياً أبداً، مع أنني أحمل جواز سفر يقول إنني فرنسي. سأظل هناك مجرد *météque*.[1] ولم أعد في الوقت نفسه بيروياً، لأنني أشعر هنا بأني أجنبي أكثر مما أنا عليه في باريس.

---

(1) *météque* أجنبي مقيم.

ـ أعتقد أنك تعلم أن الرغبة الأولى في الحياة لستين بالمئة من الشباب، حسب استطلاع للرأي أجرته جامعة ليما، هو الذهاب إلى الخارج: الغالبية العظمى إلى الولايات المتحدة، والبقية إلى أوروبا، واليابان، وأستراليا، أو أي مكان آخر. كيف يمكننا لومهم، أليس كذلك؟ إذا كانت بلادهم لا توفر لهم العمل، ولا الفرص، ولا الأمن، أليس مشروعاً أنهم يريدون الرحيل. لهذا تجدني أقدر ألبيرتو تقديراً عالياً. كان بإمكانه البقاء في الولايات المتحدة، في وظيفة جيدة، لكنه فضّل المجيء ليحطم روحه من أجل البيرو. أرجو ألا يندم. إنه ينظر إليك باحترام وتقدير، ألم تلحظ ذلك يا ريكاردو؟

ـ بلى أيها العم، وأنا أقدره. الحقيقة أنه لطيف جداً. بفضله تعرفتُ على وجوه أخرى لليما. ليما المليونيريين والأحياء الهامشية.

وفي هذه اللحظة بالذات رن الهاتف، وكان المتصل هو ألبيرتو، يريد التحدث معي.

ـ أترغب في التعرّف على أرخميدس العجوز، باني كاسرات الأمواج الذي حدثْتُكَ عنه؟

ـ أجل، بالطبع يا رجل ـ قلت له متحمساً.

ـ إنهم يبنون حاجز أمواج جديداً في لابونتا، ومهندس تلك البلدية هو صديقي تشيتشو كانيبا. غداً صباحاً، إذا كان يناسبك. سآمر لاصطحابك في الساعة الثامنة. ليس الوقت مبكراً بالنسبة إليك، أليس كذلك؟

ـ لابد أني صرت عجوزاً جداً أيها العم أتاولفو، بالرغم من أنني في الخمسين من العمر فقط ـ قلتُ له بعد أن أغلقت الهاتف ـ. فألبيرتو، باعتباره ابن أختك، هو في الواقع ابن عم لي. لكنه يصر على تسميتي عمه. لابد أنني أبدو له عجوزاً ما قبل تاريخي.

ـ ليس الأمر كذلك ـ ضحك العم أتاولفو ـ. بما أنك تعيش في

باريس، فإنك توحي له بالاحترام. فالعيش في تلك المدينة هو كتاب اعتماد كامل، يعادل القول إنك قد حققت الانتصار في الحياة.

في صباح اليوم التالي، وبدقة الساعة، حضر ألبيرتو قبل دقائق من الثامنة، يرافقه المهندس كانيبا، المكلف بالأعمال على شاطئ كانتلاو ومرفأ لابونتا، وهو رجل متقدم في السن، يضع نظارة قاتمة، وله كرش كبير محب للبيرة. نزل من شاحنة ألبيرتو الصغيرة ماركة شيروكي، وتنازل لي عن المقعد في المقدمة. المهندسان كلاهما كانا يرتديان بنطالي رعاة بقر، وقميصين مفتوحين، وسترتين من الجلد. أحسست أنني مضحك ببدلتي الثلاثية، وقميصي ذي الياقة، وربطة عنقي، إلى جانب هذين السيدين الآتيين بملابس سبور.

ـ سيُدهشك العجوز أرخميدس كثيراً ـ أكد لي المهندس صديق ألبيرتو الذي يسميه هذا الأخير تشيتشو ـ. إنه مجنون بديع. أنا أعرفه منذ عشرين سنة ومازال يذهلني بالقصص التي يرويها. إنه ساحر، ولسوف ترى ذلك. وهو راوي طرائف ممتع جداً.

ـ إنه يستحق أن توضع أمامه آلة تسجيل، أقسم لك أيها العم ريكاردو ـ تدخل ألبيرتو ـ. قصصه عن حواجز الأمواج رائعة، وأنا أحاول دائماً أن أستجر لسانه في الكلام.

ـ مازلتُ غير قادر على استيعاب ما أخبرتني به يا ألبيرتو ـ قلتُ له ـ. ومازلتُ أفكر في أنك كنت تسخر مني. يبدو لي مستحيلاً أن بناء حاجز في البحر يحتاج إلى ساحر أكثر من حاجته إلى مهندس.

ـ من الأفضل لحضرتك أن تصدق ذلك ـ أطلق تشيتشي كانيبا قهقهة مدوية ـ. لأنه إذا كان هناك من يعرف ذلك حق المعرفة، فهو أنا، من خلال التجربة المريرة.

طلبتُ منه أن يتوقف عن معاملتي بـ «حضرتك»، لأني لست عجوزاً إلى ذلك الحدّ، وأن نتعامل دون كلفة منذ الآن.

كنا ننطلق على الطريق المحاذي للشاطئ، متوجهين إلى ماجدلينا وسان ميغيل، عند سفح الجروف العارية، وإلى يسارنا بحر هائج وشبه مختف بالضباب، فيه بعض المتزلجين على الأمواج ببدلاتهم المطاطية، على الرغم من أن الفصل مازال شتاءً. كانوا مكتومي الصوت، غائمين في الضباب، يمتطون البحر، بعضهم يرفع يديه عالياً ويؤرجح جسده ليحافظ على توازنه. روى لنا تشيتشو كانيبا ما جرى له في حاجز للأمواج بناه في كوستا فيردي، كنا قد خلّفناه وراءنا للتو، وهو غير مكتمل ويبدو مثل سارية عند الرأس البحري. كانت بلدية ميرافلوريس قد كلفته بتوسيع المشهد وبناء كاسري أمواج لكسب مزيد من الشاطئ من البحر. لم يجد أي صعوبة تذكر في بناء الحاجز الأول، فقد بُني في المكان الذي نصح به أرخميدس. وأراد تشيتشو أن يبني الحاجز الثاني على مسافة مناظرة للأول، بين مطعمي كوستا فيردي والوردة البحرية. لكن أرخميدس عارض ذلك: الحاجز لن يقاوم الموج، وسوف يبتلعه البحر.

ــ لم يكن هناك أي سبب يحول دون مقاومته ــ قال المهندس كانيبا بتفخيم ــ. أنا أعرف في هذه الأمور، ولأجل هذا درستُ في الجامعة. فالأمواج والتيارات هي نفسها التي تضرب الحاجز الأول. وخط التصريف هو نفسه بالضبط، وكذلك عمق القاعدة البحرية. طلب مني العمال أن أصغي إلى نصيحة أرخميدس، لكن ما قاله بدا لي نزوة رجل عجوز راغب في تبرير الأجر الذي يتقاضاه. وبنيت كاسر الأمواج في المكان الذي أردته. لقد كانت ساعة نحس يا صديقي ريكاردو! وضعتُ فيه ضعف كمية الأحجار والملاط التي وُضعت في الحاجز الأول، فكان اللعين يتفتت مرة بعد أخرى. كان يسبب في إحداث حوامات تبدّل كل المكان المحيط، وتولّد تيارات وأمواج مدّ أحالت الشاطئ إلى مكان خطر على المستحمين. وخلال أقل من ستة

شهور، فتت لي البحر ذلك الكاسر الشيطاني، وحوّله إلى الركام الذي رأيتَه. في كل مرة أمر من هناك أشعر بوجهي يتوقد. إنه نصبُ عاري! وقد غرمتني البلدية وانتهيتُ إلى خسارة المال بدل كسبه.

- وما التفسير الذي قدمه لك أرخميدس؟ لماذا لم يكن بالإمكان بناء كاسر أمواج هناك؟

- التفسيرات التي يقدمها ليست تفسيرات - قال تشيتشو -. إنها ترهات من نوع «البحر لن يتقبله هناك»، «هناك لا يثبت»، «هناك سيتحرك، وإذا ما تحرك سيقوضه الماء». حماقات من هذا النوع، لا أساس لها ولا رأس. إنها شعوذات، مثلما تقول أنت، أو أي شيء آخر. ولكن، بعد ما جرى لي في كوستا فيردي، صرت أنصاع لما يقوله العجوز. في مسألة بناء كاسرات الأمواج لا توجد هندسة تنفع: إنه يعرف كل شيء.

الحقيقة أنني كنت متلهفاً لأتعرف على ذلك الأعجوبة الذي من لحم وعظم. وقال ألبيرتو إنه يرجو أن نجده في ذروة انهماكه في رصد البحر. لأن أرخميدس يتحول عندئذ إلى استعراض: يجلس على الشاطئ متقاطع الساقين مثل بوذا، ثابتاً، متحجراً، يمكن له أن يقضي ساعات وهو يمعن النظر إلى الماء، في حالة تواصل غيبية مع قوى أمواج المدّ الخفية وآلهة الأعماق البحرية، يستجوبهم، يصغي إليهم، يصلي لهم بصمت. إلى أن يبدو، أخيراً، كما لو أنه ينبعث. فينهض واقفاً وهو يتمتم بشيء ما، ويقوم بإيماءات نشطة، ويصدر حكمه: «أجل، يمكن البناء» أو «لا، غير ممكن»، وفي هذه الحالة يتوجب الذهاب للبحث عن مكان آخر مناسب لبناء كاسر الأمواج.

وعندئذ، بصورة مفاجئة، عندما صرنا بموازاة ساحة سان ميغيل المبللة بالرذاذ، ودون أن يخطر له شيء من الانفعال الذي سينفلت في أعماقي، بادر المهندس تشيتشو كانيبا إلى القول:

ـ إنه عجوز بديع وواسع المخيلة. يروي دائماً أموراً غريبة، لأنها تمنحه كذلك بعض هذيانات العظمة. لقد خرج في إحدى الفترات ببدعة أن له ابنة في باريس، وأنها ستأخذه للعيش معها هناك، في مدينة النور!

أحسستُ كما لو أن الصباح قد تحول فجأة إلى ظلام. وشعرت بالحموضة التي تسببها لي أحياناً قرحة قديمة في الاثني عشرية، وبتطاير ومضات شرر في رأسي، ولست أدري بالضبط أي أشياء أخرى شعرت بها، لكنها كانت كثيرة جداً، وفي هذه اللحظة، أدركت السبب في أنني أحسست بالجزع، وبالتآكل الذي يسبق ما هو غير متوقع، وبهاجس مسبق باقتراب كارثة أو معجزة، منذ أن خطر لألبيرتو لاميل أن يخبرني، ونحن في نادي ريغاتاس، بقصة أرخميدس وكاسرات الأمواج في ليما، كما لو أن تلك القصة تتضمن شيئاً يخصني بعمق. وبجهد جهيد كبحت رغبتي الجامحة في سؤال تشيتشو كابينا عما قاله للتو عن ابنة أرخميدس.

ما إن نزلنا من الشاحنة الصغيرة على كورنيش فيغيريدو دي لابونتا، قبالة شاطئ كانتالو، حتى عرفت من هو أرخميدس، دون حاجة لأن يعرفوني عليه. لم يكن يجلس ساكناً. بل كان يمشي ويداه في جيبيه، على الضفة نفسها التي تأتي لتموت فيها تدرجات الأمواج الناعمة على شاطئ الأحجار والحصى السوداء الذي لم أره منذ مراهقتي. كان تشولو[1] أبيض وبائساً جداً، هزيلاً، شعره خفيف ومشعث، شخصاً تجاوز منذ زمن، بكل تأكيد، تلك السن التي تبدأ فيها الشيخوخة، مرحلة انعدام التقدير التي تختفي فيها الفروقات الكرونولوجية، ويمكن للرجل فيها أن يكون في السبعين أو

---

[1] تشولو cholo: خلاسي لأب أبيض وأم هندية من السكان الأصليين.

الثمانين، أو حتى في التسعين، دون أن يُلحظ الفرق كثيراً. كان يرتدي قميصاً أزرق مخططاً، لم يكد يبقى فيه زر واحد، تنفخه ريح الصباح الباردة والرمادية، فتكشف عن صدر العجوز الأمرد والمعروق، المنحني قليلاً على نفسه والمتعثر بأحجار الشاطئ، وهو يمضي من جهة إلى أخرى، في طفرات بجعة، كان يمكن له أن يهوي منهاراً في كل خطوة.

ـ هذا هو، أليس كذلك؟ ـ سألتهما.

ـ ومن سيكون سواه ـ قال تشيتشو كانيبا. ثم صرخ جاعلاً من يديه بوقاً ـ: أرخميدس! أرخميدس! تعال، يوجد هنا من يود التعرف إليك. لقد جاء من أوروبا كي يرى وجهك، تصور.

توقف العجوز، وجفل رأسه منتفضاً. نظر إلينا مرتبكاً. ثم هز رأسه بعد ذلك، وتقدم نحونا وهو يتوازن فوق أحجار الشاطئ السوداء والرصاصية. وعندما صار قريباً، استطعتُ رؤيته بصورة أفضل. كان خداه غائرين، كما لو أنه فقد أسنانه كلها، ويقسم ذقنه شق يمكن له أن يكون أثر جرح. عيناه هما أكثر ما في شخصيته حيوية وقوة، إنهما صغيرتان ومائعتان، لكنهما حادتان ومحاربتان، تنظران دون أن ترمشا، بثبات صلف. لابد أنه مسن جداً، أجل، بسبب تجعدات جبهته وتلك التي تحيط بعينيه أو تعطي رقبته هيئة عرف ديك، وبسبب يده الممتلئة بالعقد وأظفارها السوداء التي مدّها لمصافحتي.

ـ أنت مشهور جداً يا أرخميدس؛ حتى إن عمي، وإن لم تصدق ذلك، جاء من فرنسا ليتعرف على باني كاسرات الأمواج العظيم في ليما ـ قال له ألبيرتو وهو يربت على كتفه ـ. يريد منك أن تشرح له كيف، ولماذا، تعرف المكان الذي يمكن أو لا يمكن بناء كاسر أمواج فيه.

ـ هذا أمر لا يُشرح ـ شدّ العجوز على يدي، مطلقاً وابلاً من رذاذ

اللعاب لدى التكلم ـ هذا أمر أحسه في أحشائي أيها السيد. أنت متفرنس إذن؟

ـ لا، أنا بيروي. لكنني أعيش هناك منذ سنوات طويلة.

كان له صوت هرم وحاد، ويكاد لا ينهي الكلمات، كأنه يفتقد إلى النَّفَسَ لنطق الحروف كلها. وما إن سلّم عليّ حتى توجه، دون أن يتوقف تقريباً، نحو تشيتشو كانيبا:

ـ آسف، لكنني أظن أنه لن يكون بالإمكان البناء هنا أيها المهندس.

ـ ما تعني بأنك تظن؟ ـ استشاط المهندس غضباً، ورفع صوته ـ. أأنت متأكد أم غير متأكد؟

ـ لستُ متأكداً ـ اعترف العجوز بضيق، وهو يقطب وجهه أكثر مما هو عليه. صمت قليلاً، وألقى نظرة سريعة على المحيط، وأضاف ـ: أو بعبارة أدق، لست أدري إذا ما كنتُ متأكداً. لا تغضب مني، ولكن هناك شيئاً كأنه يقول لي لا.

ـ لا تزعجني إذن يا أرخميدس ـ اعترض المهندس كانيبا وهو يلوح بيديه ـ. عليك أن تعطيني نتيجة حاسمة. وإلا لن أدفع لك، يا للعنة.

ـ المسألة هي أن البحر يكون أنثى مراوغة، من أولئك اللواتي يقلن «نعم، ولكن لا»، «لا، ولكن نعم» ـ وضحك العجوز وهو يفتح فمه على اتساعه، حيث لا يظهر سوى سنين أو ثلاثة أسنان. وعندئذ انتبهت إلى أن أنفاسه تعبق برائحة قوية وحريفة، رائحة خمرة قصب أو نبيذ بيسكو زنخ جداً.

ـ إنك تفقد قدراتك يا أرخميدس ـ ربت له ابن الأخ ألبيرتو مرة أخرى بمودة ـ. فأنت لم تكن تتردد أبداً من قبل في هذه الأمور.

ـ لا أظن أن الأمر كذلك أيها المهندس ـ قال أرخميدس وهو يكتسي بالجدية. وأشار بإيماءة إلى المياه الخضراء الضارية إلى الرمادية

ـ إنها نزوات البحر الذي له أسراره، مثل الجميع. إنني أعرف على الدوام تقريباً، ومنذ النظرة الأولى، إذا ما كان ممكناً أو غير ممكن. لكن شاطئ كانتولاو هذا مزعج جداً، لديه حيله الصغيرة، وهو يضللني.

كان تراجع الأمواج واندفاعها للارتطام بصخور الشاطئ قويين جداً، فكنت لا أستطيع، في بعض اللحظات، سماع صوت العجوز. اكتشفتُ حركة ثابتة لديه: يرفع يده بين حين وآخر إلى أنفه ويلمسه بسرعة، كما لو أنه يهش حشرة.

اقترب رجلان ينتعلان جزمات ويرتديان سترتين من قماش سميك طُبع عليهما بحروف صفراء «بلدية كايّاو». انتحى بهما تشيتشو كانيبا وألبيرتو جانباً. وسمعتُ الأول يقول لهما، دون أن يهتم بأن أرخميدس يسمعه: «تبين الآن أن السافل غير متأكد إذا ما كان ممكناً أو غير ممكن. لهذا، علينا نحن أن نتخذ القرار، وليس أمامنا من سبيل آخر».

كان العجوز إلى جانبي، لكنه لم يكن ينظر إليّ. فقد كان نظره مسمراً الآن إلى البحر من جديد، وكان في الوقت نفسه يحرك شفتيه ببطء شديد، كأنه يصلي أو يكلم نفسه.

ـ أحب يا أرخميدس أن أدعوك لتناول الغداء ـ قلت له بصوت خافت ـ كي تحدثني قليلاً عن كاسرات الأمواج. إنه موضوع أهتم به كثيراً. أنت وأنا وحدنا. هل توافق؟

أدار رأسه وسمّر في وجهي نظرته الساكنة، وقد صارت الآن وقورة. لقد أربكته دعوتي كثيراً. وأطل تعبير من الارتياب من تجاعيد وجهه، وقطب جبينه:

ـ تناول الغداء؟ ـ كرر مشوشاً ـ أين؟

ـ حيث تشاء حضرتك. حيثما يروقك. اختر المكان أنت، وأنا أدعوك. موافق؟

ـ متى؟ ـ كسب العجوز الوقت، وهو يتفحصني بارتياب متزايد.

ـ الآن، اليوم مثلاً. ولنقل أنني سآمر لآخذك من هنا بالذات، حوالي الساعة الثانية عشرة، وسنتناول الغداء في المكان الذي تختاره أنت. موافق؟

وبعد هنيهة، هز رأسه موافقاً، دون أن يتوقف عن النظر إليّ، كما لو أنني صرت، فجأة، خطراً عليه. «أية شياطين يمكن لهذا الشخص أن يبتغيها مني؟»، هذا ما كانت تقوله عيناه الساكنتان والمائعتان، بلونهما الأشهب الضارب إلى الصفرة.

بعد أن انتهى أرخميدس وألبيرتو وتشيتشو كانيبا وموظفا بلدية كايّاو من الجدال، وصعد ابن الأخ وصديقه إلى الشاحنة التي أوقفاها على كورنيش فيغيريدو، أخبرتهما بأنني سأبقى هنا. أريد المشي قليلاً في لابونتا، لأتذكر شبابي، عندما كنا نأتي أنا وأصدقائي من حي الباريو أليغري إلى حفلات الرقص في نادي ريغاتاس أونيون، وللوقوع في حب شقيقتين توءمين شقراوين، الأختين ليكا اللتين كانتا تقطنان بالقرب من هنا وتشاركان في مسابقات المراكب الشراعية الصيفية. وبعد ذلك سأرجع إلى ميرافلوريس بسيارة أجرة. فوجئا قليلاً، ولكنهما غادرا أخيراً، ليس قبل أن يوصياني بتوخي كثير من الحذر حيث أنا ذاهب، لأن منطقة كايّاو ممتلئة بالنشالين، وعمليات السطو والخطف صارت أمراً يومياً في الفترة الأخيرة.

قمت بنزهة طويلة ذرعت خلالها كورنيش فيغيريدو، وباردو، وويسي. البيوت الكبيرة التي تعود إلى أربعين أو خمسين سنة تبدو شاحبة، متآكلة ومتسخة بالرطوبة والزمن، وحدائقها ذاوية. وعلى الرغم من أنها في حالة انحدار صريح، إلا أن الحي مازال يحتفظ بآثار من بهائه القديم، مثل سيدة عجوز تجرجر معها ظلاً من الجمال الذي كانت عليه. كنت أتأمل بفضول منشآت المدرسة البحرية، من وراء

سورها الحديدي. ورأيت جماعة من تلاميذ الضباط يُجرون استعراضاً، بزيهم الأبيض اليومي، وجماعة أخرى، على ضفة المرسى، تربط حبال زورق إلى الرصيف. وفي أثناء ذلك، كنت أكرر لنفسي: «مستحيل. سخف. مجرد حماقة بلا أساس ولا رأس. انسَ هذا الوهم يا ريكاردو سوموكورثيو». من العته افتراض مثل ذلك الارتباط. لكنني أفكر في الوقت نفسه: لقد جرت لي أحداث كثيرة في الحياة، تكفي لأن أعرف أنه لا وجود لما هو مستحيل، وأنه يمكن لأشد المصادفات والأمور غرابة وشذوذاً أن تحدث عندما تكون في الوسط هذه المرأة التي هي الآن زوجتي. على الرغم من عشرات السنين التي لم أرجع خلالها إلى هنا، لم تكن لابونتا قد تبدلت بالقدر الذي تبدلت به ميرافلوريس، فقد كان لها على الدوام مظهر إقطاعي بائد، مظهر فقر متأنق. والآن برزت أيضاً، بين البيوت، بعض العمارات المتعسفة التي بلا هوية، كما في حيّنا قديم، ولكنها كانت قليلة ولم تقوض تماماً تناسق المجموع. كانت الشوارع شبه مقفرة، باستثناء خادمة هنا أو هناك خارجة من أجل المشتريات، أو ربة بيت تدفع عربة طفل أو أخرجت كلباً للتبول على ضفة البحر.

في الساعة الثانية عشرة وصلتُ ثانية إلى شاطئ كانتولاو، وكان الضباب يغطيه الآن بالكامل تقريباً. فاجأتُ أرخميدس في الوضع الذي وصفه لي ألبيرتو: جالساً مثل بوذا، دون حراك، ينظر بثبات إلى البحر. كان ساكناً إلى حدّ أن نوارس بيضاء كانت تتقافز حوله غير عابئة بوجوده، تنقر بين الحجارة بحثاً عن شيء تأكله. كان دوي الأمواج أشد قوة. وكانت النوارس تنعق معاً، في بعض اللحظات: صوت بين الأجش والحاد، وزاعق أحياناً.

ـ أجل، بالإمكان بناء كاسر الأمواج ـ قال أرخميدس عندما رآني وهو يبتسم ابتسامة انتصار. ثم فرقع أصابعه ـ: سأقدم إلى

المهندس كانيبا بهجة غامرة.

ـ وهل أنت متأكد الآن؟

ـ متأكد تماماً، أجل بالطبع ـ قال وهو يهز رأسه عدة مرات بإيقاع متفاخر. وكانت عيناه تلمعان ببريق الرضا.

أشار لي إلى البحر بقناعة مطلقة، كما لو أنه يشير إلى أن الدليل الجلي موجود هناك بحيث يمكن لأي شخص أن يراه. لكن الشيء الوحيد الذي كنت أراه هو لسان من الماء الرمادي الضارب إلى الخضرة، يلطخه الزبد، يرتطم بالصخور مثيراً دوياً متماثلاً ومدوياً للحظات، ويتراجع مخلفاً خصل أعشاب بحرية بنية اللون. كان الضباب يتقدم، ولسوف يغطينا بعد قليل.

ـ إنك تذهلني يا أرخميدس. يا للقدرات التي تمتلكها! ما الذي حدث منذ الصباح، عندما كنت متردداً، والآن، حيث انتهيت إلى التأكد أخيراً؟ هل رأيت شيئاً؟ هل سمعت شيئاً؟ أكان شيئاً ملموساً؟ تكهناً؟

ولأنني رأيت أن العجوز يجد صعوبة في النهوض، فقد ساعدته بإمساكه من ذراعه. كانت الذراع نحيلة، بلا عضلات، طرية العظام، مثل أطراف ضفدع.

ـ لقد *أحسستُ* أن الأمر ممكن ـ أوضح لي أرخميدس، وصمت على الفور، كما لو أنه يمكن لهذا الفعل أن يكشف السر.

مشينا بصمت على الشاطئ الحصوي المرتفع، متوجهين نحو كورنيش فيغيريدو. كان خُفّ العجوز الممزق يعلق بالأحجار، وبدا لي أنه سيقع أرضاً في أي لحظة، فأمسكت مرة أخرى بذراعه كي أسنده، لكنه تملص بحركة استياء.

ـ أين تريدنا أن نذهب لتناول الغداء يا أرخميدس؟

تردد هنيهة، ثم أشار بعد ذلك نحو أفق كايّاو الغائم والشبحي.

ـ أعرف مكاناً هناك، في تشوكويتو ـ قال متردداً ـ مطعم تشيم بوم كايّاو، إنهم يقدمون هناك ثيفيتشي ممتازاً، يُعدّونه من سمك طازج. المهندس تشيتشو يذهب إلى هناك أحياناً ليلتهم بعض السجق.

ـ رائع يا أرخميدس. فلنذهب إلى هناك. أحب الثيفيتشي كثيراً، ومنذ قرون لم آكل سجقاً.

وبينما نحن نمشي باتجاه تشوكويتو يلفنا هواء بارد، ونسمع نعيب النوارس ودوي البحر، قلتُ لأرخميدس إن اسم هذا المطعم يذكّرني بمشجعي سبورت بويز، فريق كرة القدم المشهور في كايّاو، إذ كانوا يضجون على مدرجات الستاد الوطني في شارع خوسيه دياث بالهتاف المدوي: «تشيم بوم! كايّاو! تشيم بوم! كايّاو!». كما أنني مازلت أتذكر، بالرغم من انقضاء كل هذه السنوات، لاعبيّ الهجوم المعجزتين في فريق سبورت بويز: فاليريانو لوبيث وخيرنيمو باربادّيو، اللذين كانا يمثلان الرعب لكل المدافعين الذين يواجهون فريق القمصان الوردية.

ـ لقد تعرفتُ على باربادّيو وفاليريانو لوبيث مذ كانا صبيين ـ قال العجوز، وكان يمشي منحنياً على نفسه بعض الشيء، ناظراً إلى الأرض بينما الريح تطيّر شعره الخفيف والأبيض ـ. بل إننا لعبنا كرة القدم معاً في بعض المرات، في ملعب بوتاو، حيث كان فريق بويز يتدرب، أو في خلاءات كايّاو. قبل أن يصيرا مشهورين طبعاً. في ذلك الحين كان لاعبو كرة القدم يلعبون من أجل المجد فقط. وربما تأتيهم، في أقصى الحالات، بعض الإكراميات بين حين وآخر. أنا كنت أحب كرة القدم كثيراً. لكنني لم أكن لاعباً جيداً قط.. لم تكن لدي قدرة على التحمّل. كنت أتعب بسرعة، وأصل إلى الشوط الثاني وأنا ألهث مثل كلب.

ـ حسن، ولكنك تتمتع بمهارات أخرى، يا أرخميدس. فهذا الذي

تتحكم به، بمعرفة أين يمكن بناء كاسرات الأمواج، لا يعرفه إلا عدد محدود من الناس في العالم. إنها موهبة خاصة بك وحدك، أؤكد لك.

مطعم التشيم بوم كان أشبه بحانة بائسة عند إحدى زوايا حديقة خوسيه غالفيث. وكان محيطه يغص بمتسكعين وصبية يبيعون الحلوى، واليانصيب، والفول السوداني، والتفاح المجفف، على عربات صغيرة أو على ألواح خشبية موضوعة فوق حمالات. لابد أن أرخميدس يتردد على هذا المكان بكثرة، لأنه راح يحيي المارة بيده، واقتربت الكلاب المشردة لتتمسح بقدميه. ولدى دخولنا إلى التشيم بوم كايّاو، حيته صاحبة المحل، وهي زنجية بدينة بلفافات شعر، تقوم بالخدمة من وراء منضدة كونتوار مؤلفة من لوح خشبي يستند إلى برميلين، وقالت له بمودة: «أهلاً بعجوز كواسر الأمواج». كانت هناك حوالي عشر مناضد خشنة، وكراسٍ كانت مقاعد طويلة، وجزء من السقف فقط مغطى بصفائح توتياء، ومن خلال الجزء الآخر، المكشوف، تُرى سماء الشتاء الضبابية والكئيبة. وكان هناك مذياع يصدح بأعلى صوت موسيقى سلسا: ***بدرو ناباخا*** لروبين بلاديس. جلسنا إلى منضدة قريبة من الباب، وطلبنا ثيفيتشي، وسجقاً، وبيرة مبردة جيداً.

كانت الزنجية ذات لفافات الشعر هي المرأة الوحيدة في المحل. وكانت المناضد كلها مشغولة تقريباً، بزبونين، أو ثلاثة، أو أربعة زبائن حول كل واحدة. لابد أنهم رجال يعملون في أماكن قريبة، إذ أن بعضهم يرتدون مآزر واقية من تلك التي يرتديها عمال الثلاجات، وعند إحدى الموائد، بمحاذاة المقاعد، توجد على الأرض بعض الخوذ وحقائب الكهربائيين.

ـ ما الذي تريد أن تعرفه أيها السيد؟ ـ فتح أرخميدس النار. وكان ينظر إليّ ممتلئاً بالفضول، ويرفع يده بين حين وآخر إلى أنفه ليلمسه

ويُبعد الحشرة التي لا وجود لها ـ. أعني، ما هو سبب دعوتك لي.

ـ كيف اكتشفت أنك تتمتع بهذه القدرة على التكهن بنوايا البحر ـ سألته ـ. منذ الطفولة؟ في الشباب؟ أخبرني. فكل ما يمكن أن تقوله في هذا الشأن يهمني كثيراً.

هز كتفيه، كما لو أنه لا يتذكر أو كأن الأمر لا يستحق الاهتمام. ودمدم بأن صحفياً من جريدة ***لاكرونيكا*** جاء في أحد الأيام لإجراء مقابلة معه حول هذا الأمر، وبدا كما لو أنه أصيب بالبكم. وأخيراً تلعثم: «ليست أمور تمر في رأسي، ولهذا لا يمكنني تفسيرها. أعرف أين يمكن وأين لا يمكن. ولكنني أصاب بالقحط أحياناً. أعني أنني لا أشعر بشيء». عاد إلى الصمت لبعض الوقت. ومع ذلك، ما إن جاؤوا بالبيرة ورفعنا نخباً وشربنا أول رشفة، حتى اندفع في الكلام ورواية حياته لي، بطلاقة كبيرة. لم يولد في ليما، وإنما في سلسلة الجبال، وبالتحديد في بايّانكا، غير أن أسرته نزلت إلى الساحل عندما بدأ هو المشي، أي أنه ليست لديه أية ذكريات عن سلسلة الجبال، ويشعر كما لو أنه قد ولد في كايّاو. وأنه ينتمي من قلبه إلى هذه المنطقة. وقد تعلم القراءة والكتابة في المدرسة الرسمية الخامسة، في بييّابيستا، لكنه لم ينهِ التعليم الابتدائي لأن أباه «من أجل تأمين قوت الأسرة» أخرجه للعمل كبائع مثلجات، على دراجة ثلاثية العجلات، تابعة لمصنع مثلجات كان واسع الشهرة آنذاك، لكنه اختفى الآن، وكان مركزه في شارع ساينث بينيا: مثلجات لاديليثيوسا. وقد عمل في طفولته وشبابه قليلاً في كل شيء، فكان مساعد نجار، وبناء، وساعياً لدى وكالة تخليص جمركي، إلى أن دخل أخيراً للعمل معاوناً في مركب صيد، كانت قاعدته في المحطة البحرية. وهناك بدأ يكتشف ـ دون أن يدري كيف أو لماذا ـ أنه هو والبحر «يتفاهمان كزوج من ثيران حراثة». كان يعرف كيف يشم،

قبل الجميع، أين يجب إلقاء الشِباك لأن أسراب سمك الأنشوا ستأتي إلى هناك بحثاً عن الطعام، وأين يجب الامتناع كذلك عن إلقاء الشباك لأن المياه الخبيثة تُبعد الأسماك ولا يمكن اصطياد سمكة باغري بائسة واحدة. وهو يتذكر جيداً أول مرة ساعد فيها على بناء حاجز في بحر كايّاو، عن مستوى لابيرلا، حيث تنتهي تقريباً جادة لاس باليميراس. فكل جهود معلمي البناء من أجل جعل هيكل الحاجز يصمد أمام الموج كانت بلا طائل. «أي براز يحدث، ولماذا ينهار دوما هذا الحاجز اللعين؟» كان المقاول، وهو خلاسي صيني ـ هندي نزق من تشيكلايو، يشد شعره، ويلعن أم البحر والعالم كله. وبالرغم من كل شتائمه ولعناته، كان البحر يقول لا لا. وعندما يقول البحر لا، فلابد أن يكون لا يا سيدي. ولم يكن هو نفسه قد أكمل العشرين من عمره في ذلك الحين، وكان يمضي طليقاً لأنه لم يستدعَ بعد إلى الخدمة العسكرية.

عندئذ راح أرخميدس يفكر، يتأمل، وبدلاً من أن يطلق الشتائم، خطر له «أن يتكلم إلى البحر». بل أكثر من ذلك، «أن يصغي إليه مثلما يصغي إلى صديق». رفع يده إلى أذنه وأبدى ملامح الانتباه والخضوع، كما لو أنه يتلقى الآن بالذات مناجيات المحيط السرية. لقد قال له كاهن كنيسة دل كارمن في ليغوا ذات مرة: «أتدري من الذي تسمعه يا أرخميدس؟ إنك تسمع الرب. هو من يخبرك بهذه الأمور الحكيمة التي تقولها عن البحر». حسن، ربما، ربما يسكن الرب في البحر. وهذا ما كان. راح يصغي إلى البحر، وعندئذ، أجل يا سيدي، عندئذ أشعره البحر أنه بدلاً من تشييد كاسر الموج في ذلك المكان، حيث لا يريده، عليهم أن يقيموه على بعد خمسين متراً إلى الشمال، باتجاه لابونتا، «والبحر سيستسلم هناك لكاسر الأمواج». ذهب وأخبر معلم البناء. كاد المقاول، في أول الأمر، أن يتغوط في ملابسه من

الضحك، مثلما هو متوقع. لكنه قال بعد ذلك، وبدافع اليأس الخالص: «فلنجرب، يا للعنة». وجربوا في المكان الذي اقترحه أرخميدس، وأوقف كاسر الأمواج اندفاعات البحر. وهو مازال هناك، سليماً، يقاوم الأمواج. انتشر الخبر وراح أرخميدس يكتسب الشهرة بأنه «مشعوذ»، «ساحر»، «كاسر أمواج». ومنذ ذلك الحين لم يعد يُبنى كاسر أمواج على امتداد شاطئ ليما دون أن يستشيره معلمو البناء والمهندسون. ولم يقتصر الأمر على ليما وحدها، بل صاروا يأخذونه إلى كانيّتي، وبيسكو، وسوبي، وتشينتشا، وإلى كومة أخرى من الأماكن، كي يساعد في بناء الحواجز البحرية. وكان يفاخر بالقول إنه على امتداد حياته المهنية الطويلة، لم يخطئ إلا في مرات قليلة جداً. أجل، لقد أخطأ أحياناً، لأن الوحيد الذي لا يخطئ أبداً هو الله، وربما الشيطان أيضاً يا رجل.

كان الثيفيتشي حاراً جداً، وكأن الفلفل الذي فيه هو فلفل أريكيبي. عندما فرغت زجاجة البيرة طلبتُ واحدة أخرى، تناولناها بتمهل، ونحن نتناول سجقاً ممتازاً من تشنتشا في خبز فرنسي، ومعه سلطة خس وبصل وفلفل. وشجعتني كؤوس البيرة، خلال إحدى توقفات أرخميدس عن الكلام، فتجرأتُ أخيراً على أن أوجه إليه السؤال الذي كان يحرق لساني منذ ثلاث ساعات:

ـ أخبروني أن لك ابنة في باريس. هل هذا صحيح يا أرخميدس؟

ظل ينظر إليّ، مبهوراً من كوني مطلعاً على هذه الأمور العائلية الحميمة. وشيئاً فشيئاً، بدأت ملامح الانشراح التي كان عليها بالتجهم. وقبل أن يجيبني، رفع يده إلى أنفه بنزق، وضرب بها الحشرة الخفية.

ـ لا أريد معرفة أي شيء عن عديمة الأصل تلك ـ زمجر ـ. ولا التحدث عنها أيها السيد. وأقسم لك إنها إذا ما جاءت نادمة لرؤيتي،

فسوف أصفق باب البيت في وجهها.

حين رأيته غاضباً إلى هذا الحدّ، طلبت منه المعذرة على وقاحتي. وكل ما في الأمر أني سمعت أحد المهندسين يتحدث هذا الصباح عن ابنته، وبما أنني أعيش في باريس أيضاً، فقد أحسست بالفضول، وفكرت في أنني قد أكون أعرفها. وما كنتُ سآتي على ذكر الموضوع لو كنت أعرف أنه سيتضايق.

ودون أن يجيب بأي شيء على توضيحاتي، واصل أرخميدس التهام السجق وشرب جرعات من البيرة. ولأنه بلا أسنان تقريباً، فقد كان يمضغ بصعوبة، محدثاً فرقعات بلسانه، ويتأخر في ابتلاع كل لقمة. ولإحساسي بالضيق من الصمت الطويل، واقتناعي بأنني ارتكبت خطأ بسؤاله عن ابنته - ما الذي كنتَ تنتظره يا ريكارديتو؟ -، فقد رفعت يدي لأنادي الزنجية ذات اللفافات لأطلب منها الحساب. وفي هذه اللحظة بالذات، اندفع أرخميدس مجدداً إلى الكلام:

- إنها عديمة الأصل، أقسم لك - قال مؤكداً بوجه عابس وملامح بالغة الصرامة -. لم ترسل نقوداً حتى لجنازة أمها. إنها أنانية، هكذا هي في الحقيقة. ذهبت إلى هناك وأدارت لنا ظهرها. تظن أنها فوق، وأن هذا يمنحها الحق باحتقارنا الآن. كما لو أنها لا تحمل في عروقها دماء أبيها وأمها.

كان قد تحول الآن إلى كتلة غضب حقيقية. وبينما هو يتكلم، كان يكشّر بطريقة تزيد من تجاعيد وجهه. تلعثمتُ مرة أخرى بأنني آسف لأني تطرقت إلى هذا الموضوع، وأني لم أكن أنوي التسبب في إزعاجه، ولنتحول إلى الحديث في أمر آخر. لكنه لم يكن يسمعني. وفي عينيه الثابتتين كانت حدقتاه تلمعان، مائعتين ومتأججتين.

- أنا الذي أهنت نفسي وطلبت منها أن تأخذني إلى هناك، عندما تستطيع فعل ذلك، فلهذا أنا أبوها - قال وهو يضرب المنضدة. وشفتاه

ترتعشان ـ تنازلتُ، أهنت نفسي. لم يكن عليها أن تعيلني، لا شيء من هذا. كنتُ سأعمل في أي شيء. في بناء كاسرات الأمواج مثلاً. ألا تُبنى كاسرات أمواج هناك في باريس؟ حسن، أنا أستطيع العمل هنا، فلمَ لا أستطيع هناك. الشيء الوحيد الذي تسولته منها هو تذكرة السفر. ليس من أجل أمها، وليس من أجل أخوتها. بل من أجلي أنا وحدي. وأنا سأكسر ظهري في العمل، وأكسب، وأوفر، وأجيء ببقية الأسرة شيئاً فشيئاً. هل طلبتُ الكثير؟ إنه قليل، لا شيء تقريباً. وماذا فعلت هي؟ لم تردّ قط على رسالتي. ولا أي ردّ، كما لو أنها ارتعبت من فكرة ذهابي إلى هناك. أهذا ما تفعله ابنة؟ أنا أعرف لماذا أقول إنها تحولت إلى عديمة الأصل يا سيدي.

كانت الزنجية ذات اللفافات قد اقتربت من المنضدة متهادية مثل نمرة، وبدلاً من طلب الحساب، طلبتُ منها أن تأتينا بزجاجة بيرة أخرى باردة. وكان العجوز أرخميدس قد تكلم بصوت مرتفع جعل عدة موائد أخرى تلتفت للنظر إليه. وحين انتبه إلى ذلك، غض طرفه، سعل، وأخفض صوته.

ـ صحيح أنها في البدء كانت تتذكر أسرتها، ولابد من الاعتراف بذلك. حسن، في أوقات متباعدة جداً؛ ولكن شيئاً أفضل من لا شيء ـ واصل الكلام، وقد صار أكثر هدوءاً ـ. ليس عندما كانت في كوبا؛ فهناك، بسبب أمور السياسة على ما يبدو، لم تكن قادرة على كتابة الرسائل. هذا هو، على الأقل، ما قالته في ما بعد، عندما ذهبت للعيش في فرنسا، وكانت قد تزوجت. عندئذ، صارت بين فترة وأخرى، بمناسبة العيد الوطني، أو عيد ميلادي، أو عيد الميلاد، ترسل رسالة ومعها شيك بمبلغ صغير. ويا للمعاملات والإجراءات التي كنتُ أتكبدها لصرفه. حمل وثائق إثبات الشخصية إلى المصرف، ولا أدري كم يحسمون في المصرف كعمولات. لكنها

فـي ذلك الحين، وإن يكن في أوقات متباعدة، كانت تتذكر أن لها أسرة. إلى أن طلبت منها تذكرة سفر إلى فرنسا. عندئذ قطعت كل شيء. ولم تعد ترسل شيئاً حتى اليوم. كما لو أن أسرتها كلها قد ماتت. وأقول لك، لقد دفنتنا. حتى إنها لم تتكلف عناء الردّ عندما كتب إليها أحد أخوتها طالباً المساعدة لوضع لوح رخامي على قبر أمها.

سكبتُ لأرخميدس كأساً من البيرة وافرة الرغوة التي أحضرتها الزنجية ذات اللفافات، وسكبت كأساً أخرى لنفسي. كوبا، متزوجة في باريس: أي متسع للشك. ومن تكون إلا هي. أنا الذي بدأت أرتعش الآن. أحسستُ بالقلق، كما لو أن كشفاً رهيباً سيخرج من فم العجوز، في أي لحظة. قلت له: «في صحتك يا أرخميدس»، وشربنا كلانا جرعة طويلة. ومن موضعي كان بإمكاني رؤية إحدى فردتي خفٍّ العجوز المثقبة، يبرز منها كعبٌ تغطيه التقرنات أو القذارة، تمشي عليه نملة صغيرة يبدو أن العجوز لا يشعر بها. أتكون مثل هذه المصادفة ممكنة؟ أجل، إنها ممكنة. لم يعد لدي الآن أي متسع للشك.

ـ أظن أنني التقيت بها مرة ـ قلتُ متظاهراً بأني أتكلم لمجرد الكلام، دون إبداء أي اهتمام شخصي ـ ابنتك كانت موفدة في منحة إلى كوبا، أليس كذلك؟ ثم تزوجت بعد ذلك من دبلوماسي فرنسي، صحيح؟ سيد كنيته أرنو، إذا لم أكن مخطئاً.

ـ لا أدري إذا ما كان دبلوماسياً أو شيئاً آخر، فهي لم ترسل لنا ولو صورة ـ زفر أرخميدس وهو يلمس أنفه بيده ـ لكنه فرنسي مهم، ويكسب نقوداً كثيرة، هذا ما قيل لي. أليس على الابنة، في مثل هذه الحالات، واجبات تجاه أسرتها؟ خاصة إذا كانت أسرتها فقيرة وتعاني العوز.

تناول جرعة أخرى من البيرة وظل مستغرقاً في تأملاته لبعض الوقت. موسيقى رديئة، غير رخيمة ورتيبة، يصدح بها فريق «لوس شابيس» حلّت محل موسيقى السلسا. وعلى المنضدة المجاورة، كان الكهربائيون يتحدثون عن سباقات الخيول يوم الأحد، وأقسم أحدهم: «في الثالثة، كليوبترا ثابتة». وفجأة، كمن تذكر شيئاً، رفع أرخميدس رأسه وصوب إليّ عينيه المحمومتين:

ـ هل تعرفتَ عليها؟

ـ أظن ذلك، ولكن بصورة مبهمة.

ـ وذلك الشخص، الفرنسي، هل يملك الكثير من المال حقاً؟

ـ لا أدري. إذا كنا نتحدث عن الشخص نفسه، فقد كان موظفاً في اليونسكو. في منصب جيد، دون شك. والمرات التي رأيتُ فيها ابنتك، كانت ترتدي ملابس جيدة. إنها امرأة جميلة وأنيقة.

ـ أوتيلا كانت تحلم على الدوام بما لا تملكه، منذ صغرها ـ قال أرخميدس فجأة، وقد تحول صوته إلى العذوبة، ورسم ابتسامة مفعمة بالتسامح ـ لقد كانت شديدة الذكاء، وفي المدرسة كانت من المتفوقين. ولكن، أجل، كانت لديها أحلام عظمة منذ ولادتها. لم تكن تقنع بحظها.

لم أستطع كبح قهقهتي، فراح العجوز ينظر إليّ مشوشاً. لِيلِي التشيلية، الرفيقة آرليت، مدام روبير أرنو، مسز ريتشاردسون، كوريكو، مدام ريكاردو سوموكورثيو، اسمها الحقيقي أوتيلا. أوتيليتا، يا للسخرية المضحكة.

ـ لم أتخيل قط أن يكون اسمها أوتيلا ـ أوضحت له ـ. لقد عرفتها باسم آخر، اسم زوجها. مدام روبير أرنو. فهذا هو السائد في فرنسا، عندما تتزوج المرأة تتخذ اسم زوجها وكنيته.

ـ يا لها من عادات ـ علق أرخميدس مبتسماً ورافعاً ذراعيه ـ. ألم

ترها منذ زمن بعيد؟

ـ أجل، منذ زمن بعيد جداً. ولست أدري إذا ما كانت لا تزال تعيش في باريس. هذا إذا كنا نتحدث عن المرأة نفسها بالطبع. فالبيروية التي أحدثك عنها كانت في كوبا، وتزوجت هناك، في هافانا، من دبلوماسي فرنسي. وجاء بها بعد ذلك للعيش في باريس، في سنوات الستينيات. هناك التقينا آخر مرة منذ أربع أو خمس سنوات. وأتذكر أنها كانت تتكلم كثيراً عن ميرافلوريس، تقول إنها أمضت طفولتها في ذلك الحي.

هز العجوز رأسه. وحلّ الحنين محل الغضب في نظرته المائعة. كان يرفع كأس البيرة وينفخ الزبد عن حافة الكأس، ببطء، كي تستوي الرغوة.

ـ إنها هي نفسها ـ أكد وهو يهز رأسه عدة مرات في الوقت نفسه الذي لمس فيه أنفه ـ. لقد عاشت أوتيلا في ميرافلوريس عندما كانت صغيرة، لأن أمها كانت تعمل طاهية لدى أسرة تعيش هناك. في بيت السيدين أريناس.

ـ في شارع إسبيرانثا؟ ـ سألته.

هز العجوز رأسه، وغرس عينيه فيَّ متفاجئاً.

ـ وأنت تعرف هذا أيضاً؟ كيف تعرف كل هذه الأشياء عن أوتيلا؟

فكرتُ: «كيف سيكون ردّ فعله إذا ما قلت له: لأنها امرأتي؟».

ـ حسن، لقد أخبرتك. كانت ابنتك تتذكر دوماً ميرافلوريس وبيتها في شارع إسبيرانثا. إنه الحي الذي عشتُ فيه طفولتي أيضاً.

وراء الكونتوار، كانت الزنجية ذات اللفافات تتابع إيقاعات «لوس شابيس» المفككة بتحريك رأسها من جانب إلى آخر. شرب أرخميدس جرعة طويلة، وظلت هناك دائرة من الرغوة حول شفتيه الغائرتين.

ـ مذ كانت بهذا الحجم وأوتيلا تخجل منا ـ قال مغضباً من جديد ـ. تريد أن تكون مثل البيض والأغنياء. لقد كانت صبية مدعية. ممتلئة بالنزوات. متيقظة جداً، وجريئة. لا يمكن لأي شخص أن يسافر إلى الخارج دون أن يكون لديه قرش واحد، مثلما فعلت هي. لقد كسبت في أحد الأيام مسابقة في إذاعة أميركا، بتقليدها المكسيكيين، والتشيليين، والأرجنتينيين. ولم تكن قد تجاوزت الثامنة أو العاشرة من عمرها على ما أتذكر. وأهدوا إليها حذاء تزلج كجائزة. وقد استحوذت على عقول تلك الأسرة التي كانت أمها تعمل طاهية لديها. السيدان أريناس. كسبت ودهما. كانا يعاملانها كطفلة من البيت. وسمحوا لها بأن تكون صديقة لابنتهما. لقد تسببا في سوء تربيتها. ومنذ ذلك الحين، صارت تخجل من كونها ابنة أمها وأبيها. أي أنه كان واضحاً منذ صغرها ما ستكون عليه من ناكرة لأصلها حين تكبر.

وفجأة، بعد أن بلغ حديثنا هذا المستوى، بدأت أشعر بالضجر. ما الذي أفعله هنا بدس أنفي في هذه الخصوصيات؟ ما الذي تريد معرفته أكثر من هذا يا ريكارديتو؟ ولماذا؟ بدأت أبحث عن ذريعة للانصراف، لأن مطعم تشيم بوم كايّاو تحول فجأة إلى ما يشبه القفص. وكان أرخميدس لا يزال يواصل الحديث عن أسرته. وكل ما يقوله كان يُثقل عليّ ويزيد من حزني. يبدو أن له كومة من الأبناء، من ثلاث نساء مختلفات، «جميعهم معترف بهم». وأوتيلا كانت الابنة البكر من امرأته الأولى التي توفيت. «توفير الطعام لاثني عشر فماً، أمر قاتل»، كان يكرر بملامح مستسلمة. «لقد طحنني ذلك يا سيدي. لا أدري كيف مازلت أجد القوة لمواصلة كسب الخبز». وبالفعل، كان يبدو مستهلكاً وهشاً. عيناه وحدهما، المفعمتان بالحياة والتأهب، تكشفان عن إرادة الاستمرار؛ أما بقية جسمه فتبدو مهزومة ومتخاذلة.

لابد أن ساعتين على الأقل قد انقضتا مذ دخلنا إلى تشيم بوم كايّاو. جميع الموائد، باستثناء التي نجلس إليها، صارت خاوية. وصاحبة المحل أطفأت المذياع، ملمحة إلى أنه موعد الإغلاق. طلبتُ الحساب، دفعت، وخرجت إلى الشارع. رجوت أرخميدس أن يقبل مني هدية هي ورقة نقدية من فئة المئة دولار.

ـ إذا ما تصادف والتقيت هناك في باريس بأوتيلا، فقل لها أن تتذكر أباها وألا تكون ابنة سيئة، فقد يعرضها ذلك للعذاب والعقاب في الحياة الأخرى ـ ومدّ لي العجوز يده.

ظل ينظر إلى ورقة المئة دولار كما لو أنها شيء سقط من السماء. ظننتُ أنه سيبكي من التأثر. لكنه دمدم: «مئة دولار! فيكافئك الرب أيها السيد». وفكرتُ أنا: «وماذا لو قلت له: أنت حمي يا أرخميدس، فتصور؟».

عندما ظهرت بعد قليل، في ساحة خوسيه غالفيث، سيارة أجرة مخلعة وطلبت منها التوقف بالإشارة، كانت سحابة من الصبية ذوي الثياب الرثة تحيط بي، بأيد ممدودة، يطلبون صدقة. طلبت من السائق أن يوصلني إلى شارع إسبيرانثا، في ميرافلوريس.

خلال الطريق الطويل، في السيارة المهلهلة المقرقعة، أسفتُ لأنني أثرت ذلك الحديث مع أرخميدس. كنت أشعر بالأسى حتى العظام وأنا أفكر بما كانت عليه طفولة أوتيلا في أحد أحياء كايّاو تلك. ومع معرفتي أنه من المستحيل عليّ مقاربة واقع شديد البعد عن واقع ميرافلوريس الذي شاء لي حسن الطالع أن أعيش فيه، رحت أتخيلها في صغرها، وسط أجواء الاختلاط والوساخة في تلك الأكواخ الشوهاء على ضفاف نهر ريماك ـ لدى مروري بجوارها، امتلأت سيارة التاكسي بالذباب ـ حيث تختلط البيوت بأهرامات القمامة المتراكمة منذ زمن لا يعرفه أحد، ووسط العوز، وعدم الاستقرار، وانعدام الأمان

اليومي، إلى أن حصلت الأم، بلفتة من العناية الإلهية، على ذلك العمل كطاهية لدى أسرة من الطبقة الوسطى في حي سكني، حيث تمكنت من إدخال ابنتها الكبرى. وتصورتُ الألاعيب، والحركات، والظرافات التي كانت أوتيلا، الطفلة المزودة بغريزة متطورة بصورة استثنائية للبقاء والتكيف، تستخدمها كي تستحوذ على قلوب أصحاب البيت. في البدء، كانوا يضحكون منها، يستظرفون حيوية ابنة الطاهية. يهدون إليها الأحذية والملابس التي تضيق على طفلة البيت الحقيقية، على لوكي، التشيلية الأخرى. وبهذه الطريقة راحت ابنة أرخميدس تصعد، وتوصلت إلى شغل مكان صغير في أسرة أريناس. إلى أن حصلت، أخيراً، على الحق في تمكنها من اللعب، والخروج، كند لند، مع صديقة، مع أخت، مع طفلة البيت، بالرغم من أن هذه تذهب إلى مدرسة خاصة، بينما تذهب هي إلى مدرسة عامة. الآن اتضح لي، بعد انقضاء ثلاثين سنة، لماذا لم تكن تشيلية طفولتي ليلي ترغب في أن يكون لها حبيب، ولم تكن تريد دعوة أحد إلى بيتها في شارع إسبيرانثا. وقد بدا واضحاً جداً، قبل كل شيء، سبب تدبيرها تلك المسرحية: إنكار أنها بيروية، والإدعاء أنها تشيلية كي تُقبل في ميرافلوريس. ووجدتني أرِقُّ متأثراً حتى الدموع. كنت مجنوناً باللهفة لاحتضان امرأتي بين ذراعي، راغباً في مداعبتها، تدليلها، طلب الصفح منها على الطفولة التي عاشتها، دغدغتها، رواية نكات لها، التحول إلى مهرج من أجل أن أسمعها تضحك، وأن أعدها بأنها لن تعود إلى المعاناة أبداً.

لم يكن شارع إسبيرانثا قد تغير كثيراً. ذرعته مرتين، من جادة لاركو حتى ثانخون، ذهاباً وإياباً. مكتبة مينيرفا مازالت على الناصية قبالة الحديقة المركزية، ولكن لم تعد تلبي طلبات الزبائن، وراء منضدة الكونتوار فيها، تلك السيدة الإيطالية ذات الشعر الأبيض،

الجدية دوماً، أرملة خوسيه كارلوس مارياتيغي. لم يعد ثمة وجود لمطعم غامبرينوس الألماني، ولا لدكان الشرائط الملونة والأزرار التي كنت أرافق العمة ألبيرتا إليها أحياناً للشراء. لكن المبنى ذا الطوابق الثلاثة، حيث كانت تعيش التشيليتان، مازال هناك. إنه كئيب، محشور بين بيت وعمارة أخرى، حائل الألوان، بشرفاته الصغيرة ذات المسند الخشبي، يظهر عليه البؤس والقِدم. في تلك الشقة ذات الغرف المظلمة والضيقة، وفي تلك الفجوة المجاورة للمطبخ التي هي حجرة الخدم، حيث كانت أمها تضع لها كل ليلة فراشاً على الأرض لتنام عليه، كانت أوتيلا الصغيرة أقل تعاسة بكثير مما كانت عليه في بيت أرخميدس. وربما هنا بالذات، عندما كانت لا تزال طفلة قاصر، اتخذت القرار الحاسم بعمل أي شيء للخروج قُدماً، والتخلي عن كونها أوتيلا الصغيرة، ابنة الطاهية وباني كاسرات الموج، بالهرب إلى الأبد من هذه المصيدة، السجن، اللعنة التي كانتها البيرو بالنسبة إليها، والابتعاد بعيداً، وأن تكون غنية ـ هذا قبل أي شيء آخر: غنية، واسعة الثراء ـ، حتى لو اضطرها ذلك إلى اقتراف أسوأ الشيطنات، وخوض أخطر المجازفات، وعمل أي شي، إلى أن تتحول إلى امرأة باردة، لا تعرف الحب، دقيقة الحسابات، قاسية. لكنها لم تستطع التوصل إلى ذلك إلا لفترات قصيرة متقطعة، ودفعت الثمن غالياً جداً، مخلفة نتفاً من جلدها وروحها في الطريق. عندما تذكرتها، في أسوأ مراحل أزماتها، جالسة على كرسي المرحاض، ترتجف من الخوف، متشبثة بيدي، كان عليّ أن أبذل جهداً عظيماً لكبح نفسي من البكاء. أنتِ محقة طبعاً، أيتها الطفلة الخبيثة، بعدم الرغبة في العودة إلى البيرو، وبكرهكِ للبلاد التي تُذكّرك بكل ما تقبلتِه، وعانيتِه، وفعلتِه للهرب منها. أحسنتِ صنعاً بعدم مرافقتي في هذه الرحلة يا حبي.

قمت بجولة طويلة في شوارع ميرافلوريس متبعاً دروب شبابي: الحديقة المركزية، جادة لاركو، حديقة سالازار، مقاطع الكورنيش البحري. كان قلبي مثقلاً باللهفة لرؤيتها، لسماع صوتها. لن أخبرها، طبعاً، بأنني تعرفت على أبيها. ولن أعترف لها أبداً، بالطبع، بأنني أعرف اسمها الحقيقي. أوتيلا، أوتيليتا، كم هو مضحك، إنه لا يناسبها بأي حال. ولن أنسى، بالطبع، أرخميدس وكل ما سمعته هذا الصباح.

عندما وصلتُ إلى بيته، كان العم أتاولفو نائماً. وكانت أناستاسيا العجوز قد تركت لي الطعام على المائدة، تحت غطاء، كي يظل ساخناً. أكلت لقمة واحدة، وما إن نهضت عن المائدة، حتى ذهبت إلى الصالة. كان يزعجني إجراء مكالمة دولية، لأني أعرف أن العم أتاولفو لن يسمح لي بدفع قيمتها، لكنني كنت بحاجة شديدة إلى التكلم مع الطفلة الخبيثة، إلى سماع صوتها، والقول لها إنني مشتاق إليها، فاتخذتُ القرار. أجريتُ الاتصال في الحجرة المظلمة، وأنا جالس على أريكة الركن، حيث يقرأ العم أتاولفو جرائده عادة، وحيث توجد منضدة الهاتف الصغيرة. رنّ الهاتف عدة مرات دون أن يرفع أحد السماعة. طبعاً، إنه فارق الوقت! فالساعة في باريس هي الرابعة فجراً. ولكن، من المستحيل، لهذا السبب بالضبط، ألا تسمع التشيلية ـ أوتيلا، أوتيليتا، يا للأسم المضحك ـ رنين الهاتف. فهو على الكوميدينو، بجوار أذنها. ونومها خفيف جداً. التفسير الوحيد هو أن تكون قد خرجت في واحدة من رحلات العمل تلك التي يرسلها فيها رب عملها مارتيني. صعدت إلى حجرتي مجرجراً قدمي، محبطاً وحزيناً. ولم أستطع بالطبع أن أغمض عيني، لأنني كلما شعرت بدنو النعاس، كنت أستيقظ مفزعاً وبصحو كامل، وأرى وجه أرخميدس يرتسم في الظلال، ينظر إليّ ساخراً ومردداً اسم ابنته الكبرى:

أوتيليتا، أوتيلا. أيكون ممكناً أنها...؟ لا، مجرد فكرة سخيفة، نوبة غيرة مضحكة يمر بها خمسيني. أتكون لعبة صغيرة أخرى منها لإبقائك قلقاً يا ريكارديتو؟ مستحيل، كيف أمكن لها أن تخمن أنني سأتصل بالهاتف اليوم، وفي هذه الساعة من الليل. التفسير المنطقي هو أنها ليست في البيت لأنها خرجت في رحلة عمل، إلى بياريتز، إلى نيس، إلى كان أو أي مدينة أخرى من مدن الاستجمام تلك التي تقام فيها مؤتمرات، ومنتديات، ولقاءات، وحفلات زفاف وغيرها من الذرائع التي يبحث عنها الفرنسيون ليشربوا ويأكلوا بشراهة.

واصلت الاتصال بها في الأيام الثلاثة التالية، ولم تردّ على الهاتف قط. تآكلتني الغيرة، ولم أعد أرى شيئاً ولا أحداً، وصرت أعدُّ الأيام الأبدية المتبقية لي كي أركب الطائرة عائداً إلى أوروبا. انتبه العم أتاولفو إلى عصبيتي، بالرغم من أنني كنت أبالغ في بذل الجهد كي أبدو طبيعياً، وربما كانت مبالغتي تحديداً هي السبب. اقتصر على سؤالي مرتين أو ثلاث مرات عما إذا كنت أشعر بالضيق، لأني أكاد لا أتذوق الطعام، ولأني لم أقبل دعوة ألبيرتو لاميل اللطيف، لتناول الغداء مع صحبة كريولية، وسماع مغنيّ المفضل سيسليو باراتا.

في اليوم الرابع سافرتُ عائداً إلى باريس. وقد كتب العم أتاولفو إلى الطفلة الخبيثة، بخط يده، رسالة يطلب منها المعذرة لأنه اختطف منها زوجها في هذين الأسبوعين؛ لكنه أضاف أن زيارة ابن الأخ هذه كانت إعجازية، إذ ساعدته على تجاوز أزمة صحية قاسية وضمنت له حياة مديدة. لم أنم، ولم آكل، طوال الرحلة التي استمرت قرابة الثماني عشرة ساعة، بسبب توقف طويل لطائرة الآير فرانس في بوانت آ بيتر، لإصلاح عطل طارئ. ما الذي ينتظرني الآن، عندما سأفتح باب شقتي في إيكول ميليتير؟ أي رسالة من الطفلة الخبيثة، تقول لي فيها، ببرودها القديم، إنها قررت الذهاب لأنها سئمت من

هذه الحياة المملة كربة بيت برجوازية صغيرة، وتعبت من إعداد وجبات الفطور وترتيب الأسرّة؟ أيمكن لها مواصلة مثل هذه الظرافات وهي في السن التي صارت إليها؟

لا. عندما فتحتُ باب الشقة في شارع جوزيف غرانيه ـ كانت يدي ترتجف ولا تمكنني من إدخال المفتاح في القفل ـ، وجدتها هناك، تنتظرني. فتحت ذراعيها مع ابتسامة واسعة:

ـ أخيراً! لقد تعبت من البقاء وحيدة ومهجورة.

كانت تلبس، كما لو أنها ذاهبة إلى حفلة، فستاناً يكشف عن الصدر والكتفين. وعندما سألتها عن سبب هذه الأناقة، قالت لي وهي تعض شفتيّ:

ـ من أجلك، وماذا سيكون السبب. إنني أنتظرك منذ الصباح، أتصلُ طوال الوقت بمكتب الآير فرانس. وقد أخبروني بأن الطائرة توقفت عدة ساعات في غوادالوبي. فلنر، دعني أر كيف تعاملوا معك في ليما. يبدو أنك جئت بمزيد من الشيب. إنه الشوق إليَّ على ما أعتقد.

كانت تبدو سعيدة حقاً، وشعرتُ أنا بالراحة والخجل. سألتني إذا ما كنت راغباً في تناول أو أكل شيء ما، وبما أنها رأتني أتثاءب، فقد دفعتني إلى غرفة النوم: «هيا، هيا، نم قليلاً، وسأتولى أنا أمر حقيبتك». خلعتُ حذائي، والبنطال والقميص، وبينما أنا أتظاهر بالنوم، رحت أراقبها بعينين نصف مغمضتين. كانت تُفرغ الحقيبة ببطء، مركزة على ما تفعله، بترتيب شديد. تفصل الملابس المتسخة، وتضعها في كيس لتأخذه في ما بعد إلى محل الغسيل. وترتب الملابس النظيفة بعناية في الخزانة. الجوارب، المناديل، البدلة، ربطة العنق. وتلقي نظرة، بين حين وآخر، إلى السرير، ويبدو لي أن ملامحها كانت تعكس الطمأنينة لرؤيتي هناك. كانت في الثامنة والأربعين

من العمر، ولا يمكن لأحد أن يصدق ذلك وهو يرى قوامها الذي مثل قوام عارضة أزياء. كانت جميلة جداً، بفستان أخضر فاتح، يكشف عن كتفيها وجزء من ظهرها، وقد تبرجت بعناية شديدة. كانت تتحرك ببطء، برشاقة. وفي إحدى تلك اللحظات، رأيتها تقترب ـ أغمضتُ عيني تماماً وفتحت فمي قليلاً، متظاهراً بالنوم ـ وأحسست أنها تغطيني باللحاف. أيمكن لهذا كله أن يكون مهزلة تمثيل؟ مستحيل المستحيلات. ولكن، لماذا لا يكون، فالحياة عندها يمكن أن تتحول في أي لحظة إلى مسرحية، إلى تخييل. أأسألها عن سبب عدم ردّها على الهاتف في هذه الأيام الأخيرة؟ أأحاول أن أتقصى إذا ما كانت في رحلة عمل؟ أم من الأفضل لكَ أن تنسى هذا الأمر وتُغرق نفسك في هذه الأكذوبة العذبة عن السعادة العائلية؟ كنتُ أشعر بتعب غير متناهٍ. وبعد ذلك، عندما بدأت أستغرق في النوم حقاً، أحسست بها تستلقي إلى جانبي. «يا لي من حمقاء، لقد أيقظتك». استدارت باتجاهي، وإحدى يديها تشعث شعري. «لقد امتلأ شعرك بالشيب أيها العجوز»، وضحكت. كانت قد خلعت الفستان والحذاء، والشلحة التي ترتديها كانت ذات لون لحمي فاتح، أقرب إلى لون البشرة.

ـ لقد اشتقتُ إليك ـ قالت لي، فجأة، وهي تكتسي بالجدية. وكانت تصوّب إليّ عينيها اللتين بلون العسل في نظرةٍ ذكرتني، بغتة، بالنظرة الثابتة لباني كاسرات الموج ـ. لم أكن أستطيع النوم في الليل، وأنا أفكر فيك. وكنتُ أستمني كل ليلة تقريباً، متخيلة أنك تجعلني أجيء بفمك. وفي إحدى الليالي بكيتُ، مفكرة في أنه قد يصيبك مكروه ما، مرض، حادث. أو أن تتصل بي لتقول إنك قررت البقاء في ليما مع بيروية، وأنني لن أراك بعد اليوم.

لم يكن جسدانا متلامسين. وكانت يدها طوال الوقت على رأسي، لكنها راحت تمر الآن برؤوس أصابعها على حاجبيّ، فمي، كما لو أنها

تريد التأكد من أنني موجود معها حقاً. وكانت عيناها لا تزالان جديتين جداً. وكان هناك في أعماقهما بريق مائع، كما لو أنها تكبح رغبتها في البكاء.

ـ ذات مرة، منذ كومة من السنين، وفي هذه الغرفة بالذات، سألتني عما تعنيه السعادة في نظري، أتتذكر أيها الطفل الطيب؟ وقد قلتُ لك إنها المال، العثور على رجل متنفذ وواسع الثراء. لقد كنتُ مخطئة. إنني أعرف الآن أنك أنت السعادة في نظري.

وفي هذه اللحظة، عندما كنت على وشك احتضانها بين ذراعي، لأن عينيها امتلأتا بالدموع، رنّ الهاتف فجأة، مما جعلنا نحن الاثنين نقفز قليلاً.

ـ آه، أخيراً! ـ هتفت الطفلة الخبيثة وهي ترفع السماعة ـ يا للهاتف اللعين. لقد أصلحوه أخيراً. *Oui, oui, monsieur. Ça marche très bien, maintenant! Merci.*[1]

وقبل أن تعيد السماعة إلى مكانها، كنت قد انقضضتُ عليها وعانقتها، وضغطتُ عليها بكل قواي. رحت أقبلها بغضب، بحنان، وتلعثم صوتي وأنا أقول لها:

ـ أتدرين ما هو أجمل شيء، ما أسعدني أكثر من كل هذه الأمور التي قلتِها أيتها التشيلية الصغيرة؟ إنه قولك: «*Oui, oui, monsieur. Ça marche très bien, maintenant.*»

راحت تضحك، وهمست لي إنها أقل المغازلات المتكلفة رومانسية بين كل تلك التي قلتها لها حتى الآن. وبينما كنتُ أعريها وأخلع ثيابي، قلت لها في أذنها، دون أن أتوقف عن تقبيلها: «لقد اتصلتُ بك أربعة أيام متتالية، وفي كل الأوقات، ليلاً وعند الفجر، ولأنك لم

---

[1] أجل، أجل يا سيدي، إنه يعمل جيداً الآن، شكراً

تردي، أصابني اليأس بالجنون. لم أعد آكل، لم أعد أشرب، إلى أن تأكدت من أنك لم تذهبي، وأنكِ لست مع عشيق آخر. فعادت الحياة إلى جسدي أيتها الطفلة الخبيثة». سمعتها تتلوى من القهقهات. وعندما أجبرتني بكلتا يديها على أبعاد وجهي كي ترى عيني، كان الضحك لا يزال يمنعها من الكلام. «أصحيح أنك كنت مجنوناً بالغيرة؟ يا للخبر الطيب، فأنت مازلت مغرماً بي إذاً مثل عجل، أيها الطفل الطيب.» وكانت تلك هي المرة الأولى التي مارسنا فيها الحب دون أن نتوقف عن الضحك.

وأخيراً، استسلمنا للنوم، متشابكين وسعيدين. وفي غفوتي، كنت أفتح عيني بين حين وآخر لأراها. لن أكون سعيداً أبداً مثلما أنا الآن، ولن أعود إلى الإحساس بمثل هذا الامتلاء. استيقظنا بعد أن كان الليل قد خيم، وبعد أن استحممنا وارتدينا ملابسنا، أخذتُ الطفلة الخبيثة للعشاء في **جنينة الليلك**، حيث رحنا، كعاشقين في شهر العسل، نتبادل الحديث بصوت خافت، وكل منا ينظر إلى عيني الآخر، متماسكي الأيدي، باسمين، ونتبادل القبلات بينما نحن نتناول زجاجة من الشمبانيا. «قل لي شيئاً جميلاً»، كانت ترجوني بين وقت وآخر.

لدى الخروج من **جنينة الليلك**، وبلوغنا الساحة الصغيرة التي ينتصب فيها تمثال الماريشال ني متوعداً النجوم بسيفه، على ضفة جادة اوبسرفاتوار، كان هناك ***متشردان*** يجلسان على أحد المقاعد. توقفت الطفلة الخبيثة، وأشارت إليهما:

ـ هذا هو، ذاك الذي إلى اليمين، ***المتشرد*** الذي أنقذ حياتك تلك الليلة، على جسر ميرابيو، أليس كذلك؟

ـ لا، لا أظن أنه هو.

ـ بلى، بلى ـ ضربت الأرض بقدمها جزعة ـ. إنه هو، قل لي إنه هو

يا ريكاردو.

ـ أجل، أجل، إنه هو، أنتِ على حق.

ـ أعطني كل ما في حقيبتك من نقود ـ قالت لي آمرة ـ. الأوراق النقدية والعملة المعدنية أيضاً.

فعلتُ ما طلبته مني. وعندئذ تقدمت من *المتشردين* وهي تحمل النقود في يدها. نظرا إليها كما لو أنهما ينظران إلى كائن نادر وغريب، هذا ما أظنه، إذ كان الظلام قاتماً جداً لا يتيح لي رؤية وجهيهما. رأيتها تنحني نحوه، تكلمه، تعطيه النقود، وأخيراً ــ يا للمفاجأة ــ، تقبل *المتشرد* من خديه. ثم جاءت باتجاهي مبتسمة مثل طفلة قامت لتوها بعمل خير طيب. أمسكت ذراعي وتابعنا المسير في بوليفار مونبارناس. لدينا ما يزيد على نصف ساعة من المشي كي نصل إلى إيكول ميليتير. ولكن الجو لم يكن بارداً، وليس ثمة احتمال لهطول المطر.

ـ سيظن هذا *المتشرد* أنه رأى حلماً، وأن جنية طيبة قد نزلت عليه من السماء. ماذا قلتِ له؟

ـ شكراً جزيلاً لك يا سيدي *المتشرد*، لأنك أنقذت حياة سعادتي.

ـ لقد تحولتِ أنت إلى صاحبة عبارات متكلفة أيضاً أيتها الطفلة الخبيثة ـ قبّلتُ شفتيها ـ. واحدة أخرى، عبارة متكلفة أخرى، أرجوك.

VII. مارسيلا في لافابيّس

قبل خمسين سنة، كان حي لافابيّس المدريدي، المحبس القديم لليهود والموريسكيين، لا يزال يعتبر أحد أكثر أحياء مدريد عراقة، تتعايش فيه، كبقايا أثرية مثيرة للفضول، شخصيات التشولابو والتشولابا[1] وغيرهما من شخصيات مسرحيات الثارثويلا التقليدية: «متغندرون» بصدارات وقبعات، ومناديل حول الأعناق، وبناطيل ضيقة؛ و«مانولات» محشورات في فساتين مزركشة بالبرق، ويضعن أقراطاً كبيرة، وقبعات، ومناديل معقودة فوق شعور مسرحة في عقيصات كأنها منحوتة.

عندما جئت للإقامة في لافابيّس، كان الحي قد تبدل إلى حدّ أنني كنت أتساءل أحياناً عما إذا كان قد بقي في هذه البابل مدريديٌّ أصيل ما، أم أن جميع المقيمين فيه هم، مثل مارسيلا ومثلي، مدريديون مستوردون. وكان إسبانيو الحي القادمون من كل أنحاء إسبانيا، يُسهمون بتنوع لهجاتهم ومظاهرهم البدنية في منح مظهر عالم مصغر لمحبس لافابيّس هذا، متعدد الأجناس، واللغات، واللهجات، والعادات، والأزياء، والنوستالجيات. فالجغرافية البشرية للكوكب بأسره تبدو ممثلة في هذه الحفنة من الشوارع.

لدى الخروج من شارع آفي ماريا، حيث نعيش في الطابق الثالث من بناء حائل اللون ومتآكل، يجد المرء نفسه في بابل يتعايش فيها

---

[1] التشولابو، التشولابا chulapo, pa: ويسمى أيضاً تشولو، من شخصيات المجتمع السفلي المدريدي.

تجار صينيون وباكستانيون، ومحلات لغسل الملابس ودكاكين هندوسيين، وصالونات شاي مغربية، وبارات تغص بأمريكيين جنوبيين، وتجار مخدرات كولومبيين وأفارقة، في كل مكان، في مداخل البنايات وعلى النواصي، أعداد من الرومانيين، واليوغسلاف، والمولدافيين، والدومينكانيين، والإكوادوريين، والروس، والآسيوين. الأسر الإسبانية في الحي تقاوم تبدل العادات القديمة بالتسامر من شرفة لشرفة، وتعليق الغسيل على حبال ممدودة على أفاريز الشرفات والنوافذ، وبالذهاب أزواجاً في أيام الآحاد، الرجال ببدلات وربطات عنق والنساء بملابس سوداء، لسماع القداس في كنيسة سان لورينثو، عند تقاطع شارعي الدكتور بيغا وساليتري.

كانت شقتنا أصغر من تلك التي كنت أملكها في شارع جوزيف غرانيه، أو هكذا تبدو لي، لازدحامها بمجسمات مصغرة من الكرتون والخشب لديكورات مارسيلا التي تملأ الغرفتين الصغيرتين وتصل حتى المطبخ والحمام، مثلما كانت دمى جنود الرصاص في بيت سالمون توليدانو. وعلى الرغم من ضيق مساحة الشقة، وامتلائها بالكتب والاسطوانات، إلا أنها لم تكن تسبب رهاب الأماكن الضيقة بفضل نوافذها المطلة على الشارع التي تدخل منها دفقات من نور قشتالة الأبيض الحيوي، والمختلف تماماً عن النور الباريسي، ولأن للشقة شرفة صغيرة، حيث يمكننا أن نضع، في الليل، منضدة صغيرة، وتناول العشاء تحت النجوم المدريدية، الموجودة، وإن كانت مطموسة بانعكاس أضواء المدينة.

كانت مارسيلا تتمكن من العمل في الشقة منبطحة على السرير إذا كانت ترسم، أو بالجلوس على السجادة الأفغانية في الصالة غرفة الطعام الصغيرة إذا كانت تركّب مجسماتها من قطع كرتون، وخشب، ومطاط، وعجينة النشاء، وأقلام التلوين. أما أنا

فكنت أفضل الذهاب لانجاز الترجمات التي يؤمنها لي الناشر ماريو موتشنيك، في مقهى مجاور، **مقهى باربيري**، حيث أقضي عدة ساعات كل يوم في الترجمة والقراءة ومراقبة تشكيلة الناس الذين يرتادون المقهى، دون أن أملّ أبداً، لأن المقهى يجسد تنوعات سفينة نوح الوليدة هذه في قلب مدريد القديمة.

يقوم مقهى باربيري في شارع آفي ماريا نفسه، ويبدو ـ هذا ما قالته لي مارسيلا عندما أخذتني هناك أول مرة، وهي عارفة بهذه الأمور ـ كأنه ديكور ما قبل انطباعي من برلين سنوات العشرينيات أو لوحة حفر لغروس أو أوتو ديكس، بجدرانه المثلمة، وأركانه المظلمة، والأطر المستديرة لرسوم سيدات رومانيات في سقفه المستعار وحجراته الجانبية الصغيرة والغامضة، حيث يمكن، كما يبدو، اقتراف جرائم دون أن يلحظ جمهور الزبائن ذلك؛ أو المقامرة بمبالغ جنونية في ألعاب بوكر تُشهر فيها سكاكين لامعة، أو إقامة طقوس سحر أسود. إنه مقهى هائل الاتساع، كثير الزوايا، ممتلئ بالاستدارات، سقوفه القاتمة مفضضة بنسيج العناكب. فيه مناضد مزعزعة وكراس عرجاء، ومقاعد طويلة ورفوف على وشك التفتت من طول الاستعمال. والمحل معتم، يعبق بالدخان، ويغص على الدوام بأناس يبدون متنكرين، كأنهم حشد كومبارس كوميديا هزلية محشورين بين الكواليس بانتظار الخروج إلى منصة المسرح. كنت أسعى للجلوس إلى منضدة صغيرة في عمق المحل، يصل إليها قدر أكبر قليلاً من الضوء، إذ كان هناك، بدل الكراسي، أريكة مريحة إلى حد ما، مغلفة بمخمل كان في أحد الأيام ضارباً إلى الحمرة، وهو يتفتت بثقوب أحدثتها السجائر واحتكاك المؤخرات. وكانت إحدى تسلياتي، كلما دخلت إلى مقهى باربيرا، تتمثل في تحديد اللغات التي أسمعها من الباب حتى المنضدة التي في العمق، وقد أحصيت في إحدى المرات

ست لغات في تلك المسافة القصيرة التي لا تزيد على ثلاثين متراً.

كان الندل والنادلات كذلك يمثلون تنوعات الحي: سويديون، بلجيكيون، أمريكيون، مغاربة، إكوادوريون، بيرويون، وغيرهم. يتغيرون طول الوقت، لأن أجورهم ضئيلة دون شك، ولأن ساعات العمل الثماني، في ورديتين، يقضونها في الحركة؛ فالزبائن يشغلونهم طوال الوقت في الذهاب والمجيء بالبيرة، والقهوة، والشاي، والشوكولاته، وكؤوس النبيذ والقوارير. وما إن يرونني أستقر إلى المنضدة المعهودة، مع دفاتري وأقلامي والكتاب الذي أقوم بترجمته، حتى يسارعوا بإحضار فنجان قهوتي وزجاجة الماء المعدني الخالي من الغاز.

ووراء تلك المنضدة، أتصفح صحف الصباح، وعندما أتعب، بعد الظهر، من الترجمة، أبدأ بالقراءة، ليس من أجل العمل، وإنما للمتعة وحسب. الكتب الثلاثة التي أنهيت ترجمتها ـ وهي لدوريس ليسنغ، وبول أوستير، وميشال تورنيه، لم تكلفني جهداً كبيراً، لكنني لم أستمتع كثيراً أيضاً بنقلها إلى الإسبانية. فعلى الرغم من أن كتّابها كانوا رائجين، إلا أن الروايات التي كُلفت بترجمتها لم تكن أفضل ما كتبوه. ومثلما كنت أعتقد على الدوام، كانت أجور الترجمات الأدبية سيئة جداً، وأقل بكثير من أجور الترجمات التجارية. لكنني لم أعد في وضع يمكنني من القيام بهذه الترجمات الأخيرة، بسبب الإرهاق الذهني الذي يصيبني عندما أبذل جهداً في التركيز لوقت طويل، ولهذا كنت أتقدم في الترجمة ببطء شديد. ومع ذلك، فإن تلك المداخيل الضئيلة تتيح لي مساعدة مارسيلا في نفقات البيت وعدم الإحساس بأنني عالة عليها. وقد حاول صديقي موتشينك مساعدتي بالحصول على ترجمة عن الروسية ـ وكان هذا هو أكثر ما يبهجني ـ، وكنا على وشك إقناع ناشر على أن يتحمس لنشر ***الآباء والبنون***

لتورغينيف، أو *قداس الجنازة* المؤثر لآنا أخماتوفا، ولكن الأمر لم يتحقق لأن الأدب الروسي، ولاسيما الشعر، لم يكن يشد بعد اهتمام القراء الإسبان والأمريكيين اللاتينيين.

لم أكن قادراً على قول إذا ما كانت مدريد تعجبني أم لا. فقد كانت معرفتي ضئيلة بأحياء المدينة الأخرى التي لا أكاد أغامر في الذهاب إليها سوى في المرات التي كنت أزور فيها متحفاً أو استعراضاً بصحبة مارسيلا. لكنني كنت أشعر بأني على ما يرام في حي لافابيِّس، بالرغم من أنني تعرضت للسطو في شوارعه، أول مرة في حياتي، على يد عربيين سرقوا ساعتي، ومحفظة فيها بعض النقود المعدنية، وحافظة أقلامي ماركة مون بلان، وهي آخر ما تبقى لي من الترف. والحقيقة أنني كنت أشعر هناك كما لو أنني في بيتي، مندمجاً في حياة تعج بالحركة والصخب. في بعض الأحيان، تأتي مارسيلا للبحث عني في مقهى باربيرا، فنقوم بجولة في الحي الذي صرت أعرفه كما أعرف راحة يدي. وكنت أكتشف لها على الدوام شيئاً غريباً أو مثيراً للفضول. مثل دكان ـ الهاتف للبوليفي ألثيريكا الذي تعلم اللغة السواحلية كي يستطيع تلبية طلبات زبائنه الأفارقة. وكنا نذهب إلى صالة الفيلموتيك لمشاهدة فيلم كلاسيكي، إذا ما كانوا يعرضون شيئاً مشوقاً.

في أثناء تلك الجولات، كانت مارسيلا تتكلم دون توقف، وأنا أستمع إليها. لا أتدخل في الحديث إلا بين وقت وآخر، كي أسمح لها بالتقاط أنفاسها، وأقتصر على سؤال أو ملاحظة، لأحثها على مواصلة التحدث إليّ عن المشروع الذي ترغب في العمل فيه. ولم أكن أولي اهتماماً في بعض الأحيان لما تقوله، لأني كنت أركز باهتمام أكبر على طريقتها في الكلام: كانت تتكلم بشغف، بقناعة، بخيال، بسعادة. لم أعرف أحداً قط يندمج بتلك الطريقة الكاملة ـ وأقول

المتعصبة، لو لم يكن للكلمة ذلك المعنى الغائم ـ التي تندمج بها في ميلها الفني، ومن يعرف مثلها، بتلك الطريقة المحددة، ما الذي يريد عمله في الحياة.

لقد تعارفنا منذ سنوات، في باريس، في أحد مستشفيات باسي، حيث ذهبتُ لإجراء بعض التحاليل، وكانت هي هناك لزيارة صديقة أُجريت لها عملية جراحية. وخلال نصف ساعة تقاسمناها في قاعة الانتظار، حدثتني بحماسة شديدة عن مسرحية لموليير، *البرجوازي النبيل*، تُقدم في مسرح صغير في نانتر، وقد أنجزت هي نفسها الديكور، فذهبتُ لمشاهدة المسرحية. ووجدت مارسيلا في المسرح، وعند انتهاء عرض المسرحية، عرضتُ عليها تناول كأس في مقهى مجاور لمحطة المترو.

إننا نعيش معاً منذ سنتين ونصف، السنة الأولى في باريس، وبعد ذلك في مدريد. ومارسيلا إيطالية، تصغرني بعشرين سنة. درست الهندسة المعمارية في روما إرضاء لأبويها، وكلاهما مهندس معماري، ومذ كانت طالبة بدأت العمل كمصممة ديكور مسرحي. وقاومت أبويها لأنها لم تكن تنوي ممارسة الهندسة المعمارية أبداً، وظلت على خلاف معهما لسنوات. وتمت المصالحة عندما اقتنعا أن ما لدى ابنتهما ليس مجرد نزوة عابرة، وإنما هو ميل حقيقي. وصارت تذهب بين حين وآخر لقضاء بعض الوقت مع أبويها في روما، وبما أن مواردها شحيحة ـ كانت من أكثر الناس في العالم انهماكاً في العمل، لكن أعمال الديكور التي تُكلف بها كانت ضئيلة المردود، وفي مسارح هامشية، حيث يدفعون لها القليل، أو لا شيء أحياناً ـ، كان أبواها، وهما في وضع ميسور، يرسلان إليها بين فترة وأخرى بعض الحوالات التي تتيح لها تكريس وقتها ونشاطها للمسرح. لم تتمكن من تحقيق الفوز، لكن ذلك لم يكن يهمها كثيراً، لأنها كانت على ثقة مطلقة

ـ وأنا كذلك ـ من أن أناس المسرح في إسبانيا، في إيطاليا، في أوروبا كلها، سينتهون عاجلاً أو آجلاً إلى الاعتراف بموهبتها. ومع أنها كانت تتكلم كثيراً، وهي تحرك يديها مثل إيطالية كاريكاتورية، إلا أنني لم أكن أملّ من حديثها. كنتُ أستغرق في سماعها تشرح الأفكار التي تعج في رأسها لتثوير الجو المسرحي في أعمال مثل *حديقة الكرز*، أو *بانتظار غودوت*، أو *أرليكين*، أو *خادم لسيدين*، أو *سيليستينا*. لقد تعاقدوا معها ذات مرة في السينما، كمساعدة ديكور، وكان يمكن لها أن تشق طريقها في هذا المجال، لكنها كانت تحب المسرح، ولم تكن مستعدة للتضحية بميلها، حتى لو كان المضي قُدماً في الديكور المسرحي أصعب منه في ديكور الأفلام أو البرامج التلفزيونية. وبفضل مارسيلا تعلمتُ رؤية العروض المسرحية بعينين مختلفتين، فلم أعد أقصر اهتمامي على القصة والشخصيات، وإنما كذلك على الأمكنة، والإضاءة التي تتحرك فيها الشخصيات، والأشياء التي تحيط بها.

كانت ضئيلة، لها شعر أشقر، وعينان خضراوان، وبشرة شديدة البياض وصقيلة، وذات ابتسامة سعيدة جداً. وكانت تنضح ديناميكية. تلبس كيفما اتفق، تنتعل صندلاً، وترتدي بنطال رعاة بقر وسترة مستهلكة في أغلب الأوقات، وتضع نظارة للقراءة وللمشاهدة في السينما، إنها نظارة صغيرة جداً، دون إطار، تمنح ملامحها هيئة فيها شيء من مهرج. إنها فتاة نزيهة، بلا حسابات خاصة، كريمة، قادرة على تكريس أوقات طويلة لأعمال تافهة، مثل عرض واحد لإحدى مسرحيات لوبي دي بيغا يقدمه طلاب مدرسة، تسكب نفسها في ديكورها المؤلف من أربعة أشياء رخيصة وقطعتي خيش مرسومتين، بالعناد نفسه الذي يكرسه مصمم ديكور يُكلَّف، أول مرة، في وضع ديكور عمل في أوبرا باريس. والرضا الذي تشعر به

يعوضها بوفرة عن القليل أو اللاشيء الذي توفره لها تلك المغامرة. وإذا كان هناك من ينطبق عليه القول إنه «يعمل حباً بالفن» فإنها مارسيلا.

أقل من عُشر المجسمات المصغرة التي تملأ شقتنا، ظهرت على منصة مسرح. أما معظمها فأُحبط بسبب انعدام التمويل. إنها أفكار توصلت إليها وهي تقرأ عملاً مسرحياً أعجبها، وتصورت له ديكوراً لم يتعدَّ الرسوم والمجسمات المصغرة. لم تكن تناقش مسألة المكافآت المالية عندما يجري التعاقد معها، وكانت قادرة على رفض تكليف مهم إذا ما بدا لها أن المخرج أو المنتج منافقان، غير عابئين بالجمالي ولا يشغلهما سوى المادي. وبالمقابل، عندما تقبل التكليف ـ مع فرق طليعية عموماً، لا سبيل لها لبلوغ المسارح الكبرى المستقرة ـ، تنهمك في العمل جسداً وروحاً. ولم تكن تكتفي ببذل قصارى جهدها في إنجاز عملها وحسب، بل كانت تشارك في كل الأعمال الأخرى، تساعد زملاءها في البحث عن رعاة ممولين، والحصول على صالة مسرح، وعلى تبرعات، واستعارة الأثاث والملابس، وتعمل كتفاً إلى كتف مع النجارين والكهربائيين؛ وإذا تطلب الأمر، فإنها تكنس منصة المسرح، وتبيع تذاكر الدخول، وتدل الجمهور إلى المقاعد. كنت أستغرب دوماً انكبابها بتلك الطريقة على عملها، إلى حدّ أني كنت أضطر إلى تذكيرها، في فترات العمل المحموم، إلى أنه ليس بالديكورات المسرحية وحدها يحيا الإنسان، بل هو بحاجة أيضاً إلى الأكل، والنوم، والاهتمام قليلاً بشؤون الحياة الأخرى.

لم أفهم قط سبب بقاء مارسيلا معي، وما الذي أضيفه إلى حياتها. ففي أشد ما يهمها في الحياة، أي عملها، لا يمكن لي أن أساعدها إلا قليلاً جداً. فكل ما أعرفه عن الديكور المسرحي تعلمته منها، والآراء التي يمكن لي أن أقدمها إليها ليست ذات نفع، لأنها تعرف جيداً، مثل أي مبدع حقيقي، ما الذي تريد عمله دون حاجة إلى

مساعدة. ولا يمكن لي أن أكون بالنسبة إليها سوى أذن صاغية تحتاج إليها لتصب فيها، بصوت عالٍ، دفق الصور، والاحتمالات، والإمكانات، والشكوك التي تخطر ببالها كلما ورطت نفسها في مشروع جديد. كنت أستمع إليها بحسد، طوال الوقت اللازم. وأرافقها إلى المكتبة الوطنية للاستعانة برسوم توضيحية وكتب، وإلى زيارة حرفيين وخبراء عاديات، والجولة المؤكدة أيام الآحاد إلى سوق ساحة راسترو الشعبي. ولم أكن أفعل ذلك بدافع المحبة فقط، وإنما لأن ما تقوله يبدو على الدوام جديداً، مفاجئاً، وعبقرياً أحياناً. فقد كنت، وأنا إلى جانبها، أتعلم شيئاً جديداً كل يوم. وما كان لي أن أعرف أبداً، لو لم أتعرف إليها، كيف يمكن للديكور أو الإضاءة، ولوجود أو غياب أشد الأشياء عادية، كمكنسة أو مزهرية بسيطة، أن تؤثر بطريقة حاسمة، وإن تكن مبهمة، في قصةٍ مسرحية.

كان يبدو أن فارق العشرين سنة بين عمرينا لا يقلقها. أما أنا، فبلى. كنت أقول لنفسي إن العلاقة الطيبة بيننا ستضعف عندما أصير ستينياً، بينما تكون هي لا تزال امرأة شابة. وعندئذ ستقع في حب رجل في مثل سنها، وستذهب. كانت جذابة، بالرغم من قلة اهتمامها بجسدها، يلاحقها الرجال بعيونهم في الشارع. وقد سألتني في أحد الأيام، بينما نحن نمارس الحب: «ألا يضايقك أن يكون لنا ابن؟». لا. إذا كان ذلك يسعدها، فسأكون سعيداً. غير أن الغم استحوذ عليّ فجأة. ربما كان السبب هو أنني، نظراً لمغامراتي ونكباتي مع الطفلة الخبيثة، صرت أرى أنه من المستحيل الاعتقاد، وقد تجاوزتُ الخمسين، باستمرارية علاقة بين زوجين، بما في ذلك علاقتنا التي تسير دون تقلبات. ألم يكن هذا التردد سخيفاً؟ كنا نعيش على ما يرام، بحيث لم تحدث بيننا خلال هاتين السنتين ونصف السنة أية مشاجرة. مجرد مجادلات أو انزعاج عابر لا أكثر. ولكن لا شيء

يمكن أن يكون أشبه بالقطيعة. «يسعدني أن ذلك لا يضايقك»، قالت لي مارسيلا في ذلك اليوم، وأضافت: «لم أسألك من أجل أن نوصي على *بامبينو* الآن، وإنما بعد أن نكون قد أنجزنا أشياء مهمة». إنها تتحدث عن نفسها، لأنها ستنجز دون شك في المستقبل أشياء جديرة بأن توصف بأنها مهمة. أما أنا فيرضيني، في السنوات التالية، أن يتمكن ماريو موتشنيك من الحصول لي على كتاب روسي لأترجمه بجهد وحماسة كبيرين، كتاب أكثر إبداعاً من هذه الروايات *اللايت* التي تتلاشى من ذاكرتي بالسرعة نفسها التي أعيد بها صياغتها بالإسبانية.

إنها معي، دون شك، لأنها تحبني؛ ليس هناك أي مسوغ آخر. بل إنني أشكل، بالنسبة إليها، عبئاً اقتصادياً. كيف أمكن لها أن تقع في حبي، مع أنني عجوز بالنسبة إليها، وبلا أي وسامة، وبلا ميل فني، وعلى شيء من القصور في قدراتي الفكرية، وهدفي الوحيد في الحياة، منذ الطفولة، هو الاستقرار طوال ما تبقى من حياتي في باريس؟ عندما أخبرت مارسيلا بأن هذا كان هو ميلي الوحيد، انفجرت في الضحك: «حسن أيها الغالي، لقد نلت بغيتك. لابد أن تكون سعيداً، فقد عشتَ حياتك كلها في باريس». قالت ذلك بمحبة، لكن وقع كلماتها بدا لي مشؤوماً.

مارسيلا تهتم بي أكثر من اهتمامي بنفسي: أن أتناول أقراص دواء الضغط، أن أمشي نصف ساعة على الأقل كل يوم، ألا أتجاوز أكثر من كأسين أو ثلاثة كؤوس نبيذ يومياً. وتكرر على الدوام أننا، عندما تحصل على مكافأة جيدة، سننفق هذه النقود في رحلة إلى البيرو. وقبل أن تذهب للتعرف على آثار كوسكو وماتشو بيتشو، تريد التعرف على حي ميرافلوريس في ليما الذي أحدثها عنه كثيراً. فأجاريها أنا، وإن كنت أعرف، في أعماقي، أننا لن نقوم بتلك الرحلة أبداً، لأنني مستعد لمجاراتها إلى ما لا نهاية له. لم أكن أفكر

في العودة إلى البيرو. فمنذ وفاة العم أتاولفو تلاشت بلادي من ذاكرتي كما السراب في الصحراء. لم يعد لي هناك أقارب ولا أصدقاء، وحتى ذكريات الشباب راحت تتلاشى من ذاكرتي.

علمت بموت العم أتاولفو بعد عدة أسابيع من حدوثها، بعد ستة شهور من انتقالي للعيش في مدريد، ومن خلال رسالة بعثها إليّ ألبيرتو لاميل. حملت مارسيلا الرسالة إلي وأنا في مقهى باربيري. وقد تأثرتُ كثيراً بالخبر، مع أنني كنت أعرف أن موته قد يحدث في أي لحظة. توقفت عن العمل وخرجت لأمشي كغائب عن الوعي في دروب الريتيرو. منذ رحلتي الأخيرة إلى البيرو، في أواخر 1984، كنت أنا والعم أتاولفو نتبادل الرسائل كل شهر، وبخطه المرتعش الذي كنت أفكك رموزه كعالم كتابات قديمة، تابعتُ خطوة فخطوة كل الكوارث الاقتصادية التي أنزلتها بالبيرو سياسات آلان غارسيا: التضخم، التأميمات، القطيعة مع المؤسسات المانحة للقروض، الرقابة على الأسعار والمبادلات، انهيار التوظيف ومستويات الحياة. كانت رسائل العم أتاولفو تكشف عن المرارة التي ينتظر بها الموت. لقد مات وهو يحلم. ويضيف ألبيرتو لاميل بأنه هو نفسه يقوم الآن بالإجراءات من أجل الذهاب إلى بوسطن، حيث توفرت له، بفضل أبوي زوجته الأمريكية، إمكانات العمل. ويقول لي في رسالته إنه كان أحمق بتصديق وعود آلان غارسيا، وتصويته له في انتخابات 85، مثل كثير من المهنيين الساذجين. لقد وثق بكلام الرئيس بأنه لن يمس مصالحهم، فاحتفظ بشهادات استثمار بالدولار هي كل مدخراته. وعندما أصدر الرئيس الجديد مرسوم التحويل الإجباري لكل شهادات الاستثمار بالعملة الصعبة إلى سولات[1] بيروية، تلاشت ثروة ألبيرتو.

---

[1] سولات، جمع سول Sol، وهي وحدة النقد الأساسية في البيرو.

وكانت تلك مجرد البداية في سلسلة من المحن. أفضل ما يمكن عمله هو «الاقتداء بك أيها العم ريكاردو، والخروج بحثاً عن آفاق أفضل، لأنه لم يعد بالإمكان العمل في هذه البلاد ما لم يكن المرء متواطئاً مع الحكومة».

كان هذا هو آخر خبر حصلت عليه عن أحوال البيرو. ومنذ ذلك الحين، بما أنني لم أكن ألتقي عملياً بأي بيروي، صرت أعلم بما يحدث هناك من خبر ما، تنشره، في أحيان نادرة، الصحف المدريدية، يكون عادة عن ميلاد خمسة توائم، أو وقوع هزة أرضية، أو تدهور حافلة وسقوطها من أعالي سلسلة جبال الأنديز وموت ثلاثين شخصاً.

لم أخبر العم أتاولفو أن زواجي قد غرق، ولهذا ظل حتى النهاية، في رسائله، يرسل التحيات إلى «ابنة الأخ»، وكنت أنا في رسائلي، أرد على تحياته تلك باسمها. لا أدري لماذا أخفيتُ الأمر عنه. ربما لأنني كنت سأضطر إلى أن أفسر له ما حدث، ولأن أي تفسير سيبدو له عبثياً وغير مفهوم، مثلما بدا لي أنا.

لقد حدث فراقنا بصورة فظة وغير متوقعة، مثلما كانت تحدث اختفاءات الطفلة الخبيثة على الدوام. مع أن الأمر لم يكن في هذه المرة هروباً، وإنما انفصال متمدن، وبعد جدال. ولهذا عرفتُ أن هذه المرة، خلافاً للمرات السابقة، ستكون نهائية.

شهر العسل الذي نعمنا به، منذ عودتي من ليما خائفاً من أن تكون قد ذهبت، لأنها لم ترد على الهاتف طوال ثلاثة أو أربعة أيام، استمر بضعة شهور. في البدء كانت حانية جداً، مثلما بدت في ذلك المساء الذي استقبلتني فيه بمظاهر الحب. حصلتُ على عقد عمل لمدة شهر من اليونسكو، وكنت لدى عودتي إلى البيت، أجدها قد عادت من مكتبها قبلي، وأعدّت العشاء. وفي إحدى الليالي انتظرتني وقد أطفأت الأنوار، وأضاءت المائدة بشموع رومانسية. وبعد ذلك قامت

برحلتين، كل منهما لمدة يومين، إلى الشاطئ الأزرق، موفدة من رب عملها مارتان، وكانت تتصل بي كل ليلة. ما الذي أريده أكثر من هذا؟ بدأت أشعر بأن الطفلة الخبيثة قد بلغت سن الرشد، وأن زواجنا صار راسخاً وغير قابل للفسخ.

عندئذ، وفي لحظة لا أستطيع تحديدها بالضبط في ذاكرتي، بدأ مزاجها وتعاملها بالتبدل. وكان تبدلاً متكتماً، تحاول هي مداراته، ربما لأنها كانت لا تزال مترددة، وهو ما لم أعِه إلا بصورة استردادية في ما بعد. لم ألحظ أن سلوكها العاطفي في الأسابيع الأولى راح يتراجع شيئاً فشيئاً مفسحاً المجال لسلوك أكثر ابتعاداً عني، فهي هكذا دوماً، وغير المألوف هو أن تبدو منفتحة في التعبير عن مشاعرها. لاحظتُ أنها تسهو، وأنها تهيم في تأملات يبدو أنها تحملها بعيداً عن متناول يدي، بجبين مقطب. وكانت تعود مرعوبة من حالات شرود الذهن تلك، تنتفض عندما أعيدها إلى الواقع بمداعبة مازحة: «*ماذا لدى الأميرة ذات الفم الكرزي؟* لماذا أنت شاردة الذهن هكذا؟ أتكون الأميرة عاشقة؟». فتتورد خجلاً وتردّ عليّ بضحكة إجبارية.

في أحد الأيام، لدى عودتي من مكتب السيد تشارنيس القديم ـ كان تشارنيس قد تقاعد وذهب لقضاء شيخوخته في جنوبي إسبانيا ـ، حيث أخبروني للمرة الثالثة أو الرابعة بأنه ليس لديهم أي عمل لي في الوقت الراهن، ما كدتُ أفتح باب الشقة في شارع جوزيف غرانيه وأراها جالسة في الصالة، ببدلتها البنية وحقيبة اليد التي تحملها دوماً في رحلاتها، حتى أدركتُ أن شيئاً خطيراً يحدث. كانت ممتقعة الوجه.

ـ ماذا أصابكِ؟

زفرت مستجمعة قواها ـ كانت هناك دوائر زرقاء تحيط بعينيها،

والعينان تلمعان ـ، وأفلتت، بلا مواربة، الجملة التي أعدّتها دون ريب بكثير من الاهتمام:

ـ لم أشأ الذهاب دون أن أتحدث معك، كي لا تظن أنني أهرب ـ قالتها دفعة واحدة، بالصوت الجليدي الذي اعتادت استخدامه في إجراءاتها العاطفية ـ. أحلفك بأعز شيء إليك، أرجوك ألا تثير لي فضيحة وألا تهددني بأنك ستنتحر. فلم يعد أي منا في سن مناسبة لمثل هذه الأمور. أعذرني لأني أكلمك بكل هذا الجفاء، لكنني أظن أنها الطريقة الأفضل.

انهرتُ على الكرسي، قبالتها. أحسستُ بإنهاك غير متناهٍ. شعرتُ كما لو أنني أسمع أسطوانة تكرر الجملة الموسيقية نفسها، وبتشوه أكبر في كل مرة. وكانت هي شاحبة طوال الوقت، غير أن ملامحها بدت هائجة الآن، فاضطرارها إلى أن تكون هناك، تقدم لي تفسيرات، ملأها بالاستياء مني.

ـ أنت تدرك أنني حاولت التأقلم مع هذا النمط من الحياة، من أجل إرضائك، لأدفع لك مقابل مساعدتك لي وأنا مريضة ـ بدت برودتها الآن كما لو أنها تغلي من الغضب ـ. لم أعد قادرة على تحمل المزيد. هذه الحياة لا تناسبني. وإذا ما واصلت العيش معك بدافع الشفقة، فسأنتهي إلى كرهك. وأنا لا أريد أن أكرهك. حاول أن تفهمني، إذا كنتَ قادراً على ذلك.

صمتت، منتظرة أن أقول لها شيئاً، لكنني كنت أشعر بالتعب إلى حدّ لا أجد معه القوة ولا الرغبة في قول أي شيء لها.

ـ إنني أختنق هنا ـ أضافت وهي تلقي نظرة على ما حولها ـ. هاتان الغرفتان سجن، ولم أعد أتحملهما. أنا أعرف ما هي حدود قدرتي. يقتلني هذا الروتين، هذه الوسطية. لا أريد لبقية حياتي أن تكون على هذا النحو. أنت لست مهتماً، إنك سعيد هنا، وهذا أفضل لك. أما أنا

فلست مثلك، أنا لا أستطيع الرضا. لقد حاولت، وأنت نفسك رأيت كيف أنني حاولت. لكنني لا أستطيع. لن أقضي بقية حياتي إلى جانبك بدافع الشفقة. اعذرني لأني أكلمك بهذه الصراحة. من الأفضل أن تعرف الحقيقة وأن تتقبلها يا ريكاردو.

- ومن هو؟ - سألتها حين رأيت أنها صمتت ثانية - أيمكنني أن أعرف على الأقل مع من ستذهبين؟

- هل ستفتعل لي الآن مشهد غيرة؟ - جاء ردّ فعلها ساخطاً. وذكّرتني بسخرية -: أنا امرأة حرة يا ريكارديتو. وزواجنا لم يكن إلا وسيلة للحصول على وثائق نظامية. فلا تأتي الآن إذاً لمحاسبتي على أي شيء.

كانت تتحداني، هائجة مثل ديك. وإضافة إلى التعب، بدأ ينتابني إحساس بأني مضحك. معها حق: لقد صرنا عجوزين على مشاهد الغيرة هذه.

- أرى أنكِ قد حسمتِ كل شيء وأنه لا مجال لمزيد من الكلام - قاطعتها وأنا أنهض واقفاً - سأخرج للقيام بجولة في الخارج، كي تنهي إعداد حقائبك بهدوء.

- إنها جاهزة - ردّت عليّ بالنبرة الساخطة نفسها.

أسفتُ لأنها لم تذهب كما في مرات سابقة، مكتفية بترك بضعة سطور لي. وبينما أنا أتوجه نحو الباب، سمعتها تقول وراء ظهري بصوت أرادت له أن يكون هادئاً:

- وبالمناسبة، لن أطالبك بأي شيء من حقوقي باعتباري امرأتك. ولا قرش واحد.

ففكرتُ وأنا أغلق الباب الخارجي ببطء. «إنك لطيفة جداً. غير أن الشيء الوحيد الذي يمكنك مطالبتي به هو الديون، ورهن هذا البيت الذي سيحجزون عليه قريباً إذا ما استمرت الحال على هذا النحو».

عندما خرجتُ إلى الشارع، بدأ المطر بالهطول. لم أحمل معي مظلة، لهذا ذهبت لألتجئ في مقهى على الناصية، حيث ظللت لوقت طويل، أتناول رشفات صغيرة من فنجان قهوة راح يبرد إلى أن صار بلا طعم. الحقيقة أنه كان فيها شيء من المستحيل عدم الإعجاب به وتقديره، لتلك الأسباب التي تحملنا على تقدير الأعمال المتقنة، حتى لو كانت خبيثة. فقد استطاعت تحقيق إنجاز ما، بحسابات دقيقة، كي تتوصل مرة أخرى إلى وضع اجتماعي واقتصادي يمنحها مزيداً من الأمان، ويُخرجها من هاتين الحجرتين الشبيهتين بالسجن في شارع جوزيف غرانيه. وها هي الآن، دون أن يرف لها جفن، تريد الذهاب، وتلقي بي إلى سلة المهملات. من هو العشيق في *هذه* المرة؟ أهو شخص تعرّفت إليه من خلال عملها مع مارتان، في أحد تلك المؤتمرات، والندوات، والاحتفالات التي ينظمونها. لقد أنجزت عملية إغواء متقنة دون شك. صحيح أنها تحتفظ بمظهر لائق جداً، لكنها تجاوزت على كل حال الخمسين من عمرها. *Chapeau!* أيكون شخصاً مسناً، تعمل على إماتته في الملذات كي ترثه، مثلما فعلت بطلة رواية ***معكرة المياه*** لبلزاك؟ عندما انقطع المطر، قمتُ بجولة مشياً على الأقدام في محيط إيكول ميليتير، لأضيع الوقت.

رجعتُ إلى البيت قرابة الحادية عشرة، وكانت قد غادرت، تاركة المفاتيح في الصالة. لقد أخذت كل ملابسها في الحقيبتين اللتين نملكهما، وألقت الملابس القديمة أو الفائضة عن حاجتها في أكياس للقمامة: بعض الأحذية، وعدداً من التنانير الداخلية، وروباً بيتياً، وبعض الجوارب والبلوزات، وكثير من عبوات الكريم والمكياج. لكنها لم تمس النقود التي نحتفظ بها في صندوق صغير في خزانة الصالة.

أيكون شخصاً تعرفت عليه في نادي التمارين الرياضية في جادة

مونتيني؟ إنه نادٍ غالي التكاليف، يرتاده مسنون أثرياء يمكنهم أن يضمنوا لها حياة أكثر متعة وراحة. كنتُ أعرف أن أسوأ ما يمكن أن يحدث لي هو مواصلة تقليب احتمالات من هذا النوع، وأنه عليَّ، من أجل سلامتي الذهنية، أن أنساها بأسرع ما يمكن. لأن الفراق في هذه المرة نهائي حقاً، إنه نهاية قصة الحب هذه. أيمكن إطلاق تسمية «قصة حب» على هذا التهريج الذي استمر أكثر من ثلاثين سنة يا ريكارديتو؟

توصلتُ إلى عدم التفكير فيها كثيراً خلال الأيام، والأسابيع، والشهور التالية، حيث كنت أشعر بأني مجرد كيس عظام وجلد وعضلات، خالٍ من الروح، وأنا أقضي النهار كله في البحث عن عمل. ولأني كنتُ أعرف أن أفضل طريقة لاجتياز مثل هذا الوضع هي في الاستغراق في واجب ما بانكباب كامل.

لم أحصل خلال شهور إلا على بعض الترجمات سيئة الأجر. وأخيراً، اتصلوا بي في أحد الأيام لأعمل بديلاً لمترجم غائب في مؤتمر دولي حول حقوق المؤلف ترعاه اليونسكو. كنتُ أشعر منذ أيام بآلام عصبية، عزوتها إلى سوء حالتي المعنوية وقلة نومي. وعالجتها بالمسكنات التي كان يصفها لي الصيدلي الذي على الناصية. حلولي محل مترجم اليونسكو كان كارثة. فقد كانت الآلام العصبية تمنعني من إنجاز عملي كما يجب، فاضطررتُ بعد يومين إلى الاستسلام، وأوضحت لرئيس المترجمين ما الذي أعانيه. وشخَّص طبيب الضمان الاجتماعي حالتي بأنها إصابة بالتهاب الأذن، وأرسلني إلى طبيب اختصاصي. كان عليّ الانتظار عدة ساعات في مستشفى سالبيترير، والعودة عدة مرات، إلى أن تمكنت من الدخول إلى عيادة الدكتور بينو، اختصاصي الأذن والأنف والحنجرة. فأكد لي بأني مصاب بالالتهاب بسيط في الأذن، وعالجني منه خلال أسبوع. لكن

الآلام العصبية والدوار لم يتراجعا، فحوَّلني إلى طبيب أمراض داخلية آخر في المستشفى نفسه. وبعد أن أجرى هذا الطبيب الفحوص، طلب مني إجراء كل أنواع التحاليل، بما في ذلك المرنان المغناطيسي. ومازالت لدي ذكرى قبيحة جداً عن الثلاثين أو الأربعين دقيقة التي أمضيتها في ذلك الأنبوب المعدني، مدفوناً في الحياة، ودون حراك مثل مومياء، وأذناي تتعذبان بهبات ضجيج تبعث على الخبل.

وقد بيّن المرنان أنني كنت قد تعرضت إلى نزيف دماغي بسيط. وهذا هو السبب الحقيقي للآلام العصبية والدوار. لا وجود لأي خطر؛ لأن الخطر قد انقضى. وعليّ من الآن فصاعداً أن أهتم بنفسي، وأقوم بتمارين، وحمية متوازنة، وأراقب ضغطي، وأقلل من تناول الكحول، وأعيش حياة هادئة. «حياة متقاعد»، كما حدد الدكتور. يمكن لعملي أن يتقلص، ومن الممكن توقع تراجع في التركيز والذاكرة.

ومن حسن حظي أن الزوجين غرافوسكي قد جاءا في تلك الفترة لقضاء شهر في باريس، وجاء معهما جيلال هذه المرة. كان قد كبر كثيراً، وصار أمريكياً كاملاً بطريقته في الكلام واللبس. وعندما أخبرته بأننا، أنا والطفلة الخبيثة، قد انفصلنا، ظهر الحزن على وجهه، ودمدم: «لهذا لم تعد تردّ على رسائلي منذ بعض الوقت».

صحبة هؤلاء الأصدقاء كانت ملائمة جداً. فالتحدث معهم، والمزاح، والخروج لتناول العشاء، أو إلى السينما، أعادت إليّ شيئاً من حب الحياة. وفي إحدى الليالي، بينما نحن نتناول بيرة على رصيف أحد مقاهي بوليفار راسباي، قالت إيلينا فجأة:

ـ كادت تلك المجنونة أن تقتلك يا ريكاردو. وأنا التي كنت أجدها لطيفة بالرغم من كل حماقاتها. أما هذه الفعلة فلن أسامحها عليها. إنني أمنعك من العودة لمصالحتها.

ـ لن أفعل ذلك أبداً ـ أجبتُها ـ. لقد تعلمتُ الدرس. وفوق ذلك، بعد

أن أصبحتُ حطاماً بشرياً، لم يعد هناك أدنى احتمال في أن تعود للتدخل في حياتي.

ـ آلام الحب تتسبب إذن في حدوث نزف دماغي؟ ـ قال سيمون ـ أهي الرومانسية مرة أخرى؟

ـ في هذه الحالة، أجل، أيها البلجيكي الذي بلا روح ـ ردّت عليه إيلينا ـ. ريكاردو ليس مثلك. إنه رومانسي، رجل حساس. وكان يمكن لها أن تقتله بلعبتها الأخيرة. لن أسامحها أبداً، أقسم لك. وآمل منك أنت، يا ريكاردو، ألا تكون «كاكاسينو»[1] في الذهاب وراءها مثل كلب مطيع عندما تعاود الاتصال بكَ لتُخرجها من ورطة جديدة.

ـ من الواضح أنكِ تحبينني أكثر من الطفلة الخبيثة يا صديقتي ـ قبّلت يدها ـ. كما أن كلمة «كاكاسينو» تناسبني تماماً.

ـ جميعنا متفقون في هذا الرأي ـ أصدر سيمون حكمه.

ـ ما معنى «كاكاسينو»؟ ـ سأل الأمريكي الصغير.

ذهبتُ، بإلحاح من الزوجين غرافوسكي، إلى طبيب أعصاب، في عيادة خاصة في باسي. فقد أصر صديقاي على أنه يمكن للنزيف الدماغي، مهما كان بسيطاً، أن يؤدي إلى عواقب، ولا بد أن أعرف ما الذي عليّ عمله. فعمدتُ، دون أمل كبير، إلى طلب قرض جديد من مصرفي، كي أواجه فوائد الرهن والقرضين السابقين، وكانت المفاجأة أن المصرف وافق على منحي القرض. وضعتُ نفسي بين يدي الدكتور بيير جودريه، وهو رجل فاتن؛ ومهني قدير، حسب قدرتي على الحكم. أعاد إخضاعي إلى كل أنواع التحاليل، ووصف لي علاجاً لضبط الضغط الشرياني، والحفاظ على دوران دموي جيد. وفي

---

[1] كاكاسينو cacaseno: لفظة عامية يراد بها البلاهة والغباء

عيادته، في تلك الأيام، تعرفت على مارسيلا.

تلك الليلة، في نانتر، بعد انتهاء عرض مسرحية ***البرجوازي النبيل***، وذهابنا لتناول كأس نبيذ في أحد البارات، بدت لي مصممة الديكور الإيطالية لطيفة جداً، وأذهلتني الحماسة والقناعة اللتان تتحدث بهما عن عملها. روت لي حياتها، ومشاجراتها ومصالحاتها مع أبويها. وحدثتني عن الديكورات التي صممتها في مسارح إسبانية وإيطالية صغيرة. وكان تصميم مسرحية نانتر أحد أول أعمالها في فرنسا. وفي إحدى اللحظات، وسط ألف حكاية، أكدت لي أن أفضل الديكورات المسرحية التي رأتها في باريس لم تكن في المسارح، وإنما في واجهات المتاجر. هل أرغبُ في القيام بجولة كي تفارقني ملامح الشك التي بدت على وجهي مما أسمعه؟

ودّعتها عند محطة المترو بقبلات على الخدين، واتفقنا على اللقاء يوم السبت التالي. كانت الجولة ممتعة جداً، ليس بسبب واجهات المتاجر التي أخذتني لرؤيتها، وإنما لما قدمته لي من شروح وتفسيرات. لقد أثبتت لي، على سبيل المثال، في تلك المساحة الرملية ذات النخيل، والنور الأبيض في واجهة محلات لاساماريتين، مناسبة تماماً لمسرحية ***آه، الألعاب الجميلة!*** لبيكيت. والمظلة الحمراء المتوقدة أمام مطعم عربي في مونبارناس تنفع ستارة خلفية لمسرحية ***أورفيو في العالم السفلي***، وواجهة محل أحذية شعبية بالقرب من كنيسة سان بول، في حي ماريه، تصلح لأن تكون بيت جيبيتو في اقتباس مسرحي لـ ***بينوكيو***. كل ما كانت تقوله كان عبقرياً، ملهماً. وكنت أشعر بالمتعة والبهجة لحماستها وسعادتها. وخلال العشاء في مطعم بتي بيرغوردين، في شارع إيكولي، قلت لها إنها تروقني وقبّلتها. واعترفت لي هي بأنها أدركت، منذ اليوم الذي تبادلنا فيه الحديث في قاعة الانتظار في عيادة باسي، أن «شيئاً ما قد حدث في ما بيننا».

وأخبرتني بأنها قد عاشت حوالي سنتين مع ممثل، وأنهما قطعا علاقتهما منذ وقت قريب، لكنهما ظلا صديقين جيدين.

ذهبنا إلى شقتي الصغيرة في شارع جوزيف غرانيه، ومارسنا الحب. لها جسد ضئيل، ونهدان حساسان، وقد كانت رقيقة، متأججة، وبلا تعقيدات. تفحصت كتبي وأنبتني لأنه لا يوجد لدي سوى كتب الشعر والروايات وبعض الدراسات، ولا وجود لأي كتاب مسرحي. ستتولى هي مساعدتي في ملء هذا الفراغ. وأضافت: «لقد دخلتَ إلى حياتي في اللحظة المناسبة أيها الغالي». كانت لها ابتسامة واسعة، لا يبدو أنها تظهر من خلال عينيها وفمها وحسب، وإنما من خلال جبهتها، وأنفها، وأذنيها كذلك.

كان على مرسيلا أن ترجع إلى إيطاليا بعد يومين، من أجل عمل محتمل في ميلان، وقد رافقتها إلى المحطة، لأنها سافرت في القطار (لديها رعب من الطائرة). تبادلنا الحديث بالهاتف عدة مرات، وعندما عادت إلى باريس، جاءت إلى بيتي بدل أن تذهب إلى الفندق الصغير في الحي اللاتيني، حيث كانت تقيم. أحضرت معها كيساً فيه حفنة من البنطلونات، والبلوزات، والكنزات، والسترات المجعدة، وصندوق كتب، ومجلات، ومجسمات وماكيتات لتصاميمها.

استقرار مرسيلا في حياتي جرى بسرعة لم أجد معها الوقت للتفكير في الأمر، وللتساؤل إذا ما كنت أقوم بخطوة متسرعة. أولم يكن من التعقل الانتظار قليلاً، والتعارف بصورة أفضل، ورؤية إذا ما كانت العلاقة ستستمر؟ فهي في نهاية المطاف صبية صغيرة، ويمكن لي أن أكون بعمر أبيها. ولكن العلاقة استمرت، بفضل طريقتها في التلاؤم، وبساطة أهوائها، واستعدادها لإبداء البشاشة في مواجهة أية عقبات. ما كان بإمكاني القول إنني أحبها، أو إنني أحبها على الأقل مثلما أحببت الطفلة الخبيثة، لكنني كنت أشعر بالراحة وأنا إلى

جانبها، وبالامتنان لأنها معي، بل ومغرمة بي. إنها تبعث فيَّ روح الشباب، وتساعدني على دفن الذكريات.

هكذا كانت تخرج لمارسيلا، بين حين وآخر، بعض التكليفات: إعداد تصاميم ديكور في مسارح أحياء، مدعومة من البلديات. وعندئذ، كانت تنهمك بصورة محمومة في عملها، حتى إنها تنسى أنني موجود. أما أنا فكنت أواجه في كل يوم مزيداً من المصاعب في الحصول على ترجمات. كنتُ قد تخليت عن الترجمة الفورية، إذ لم أعد أشعر بأنني قادر على ممارسة هذا العمل بالثقة السابقة بالنفس. وربما لأن الأخبار حول مشاكلي الصحية قد انتشرت في أوساط الترجمة، صاروا يقللون أكثر فأكثر من تكليفي بترجمة نصوص. وما كنتُ أتمكن من الحصول عليه يستغرق مني وقتاً طويلاً، لأنني بعد ساعة أو ساعة ونصف من العمل، تعاودني آلام الرأس والدوار. وفي الشهور الأولى من حياتي المشتركة مع مارسيلا، تقلص دخلي حتى العدم تقريباً، وعدت أجد نفسي في ضيق لدفع الرهن وفوائد القروض.

مدير مكتب السوسيته جنرال الذي أوضحتُ له المشكلة، قال لي إن الحل هو في بيع الشقة. فقد ارتفعت قيمتها، ويمكن لي أن أحصل على سعر جيد يوفر لي، بعد تصفية الرهن والديون، مبلغاً يغطي نفقاتي الضرورية لوقت لا بأس به، إذا تصرفت بحذر. تداولت في الأمر مع مارسيلا، وشجعتني هي أيضاً على بيع الشقة. وأن أُخرج من رأسي القلق من تلك الأقساط التي تؤرقني كل شهر. «لا تخف من المستقبل أيها الغالي. قريباً سأبدأ بالحصول على أجور جيدة. وإذا لم يبق معنا نقود، سنذهب إلى بيت أبوي، في روما. ونقيم في غرفة على السطح، كنتُ في صغري أقدم فيها عروض شعوذة وسحر لأصدقائي، ومازلتُ أحتفظ فيها بكل أنواع الترهات. وستكون هناك

على أحسن حال مع أبي، فهو في مثل سنك تقريباً». يا للمستقبل الذي ينتظرك يا ريكارديتو.

تطلب منا بيع الشقة بعض الوقت. صحيح أن سعرها قد ازداد ثلاثة أضعاف، لكنّ الراغبين في الشراء الذين تأتي بهم الوكالات العقارية يُبدون التردد، يطلبون تخفيضاً في السعر، أو إجراء إصلاحات. وقد طالت الأمور قرابة ثلاثة أشهر. وأخيراً، توصلتُ إلى اتفاق مع موظف في وزارة القوات المسلحة، وهو سيد متأنق بتكلف يضع نظارة مونكل. عندئذ بدأت الإجراءات المملة مع كتّاب العدل والمحامين، وبيع الأثاث. في اليوم الذي وقّعنا فيه عقد البيع ونقلنا الملكية، ولدى خروجي من مكتب الكاتب بالعدل، في أحد الشوارع المتقاطعة مع جادة سوفرين، توقفت سيدة حين رأتني فجأة، وراحت تنظر إليّ. ودون أن أتعرف إليها، حييتها بانحناءة من رأسي.

ـ أنا مارتين ـ قالت بجفاء، دون أن تمد لي يدها ـ ألم تتذكرني؟

ـ لقد كنت ساهياً ـ قلتُ معتذراً ـ. إنني أتذكركِ جيداً بالطبع. كيف حالك يا مارتين؟

ـ وكيف سأكون. إنني في أسوأ حال ـ ردّت هي. وكان الاستياء يمرمر وجهها. ولم ترفع بصرها عني وهي تضيف ـ: ولكن، عليك أن تعلم أنني لن أسمح لأحد بأن يدوسني. فأنا أعرف جيداً كيف أدافع عن نفسي. أؤكد لك أن هذا الأمر لن يمر هكذا.

كانت امرأة طويلة القامة ونحيفة، ذات شعر رمادي. وكانت ترتدي واقياً مطرياً وتتفحصني كأنها ترغب في أن تكسر على رأسي المظلة التي تحملها في يدها.

ـ لا أدري عمَ تتكلمين يا مارتين. هل تعرضتِ لمشاكل مع زوجتي؟ إننا مفصلان منذ بعض الوقت، ألم تخبرك بذلك؟

أصابها البكم، وتفحصتني مذهولة. لقد كان زوجها يقول لها

إنني أبدو كائناً غريباً جداً.

ـ أنت لا تعرف أي شيء إذاً؟ ـ دمدمت المرأة ـ أنت تعيش في السحاب إذاً؟ مع من تظنها ذهبت تلك الذبابة الميتة؟ ألا تعلم أنها ذهبت مع زوجي؟

لم أعد أعرف بماذا أجيبها. أحسست أنني مغفل، وأنني كائن غريب، أجل. وبذلتُ جهداً كبيراً لأهمس:

ـ لا، لم أكن أعرف. لقد قالت لي إنها ستذهب، وذهبت. ولم أعد أعرف شيئاً عنها. آسف جداً يا مارتين.

ـ أنا قدمتُ لها كل شيء: العمل، الصداقة، ثقتي، وغضضتُ النظر عن مسألة وثائقها التي لم تكن واضحة تماماً قط. فتحتُ لها بيتي. وهكذا كافأتني باختطاف زوجي. ليس لأنها أحبته، وإنما بدافع الجشع. من أجل المنفعة فقط. ولم يقلقها تدمير أسرة كاملة.

بدا لي أنني إذا لم أنصرف، فسوف تصفعني مارتين باعتباري مسؤولاً عن كارثتها العائلية. وكان صوتها مشروخاً من السخط.

ـ أنبهكَ إلى أن هذا الأمر لن يستمر على هذا النحو ـ كررت وهي تهز المظلة على بعد سنتمترات من وجهي ـ. أبنائي لن يسمحوا بذلك. فهي لا تريد سوى الاستيلاء على ثروته، وهذه هي حقيقتها: إنها صيادة ثروات. لقد بدأ أبنائي الإجراءات القانونية، وسوف يوصلونها إلى السجن. أما أنت، فقد كان من الأفضل لك أن تنتبه قليلاً إلى امرأتك.

ـ آسف جداً، يجب أن أذهب، فهذا الحديث لا معنى له ـ قلت لها ذلك وأنا أبتعد بخطوات واسعة.

وبدلاً من أن أرجع لإحضار مارسيلا التي كانت تنقل إلى المستودع أمتعة البيت التي لم نستطع بيعها، ذهبتُ للجلوس في أحد مقاهي منطقة إيكول ميليتير. حاولتُ أن أرتب أفكاري. لا بد أن ضغطي قد ارتفع قليلاً، لأني أحسست بالاحتقان والتشوش. لم أكن أعرف زوج

مـارتين، لكـنني كنـت أعـرف أحـد أبنائهـا، وهـو رجـل مكتمـل الرجولـة، رأيتـه بصـورة عـابرة مـرة واحـدة. ولا بـد أن ضـحية الطفلـة الخبيثة الجديد أن يكون متقدماً جداً في السـن، أي أنـه رجل عجوز مثلما تصورت. إنها لم تقع في حبه طبعاً. بل إنها لم تحب أحداً قط، ربما باستثناء فوكودا. وقد فعلت ذلك للهرب من ضجر الحياة وتفاهتها في شقتي في حي إيكول ميليتير، والبحث عما كان أولى أولوياتها منذ أن اكتشفت، وهي طفلة، حياة الكلاب التي يعيشها الفقراء، والرفاهية التي يعيشها الأغنياء: ذلك الأمان الذي لا توفره إلا الأموال. لقد منّت نفسها مرة أخرى بسراب الرجل الثري؛ وبعد أن سمعتُ مارتين تقول، بنبرة مأساة إغريقية: «أبنائي بدؤوا الإجراءات القانونية»، صار من المؤكد أن الأمور في هذه المرة أيضاً لن تسير مثلما تظن هي. كنت أشعر بالحقد عليها، لكنني الآن، وأنا أتخيلها مع ذلك العجوز، بدأت أشعر نحوها بشيء من الشفقة أيضاً.

وجدتُ مارسيلا مستنفدة. كانت قد أرسلت الشاحنة إلى المستودع وفيها الأشياء التي لم نستطع بيعها، وبعض صناديق الكتب. جلستُ على أرض الصالة، ورحت أتفحص الجدران والمكان الفارغ بحنين. ذهبنا للإقامة في فندق صغير في شارع شيرش -ميدي. وقد عشنا هناك شهوراً طويلة، إلى أن انتقلنا إلى إسبانيا. استأجرنا في الفندق غرفة صغيرة وجيدة الإضاءة، لها نافذة كبيرة تظهر من خلالها الأسطح المجاورة، وتأتي الحمائم إلى إفريزها لتأكل حبات الذرة التي تضعها لها مارسيلا (أما أنا فعليّ تنظيف ذرقها). وسرعان ما امتلأت الغرفة بالكتب والأسطوانات، وأكثر من ذلك بالرسوم والمجسمات. كانت هناك منضدة طويلة، نتقاسمها نظرياً، لكن مارسيلا تشغل معظمها، في الواقع. وفي هذه السنة، واجهتُ صعوبة أكبر في الحصول على تكليفات بالترجمة. كنت قد وضعت النقود المتبقية من

ثمن الشقة في حساب ثابت، بحيث أتقاضى مبالغ شهرية صغيرة تفرض علينا أن نعيش حياة شديدة التواضع. اضطررنا إلى إلغاء التردد على المطاعم الغالية، والحفلات الموسيقية، وإلى عدم الذهاب إلى السينما أكثر من مرة كل أسبوع، والاقتصار على العروض المسرحية التي تحصل مارسيلا على بطاقات دعوة إليها. ولكن العيش بلا ديون كان مريحاً.

ولدت فكرة انتقالنا إلى إسبانيا عندما دعيت فرقة رقص حديث إيطالية، من باري، لتقديم عرض في مهرجان غرناطة، وكانت مارسيلا قد عملت مع الفرقة من قبل، وطلبت الفرقة منها أن تتولى تصميم الديكور والإضاءة لعرضها. فسافرت معها، ورجعت بعد أسبوعين مفتونة. لقد سار عرض الفرقة على أحسن ما يرام، وقد تعرفت هناك على أناس يعملون في المسرح، وفتحوا أمامها بعض الإمكانات للعمل. وفي الشهور التالية، نفذت أعمال الديكور لفرقتين شبابيتين، إحداهما في مدريد والأخرى في برشلونة، وعادت من الرحلتين إلى باريس ممتلئة بالنشوة. كانت تقول إن إسبانيا تشهد حيوية ثقافية استثنائية، وإن البلاد بأسرها تغص بمهرجانات ومخرجين وممثلين وراقصين وموسيقيين متلهفين لتطوير المجتمع الإسباني، وتحقيق أشياء جديدة. وإن هناك مجالاً أكثر اتساعاً للشباب مما هو عليه في فرنسا، حيث الوسط أكثر من مشبع. كما أن تكاليف الحياة في مدريد أرخص بكثير من باريس.

لم يحزني ترك المدينة التي كنت، منذ طفولتي، أربطها بفكرة الفردوس. لقد عشتُ خلال سنواتي في باريس تجارب استثنائية، من تلك التي يبدو أنها تشكل مسوغاً لحياة كاملة، لكن تلك التجارب كلها مرتبطة بالطفلة الخبيثة التي كنت أتذكرها، آنذاك، دون مرارة على ما أظن، بل بشيء من الحنان دون شك، مدركاً تماماً أنني

كنت المتسبب، أكثر منها، في تعاستي العاطفية؛ لأني أحببتها بطريقة لا يمكن لها هي أن تحبني بمثلها أبداً، بالرغم من أنها حاولت ذلك في بعض المناسبات القليلة. هذه هي ذكرياتي المجيدة عن باريس. أما الآن، وبعد إغلاق تلك القصة بصورة نهائية، فإن حياتي المستقبلية في هذه المدينة ستكون انحداراً بطيئاً يزيد من حرجهِ انعدام العمل، وشيخوخة ضيقٍ مادي وتوحد عندما تجد **الغالية** مارسيلا أن لديها أشياء أخرى تفعلها أفضل من حمل رجل متقدم في السن على كاهلها، رجل مصاب بوهن في الدماغ، ويمكن له أن يتحول في أي لحظة إلى خرف - وهي كلمة مهذبة للقول إنه مجنون - إذا ما عاوده النزف الدماغي. من الخير لي أن أغادر باريس وأبدأ الحياة في مكان آخر.

عثرت مارسيلا على الشقة في لافابيّس، ولأن أصحابها يؤجرونها مع الأثاث، فقد انتهيت إلى إهداء بقايا الأثاث التي في المستودع إلى جمعيات خيرية، وكذلك كتب مكتبتي الخاصة. ولم أحمل معي إلى مدريد سوى حفنة من العناوين المفضلة، معظمها بالروسية والفرنسية، وكتب النحو والمعاجم.

بعد سنة ونصف السنة من العيش في مدريد، راودني هاجس أن مارسيلا ستقوم الآن بقفزتها الكبرى. ففي مساء أحد الأيام، جاءت منفعلة إلى مقهى باريري لتخبرني بأنها تعرفت على راقص ومصمم رقصات رائع، وأنهما سيعملان معاً في مشروع عظيم: ***التحول***، عمل باليه حديث مستوحى من أحد النصوص التي جمعها بورخيس في كتابه ***مرجع في الحيوانات الخرافية***، وهو نص «آ باو آ كو»، أسطورة التقطها أحد مترجمي ***ألف ليلة وليلة*** الإنكليز. والشاب الراقص من أليكانتي، درس في ألمانيا، حيث عمل بمهنية إلى ما قبل وقت قصير. وقد جمع الآن فريقاً من عشرة راقصين، خمس نساء

وخمسة رجال، وصمم العرض التعبيري الراقص *التحول*. وموضوع النص الذي ترجمه، وربما أغناه، بورخيس، يتناول قصة حيوان عجيب يعيش في أعلى برج في حالة سبات، لا يستيقظ إلى الحياة الفاعلة إلا عندما يصعد أحدٌ سلالم البرج. وله قدرة على التحول، فعندما يكون هناك من ينزل أو يصعد على السلالم، يبدأ الحيوان بالتحرك، وإضاءة هيئته، وتبديل شكله ولونه. وكان الشاب الأليكانتي، ويدعى فيكتور ألميدا، قد وضع تصوراً للاستعراض، طوّر فيه تلك الأعجوبة، بجعل الراقصين والراقصات الذين يصعدون وينزلون السلالم التي ستصممها مارسيلا، وبفضل مؤثرات الإضاءة التي ستتولاها هي أيضاً، يأخذون بالتحول في مظهرهم، في حركتهم، في ملامحهم، إلى أن تتحول منصة المسرح إلى عالم صغير، كل راقص فيه يتعدد إلى كثيرين، ويتضمن كل رجل وكل امرأة ما لا حصر له من الكائنات البشرية. صالة أولمبيا، وهي دار سينما قديمة تحولت إلى مسرح في ساحة لافابييس، حيث يعمل المركز الوطني للتوجهات المسرحية الجديدة، وافقت على اقتراح فيكتور ألميدا، وسوف ترعى الاستعراض.

لم أرَ مارسيلا من قبل تعمل بمثل تلك السعادة في إعداد الديكور كما في هذه المرة، ولا تعكف على وضع هذا القدر من الرسوم التخطيطية والمجسمات. في كل يوم تحدثني بابتهاج عن سيل الأفكار الذي يضج في رأسها، وعن التقدم الذي تحققه الفرقة. اصطحبتها مرتين إلى صالة أولمبيا المتداعية، وفي مساء أحد الأيام تناولنا قهوة في الساحة نفسها مع فيكتور ألميدا، وهو شاب شديد السمرة، له شعر طويل يربطه كذيل فرس، وجسد رياضي يكشف عن قضاء ساعات طويلة في نادي التمارين الرياضية وتدريبات الرقص. وخلافاً لمارسيلا، لم يكن مفرط الحماسة والتدفق في التعبير عما

يجول في نفسه، بل هو أقرب لأن يكون متحفظاً؛ لكنه يعرف ما الذي يريد عمله في الحياة. وما كان يريده هو أن يكون استعراض *التحول* نجاحاً باهراً. وكان يتمتع بثقافة أدبية وشغف ببورخيس. ومن أجل هذا العمل، قرأ وشاهد ألف شيء حول موضوع التحول، بدءاً من أوفيد. والحقيقة أن ما يقوله، بالرغم من قلة كلامه، ينم عن الذكاء، وكذلك عن الجدة بالنسبة إليّ؛ فأنا لم أسمع من قبل مصمم رقصات وراقصاً يتكلم عن ميوله الفنية. وفي تلك الليلة، في البيت، بعد أن أخبرت مارسيلا بالانطباع الطيب الذي خلّفه فيكتور ألميدا لدي، سألتها إذا ما كان مثلياً. ردّت باستياء. إنه ليس كذلك، ويا للحكم المسبق الأحمق الذي يعتقد أن كل راقص هو «غاي». وهي متأكدة، على سبيل المثال، من أن هناك في نقابة التراجمة الفوريين والمترجمين نسبة من المثليين تساوي ما هو بين الراقصين. اعتذرتُ منها، وأكدت لها أنه ليس لدي أي حكم مسبق، وأن سؤالي كان بدافع الفضول، دون أية خلفية أخرى.

النجاح الذي حققه استعراض *التحول* كان ساحقاً، وبجدارة. كان فيكتور ألميدا قد حصل على شعبية واسعة مسبقاً، وفي ليلة الافتتاح غصت صالة أولمبيا حتى الازدحام، بل كان هناك أناس واقفون، وكان معظم الحضور من الشباب. السلالم التي يتحرك عليها أزواج الممثلين الخمسة، كانت تتحول مثل الراقصين، وكانت، كما الإضاءة، هي البطل الحقيقي في الاستعراض. لم تكن هناك موسيقى. فالإيقاع يُحدثه الراقصون أنفسهم بأيديهم، بأقدامهم، وبمحاكاتهم لأصوات حادة، أو غرغرات، أو شخير أو صفير، حسب التبدل الذي يطرأ على شخصياتهم. وكان الراقصون أنفسهم يضعون، بالتناوب، لوحات أمام كشافات الإضاءة، تبدل كثافة الضوء ولونه. وبفضل هذا التلاعب بالإضاءة، كانت الشخصيات تبدو متموجة فعلاً،

كما لو أنها تبدل جلدها. كان عملاً جميلاً، مفاجئاً، تخيلياً. عرضٌ لساعةٍ ظل الجمهور خلالها دون حراك، منتظراً، دون أن يُسمع طنين ذبابة. كان مقرراً أن تقدم الفرقة خمسة عروض، لكنها انتهت إلى تقديم عشرة. وظهرت مقالات إيجابية جداً في الصحافة، وجميعها كانت تنوه، بإطراء، بديكور مارسيلا. وصوّر التلفزيون العمل لبث مقاطع منه في برنامج مخصص للفنون.

ذهبت لمشاهدة الاستعراض ثلاث مرات. وفي كل مرة كنت أجد الصالة تغص بالجمهور، وتضج بالحماسة كما في يوم الافتتاح. وفي المرة الثالثة، بعد انتهاء العرض، وبينما أنا أصعد درج صالة أولمبيا المتعرج للوصول إلى حجرات الممثلين بحثاً عن مارسيلا، وجدتُ نفسي وجهاً لوجه تقريباً معها، وهي بين ذراعي فيكتور الميدا الرشيق والمتعرق. كانا يتبادلان القبلات بشيء من الاحتدام، وعندما رأياني، تباعدا بارتباك شديد. تظاهرتُ بأني لم أر شيئاً غريباً، وهنأتهما مؤكداً لهما أن العرض أعجبني أكثر من المرتين السابقتين.

في ما بعد، وبينما نحن في الطريق إلى البيت، واجهتني مارسيلا التي لاحظتُ أنها مرتبكة جداً، وقالت لي:

ـ حسن، أعتقد أنني مدينة لك بتفسير لما رأيته.

ـ لستِ مدينة لي بأي تفسير يا مارسيلا. أنت شخص حر، وأنا أيضاً. عشنا معاً وكنا على علاقة جيدة. ولكن، يجب ألا يحدّ ذلك من حريتنا. ولن نتحدث أكثر في هذه المسألة.

ـ أريدك أن تعرف فقط أنني آسفة ـ قالت لي ـ حتى لو كانت المظاهر تقول شيئاً آخر، إلا أنني أؤكد لك أنه لم يحدث أي شيء مطلقاً بيني وبين فيكتور. ما جرى هذه الليلة كان مجرد حماقة بلا أهمية. ولن تتكرر.

ـ أصدقك ـ قلت لها وأنا أمسك يدها، فقد أحزنتني رؤيتها تشعر

بالذنب ـ انسَي كل هذا. ولا تظهري هذا الوجه، أرجوكِ. إنك جميلة، لاسيما عندما تبتسمين.

وبالفعل، لم نعد في الأيام التالية إلى التحدث في الموضوع، وبذلت هي جهداً كبيراً كي تبدو محبة وحانية. والحقيقة أنني لم أتأثر كثيراً لمعرفتي باحتمال وجود علاقة عاطفية بين مارسيلا ومصمم الرقصات الأليكانتيّ. فأنا لم أبنِ أوهاماً كبيرة حول استمرارية علاقتنا. وأنا أعرف الآن، فوق ذلك، أن حبي لها، إذا كان هذا حباً، هو عاطفة سطحية إلى حدّ بعيد. لم أشعر بأنني مجروح أو مهان؛ وإنما شعرت بالفضول لمعرفة متى سيكون عليّ أن أنتقل لأعيش وحيداً من جديد. وبدأت أتساءل منذئذ إذا ما كنت سأبقى في مدريد أو أنني سأرجع إلى باريس. بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من ذلك، أخبرتني مارسيلا بأن فيكتور ألميدا قد تلقى دعوة لتقديم ***التحول*** في فرانكفورت، في مهرجان للرقص الحديث. وهي فرصة مهمة كي يُعرف عملها في ألمانيا. فما هو رأيي؟

ـ رائع ـ قلت لها ـ. وأنا واثق من أن استعراض ***التحول*** سيحقق نجاحاً كبيراً هناك كالذي حققه في مدريد.

ـ وأنت ستأتي معي طبعاً ـ سارعت هي إلى القول ـ. وهناك يمكنك مواصلة ترجماتك و...

لكنني داعبتها بحنان، وقلت لها ألا تكون حمقاء وتبدي هذا الغم على وجهها. فأنا لن أذهب إلى ألمانيا، لأننا لا نملك نقوداً. وسأبقى في مدريد لأعمل في ترجماتي. وإنني أثق بها. فلتُعدّ العدة لرحلتها وتنسَ كل ما عدا ذلك، لأن هذه الرحلة قد تكون حاسمة لمستقبلها. خرجت من عينيها بعض الدموع وهي تعانقني وتقول في أذني: «أقسم لك إن تلك الحماقة لن تتكرر أبداً، ***يا غالي***»

«أعرف ذلك، أعرف ذلك يا ***بمبينا***»، وقبّلتها.

في اليوم الذي سافرت فيه مارسيلا إلى فرانكفورت، بالقطار ـ وقد ذهبتُ لوداعها في محطة أتوتشا ـ، جاء فيكتور أليدا، كان عليه أن يسافر بعد يومين مع بقية الفرقة بالطائرة، وطرق باب الشقة في شارع آفي ماريا. كانت الجدية بادية على وجهه، كما لو أن قضايا عميقة تنهشه. توقعتُ أنه آت ليقدم لي تفسيراً لواقعة الأولمبيا، واقترحت عليه أن نتناول قهوة في باربيري.

الحقيقة أنه كان قادماً ليقول لي إنه ومارسيلا متحابان، وإنه يرى أن واجبه الأخلاقي يفرض عليه إطلاعي على الأمر. فمارسيلا لا تريد لي أن أتألم، ولهذا تضحي بالبقاء معي، على الرغم من أنها تحبه هو. وهذه التضحية ستؤثر على حياتها المهنية، فضلاً عن أنها تسبب لها التعاسة.

شكرته على صراحته وسألته إذا ما كان يريد مني، بإطلاعي على كل هذا، أن أحل لهما المشكلة.

ـ حسن ـ تردد هنيهة ـ، أجل، هذا ما أريده بطريقة ما. فإذا لم تبادر حضرتك، لن تستطيع هي المبادرة أبداً.

ـ ولماذا عليّ أن أبادر إلى قطع العلاقة مع فتاة أشعر نحوها بمودة كبيرة؟

ـ بدافع الكرم، الإيثار ـ قال في الحال، بوقار مسرحي مبالغ فيه، مما جعلني أرغب في الضحك ـ. لأنك رجل شهم. ولأنك تعرف الآن أنها تحبني أنا.

في هذه اللحظة انتبهت إلى أن مصمم الرقصات يعاملني بكلفة، بينما كنا في اللقاءات السابقة نتعامل برفع الكلفة بيننا. أيريد أن يذكرني، بهذه الطريقة، بالعشرين سنة التي أكبر بها مارسيلا؟

ـ أنت لست صريحاً معي يا فيكتور ـ قلت له ـ. اعترف لي بالحقيقة كلها. هل اتفقت أنت ومارسيلا على زيارتك هذه؟ هل طلبت هي منك أن تتحدث إليّ لأنها لا تتجرأ على فعل ذلك؟

رأيته يتململ في المقعد، وينفي بحركة من رأسه. لكنه عندما فتح فمه، أكد:

ـ لقد اتفقنا معاً ـ قال معترفاً ـ. إنها لا تريدك أن تتألم. وهي تعاني من كل أشكال تأنيب الضمير. لكنني أقنعتها بأن الوفاء الأول يجب ألا يكون نحو ما يقوله الآخرون وإنما نحو المشاعر.

كنتُ على وشك أن أقول له إن ما قاله للتو هو عبارة متكلفة، وأن أشرح له معنى هذا التعبير البيروي[1]، لكنني لم أفعل، لأني كنت قد ضجرتُ منه وأريده أن ينصرف. طلبتُ منه أن يتركني وحيداً لأفكر في كل ما قاله. وأنني سأتخذ في أقرب وقت قراراً بهذا الشأن. تمنيت له النجاح في فرانكفورت، وشددتُ على يده. الحقيقة أنني كنت قد صممت على ترك مارسيلا مع راقصها والعودة إلى باريس. وعندئذ حدث ما لا بد من حدوثه.

فبعد يومين، وبينما أنا أعمل مساء في مكاني المعهود، في أقصى مقهى باربيري، جلست هيئة نسائية، فجأة، في مواجهتي إلى المنضدة.

ـ لن أسألك عما إذا كنت لا تزال تحبني، لأني أعرف أنك لم تعد كذلك ـ قالت الطفلة الخبيثة ـ. يا قاتل الأطفال.

كانت المفاجأة كبيرة إلى حدّ لم أعرف معه كيف أوقعتُ زجاجة الماء نصف الممتلئة على الأرض، فتهشمت إلى فتات ولطخت بمائها شاباً على المنضدة المجاورة مزيناً بوشم، له شعر كشوك القنفذ. وبينما النادلة الأندلسية منهمكة في رفع قطع الزجاج، كنت أتفحص السيدة التي انبعثت فجأة، بصورة غير متوقعه، وبعد ثلاث سنوات، في اللحظة والمكان غير المتوقعين: مقهى باربيري في حي لافابييس.

---

[1] يستخدم المؤلف على امتداد الرواية بعض العبارات والكلمات المحلية البيروية، والتعبير الذي يشير إليه هنا هو huachafería بمعنى كلام مزوق فيه تكلّف، كما هي عبارات الغزل المشغولة بتصنع التي يقولها للطفلة الخبيثة كلما التقى بها.

بالرغم من أننا كنا في أواخر شهر أيار، وكان الجو حاراً، إلا أنها كانت ترتدي سترة ربيعية زرقاء اللون، فوق بلوزة بيضاء مفتوحة، وتتدلى من عنقها سلسلة ذهبية. المكياج الدقيق لم يخفِ ملامح الاعتلال في وجهها، والعظام البارزة في وجنتيها والانتفاخات الصغيرة حول عينيها. لقد مضت ثلاث سنوات فقط، لكنها بدت كمن كبرت عشر سنوات. لقد كانت عجوزاً. وبينما الفتاة الأندلسية تنظف الأرض، كانت هي تقرع المنضدة بيديها اللتين بدت أظفارهما مشذبة بعناية ومطلية، كما لو أنهما خرجتا للتو من بين يدي خبير المانيكور. كانت أصابعها قد طالت ونحُلت. وكانت تنظر إليّ دون أن ترمش، دون سخرية، وتريد - يا لداهية الدواهي! - أن تحاسبني على سلوكي:

- ما كنتُ لأصدق أبداً أنه يمكن لك أن تعيش مع بنت مخاطية يمكن لها أن تكون ابنتك - كررت بسخط، ثم أضافت -: وهي فوق ذلك هيبية، لا تستحم أبداً بكل تأكيد. يا للدرك الذي انحدرت إليه يا ريكاردو سوموكورثيو.

راودتني رغبة في أن أضغط على عنقها، وأنفجر مقهقهاً. لا، ليس مزاحاً، إنها تفتعل لي مشهد غيرة! أجل، هي تفتعله لي!

- أنتَ في الثالثة والخمسين أو الرابعة والخمسين، أليس كذلك؟ - واصلت الكلام وهي تنقر طوال الوقت على المنضدة -. وكم عمر هذه اللوليتا؟ عشرون سنة؟

- ثلاث وثلاثون - قلتُ لها - ولكنها تبدو أصغر في الحقيقة. لأنها فتاة سعيدة، والسعادة تمنح الناس شباباً. أما أنتِ بالمقابل فلا تبدين سعيدة.

- أتراها تستحم يوماً؟ - قالت مغتاظة -. أم أنك اعتدت في الشيخوخة على هذا، على القذارة؟

- لقد تعلمتُ من *الياكوزا* فوكودا - قلتُ لها -. وتبين لي أن للقذارة فضائلها أيضاً في الفراش.

ـ إذا كنت راغباً فـي معرفة شعوري، فأنـا أكرهـك فـي هـذه اللحظـة مـن أعمـاق روحـي، وأتمنـى لـك المـوت ـ قالـت هـي بخِسـة. ولم تكن قد رفعت عينيها عني، دون أن ترمش ولو مرة واحدة.

ـ يمكن لمن لا يعرفكِ أن يظن أنكِ غيورة حقاً.

ـ إذا ما كان يهمك أن تعرف، فأنـا كـذلك فعـلاً. لكنني أشعر قبل أي شيء آخر بخيبة أمل منك.

أمسكتُ يدها وأجبرتها على الاقتراب قليلاً، كـي أقول لها دون أن يسمعنا جارنا ذو الشعر القنفذي والوشم:

ـ ما معنى هذا التهريج؟ ماذا تفعلين هنا؟

غرست أظفارها فـي يدي قبل أن تـردّ علـيّ. وقالت خافضة صوتها أيضاً:

ـ أنـت لا تعـرف مـدى أسفـي لأنـي بحثـت عنـك طـوال هـذا الوقـت. لكنني أعـرف أن هـذه الهيبيـة ستجعلك تعـاني معانـاة قابيـل، وسـوف تُركِّب لك قروناً، وتهجرك مرمياً مثل خرقة متسخة. ولـن تعـرف كـم سيسعدني ذلك.

ـ إنـني متـدرب تمامـاً علـى هـذا كلـه أيتهـا الطفلـة الخبيثـة. فـي موضوع القرون والهجران، أعرف ما تجب معرفته وأكثر.

أفلتُ يدها، لكنها عادت هي لتمسك بيدي.

ـ كنت قد أقسمت بيني وبين نفسي ألا أذكر أي شيء عن هذه الهيبية ـ قالت ملطفة صوتها وملامحها ـ لكنني لم أستطع كبح نفسي فور رؤيتي لك. مازلتُ أشعر بالرغبة في خمشك. كن شهماً واطلب لي شاياً.

استدعيتُ النادلة الأندلسية وحاولت أن أفلت يدي، لكـن يـدها كانت لا تزال متشبثة بها.

ـ أتحب هذه الهيبية المقرفة؟ ـ سألتني ـ. أتحبها أكثر مما كنت تحبني؟

ـ لا أظن أنني أحببتك يوماً ـ أكدتُ لها ـ. لقد كنتِ بالنسبة إلي ما كانه فوكودا بالنسبة إليك: مرض. وقد شفيتُ الآن منه، بفضل مارسيلا.

تفحصتني هنيهة، دون أن تفلت يدي، وابتسمت بسخرية لأول مرة بينما هي تقول:

ـ لو لم تكن تحبني لما بدا عليك هذا الشحوب، ولما انكسر صوتك. ألن تبدأ بالبكاء يا ريكارديتو؟ لأنك بكّاء كبير، إذا لم تخني الذاكرة.

ـ أعدك أن لا. لكنها عادتك اللعينة في الظهور فجأة، مثل كابوس، في لحظات لا تخطر على البال. لم أعد أجد ذلك ممتعاً. الحقيقة أنني لم أكن أنتظر رؤيتك إلى الأبد. ما الذي تريدينه؟ ما الذي تفعلينه هنا في مدريد؟

عندما جاؤوها بالشاي، استطعتُ أن أتفحصها قليلاً بينما هي تلقي في السائل مكعباً من السكر، وتحركه، وتتأمل الملعقة والفنجان وطبقه باشمئزاز. كانت ترتدي تنورة بيضاء، وتنتعل حذاء أبيض مخرماً، يكشف عن قدميها الصغيرتين، وأظفارهما المطلية بطلاء شفاف. وكان كاحلاها، مرة أخرى، أشبه بقصبتي بامبو. أتراها مرضت من جديد؟ لم أرها بمثل هذا النحول إلا في زمن مصحة بيتي كلامار. كان شعرها مسرحاً إلى الخلف في غديرتين ومثبتاً بمشابك عند مستوى الأذنين اللتين تبدوان مزهوتين كالعادة. خطر لي أن شعرها، لولا الصباغ الذي يمنحه السواد، لا بد أن يكون رمادياً، وربما أبيض مثل شعري.

ـ كل شيء يبدو قذراً هنا ـ قالت فجأة، وهي تنظر في ما حولها وتبالغ في إظهار ملامح الاستياء ـ الناس، المحل، هناك نسيج عنكبوت وغبار في كل مكان. حتى أنت تبدو متسخاً.

ـ لقد استحممتُ في الصباح، وفركت جسمي بالصابون من أعلى إلى أسفل، أقسم لكِ.

ـ لكنك تلبس مثل شحاذ ـ قالت وهي تمسك يدي مرة أخرى.

ـ وأنتِ مثل ملكة ـ قلتُ لها ـ ألا تخشين أن يهاجموكِ ويسرقوكِ في محل ميتين من الجوع مثل هذا؟

ـ في هذه المرحلة من حياتي صرتُ مستعدة لتعريض نفسي لأي خطر من أجلك ـ وضحكت ـ. ثم إنك، كسيد شهم، ستدافع عني حتى الموت، أليس كذلك؟ أم أنك لم تعد سيداً ميرافلورياً منذ اصطحبتَ الهيبيين؟

كانت قد تجاوزت غضبها الذي بدت فيه قبل قليل، وهي تضغط الآن بقوة على يدي، وتضحك. كان في عينيها أثر بعيد من ذلك العسل القاتم، بريق يضيء وجهها المعروق والهرم.

ـ كيف تمكنتِ من الوصول إليّ؟

ـ تكلفت مشقة كبيرة... شهوراً. ألف تقصٍ في كل مكان. وكومة من النقود. كنتُ أموت رعباً، ووصل بي الأمر حد التفكير في أنك انتحرت حقاً هذه المرة.

ـ لا يقدم المرء على هذه الحماقات إلا مرة واحدة، عندما يكون مخبولاً بحب امرأة. وهذه لم تعد هي حالتي، لحسن الحظ.

ـ في محاولتي العثور عليك، تشاجرت مع الزوجين غرافوسكي ـ قالت لي فجأة، وقد غضِبت من جديد ـ. لقد عاملتني إيلينا بطريقة سيئة جداً. لم تشأ إعطائي عنوانك أو إخباري بأي شيء عنك. وراحت تحاسبني. تقول إنني سببت لك التعاسة، وإنني كنتُ على وشك أن أقتلك، وتسببت في إصابتك بجلطة دماغية، وإنني مأساة حياتك.

ـ ما قالته لك إيلينا هو الحقيقة الخالصة. أنت نكبة حياتي.

ـ أرسلتها إلى الجحيم. ولستُ أفكر في التكلم معها أو رؤيتها

إلى الأبد. إنني آسفة من أجل جيلال، لأنني أظن أني لن أتمكن من رؤيته هو أيضاً. من تظن نفسها تلك البلهاء لتحاسبني. ألا تكون مغرمة بكَ؟

تحركت في الكرسي، وبدا لي فجأة أنها أصيبت بالشحوب.

ـ أيمكنني أن أعرف لماذا كنت تبحثين عني؟

ـ أردتُ رؤيتك والتحدث إليك ـ قالت مبتسمة من جديد ـ اشتقتُ إليك. أولم تشتق أنت إلي قليلاً أيضاً؟

ـ أنت تعودين للظهور والبحث عني دوماً بين عشيق وآخر ـ قلت لها وأنا أحاول سحب يدي من يدها. وقد تمكنت من ذلك هذه المرة ـ. هل طردك زوج مارتين؟ أأتيت لقضاء فاصل بين ذراعي ريثما يسقط في شباكك العجوز التالي؟

ـ ليس بعد ـ قاطعتني، وعادت إلى إمساك يدي واتخاذ النبرة القديمة الساخرة ـ. لقد قررت وضع حد لجنوني. أريد قضاء سنواتي الأخيرة مع زوجي. وأن أكون زوجة مثالية.

انفجرتُ ضاحكاً، وضحكت هي أيضاً. كانت تحك يدي بأصابعها النحيلة، بينما كنتُ أشعر بمزيد من الرغبة في اقتلاع عينيها.

ـ ألديك زوج، أنتِ؟ وهل يمكنني أن أعرف من يكون؟

ـ أنا مازلتُ زوجتك، ويمكنني إثبات ذلك، لدي الوثائق ـ قالت متحولة إلى الجدية ـ. أنت زوجي. ألا تتذكر أننا تزوجنا في بلدية الدائرة الخامسة؟

ـ كانت تمثيلية تهريجية من أجل الحصول لك على وثائق ـ ذكّرتها ـ. لم تكوني زوجتي بصورة حقيقية قط. عشتِ معي لفترات، كلما وقعتِ في مشاكل، ريثما تحصلين على ما هو أفضل. ألا تريدين أن تخبريني عن سبب بحثك عني؟ إذا ما كنتِ في مشكلة

هذه المرة، فلن أستطيع مساعدتك حتى لو أردتُ ذلك. ولكني لا أريد أيضاً. لست أملك سنتاً واحداً، وأعيش مع صبية أحبها وتحبني.

ـ هيبية قذرة ستهجرك في أية لحظة ـ قالت وهي تغضب مرة أخرى ـ إنها لا تهتم بك أدنى اهتمام كما يبدو من ملابسك. أما أنا، فسأهتم بكَ من الآن فصاعداً. سأهتم بك طوال أربع وعشرين ساعة في اليوم. سأكون الزوجة المثالية. هذا ما جئتُ من أجله، هاأنتذا تعرف.

كانت تتكلم بوجه ساخر كما في أزمنة أخرى، تُكَذِّب ببريق عينيها الساخر ما تنطق به من كلام. وبين حين وآخر، تتناول رشفة من الشاي. تمكنت هذه اللعبة الحمقاء من استثارة غضبي.

ـ أتدرين أمراً أيتها الطفلة الخبيثة؟ ـ قلت لها وأنا أقرّبها مني قليلاً كي أتمكن من الكلام بصوت خافت، بكل الغضب المتراكم في ـ. أتتذكرين تلك الليلة، في شقتي، عندما كنتُ على وشك أن أخنقك؟ لقد ندمت ألف مرة لأني لم أفعل يومذاك.

ـ مازلتُ أحتفظ بثوب الرقص العربي ذاك ـ قالت هامسة، بكل ما تبقى لها من خبث لاذع ـ وأنا أتذكر جيداً تلك الليلة. لقد ضربتني، وبعد ذلك مارسنا الحب بلذة كبيرة. لقد قلتَ لي أشياء جميلة. أما اليوم، فلم تقل لي أي شيء بعد. إنني أكاد أصدق أنك لم تعد تحبني حقاً.

أحسست برغبة في صفعها، في إخراجها ركلاً من مقهى باربيري، وأن أُلحق بها كل الأذى الجسدي والمعنوي الذي يمكن لكائن بشري أن يُلحقه بآخر؛ وبرغبة بلهاء في الوقت نفسه، رغبة في احتضانها بين ذراعي، وسؤالها عن سبب نحولها وانحطاط حالها، ومداعبتها بحنان وتقبيلها. وانتصب شعر رأسي لمجرد التفكير في أنها قد تتمكن من قراءة أفكاري.

ـ إذا ما أردتني أن أعترف بأني قد أسأت التصرف معك وأنني كنتُ أنانية، فإنني أعترف بذلك ـ همست لي، وهي تقرّب وجهها، لكنني أبعدتُ وجهي عنها ـ وإذا ما أردتني أن أقضي بقية حياتي وأنا أقول إن إيلينا محقة، وإنني سببت لك الأذى، ولم أعرف أن أقدر حبك وهذه البلاهات، فلا بأس، سوف أفعل. أهذا ما تريديه كي تتخلص من غضبك يا ريكارديتو.

ـ أريدك أن تتصرفي. أن تختفي مرة واحدة وإلى الأبد من حياتي.

ـ ما هذا، عبارة متكلفة. لقد حان الوقت أيها الطفل الطيب.

ـ لا أصدق كلمة واحدة مما تقولين. أعرف جيداً أنك جئتِ بحثاً عني لأنك تظنين أنني قد أمد لك يد المساعدة في واحدة من ورطاتك، بعد أن هجرك ذلك العجوز الآن.

ـ لم يهجرني، أنا التي هجرته ـ صححت لي، بهدوء شديد ـ أو بعبارة أصح، أعدته كاملاً إلى أبنائه الذين كانوا في شوق كبير إلى باباهم. يجب عليك أن تشكرني أيها الطفل الطيب. لو أنك تدري مقدار وجع الرأس والأموال التي وفرتها عليك بذهابي معه، لقبّلت يديّ. أنت لا تدري كم كلفت العجوز المسكين غالياً هذه المغامرة.

أطلقت ضحكة نفاذة، ساخرة، خبيثة إلى أقصى الحدود.

ـ اتهموني بأني اختطفته ـ أضافت، كما لو أنها تحتفي بطرفة ـ قدموا شهادات ووثائق طبية مزيفة إلى القاضي، قائلين إن أباهم مصاب بخرف الشيخوخة، وإنه لم يكن يعرف ما الذي يفعله عندما هرب معي. والحقيقة أنه لم يكن هناك ما يستحق إضاعة الوقت في القتال من أجله. أعدته إليهم بكل سعادة. فليتولوا هم وأمهم مارتين تنظيف مخاطه وقياس ضغطه الشرياني مرتين في اليوم.

ـ أنت أخبث شخص عرفته أيتها الطفلة الخبيثة. إنك مسخ من الأنانية وانعدام الحس. قادرة على أن تطعني بكل برودة أفضل من

يحسنون معاملتك.

ـ حسن، أجل، ربما كنتُ هكذا ـ وافقت هي ـ. وأنا أيضاً تلقيت طعنات كثيرة في الحياة، أؤكد لك. ولست نادمة على أي شيء فعلته. حسن، باستثناء أني سببت لك أنت المعاناة. وقد صممت على التغيير. ولهذا أنا هنا.

ظلت تنظر إليّ بوجه ذبابة ميتة، مما زاد من غضبي.

ـ من لا يعرفك يصدقك. أتظنين أنني سآخذ على محمل الجد تمثيلية الزوجة النادمة هذه؟ أنت، أيتها الطفلة الخبيثة؟

ـ أجل، أنا. جئت بحثاً عنكَ لأني أحبك. لأني أحتاج إليك. لأني لا أستطيع العيش مع أحد سواك. لقد عرفت ذلك الآن، حتى إن بدا لك متأخراً. ولهذا، من الآن فصاعداً، حتى لو مت جوعاً، واضطررت للعيش كهيبية، سوف أعيش معك. وليس مع سواك بعد اليوم. أتريدني أن أتحول إلى هيبية وأتخلى عن الاستحمام؟ وأن ألبس مثل فزاعة الطيور التي تعيش معك؟ سأفعل كل ما تريده.

داهمتها نوبة سعال، واحمرت عيناها بفعل التشنج القوي. شربت رشفة من كأس مائي.

ـ ألا يضايقك أن نخرج من هنا؟ ـ قالت لي، وقد بدأت تسعل من جديد ـ. لا يمكنني التنفس وسط كل هذا الدخان والغبار. الجميع يدخنون هنا في إسبانيا. إنه أحد الأشياء التي لا تروقني في هذه البلاد. أينما ذهبت، يوجه الناس إليك نفثات من الدخان.

طلبتُ الحساب، دفعتُ، وخرجنا. عندما صرنا في الشارع ورأيتها على ضوء النهار، أفزعني هزالها. فأثناء جلوسها، لم أنتبه إلا إلى نحول وجهها. أما الآن، بعد أن وقفت، ودون شبه الظلمة التي في الداخل، بدت نفاية بشرية. لقد احدودبت قليلاً، وتمشي بخطى غير واثقة، كما لو أنها تتخطى موانع. ويبدو أن ثدييها قد ضمرا إلى حد التلاشي

تقريباً، وعظام كتفيها تبرز واضحة تحت البلوزة. وإضافة إلى محفظتها، كانت تحمل حافظة أوراق ضخمة.

ـ إذا ما بدوت لك نحيفة جداً، وقبيحة جداً، وهرمة جداً، فأرجوك ألا تخبرني بذلك. أين يمكننا الذهاب؟

ـ ولا إلى أي مكان. فهنا، في لافابييس، جميع المقاهي قديمة ومترعة بالغبار مثل هذا المقهى. وجميعها تغص بالمدخنين. من الأفضل أن نفترق هنا.

ـ إنني بحاجة إلى التكلم معك. لن يكون حديثاً طويلاً جداً.. أعدك.

كانت تمسك ذراعي، وبدت أصابعها النحيلة، المعروقة، كأنها أصابع طفلة صغيرة.

ـ أتريدين الذهاب إلى بيتي؟ ـ قلت لها ذلك، وشعرت بالندم في الوقت نفسه الذي كنت أتكلم فيه ـ. إنني أقيم قريباً من هنا. ولكنني أنبهك إلى أن البيت سيسبب لك قرفاً أشد من المقهى.

ـ فلنذهب أينما كان ـ قالت ـ. ولكن، إذا ما ظهرت لي تلك الهيبية كريهة الرائحة، فسوف أقلع عينيها.

ـ إنها في ألمانيا، لا تقلقي.

صعود الطوابق الأربعة كان طويلاً ومعقداً. فقد كانت تصعد الدرجات ببطء شديد، وتتوقف عند كل طابق للراحة. لم تفلت ذراعي في أي لحظة. وعندما وصلنا الطابق الأخير كانت قد ازدادت شحوباً، وجبهتها تلمع بالعرق.

ما كدنا ندخل حتى تهاوت على أريكة الصالة، وزفرت بعمق. وبعد ذلك، دون أن تقول شيئاً، ودون أن تتحرك من مكانها، بدأت تتفحص كل ما يحيط بها، بعينين رصينتين وجبين مقطب: مجسمات مارسيلا ورسومها وخرقها المنثورة في كل مكان، والكتب والمجلات

المكومة فـي الأركان وعلى الرفوف، والفوضى العامة. وعندما وصلت إلى السرير غير المرتب، رأيتُ وجهها يمتقع. ذهبتُ إلى المطبخ لأُحضر لها زجاجة مياه معدنية. وجدتها فـي المكـان نفسـه، تنظـر بثبات إلى السرير.

ـ لقد كنتَ مهووساً بالترتيب والنظافة يا ريكارديتو ـ دمدمت ـ. لا أكاد أصدق أنك تعيش فـي مثل زريبة الخنازير هذه.

جلستُ إلى جانبها وقد اكتسحني حزن كبير. ما تقوله صحيح. فشقتي الصغيرة والمتواضعة فـي أيكول ميليتير، كانت على الدوام نظيفـة ومرتبـة لا تشـوبها شـائبة. أمـا هـذا الجحـر، فـيعكس جيـداً انحطاطكَ الذي لا عودة عنه يا ريكارديتو.

ـ أريد منك أن توقّع بعض الأوراق ـ قالت الطفلة الخبيثة وهي تشير إلى حافظة الأوراق التي وضعتها على الأرض.

ـ الورقة الوحيدة التي يمكن أن أوقّعها لك هي وثيقة الطلاق، إذا ما كان زواجنا لا يزال سارياً ـ أجبتها ـ. فمن معرفتي بكِ، لا أستغرب أن تجعليني أوقّع على أي توريط يودي بي إلى السجن. إنني أعرفك منذ أربعين سنة أيتها التشيلية.

ـ تعرفني بصورة سيئة ـ قالت وهـي مطمئنة جداً ـ. ربما يمكنني أن أُوقع آخرين فـي ألاعيب خبيثة. أما أنتَ فلا.

ـ لقد مارستِ معي أخبث الألاعيب التي يمكن لامرأة أن تمارسها مع رجل. جعلتني أصدق أنكِ تحبينني، بينما كنتِ، وبكل ما فـي العالم من هدوء، تغوين رجالاً آخرين لأنهم يملكون أموالاً أكثر، وتهجرينني دون أدنـى وازع مـن ضـمير. ولم تفعلـي ذلـك مـرة واحـدة، وإنمـا مرتـان، ثـلاث مرات. تخلفينني محطماً، فاقد الصواب، ودون رغبة فـي شـيء. وفوق هـذا كله، تجدين الجرأة للعودة مرة أخرى والقول لي إنك تريدين أن نعيش معاً من جديد. الحقيقة إنكِ تصلحين لأن تُعرضي فـي حلبات السيرك.

ـ إنني نادمة. ولن أعود إلى التسبب لك بأي إساءة.

ـ لن تتاح لك الفرصة، لأني لن أعود إلى العيش معك أبداً. لم يحبك أحد يوماً مثلما أحببتك، ولم يقدم لك أحد كل ما قدمته أنا... لا بأس، أشعر بأنني أبله وأنا أقول هذه الحماقات. ما الذي تريدينه مني؟

ـ أريد شيئين اثنين ـ قالت ـ. أن تترك هذه الهيبية الوسخة وتأتي لتعيش معي. وأن توقّع على هذه الأوراق. لا وجود لأي خدعة. لقد نقلتُ إليك ملكية كل ما أملكه. بيت في فرنسا، بالقرب من سيت، وبعض الأسهم في شركة كهرباء فرنسا. كل شيء مسجل باسمك. ولكن عليكَ أن توقّع على هذه الأوراق كي تصبح عملية النقل ناجزة. اقرأ الوثائق، واستشر محامياً. أنا لا أفعل هذا من أجلي، وإنما من أجلك. كي أترك لك كل ما أملكه.

ـ شكراً جزيلاً؛ لكنني لا أستطيع تقبل هذه الهدية السخية. فقد يكون ذلك البيت، وتلك الأسهم، مسروقة من رجال مافيا، وليست لدي أدنى رغبة في أكون أداة لك أو لقاطع الطريق الذي تعملين له في هذه الأيام. ألا يكون، كما آمل، هو فوكودا الشهير نفسه مرة أخرى؟

عندئذ، وقبل أن أتمكن من وقفها، ألقت بذراعيها حول عنقي وتعلقت بي بكل قواها.

ـ دعك من تأنيبي وتوجيه السباب إلي ـ قالت شاكية، بينما هي تقبل عنقي ـ من الأفضل أن تقول لي إنك سعيد برؤيتي. قل إنك اشتقت إليّ، وإنك تحبني أنا، وليس تلك الهيبية التي تعيش معها في هذه الزريبة.

لم أتجرأ على إبعادها. كنت مرعوباً من الإحساس بالهيكل العظمي الذي هو جسدها: يبدو أن العضلات كلها قد اختفت من الظهر والذراعين، ولم يبق سوى العظم والجلد. المخلوقة الهشة، الحساسة، الملتصقة بي، كانت تعبق بشذا يحملني على التفكير في

حديقة مترعة بالأزهار. لم يعد بإمكاني مواصلة المداراة.

ـ لماذا أنت نحيلة إلى هذا الحد؟ ـ سألتها في أذنها.

ـ قل لي أولاً إنك تحبني. وإنك لا تحب تلك الهيبية، وإنك قبلت العيش معها بسبب السخط، لأني هجرتك. قل هذا كله. مذ عرفتُ أنكَ معها وأنا أموت شيئاً فشيئاً من الغيرة.

أحسستُ الآن بقلبها الصغير ينبض لصق قلبي. بحثتُ عن فمها وقبّلتها طويلاً. كنت أشعر بلساني يتشابك مع لسانها، وأبتلع ريقها. وعندما دسست يدي تحت بلوزتها وداعبتُ ظهرها، أحسست تحت أصابعي بكل أضلاعها وعمودها الفقري، لا تفصلها عن أصابعي ولو طبقة رقيقة من اللحم. ولم يكن لها ثديان؛ وكانت حلمتاهما الصغيرتان جداً، على مستوى الجلد.

ـ لماذا أنت نحيلة هكذا؟ ـ عدتُ أسألها ـ. هل كنتِ مريضة؟ ما الذي أصابك؟

ـ لا يمكنني ممارسة الحب معك، لا تلمسني هنا. لقد أجروا لي عملية جراحية، استأصلوا كل شيء. لا أريدك أنْ تراني عارية. جسدي كله مملوء بالندوب. لا أريدك أن تقرف مني.

كانت تبكي بيأس، ولا تتمكن من كبح نفسها. عندئذ أجلستها على ركبتي، وداعبتها لوقت طويل، مثلما اعتدت أن أفعل في باريس، حين كانت تداهمها نوبات الخوف. كانت مؤخرتها قد صُفيت مثل ثدييها، وفخذاها نحيلين مثل ذراعيها. بدت كواحدة من تلك الجثث الحية التي تظهر في صور معسكرات الاعتقال. داعبتها، قبّلتها، قلت لها إني أحبها، وإني سأعتني بها. وكنت أشعر في الوقت نفسه برعب لا يوصف، لشعوري المطلق بأنها *لم تكن* في حالة حرجة مثلما هي الآن، وأنها ستموت عما قريب. لا يمكن لأحد يهزل إلى هذا الحد ويستعيد بعدها عافيته.

ـ لم تقل لي بعد إنك تحبني أكثر من تلك الهيبية، أيها الطفل الطيب.

ـ طبعاً أنا أحبك أكثر منها، وأكثر من أي كان، أيتها الطفلة الخبيثة. أنت المرأة الوحيدة التي أحببتها، وأحبها في العالم. وإذا كنتِ قد ارتكبت سيئات كثيرة بحقي، فإنكِ منحتني أيضاً سعادة رائعة. تعالي، أريد أن أحتضنك بذراعي وأنت عارية، وأمارس الحب معك.

حملتها إلى السرير، مددتها عليه وعريتها. وسمحت لي، وهي مغمضة العينين، أن أعريها. كانت تتكور على جانبها لتريني أقل ما يمكن من جسدها. ولكنني بمداعباتي، وقبلاتي، جعلتها تسترخي وتتمدد. لم يجروا لها عملية جراحية، وإنما مزقوها. فقد استأصلوا ثدييها وأعادوا حلمتيهما بصورة خرقاء، تاركين الندبتين الدائريتين السميكتين، مثل تويجي زهرتين ورديتين. لكن الندبة الأسوأ تبدأ من الرحم صاعدة حتى السرة، متلوية، بقشرة بين البنية والوردية تبدو حديثة. كان تأثري شديداً إلى حدّ أني سارعت، دون أن أعي ما أفعله، إلى تغطيتها بالملاءة. وعرفت أنني لن أستطيع أن أمارس الحب معها إلى الأبد.

قالت:

ـ ما كنت أريد لكَ أن تراني هكذا، وتشمئز من امرأتك. ولكن...

ـ لكنني أحبك، وسوف أعتني بك الآن إلى أن تشفي تماماً. لماذا لم تتصلي بي، كي أكون إلى جانبك؟

ـ لم أجدك في أي مكان. منذ شهور وأنا أبحث عنك. ما كان يشعرني باليأس هو أن أموت دون أن أتمكن من رؤيتك.

لقد أجروا لها العملية الجراحية الثانية قبل أقل من ثلاثة أسابيع، في أحد مستشفيات مونبليه. وقد كان الأطباء صريحين جداً. الورم في الرحم اكتُشف في وقت متأخر جداً، ومع أنهم استأصلوه، إلا أن الفحص التالي أكد أن الداء كان قد بدأ بالانتشار، وأنه لم يعد هناك، عملياً، ما يمكن فعله. ولن يكون بإمكان العلاج الكيماوي

سوى تأخير ما لا بد منه، وربما لن تستطيع تحمله وهي في هذه الحالة القصوى من الضعف. أما جراحة الثديين، فأجريت لها قبل سنة من ذلك، في مارسيليا. ولم يستطيعوا، بسبب ضعفها الشديد، إجراء جراحة ثانية لها، من أجل إعادة ترميم الصدر. وقد كانت هي وزوج مارتين، منذ مغادرتهما، قد أقاما على ساحل المتوسط، في فرونتانيان، بالقرب من سات، حيث توجد له أملاك عقارية. وقد تعامل معها على أحسن وجه حين تبين أنها مصابة بالسرطان. كان كريماً ولطيفاً، وقد غمرها بالرعاية، دون أن يُشعرها بأي خيبة أمل، عندما استأصلوا ثدييها. بل على العكس، فهي التي راحت تقنعه، شيئاً فشيئاً، بأن أفضل ما يمكنه عمله، وقد تقرر مصيرها، هو أن يتصالح مع مارتين ويضع حداً للنزاع القضائي مع أبنائه الذي لن يستفيد منه إلا المحامون. رجع السيد النبيل إلى أسرته، مودعاً الطفلة الكريمة بسخاء: اشترى لها بيتاً في سات، تريد هي الآن نقل ملكيته إليّ، ووضع لها في المصرف مجموعة من أسهم شركة كهرباء فرنسا، تتيح لها العيش دون ضائقات مالية طوال ما تبقى لها في الحياة. وقد بدأت هي البحث عني منذ سنة على الأقل، إلى أن عثرت عليّ في مدريد، بفضل وكالة تحريين خاصة «انتزعت مني أجراً يساوي عيناً من الوجه». وعندما أخبروها بمكان وجودي، كانت في أوج الفحوص في مستشفى مونبليه. ولم تكن قد أولت اهتماماً كبيراً لآلام الرحم، لأنها كانت تعاني منها منذ أزمنة فوكودا.

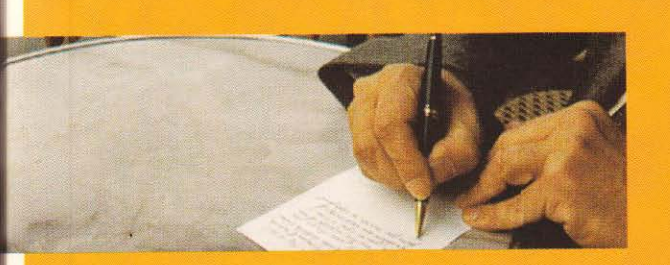
روت لي هذا كله في محادثة طويلة جداً، استمرت طوال فترة المساء وشطراً كبيراً من الليل، ونحن نستلقي في الفراش، وهي ملتصقة بي. كانت قد ارتدت ملابسها. وكانت تصمت بين حين وآخر كي أتمكن من تقبيلها والقول لها أحبك. روت لي هذه القصة ـ أهي صحيحة؟ مزوقة جداً؟ مزيفة بالكامل؟ ـ دون دراماتيكية، وبموضوعية

ظاهرية، ودون إشفاق على النفس؛ ولكن أجل، براحة، بسعادة، كما لو أنها تستطيع الموت بسلام بعد أن روت لي ذلك كله.

عاشت بعدها سبعة وثلاثين يوماً، تصرفت خلالها، مثلما أقسمت لي في مقهى باربيري، كزوجة مثالية. على الأقل عندما لا تضطرها الآلام الرهيبة على الاستلقاء أو الجلوس بمساعدة المورفين والمهدئات. انتقلتُ للعيش معها في فندق شقق في حي لوس خيرونيموس، حيث كانت تقيم، حملنا معنا حقيبة واحدة فيها بضعة أشياء أرتديها وبعض الكتب، وتركتُ لمارسيلا رسالة منافقة جداً ووقورة، قلتُ لها فيها إنني قررت المغادرة، وإعادة حريتها إليها، لأنني لا أريد أن أكون عقبة أمام سعادتها التي أدرك تماماً أنني لا أستطيع توفيرها لها، نظراً لفارق السن واختلاف الميول، بينما يمكن ذلك لشاب من عمرها وذي ميول مشابهة لميولها مثل فيكتور ألميدا. وبعد ثلاثة أيام، سافرت أنا والطفلة الخبيثة إلى بيتها في ضواحي سات، على قمة رابية، يُرى منه البحر البديع الذي غناه بول فاليري في *المقبرة البحرية*. إنه بيت صغير، هادئ، جميل، وحسن الترتيب، له حديقة صغيرة. ظلت هي طوال أسبوعين في حالة جيدة، وسعيدة جداً، حتى إنني فكرت ـ خلافاً لكل منطق ـ أنه يمكن لها أن تستعيد عافيتها. وفي مساء أحد الأيام، بينما كنا جالسين في الحديقة، عند الغروب، قالت لي، إذا ما فكرتُ في أحد الأيام بكتابة قصة حبنا، عليّ ألا أُظهرها سيئة جداً، لأن شبحها سيأتي عندئذ ويسحبني من قدميّ كل ليلة.

ـ ولماذا خطرت لكِ هذه الفكرة؟

ـ لأنه كانت لديك على الدوام الرغبة في أن تصير كاتباً، ولم تجرؤ على ذلك. أما وأنكَ ستظل وحيداً الآن، فيمكنك انتهاز الفرصة، ولن أستغرب ذلك كثيراً. عليك أن تعترف، على الأقل، بأني قدمتُ لك موضوعاً لرواية، أليس كذلك أيها الطفل الطيب؟



للحب نكهة خاصة في هذه الرواية ، حيث لاتتشابه قصص الحب ، في كتابات ماريو بارغاس يوسا ، تتغير الظروف والمسافات والأمزجة والمدن ، ولكن الحب يتواصل بأشكال مختلفة ، وفي كل مرة ، نتساءل مالذي سيحدث ، حينما تتغير اللحظة ، أو المسافة بين العواصم والمدن البعيدة ، ويتغير ايقاع الحياة بين رجل وامرأة.



